الدقائق الثلاث الأخيرة قبل الكارثة

أحمد عبد الفتاح صالح

المسافر صفر

رواية

«سأقصُّ عليكم قصَّة معركة ..

معركة كان الزمنُ ساحتَها ..

معركة كادت فيها قُوَى تغيير الزمن أن تنتصر».

باقٍ من الزمن خمسُ ثوانٍ

00:00:05

000011

8:00 صباحًا..

«استيقظ يا شريف.. ستتأخر عن الطائرة».

صوت امرأة ثلاثينية يتردد في رأسه مع رنين المنبه المتواصل. صداع شديد يضرب رأسه في عنف. لا يدرك كَمْ من الوقت مرَّ عليه في تلك الحالة بين النوم واليقظة حتى بدأ يستعيد وعيه ببطء، ويدها الرقيقة تُرَبِّت على كتفه وظهره في رفق. اتجهت يده بحركة تلقائية إلى «الكومودينو» بحثًا عن هاتفه المحمول على أمل أن يُخرس رنينه المزعج، حين لمست أنامله مُنبِّهًا معدنيًّا يواصل الاصطكاك مُصدِرًا صوتًا حادًّا يُضاعف آلام رأسه.. ما هذا؟!

فتح عينيه مُحدِّقًا في راحة يده الممسكة بمنبه معدني قديم الطراز.. فما أن تباعدت جفونه حتى اقتحمت أشعة شمس الصباح الواهنة عينيه تحرق شَبكيَّتهما كلسانِ لهبٍ في حَقْلٍ من العشب الجاف.. صرخت بؤر الألم في عقله، فأطبق جفونه مُغلقًا عينيه من فوره.

تعاظمت ضربات المطارق العملاقة تُصدع جنبات رأسه، قاوم عقله، وصارع الألم المتصاعد، حتى أجبر جفونه على الانفراج مجددًا لتفتح عينيه عنوة، فثمّة شيء ما خطأ، و....

- استيقظ يا شريف.. موعد الطائرة!

صوت المرأة يتردد من جديد. انتفض، وأدار رأسه في عنفٍ نحو مصدر الصوت. حدَّق ذاهلًا في امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها، كستنائية الشعر، بيضاء الوجه، ذات قدرٍ عالٍ من الجمال، ترقد إلى جواره وتتأمل وجهه في حنان. نظرت إلى عينيه الذاهلتين ثم مسحت على وجهه بأناملها، وهي تسأله بنبرةٍ مشفقة:

- أهي الكوابيس ذاتها مرة أخرى؟

ظل محدِّقًا في وجهها في ذهول وقد تصلَّب عقله عاجزًا عن الإدراك والتفكير لبضع لحظات. قاوم عقله، وصرخ فيه مجددًا لينتزع عينيه المثبتتين على وجه الحسناء. جال ببصره يمسح الغرفة في سرعةٍ وذهول. غرفة نوم واسعة ذات أثاثٍ خشبيٍّ مزخرف عاجي اللون قديم الطِّرَاز.. أين هو؟! ضربات المطارق القاسية تزداد بطشًا في رأسه.. أطبق جفونه مُجدَّدًا من شدة الألم.

ما هذا الصداع الرهيب؟!

جاهد عقلُه الألم من جديد، حاول البحث في ذاكرته عن أي شيء يبدد ذهوله. الصداع يتصاعد ووعيه يزداد إصرارًا وركضًا في أرجاء ذاكرته بحثًا عن إجابة، فأين هو؟!

ومَنْ تلك المرأة؟!

كيف انتهى به الحال هنا؟ على هذا السرير، بجوار تلك المرأة!

أين كان في الليلة الماضية؟!

ليلة أمس؟! نعم ليلة أمس، لقد كان يلهو مع أصدقائه في إحدى مقاهي مصر الجديدة بعد انتهاء امتحانات آخر سنوات دراسته الجامعية، كانوا يتسامرون ويلعبون لعبة الكوتشينة المعروفة «اسْتمِيشَنْ»، ويتبادلون النِّكَات والدُّعابات الملازمة لها.

هدأ لحظيًّا مع شبح ابتسامة كادت أن تجد طريقها إلى فمه.

ولكن لا.. لحظة واحدة! لقد حضر أمس اجتماعًا مُهمًّا في الشركة التي يعمل بها.. تلك الشركة التي يعمل بها منذ تخرُّجه في الجامعة؛ أي منذ قرابة عشر سنوات!!

لا، لا!! لم يكن في اجتماع عمل، بل كان في حفلة، حفلة

رسمية ذات طابَع دبلوماسي.. فصرخ عقله مستنكرًا: «طابع دبلوماسي؟! هل جُننت؟! أنت مهندس كمبيوترا».

اِلتهم التَّوَتُّر بقايا قدرته على التفكير، الأحداث متشابكة وغير منطقية، إنه لا يتذكر بشكل قاطع ما حدث أمس، فاستسلم عقله، وخرَّ عاجزًا، وعيناه تحدِّقان في الفراغ.

- شريف!!

انتزعه هتافها من ذهوله مجددًا، أدار رأسه ناحيتها في بطءٍ قبل أن يلمح شيئًا ما في مواجهة السرير. ارتدَّ بصره إلى حيث كان، ثم انتفض مفزوعًا يهرول إلى المرآة.

وقف أمامها مشدوهًا يحدِّق في انعكاس وجهه. إنه يرى وجهه بوضوح، ولكنه يبدو مختلفًا. هو نفس الشخص قمحي اللون وسيم الملامح رياضي القَوَام، لكنه خسر وزنًا لا بأس به، وظهرت تجاعيد عديدة في جبهته، مع انتشار خُصلات بيضاء في شعر رأسه الأسود الذي عَهِده فاحمًا!

رَبَّاه!! إنه يبدو أكبر سِنًّا على نحوٍ ملحوظ.. يبدو أكبر بنحو عشرين عامًا عن المرة الأخيرة التي نظر فيها في المرآة!!

- ماذا ألمَّ بك يا شريف؟!

هتفت به الحسناء في لهفة، وقد هَبَّت إليه واضعةً يدها

على كتفه تهزُّه في توتر. أدار وجهه إليها في بطء، ثم غمغم في ذهولٍ جارف:

- مَنْ أنتِ؟!

حدَّقت في عينيه الزائغتين في دهشةٍ ما لبثت أن تحولت إلى توتر متصاعد وهي تجيبه:

- ماذا تعني؟! أنا ليلى يا شريف.. ماذا بك؟ أخبرني أرجوك!

- ليلى مَنْ؟!

هتف في ذهول غاضب، فأجفلت، وخفق قلبها، ثم كررت إجابتها بشفاهٍ ترتجف:

- «ماذا تعني؟!!»، تهدَّجت أنفاسها وهي تتابع: «أنا ليلى.. ليلى حبيبتك.. أنا زوجتك يا شريف!»

زاغت عيناه وهو يهتف في ذهول:

- «زوجتي كيف؟!»، تعالت أنفاسه وتضاعف ذهوله حين تابَع: «ومَنْ هو شريف هذا؟»، ثم بلغت عيناه أقصى اتساع لهما وهو يهتف: "أنا أحمد.. أحمد!!»

حدَّقت ليلى في عينيه في هلعٍ واحتبست الكلمات في حلقها عاجزةً عن النطق والفهم معًا.

- أين هاتفي؟!

صرخ فيها، فانتفضت مشيرةً إلى منضدة في جانب الغرفة تحت النافذة الخشبية التي تنسابُ من خَصَاصها أشعة شمس الشتاء الواهنة. نظر إلى حيث أشارت فوقع بصره على هاتفٍ أحمر اللون قديم الطِّرَاز ذي قرص دوَّار.. فالتفت إليها صارخًا بنبرة أكثر حدَّة:

- أتهزئين بي؟! أين (الموبايل)؟

واصلت التحديق في وجهه وارتعشت شفتاها في خوف، فهزَّها صارخًا:

- أين هو؟ أين (الموبايل)؟

تساءلت في ترددٍ خائف:

- «أين الـ.. ماذا؟!»، ترقرقت الدموع في عينيها وهي تتابع: «أنا لا أفهم شيئًا مما تقول! ماذا بك يا شريف؟»، ثم وَهَن صوتُها وارتجف حين استطردت: «أنا خائفة».

صرخ وهو يواصل هزَّ كتفيها في عنف:

- أنا لست شريف هذا! قلت لكِ إن اسمي هو أحمد... أحمد... أحمد رؤوف سالم!

انكمشت في خوفٍ حين لفحها لهيبُ عينيه المستعرتين،

فانفجرت باكية.

ترك كتفيها، وقَطَّبَ جبينه، ثم أطرق برأسه مفكرًا.. الهاتف المحمول هو مخزن الذكريات، برسائله وصوره وبريده الإلكتروني.. الهاتف المحمول هو كل شيء، هو السبيل الأوحد للتأكُّد مما فعله في الليلة الماضية حقًّا، بل هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لوقف تلاعب ذاكرته، واسترداد زمام عقله من جديد.

رفع رأسه قائلًا بنبرةٍ حاول أن يصبغها بقدرٍ ما من الهدوء، ولكن خرج صوته متوترًا:

- «لا تخافي، واهدئي!»، صمت للحظةٍ ثم أضاف: «أنا فقط أريد (الموبايل).. المحمول.. الهاتف المحمول.. أين هو؟!»

هدأت قليلًا، وإن استمرت دموعها في الانسياب، ثم نظرت إليه في عدمِ فهمٍ وتساءلت:

- أنا لا أفهم ما تقول حقًّا؟ ماذا تقصد بالهاتف المحمول؟ أتقصد هاتف السيارة؟! هو في السيارة.

سحقت جملتها الأخيرة محاولاته الفاشلة للسيطرة على أعصابه والتحلي بالصبر والهدوء؛ فصرخ:

- أيَّةُ سيارة؟!!! أريد الموبايل.. الموباااايل!

انتفضت صارخةً في جزع:

- أنا لا أعلم ماذا تريد!

ثم انفجرت في البكاء مجددًا، وتهاوت جالسةً على طرف السرير.

زفر في عمقٍ محاولًا السيطرة على أعصابه قبل أن يسألها في استسلام:

- أين تلك السيارة إذًا؟! أين المفتاح؟

أشارت بأصابع ترتجف إلى سلسلة المفاتيح الملقاة على المنضدة، ثم اختنق صوتها وهي تقول:

- السيارة أمام باب الڤيلّا على ما أعتقد.

ڤيلّا! أيةُ ڤيلّا؟! تردد التساؤل في عقله ولكنه لم يتجاوز شفتيه، فهنالك أمور أولى بالإجابة عنها الآن. خطف المفاتيح من فوق المنضدة واتجه مسرعًا إلى باب الغرفة، غير عابئٍ بكونه حافي القدمين. هرول خارجًا متجهًا إلى السُّلَّم الذي يربط طابقَي الڤيلّا، هبطه في وَثَباتٍ سريعةٍ واسعة، ثم تسمَّر في مكانه يجول بنظره في أرجاء الطابق السفلي بدهشة ملأت كيانه.

الڤيلّا تتكون من طابقين، ويتسم ديكورها وأثاثها بقِدَم

الطراز، فلوهلة شَعرَ أنه في شقة والديه في مرحلة طفولته. نفض تلك الخاطرة عن ذهنه، وجال ببصره مجددًا يبحث عن باب الـڤـيلّا حتى وجده، فهرول نحوه حين لمح تلفازًا كبير الحجم مكعب الشكل قديم الطراز، فوقف متمتمًا: «ما هذا؟!».

عقد حاجبيه في شدة، ثم واصل هرولته نحو الباب يفتحه بعنف.

لفحه هواء الشتاء البارد، وقد انطلق خارجًا يتجاوز الحديقة الداخلية للـڤـيلّا!، قبل أن يعالج مزلاج بوابتها الخارجية، ويعبر منها إلى الشارع.

تسمَّرت قدماه الحافيتان، وتدلَّى فَكُّه السُّفلي وهو يتأمل ما حوله في ذهول.. الـڤـيلّا تقبع في مربع سكني تتوسطه حديقة صغيرة، يقع على جوانبها عدد من العمارات السكنية والـڤـيلّات ذات الطابَع المعماري المميِّز لحي مصر الجديدة، بالإضافة إلى عددٍ محدودٍ من بنايات فترتَي السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات، حيث الشرفات الواسعة والحدائق الداخلية الصغيرة، مشهد وكأنه صورة أرشيفية لا تلوّثها بنايات التسعينيّات العالية القبيحة.

تضاعف ذهوله وهو يتأمل السيارات القليلة المتناثرة التي اصطفَّت إلى جوار رصيف الحديقة. سيارات قديمة،

طراز «فيات» و«نصر» موديلات 128 و127، وغيرها من السيارات المربعة ذات المنحنيات الحادة الغليظة الشهيرة في فترة أوائل الثمانينيَّات.

رَبَّاه! ما هذا؟!

هذا هو حي مصر الجديدة بكل تأكيد..

لكنه حي مصر الجديدة كما كان في فترة طفولته!

لمح جريدةً مُلقاةً أمام بوابة الـڤيلَّا، فاختطفها في لهفةٍ وقفزت عيناه أعلى صفحتها الأولى..

اتسعت عيناه ذهولًا وهو يحدِّق في التاريخ أعلى الصفحة..

دار رأسه، ومادَت به الأرض؛ فتهاوى جالسًا على رصيف الـڤيلَّا..

المطارق العملاقة تعصف برأسه في عنف..

والأسئلة تتردد في عقله عاليةً..

كيف هذا؟ وأين هو؟!

الصداع يتضاعف..

السواد يحيط به ويُطبِق على عينيه وعلى أنفاسه..

ثم سقط مغشيًا عليه..

***

000001

6 ديسمبر 2019

8:00 مساءً.. القاهرة الجديدة

ملأت رائحة البيتزا الشهية الطابق العلوي لـڤيلّا «يحيى المصري»، في أحد أرقى المجمَّعات السكنية المُسَوَّرة بالقاهرة الجديدة، واختلطت برائحة القهوة المُحوَّجة الساخنة التي ملأ عبقها غرفة نومه الواسعة، حين تطاير بخارها يغطي سماء «الكومودينو» المجاور لسرير عريض استوى عليه يحيى بجسده الضخم المائل للبدانة. ارتشف رشفةً صغيرةً من فنجان قهوته المُحبَّبة، ثم لعق شفتيه في استمتاعٍ وهو يحدِّق في شاشة الكمبيوتر المحمول الراقد على حِجْره، والتي تراصَّت فوقها أسطر معقدة من الأكواد البرمجية يراجع شفرتها في تركيزٍ شديد. ظل منهمكًا يراجع الأكواد المنمقة غير عابئٍ بالضوضاء التي يثيرها طفلاه؛ آدم ذو السنوات الأربع، ومصطفى الذي يكبُره بعامين، وهما يقطعان الطرقات جيئةً وذهابًا وسط صيحاتٍ عاليةٍ، تمتزج فيها مشاعر طفولية من السعادة والحنق في الوقت ذاته.

تناهى إلى مسامعه صوت زوجته، رانيا، وهي تهتف:

- يحيى الطعام جاهز.. هيَّا يا أولاد.. ستبرد البيتزا.. سنشاهد فيلمكما المفضل.

تجاهل نداءَها وقد عمل عقله على إلغاء الضوضاء بأنواعها. واصلت عيناه متابعة أسطر الكود المتتالية، وهما تتأرجحان يمينًا ويسارًا. أمعن النظر في الكلمات الرمزية المتتابعة حتى بلغ نهايتها، فأرجع ظهره إلى الوراء وارتسمت ابتسامة فخر واسعة على شفتيه قبل أن يغمغم: «رائع».

مطَّ شفتيه وهزَّ رأسه في خُيلاء وهو يتأمل آخر إنجازاته، ثم أردف مُثنيًا على نفسه: «براڤو يا يحيى».

التقط حقيبة الكمبيوتر المحمول الملقاة إلى جواره. عبث بمحتوياتها حتى عثر على صندوق صغير مُغلَّف بقماش مخملي أزرق اللون يحتوي بداخله على جهاز تشفير صغير الحجم يشبه «ذاكرة الفلاش»، والذي يطلق عليه المتخصصون لفظة دونجل (Dongle)، تحسَّسه وهو بين أنامله وقد عاد يتأمل الشاشة المضيئة في فخرٍ فاضَ من جوانبه؛ فاتسعت ابتسامة الرضا حتى غمرت ثنايا وجهه الممتلئ. وقبل أن يولجه في أحد منافذ USB على جانبَي الكمبيوتر، اقتحمت رانيا الغرفة وهي تهتف في حنق:

- الحياة ليست عملًا فقط يا يحيى.. إنه يوم الجمعة.

انتفض يحيى حتى سقط جهاز التشفير من يده، ونظر إلى رانيا مستعطفًا وقد رأى الشرر يتطاير من عينيها:

- لقد انتهيث من مراجعة الكود لتوِّي.. سأُدخل كلمة السر فقط كي نطلق التحديث.. أمهليني خمس دقائق فقط.

هزت رأسها اعتراضًا، ثم أضافت مستنكرةً:

- إنه يوم الجمعة! لا توجد استثناءات.. هذا ما سبق وأن اتفقنا عليه، الجمعة للأسرة فقط.. ثم أي مراجعة تتحدث عنها يا يحيى؟!

- لقد أخبرتُك من قبل أننا قد انتهينا من تطوير التحديث الجديد منذ فترة، كما أن اختبارات الكفاءة كافةً قد انتهت بنجاح هي الأخرى منذ أسبوعين أو أكثر.. أنا من أعددتُ الخُوارزميَّة وأشرفت على كتابة شفرتها واختبارها بنفسي.. وأؤكد لك أنها ناجحة تمامًا.

تأمل وجهها الحانق الذي لا يتوافق مع طبيعة ملامحها الهادئة الجذابة، فابتسم ورفع حاجبيه في خضوع، ثم أردف متوسِّلًا:

- اعذريني، خمس دقائق إضافية فقط.. يجب أن أنتهي مما

أفعله كي أجلس معكم رائق المزاج.

عقدت حاجبيها في غضب، فهي تدرك أن الابتكار هو شغفه الوحيد، العمل وإنجاز المشروعات المعقدة يأتيان في المقام الأول، ولكنها تدرك كذلك أن عَصبيَّته الزائدة على الحد واهتمامه المبالغ فيه بشركته وابتكاراته، تنزوي خاشعةً إذا ما قورنت بخصاله الطيبة كأبٍ صالح. هي دون غيرها تعلم ذلك يقينًا، لقد خَبرَته وعاشته من قبل، منذ أن التقت به للمرة الأولى في ذلك الظرف المعقد، قد لا يتذكره هو أو لم يدركه بعد، ولكنها وحدها تتذكَّر تلك اللحظات، تتذكَّر مزيج مشاعره المتناقضة.. وإصراره.. شجاعته التي لا تفتُر عندما يتعلق الأمر بأسرته.. نفضت تلك الذكريات عن ذهنها، ثم أردفت في حزم:

- ولا دقيقة واحدة.. يجب أكل البيتزا ساخنةً و....

قاطعها آدم الصغير حين اقتحم الغرفة صائحًا صيحاتٍ طفوليةً حادَّة تخترق آذان أبويه، صيحات ضاحكة ترتجُّ لها الرؤوس وتلتهب بها الخلايا، ثم قفز على السرير بجوار والده يداعبه ويجذبه من ملابسه، يحثُّه على النهوض والانضمام إليهم. حاول يحيى تخليص ملابسه من بين يدَيْ ابنه، لكنه فشل أمام إصراره ووجهه الضاحك، ففرت ابتسامة حانية على شفتيه قبل أن يتداركها سريعًا ويهز رأسه في ضيق،

قائلًا في نفادِ صبر:

- توقف يا آدم، ليس هذا وقت المزاح.. دقائق قليلة وأنضم إليكم.

واصل آدم جذب ملابس والده في إصرار مما ضاعف حنق الأخير، قبل أن يدلف مصطفى إلى الغرفة مسرعًا يساند أخاه، ويعاتب والده دائم الانشغال عنهما، قائلًا:

- الأسرة أولًا.. Family comes first.. أنتَ من قُلت ذلك.

استغلَّ آدم التفات والده ناحية أخيه، فخطف جهاز التشفير الصغير وانطلق يعدو خارج الغرفة ضاحكًا، فاستشاط يحيى غضبًا، وهبَّ من جلسته يطارد ابنه الصغير وهو يصرخ ويهدد ويتوعَّد، قبل أن يرتطم بابنه الأكبر فيُسقطه أرضًا ليرتطم رأسه بإحدى ألعابه المبعثرة في أنحاء المنزل، وتسيل الدماء من جبهته. جزع مصطفى عندما شعر بالدماء تنساب على خدِّه وتتساقط قطراتها القانية على الأرض الرخامية البيضاء؛ فانهار يبكي ويصرخ في خوف. هرولت رانيا إلى ابنها البِكْر، وشهقت في جزعٍ حيث اختلطت شهقتها بصوت بكائه وبكاء أخيه الصغير، الذي أصابه الهلع وهو يرى الدماء تلطِّخ وجه أخيه. تمالك يحيى أعصابه وبادر مسرعًا يحمل صغيره إلى الحمَّام ليغسل جبهته في لهفةٍ متوترة. تنفس يحيى الصُّعَدَاء، وحمد الله في سِرِّه حين

تبين أن الجرح صغير لا يستوجب القلق، فضمَّه إلى صدره، وربَّت على ظهره، ثم قبَّل وجنتيه قبل أن يقول مستعطفًا وقد ترقرقت عيناه بالدموع:

- أنا آسف يا حبيبي.. لم أقصد.. لا تخَفْ، فأنتَ بخير.

بعد أن ضمَّدت جراح ابنها، كالَت له زوجته أنواعًا وأصنافًا من اللوم والعتاب القاسي الذي نفذ من قلبه كرماح مصقولة حامية. استنكرت رعونته، وعجزه عن السيطرة على غضبه، وأنانيته، وإصراره الدائم على إعطاء الأولوية القصوى لعمله دون سواه، دون أسرته، بل وحتى دون صحته هو شخصيًّا، صحته التي تهاوت من فرط قلَّة الحركة، والتدخين المتواصل. انكمش يحيى أمام ذلك السيل من الاتهامات الغاضبة التي غلب عليها الصواب، هو يدرك أنها مُحِقَّة في معظم إن لم يكُنْ في مزاعمها كافة، إنه حقًّا يتصف بالأنانية عندما يتعلق الأمر بعمله وابتكاراته. دائمًا ما كان يحنث بوعوده الخاصة بزيادة الاهتمام بأسرته على حساب عمله، عمله الذي يعشقه، عمله الذي يمثل كيانه، عمله الذي يؤديه ليس بهدف الربح المادي فقط ولكن لأنه يَعدُّ نفسه نكرة، «لا شيء»، دون ابتكاراته المبهرة. هو حقًّا يعدُّ نفسه خاويًا دون نشوة الابتكار، هو متصالح تمامًا مع تلك الحقيقة، ولكن يبدو أن ثمنها أصبح فادحًا، نشوته قد تكلفه أسرته يومًا ما، يوم

يأمل ألَّا يأتي أبدًا.

صمت يحيى حتى هدأت رانيا من ثورتها، وأطرق برأسه معتذرًا لزوجته وولديه، مُقسمًا أنه لن يحيد مجددًا عن مبدأ «الأسرة أولًا»، مهما كانت الظروف والمغريات.

الْتَفَّ جميعهم حول مائدة الطعام الصغيرة في غرفة المعيشة، يتناولون البيتزا الفاترة، ويشاهدون أحد أفلام الرسوم المتحركة المفضلة لديهم جميعًا، فتعالت الضحكات، والدعابات المكررة بين يحيى وطفليه. ظلت رانيا صامتةً تشاهد الفيلم في وجومٍ قطعته بين الفينة والأخرى حين ترمق زوجها وأطفالها فيخفق قلبها في حنان.

رفعت رانيا عينيها تراقب ساعة الحائط، قبل أن تتَنهَّد في عمق وتحتضن طفليها وتضمهما إلى صدرها في حنان، وتطبع على وجنتيهما قُبلات عديدة دافئة. ثم هبَّت واقفةً تجمع الأطباق الفارغة، فعاجلها يحيى قائلًا باستنكار:

- اجلسي حتى ننتهي من الفيلم أولًا.. الأطباق يمكنها أن تصبر قليـلًا.

- لقد شاهدتُه من قبل.. سأرفع الأطباق وأعود مجددًا.. ابقَ أنت معهما.

أمسك يحيى برسغها، ونظر في عينيها قائلًا:

- أنا آسف يا رانيا.

صمتت رانيا، تتأمل عينيه في عشق، قبل أن تلثُمَ جبينه بقُبلة حانية، ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تغادر الغرفة حاملةً الأطباق وبقايا الطعام. تَنهَّد يحيى وهو يتحسس أثر قبلتها على وجهه، تذكر لقاءه بها منذ ما يقرب من أربعة عشر عامًا. تذكر كيف هامَ بها حُبًّا، ليس فقط لجمالها الأخَّاذ، أو لقوامها الرياضي الممشوق، بل لشخصيتها القوية الواضحة التي لا تقبل بأنصاف الحلول، بل ذاب عشقًا في عقلها، في ذكائها الحاد، ومهارتها التي لم يرَ مثيلًا لها في علوم الذكاء الاصطناعي. أنْشَآ معًا شركته الحاليَّة، أصبحا شريكين في مجال الأعمال قبل أن يصيرا شريكين في الحياة، تحملا معًا مصاعب الحياة العملية، الاختلاف بين الواقع والخيال. وقفا معًا في فترات الإخفاق، والصمود والتحدِّي ثم النجاح، النجاح الذي جعل شركته تتربع على عرش الشركات الواعدة في مجال البرمجيات الأمنية الذكية في الشرق الأوسط بأكمله.

تَنهَّد يحيى مجددًا، وارتسمت ابتسامه حانية على وجهه، فقد أدرك أن أكبر النعم التي أنعم الله بها عليه هي رانيا، فهي.......

انتفض يحيى فجأةً حين دوَّى انفجار قوي مكتوم خارج

غرفة المعيشة، متزامنًا مع وميضٍ ساطعٍ غشّى أعينهم. صرخ الطفلان في رعب، فشهق يحيى صارخًا:

- رانيا!!

هُرع إلى باب الحجرة محاولًا بلوغ مصدر الصوت، قبل أن يصمَّ أذنيه صوتُ طلقاتٍ ناريةٍ كثيفة تمطر الطابق العلوي للمنزل وتدمر محتوياته كافة. وثب يحمل طفليه قاصدًا شرفة الغرفة قبل أن يقتحمها رجلان مُقنَّعان في ملابس سوداء قاتمة، تغطي وجْهَهما أقنعة مضادة للغازات ونظارات تبدو أنها للرؤية الليلية، ويحملان بنادق آليَّة حديثة سريعة الطلقات لم يرَ مثيلًا لها من قبل. تناهى إلى مسامعه صيحات رانيا خارج الغرفة مع صوت ارتطام جسم بالأرض، فصرخ في جزع قبل أن يدفع طفليه داخل الشرفة، واضعًا ظهره حائلًا بينهما وبين المقتحمين في محاولةٍ يائسةٍ لحمايتهم من مصيرٍ أسود وشيك.

أصابته عدة طلقات.. تحامل على نفسه، وجاهد وعيه الذي بدأ ينساب بعيدًا.. استجمع قواه متجاوزًا زجاج النوافذ الذي يتطاير من حوله، وقام بما تبقَّى فيه من قوة بدفع ولديه ناحية الحائط بعيدًا عن مرمى النيران، قبل أن يتلقَّى دفعة جديدة من الطلقات دفعته دفعًا باتجاه حافة الشرفة..

استسلم وعيه والدماء تتسارع هاربةً من جسده..

خُيِّل إليه سماع صوت صرخات مكتومة..

فصرخ عقله ينادي ولديه..

دَوِيُّ الطلقات يتراجع..

وعيه يَخفُت..

السواد يغشى عينيه ..

وسقط من الشرفة..

سقط قبل أن يسطع ضوء أبيض قوي مع دوِيّ انفجار مكتوم..

ثم سواد حالك..

وصمت مُطبِق..

***

000000

لندن، اليوم الخامس بعد الكارثة، الثلاثاء 30 نوفمبر 1915

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: 18759

الجبهة الغربية: القوات البريطانية تتحصن بالخنادق في

جاليبولي

واصلت قوات صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاؤه الفرنسيون تحصُّنها بالخنادق، فتحتمي من نيران العدوِّ الخفية ومدافعه العفيَّة، مواصلةً عمليات الكرِّ والفرِّ والقنص، بعد أن بلغ عدد ضحايا حملة الدردنيل الفاشلة ما يقرب من 200 ألف جندي ما بين قتيل وجريح ومريض. ورغم مرور تسعة أشهر على بدء الحملة التي هدفت إلى إسقاط القسطنطينية والإجهاز على الدولة العثمانية العجوز، لم تتمكن جيوش الحلفاء من إحراز أي تقدم يُذكر منذ فشل الحملة البحرية الأولى وما أعقبها من إنزالٍ برِّيّ في شبه جزيرة جاليبولي التركية في 25 أبريل 1915. حيث تمكَّن الأتراك، ومن ورائهم حلفاؤهم الألمان، من المقاومة والصمود وصد هجمات جيوش صاحب الجلالة المتوالية، ونجحوا في الذَّوْد عن شبه الجزيرة الاستراتيـجـية. ومع استمرار الركود وتعاظم التضحيات، فيبدو أنه لا مجال أمام الحلفاء سوى الانسحاب السريع من شبه الجزيرة التركية، والعودة لتحصين الجبهة الشرقية على طول قناة السويس، فننال الحُسنَيَيْن من حيث التقدم في سيناء وفلسطين، والهروب من مصيدة وشيكة في ظل التهديدات الخطيرة التي تواجه الجيش الصربي الحليف على ثلاث جبهات أمام جيوش دول المركز البلغارية والألمانية والنمساوية.

سيدني، صباح اليوم ذاته

صحيفة «ذا ميرور» الأسترالية.. العدد: 124

الحرب العظمى، معركة جاليبولي: مصير القوة الإمبراطوريَّة الأستراليَّة

تأزَّمت الأوضاع وتضاعفت التضحيات وبات الانسحاب من شبه جزيرة جاليبولي حتميًّا. تكبَّدت جيوش صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى خسائر فادحة، فخسر الفيلق الأسترالي النيوزلندي 26 ألفًا من خيرة جنوده. ولكن، وإن فشلت الحملة على الجبهة الغربية فقد أبلت القوات البريطانية والمصرية بلاءً حسنًا وتصدت للحملة التركية في سيناء، فاستقرت الأوضاع نوعًا ما بعد تضحيات القوات البريطانية والمصرية التي خسرت قائدها الأميرالاي أحمد حلمي، البطل الذي أوقف ببسالة عبور الجيوش العثمانية إلى الضفة الغربية لقناة السويس. وأما وقد بات الإخلاء وشيكًا، فسيعود أبطال الفيلق الأسترالي النيوزلندي أدراجهم إلى معسكرات التدريب في أراضي السلطنة المصرية، تستقوي بهم قوات صاحب الجلالة على الجبهة الشرقية وتعززها بفرقتين من المُشاة وأربعة ألوية من الخيَّالة؛ استعدادًا لرد العدوان والانضمام لألوف الجنود المصريين المشاركين في معركة الدفاع عن قناة السويس وصد الحملة العثمانية في

سيناء وفلسطين.

القاهرة، اليوم الرابع بعد الكارثة، الإثنين 29 نوفمبر 1915

صحيفة «اللطائف المصورة» المصرية الأسبوعية.. العدد: 42

سر خفي - حادثة مُروِّعة بالواحة الهادئة

قضى سكان حي «واحة هليوبوليس» الهادئ ليلة مُروِّعة يوم الخميس الماضي، الخامس والعشرين من نوفمبر. حيث قضَّت مضاجعهم أصوات صريخ وآهات مختلطة بطلقات تشق الهواء، مع صوت سنابك خيل العسكر الأسترالي تقطع شارعَيْ إسماعيل والإسكندر الأكبر، على طول الطريق من المستشفى الأسترالي الميداني في لوكاندة «هليوبوليس بالاس» إلى موقع الحادثة على مقربة من قصر مولانا المعظم السلطان حسين كامل وقصر باغوص باشا نوبار، حيث تقع فيلَّا! إسماعيل بك الخازندار أستاذ الرياضيات بمدرسة المعلمين العليا.

تضارَبت الأقوال واختلف الشهود حول طبيعة الحادثة مع انتشار الجثث وبقع الدماء، وابتدعوا القصص الخيالية حول أصوات صرير يصمُّ الآذان وانفجارات مُتوهِّجة سطعت

في سماء ليلتهم المقمرة. فما كان من چورچ هارڤي باشا، حكمدار القاهرة، إلا أن أصدر قرارًا بالتكتم على الحادثة وعدم البوح بتفاصيلها وأعداد ضحاياها، ومنع كائنًا من كان أن يتحدث إلى الناجين من تلك المذبحة المروعة الغامضة. فما هو السر وراء مذبحة هليوبوليس؟

صحيفة «اللطائف المصورة».. العدد ذاته



دعوة خاصة جدًّا

يسرُّ جمعية الأطباء الملكية أن تدعو

EG200937754

لحضور حفلها الماسي..

موعد الحفل قد اقترب..

باقٍ من الزمن 104 فقط..

انتظر المسافر الأخير، و......

***

برلين، يوم الكارثة، الخميس 25 نوفمبر 1915

نشر العالم الفيزيائي الألماني ألبرت أينشتاين نظريته الأشهر، «النسبية العامة»، باللغة الألمانية في وقائع الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم تحت عنوان: «معادلات مجال الجاذبية». تلك النظرية التي حققت نقلة نوعية في الفيزياء الكلاسيكية وغيَّرت المفهوم السائد عن الجاذبية منذ القرن الثامن العشر اتِّباعًا لنظريات إسحاق نيوتن. «النسبية العامة» التي غيرت كذلك مفهومنا عن الزمن، فرفضت اعتبار الزمان والمكان كياناتٍ مطلقة منفصلة، بل على العكس، ربطت بينهما ليشكِّلا نسيجًا واحدًا رباعي الأبعاد، نسيج «الزمكان»، فأصبحنا ندرك أن الزمن نسبي يتأثر بموجات الجاذبية، حيث إذا اشتدت الجاذبية تباطأ الزمن، وإذا خنعت الجاذبية مرَّ الزمن سريعًا.

***

000011

8:30 صباحًا.. مصر الجديدة

- أَفِقْ يا شريف بيه.. شريف بيه!

دوَّى صوت «رِزْق» البواب في رأس شريف، يسحبه من قاع بئر سحيق تفوح من جنباته رائحة نفّاذة أثارت أغشية أنفه ومخه معًا. فتح عينيه في بطء ليرى ليلى جاثية على ركبتيها إلى جواره، وتُدنِي من أنفه زجاجة عطر الليمون الشهيرة ذات الرائحة الحادة التي أيقظت خلايا عقله من غيبوبة غَشِيَت كيانه، ومن خلفها يقف رجلٌ مُسنٌّ في جلباب ريفي تبدو على وجهه علامات الجزع.

هتفت ليلى في لهفة:

- الحمد لله، لقد استعاد وعيه.. اسنده معي يا عمّ رِزْق كي نُدخله إلى الفيلّا.

سارع رِزْق ووضع يده أسفل إبط شريف الممدد على الأرض أمام بوابة حديقته يساعده على النهوض، بينما أمسكت ليلى بيد شريف الأخرى لتجذبه برفق إلى أعلى. وقف شريف مترنحًا، فأحاط عنق ليلى وكتفها بذراعه يستند

إليها. تقدما معًا بخطوات متأنية ثقيلة إلى داخل الڤيلَّا، قبل أن يُلقِيَ شريف بنفسه على الأريكة زهرية اللون الأقرب إلى الباب، وعيناه الزائغتان تحدِّقان في الفراغ. جلست ليلى إلى جانبه تتفحَّصه بنظراتٍ ملتاعةٍ وهي تتحسَّس شعره ووجهه في لهفة، قبل أن تهتف:

- شريف! هل أنت بخير؟! أجبني أرجوك!

لم تنجح لوعتها في انتزاع الكلمات من بين شفتيه، بل أثارت نظرات عينيه الزائغتين المزيد من الخوف والقلق بداخلها.

- هل أُحضِر الطبيب يا ست ليلى؟

انتزعها رِزْق من مستنقعِ خوفٍ وقلق يسحبها إلى أعماقه، فأدارت نظراتها بينهما، وصمتت للحظاتٍ تسترجع خلالها ما حدث منذ استيقاظهما.

- لا أدري!

غمغمت بها في ارتباكٍ وقلقٍ قبل أن تحاول السيطرة على مشاعرها، وهي تقول بنبرةٍ حاولت جعلها حازمة:

- لا شكرًا.. اذهب أنت الآن يا عمّ رِزْق.. سأناديك إذا احتجتك مجددًا.

نظر إليها رِزْق بشيءٍ من التردد قبل أن يقول وهو يهزّ كتفيه في استسلام:

- كما تريدين يا ست ليلى.. أنا بالجوار إن احتجتِ شيئًا.

أنهى جملته ورمقها بنظرة مترددة أخيرة، ثم خطا خارج المنزل، وأغلق الباب. سار نحو بنايته شارد الذهن وهو يتَذَكَّرَ عندما انتقل شريف وليلى للسكن في تلك الڤيلّا منذ ثلاثة أعوام، الڤيلّا التي يُقال إنها كانت مملوكة لأحد باشوات العهد البائد، والذي تركها وهرب من مصر. قد تكون من أوائل ڤيلّات حي مصر الجديدة ولكن، ولسببٍ ما، لم تطُلها يد حراسات عبد الناصر أو حتى يد التجديد من قِبَل مالكها أو ورثته، وظلت على حالها بناءً مهجورًا مُهدَّمًا حتى انتقل إليها الزوجان الجديدان. «ست ليلى»، السيدة هادئة الطباع، شديدة الخجل، التي تفضِّل العزلة وعدم الاختلاط بجيرانها، صفات أرجعها البعض إلى ظروف نشأتها، حيث تيتَّمت حين فقدت والديها في سِنٍّ صغيرة. هي مثال واضح للزوجة المخلصة المتفانية التي تركت عملها لترعى بيتها وأسرتها على الوجه الأكمل. ورغم غرابة أطواره، لم يسمع أحد عن شجار وقع بينها وبين زوجها، «شريف بيه القاضي»، نموذج لرجل الأعمال الناجح في عصر الانفتاح، صحيح أن رِزْق لا يعلم على وجه الدقة مجال عمل شريف، فالأخير

قليل الكلام، أو عديم الكلام لو أردنا الدقة، ولكنه في الوقت ذاته جزيل العطاء؛ ولذلك لم يدقق رِزْق أو غيره في روايته المقتضبة عن عمله في مجال الاستيراد والتصدير، أو ما إذا كان قد ورث الـڤيلّا أم ابتاعها أم استأجرها.

- لا يصحُّ ما كان يفعله مؤخرًا.

غمغم بها رِزْق هامزًا، فقد لاحظ أن «شريف بيه» قد ازدادت أطواره غرابةً مؤخرًا، وأصبح أكثر شحوبًا وتوترًا، وصار يغادر بيته في أوقات متفرقة من الليل ثم يعود منهكًا، ويبقى في منزله فلا يراه أحد بعدها لعدة أيام. ضرب رِزْق كفًّا بكفٍّ وهو يتمتم بكلمات يستنكر فيها أفعال «شريف بيه» الطائشة، قبل أن يعود إلى غرفته في البناية المجاورة.

***

- ما تاريخُ اليوم؟

قالها شريف بعد لحظاتِ صمتٍ طالت فشل خلالها في استيعاب ما رآه منذ استيقاظه. استمر محدِّقًا في الفراغ يصارع صداعًا قاتلًا، وسط غابة من الغموض واللامنطقية، تَبْرُزُ تساؤلاتها كأشجار متشابكة عملاقة تعانق السماء.. نظرت إليه ليلى في شكّ، وأجابته وهي تَشُدُّ على يده بكلتا يديها:

- 6 نوفمبر.. لماذا؟

- في أي عام؟

- ماذا تعني بأي عام؟ ما هذا السؤال يا شريف؟

- أيُّ عام هذا؟

أعاد السؤال مجددًا دون أن ينظر إليها.. ضاعَفت لهجته الحازمة الشك في نفسها، فارتعشت شفتاها وهي تجيبه:

- 84.. 1984.

عقد حاجبيه، ثم أدار رأسه ناحيتها في بطءٍ لينظر في عينيها مباشرةً. استمر الصمت الثقيل جاثمًا فوق صدرهما للحظاتٍ بدت كدهر، لم تشأ ليلى قطعها، واكتفت بتفرُّس وجهه ونظراته التائهة قبل أن يخفض عينيه، ويشيح بوجهه عنها قائلًا، وعلامات الألم تغزو ملامحه:

- أيمكنك أن تحضري لي دواءً للصداع؟

- بالتأكيد.. سأحضر لك أسبرين!

قالتها ونهضت مسرعةً إلى الدور العلوي لتجلب له ما طلب، فلسببٍ ما أراحتها جملته الأخيرة، قد يكون كل ما مرَّا به منذ الصباح هو نتيجة صداع حاد فقط، لا يوجد ما يستوجب القلق.. «هو بالتأكيد يعاني صداعًا عنيفًا سبَّب له

ذلك الاضطراب والارتباك!»، غمغمت بها في محاولةٍ مفتعلةٍ وفاشلة لتهدئة التَّوتُّر والخوف المتملِّكيْن منها.

مقاومًا الصداع الذي اِرتَجَّ به عقله، جابت عينا شريف أنحاء المكان تتأمله. ڤيلّا متوسطة الحجم من طابقين، تزين حوائطَها إطاراتٌ خشبيةٌ مزخرفةٌ على شكل مستطيلات ذات زوايا دائرية بداخلها ورق حائط منقوش أخضر اللون. ويعجُّ طابقها الأرضي بأثاثٍ أنيقٍ بمقياس زمنه، فيحتلُّ طقم صالون «أوبيسون» ذهبي اللون المساحة القصيَّة من الدور الأرضي، ويتوسط الرَّدْهةَ طقمُ الاستقبال الذي يجلس عليه، طقم استقبال «ثمانيناتي» تقليدي بأرجله الخشبية الرفيعة وقماشه الزهري. أما غرفة السُّفْرة الجانبية الواسعة، فتحتوي على مائدة خشبية أنيقة تراصَّت على حافتيها ثمانية مقاعد حمراء ذوات أرجل خشبية رفيعة تتناغم مع باقي أثاث المنزل.. أثاث أنيق قديم الطراز يتماشى والطُّرُز السائدة في فترة أوائل الثمانينيات بكل وضوح. أثاث الڤيلّا يُذكِّره بأثاث شقة والديه في فترة طفولته مع اختلاف الألوان والأناقة. عاد إليه التَّوَتُّر مع تلك الخاطرة تَطْفُو على سطح عقله من جديد، فعقد حاجبيه مفكرًا، قبل أن تنساب خواطره تباعًا كنهر مَعِين لا ينضُب..

فحتى وإن كان ما ذكرته ليلى صحيحًا من أنه يعيش الآن

في عام 1984، رغم أنه وُلد في عام 1985 ابتداءً، فكيف يبدو في الخمسين من عمره أو حتى نهاية الأربعينات على أحسن تقدير؟!

هو لا يذكر شيئًا أبعد من حضور بعض اجتماعات العمل، والتي لا يزيد عمره بها على ثلاثين عامًا!

لقد درس علوم الحاسب الآليّ والبرمجة، وتخرَّج في عام 2007، ثم التحق بالعمل في تلك الشركة في العام ذاته.. هو يتذكَّر ذلك جيدًا..

ولكنه لا يتذكر ماذا حدث في الليلة الماضية.. ليس في الليلة الماضية فحسب، بل لا يتذكر ما حدث في العشرين عامًا الماضية..

لا يتذكر عقدين كاملين مرًّا حتى بلغ الخمسين من عمره على ما يبدو!

ذكرياته تتوقف عند عام 2015.. وحتى ذلك العام، لا توجد نقطة بعينها تنتهي فيها الذكريات..

رَبَّاه!! كيف حدث ذلك؟!

كيف يكون الآن أكبر سِنًّا بنحو عشرين عامًا، رغم أنه يعيش في زمن يعود إلى ثلاثين عامًا مضت؟!

زمن لم يُولَد فيه بعد!

التفسير الوحيد هو أنه قد فقدَ ذاكرته طيلة العشرين عامًا الماضية، وأن مسألة الثمانينيَّات هذه ما هي إلا مجرد خُدْعة..

نعم هذا هو التفسير المنطقي الوحيد!

ولكن.. لماذا يريد أحدهم خداعه بهذه الصورة المعقدة؟! ثم ماذا عن تلك الجريدة؟!

وماذا عمَّا رآه في الشارع بأُمِّ عينه؟

إنها الثمانينيَّات بتفاصيلها كافة.. هو يتذكرها جيدًا.. أو يتذكر نهايتها على الأقل..

هل من الممكن أن تُمْحَى عشرون عامًا كاملة من ذاكرته؟!

هل يمكن أن.....

قاطع تَدَفُقَ خواطرِه صوتُ خطوات ليلى السريعة على السلَّم، فانتزعه صوت طقطقة نعليها على أرض المنزل الخشبية من شروده، فيما انتشلته أنفاسُها المتهدِّجة من وسط أمواج تتلاطم في عقله الثائر. أمواج عاتية من الخواطر والأفكار يصارعها بحثًا عن طوقِ نجاةٍ يفسر به ما يحدث له، ويعيد إليه سنوات عمره المفقودة. أدار رأسه

ناحيتها، يتابعها وهي تدنو إليه تلهث حاملةً كوبًا من الماء، ناولته إيَّاه مع قرصٍ من الأسبرين، قبل أن تقول في حنان:

- ها هو الأسبرين يا شريف.. ستكون بخير إن شاء الله!

تناول منها قرص الأسبرين وابتلعه برشفة ماء صغيرة، قبل أن يتجرَّع باقي الكوب بأكمله ليروي ظَمَأً ظن أنه امتدَّ عشرين عامًا.. هل هي أحد أضلاع الخُدْعة؟! نبتت تلك الخاطرة في عقله الذي رواه لتَوِّه، فرمقها بنظرة مُتشكِّكة. أطال النظر محاولًا اصطياد خائنة الأعين، ساقطة تفضح كذبها، فلم يجد إلا مشاعر توتر وخوف وحنان صادقة.. لا يمكن أن تكون تلك المرأة كاذبة.. فرغم فقدانه الذاكرة، أو فقدانه عشرين عامًا من عمره، فإنه لم يفقد فِرَاسَته بعد، دائمًا ما كان يتميز بذكائه الحاد وبراعته الكبيرة في سَبر غَوْر مَنْ أمامه، وقد يكون ذلك سببًا في قلَّة كلامه وعزوفه عن اللغو، هو يفضِّل الصمت، والاستماع، والمراقبة.

عقله هو نقطة قوته، عقله هو الوحيد القادر على إنقاذه..

أدرك أنه لا يوجد مفرٌّ لتجاوز الوضع القائم سوى بطمأنة ليلى، ومعرفة قدر ما يستطيع من إجابات تبدد غيومًا ركامية كثيفةً حجبت عنه أُفقًا مجهولًا يمتد حتى عام 2015، فأخذ نَفَسًا عميقًا وقال بنبرةٍ حاول جعلها هادئة، مع ابتسامةٍ تخفف من توترها:

- أنا آسف.. أنا متعَب قليلًا.. هل يمكنك إخباري بما حدث أمس؟

- أحقًّا لا تتذكر ما حدث؟

- اعذريني.. لقد أخبرتك أنني متعب.. قد يكون ذلك الصداع الشنيع هو السبب.. فقط احْكِ لي ما حدث!

صمتت قليلًا، ثم تَنهَّدت في استسلام، وأجابته:

- «يوم طبيعي كسائر أيامنا. تناولنا العشاء، ثم جلست أنت في غرفة المكتب تطالع كتبك كعادتك، وبعدها خلدنا إلى النوم باكرًا استعدادًا لموعد سفرك الصباحي، ثم....» قطعت جملتها بغتة، وشهقت وقد فتحت عينيها عن آخرهما حين تذكَّرت أمرًا، فتابعت في لهفة: «تذكرتُ! لقد تلقيتَ مكالمة هاتفية في الواحدة بعد منتصف الليل.. أخبرتني أنك قد نسيت شيئًا ما يتعلق برحلتك الصباحية، وأنه يجب عليك أن تذهب لإحضاره سريعًا.. وبالفعل لم تَغِبْ كثيرًا.. لقد عُدتَ في خلال ساعة واحدة تقريبًا، ثم خلدت إلى النوم من فورك.. كنت نائمة لكنني شعرت بك».

اعتصر شريف ذاكرته في محاولةٍ فشل خلالها في تذكُّر ما أخبرته به لتَوِّها، فعقد حاجبيه وهو يسألها باهتمام:

- هل تحدثنا عقب عودتي من الخارج؟ هل أخبرتُك بشيءٍ مما حدث؟ مَنْ قابلت؟ هل لاحظتِ عليّ أمرًا غريبًا؟

- لا.. كنت نائمة، ونومي ثقيل كما تعرف.

لم يعلق واكتفى بنظراته المتفحّصة.. هي لا تكذب بكل تأكيد، ولكنها لم تبدد غيومه كذلك.. فأبْرَقَت غيومُ عقلِه وأرعَدَت، وعصفت ذهنَه بوابلٍ من التساؤلات فاضت بها أنهار حَيْرَته:

كيف يحيا في هذا الزمن؟! أتلك هي حياته الطبيعية؟

وهل من الطبيعي أن يتلقى مكالمة هاتفية يغادر على إثرها منزله بعد منتصف الليل في ظل «حياة طبيعية»؟

ماذا حدث في تلك الساعة تحديدًا جعله يفقد الذاكرة؟

وكيف عاد إلى هذا المنزل إذًا؟

ثم مَنْ هو هذا الـ «شريف» الذي تصرُّ تلك المرأة أن تناديه باسمه؟

سوف يُجنُّ، يكاد يصرخ في وجهها قائلًا إن اسمه هو أحمد.. وليس شريف هذا الذي يكبُره بعشرين عامًا..

هو ليس شريف، وليس من هنا..

ليس من هذا الزمن!

قطعت ليلى وابل خواطره الجديدة بتساؤل مفاجئ:

- مَنْ أحمد هذا الذي كنت تصيح باسمه؟ هل هو الرجل الذي قابلته أمس؟ هل آذاك؟

لم تتلقَّ منه إجابه، فأردفت وقد عاد التَّوَتُّر يغلب على صوتها:

- وما هاتفُ السيارة، أو الهاتف المحمول هذا الذي كنت تصرخ في طلبه؟ ما الأمر يا شريف؟

هَمَّ أن يختلق إجابةً ما، لولا أن قطع حديثَهما صوتُ بكاءِ طفلٍ رضيعٍ يأتي من الدور العلوي للڤيلَّا. انتفض شريف ناظرًا إليها في ذهول، فهتفت في جزع:

- سَلْمَى.. لقد نسينا سَلْمَى وسط كل ما حدث.

قالتها وهي ترقب علامات الذهول المرتسمة على وجهه، حتى أردفت في شَكّ:

- ألا تتذكر سَلْمَى كذلك؟! ألا تتذكر ابنتك؟!

تفحَّصت ملامحه لوهلةٍ في يأس، ثم هُرعت مسرعةً إلى ابنتها، مُخَلِّفَةً وراءَها رجلًا يرزح تحت وطأةِ رُكامٍ مسجورٍ من الذهول والحيرة والخوف.. والغضب..

***

011001

7 ديسمبر 2019

5:10 فجرًا.. التجمُّع الخامس.. القاهرة الجديدة

- ... الصلاةُ خيرٌ من النوم ... الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله.

انتهى مؤذن المسجد الرئيس بكمبوند «لا مادروجادا» الراقي، على أطراف التجمُّع الخامس بالقاهرة الجديدة، من رفع أذان الفجر داعيًا المُصلِّين للاستعداد ثم التَّوافُد إلى المسجد من الـڤـيلَّات المحيطة. قطع القليل من المصلين الطرقات باتجاه المسجد يستنشقون هواء الفجر العليل، الذي امتزج برائحةِ ما بعد المطر المحبَّبة وأشجار الياسمين المنتشرة، وتعالى صوت نعالهم تضرب الطرقات النظيفة المُبلَّلة بفعل أمطار الليلة السابقة قارسة البرودة. اختلط وقع الأقدام مع صوت مذيع إذاعة القرآن الكريم الرخيم يتلو الأدعية؛ استعدادًا لنقل شعائر صلاة الفجر من مسجد «السيدة نفيسة» بالقاهرة.

خفض «عماد» حارس الأمن الشاب صوت المذياع الصغير،

وفرك يديه في عنفٍ ورفعهما إلى فمه ينفث فيهما بعض الدفء، ثم رفع ياقة سُترته الزرقاء وخطا خارج كُشْك حراسته على مدخل المجموعة رقم «6»، التي تضم أرقى ڤيلّات الكمبوند. تعالى مُواء إحدى القطط التي دعس قدمها في طريقه بفعل الارتباك الشديد، فردَّ عليها أحدُ كلاب الحراسة بالڤيلّا المجاورة بنُباحٍ قويّ احتجاجًا، وإعلانًا عن بدء صباح جديد لا يبشر بالخير.

همهم عماد بسَبابٍ وكلماتٍ غير مفهومة وهو ينضمُّ إلى زملائه الذي تعثَّر أحدهم وانزلق على الأرض فأُصيب بسحجات مؤلمة في كفِّ يده اليمنى، مُطلقًا تأوُّهات خافتة. لم يلتفت عماد إلى زميله أو حتى يعاونه على النهوض؛ فقد انصبَّ تركيزه هو ورفاقه على رجال الشرطة المصرية وقد فرضوا كردونًا أمنيًّا منذ عدة ساعات بمحيط ڤيلّا «المهندس يحيى المصري» يمنعون وصول الفضوليين.

- لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله...

بَسْملَة وحَوْقلَة، همهمات وصراخ، بكاء ولوعة تختلط بأصوات كفوف تضرب بعضها بعضًا حسرةً ودهشةً وذهولًا من جريمة بشعة لم يَعْتَدْها تجمُّعهم السكني الهادئ الآمن. تجمَّع جيران المهندس «يحيى» وعُمَّال الكمبوند خلف سيارات الشرطة الجديدة الزرقاء، يشاهدون رجال المباحث

وهم يعاينون مسرح الجريمة، بعضهم يجمع الأدلَّة الجنائية المختلفة، وآخرون يستجوبون شهود العيان.

أوقف العقيد «حسام الحلواني» سيارته، وترجَّل منها فاستقبله زميله ومساعده الرائد «علاء حنفي» بابتسامةٍ متوترةٍ قائلًا:

- حسام باشا.. صباح الخير.

تبادلا التحية، ثم أشعل حسام سيجارةً سحب منها نَفَسًا عميقًا، ونفثه في هدوء وهو يتفقَّد المكان في سرعة، مستفسرًا عن الواقعة وإفادات الشهود، فأجابه علاء وهو يشير إلى جثة الرجل البدين الملقاة في الحديقة الأمامية للـڤيلّا أسفل شرفة غرفة المعيشة بالطابق الثاني:

- أربع جثث سيادتك.. رجل وزوجته وولداه اللذان لم يتجاوزا خمسَ السنوات.

نفث دخان سيجارته من جديد، ورمق الجثة بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ وقد غطى ظهرها دماءٌ تدفقت عبر ما لا يقلُّ عن 7 ثقوب في الظهر والكَتِف، ثقوب عريضة غائرة تبدو ناجمةً عن طلقات نارية غير اعتيادية. ثم التفت إلى زميله قائلًا في هدوءِ مَنِ اعتاد تلك المواقف:

- ماذا قال الشهود؟ وما حكايةُ تلك الانفجارات؟

- لم يرَ أحدٌ أيَّ شيءٍ يُذكر.. الجيران عن اليمين قد سافروا منذ عدة أشهر، ومَنْ على الجهة المقابلة كانوا في مناسبة عائلية خارج المنزل، لكن.....

قطع علاء حديثه وهزَّ رأسه في ترددٍ تعجَّب له حسام، فأشار إليه أن يكمل، قائلًا في صرامة: «لكن ماذا يا علاء؟».

هزَّ علاء رأسه، ومَطَّ شفتيه ثم تَنهَّد في استسلامٍ قبل أن يجيبه في تردد:

- «رجال أمن الكمبوند سمعوا انفجارين، الاثنان من داخل الـڤيلَّا وبينهما ضرب نار شديد.. أعتقد أنه آليّ....»، صمت مجددًا ثم أضاف سريعًا في مزيدٍ من التردد، وقد لمح علامات نفاد الصبر تلوح في وجه رئيسه: «الموضوع به تفاصيل غير طبيعية يا حسام باشا.. آثار الانفجار غريبة جدًّا.. لم أرَ مثيلًا لها من قبل.. سيادتك يجب أن تتفحَّصها بنفسك».

ضاقت حَدَقتا حسام في اهتمام، ألقى بسيجارته أرضًا وأطفأها بحذائه، ثم أشار إلى زميله كي يتقدمه. دلفا إلى الـڤيلَّا وصعدا إلى طابقها العلوي. أزكمت أنوفَهم رائحةُ البارود المعروفة تختلط برائحة شياط حاد، أشبه برائحة الماس الكهربائي. رفع حسام حاجبيه في دهشةٍ وهو يعاين

آثار الانفجار، هي بالفعل آثار لم يعهدها من قبل، فلم يلمح بقايا جدران مهدمة، وأرائك محطمة أو وسائد ممزقة، بل لدهشته كانت آثار الانفجار عبارة عن قَطْع حاد في أثاث المنزل، قَطْع نظيف على شكل دائري مع آثار احتراق واضحة على الأرضية الرخامية، ضاقت حَدَقتاهُ وقد لاحظ أن القِطَع الدائرية المقطوعة قد اختفت تمامًا كأنما تبخَّرت وذهبت أدراج الرياح.

رفع عينيه يتأمل المكان وآثار بعض الطلقات الغائرة تخترق جدران غرفة المعيشة، التي تحطمت محتوياتها، وغطى أرضيَّتَها زجاجُ النوافذ المهشَّمة. لم يلتفت إلى صوت تهشُّم قطع الزجاج المنتشرة وهو يخطو فوقها يدعسها بغير اكتراث، وقد تسمَّرت عيناه تتفحَّصان جثة سيدة في نهاية الثلاثينات من عمرها رياضية القَوَام تسبح في بِرْكةٍ من الدماء، وقد تحول جسمها إلى مصفاة مهترئة.

تقدم حسام بخُطَى بطيئة ناحية الشرفة، فما لبث أن أشاح بوجهه في اشمئزازٍ عندما وقعت عيناه على جثتَيْ طفلين صغيرين داخل الشرفة المطلّة على حديقة الـفيلّا الأمامية. التفت إلى علاء قائلًا في توترٍ مُشمئِزّ: «وماذا عن الكاميرات؟».

أطرق علاء برأسه مفكرًا للحظات ينتقي فيها كلماته، ثم

أجاب في بطء:

- الكاميرات الداخلية التقطت انفجارًا خارج غرفة المعيشة.. ضوء شديد وبعد ذلك احترقت الكاميرات، لكن ......

أطرق مجددًا في ارتباك، فهتف حسام في نفادِ صبر:

- ما خطبُك يا علاء؟! ألا تنوي أن تكمل جملتين متصلتين؟ ألبِسَك عِفْرِيت؟!

حدَّق علاء في وجهه للحظاتٍ طالت، ثم أجابه في تردد:

- أظن ذلك سيادتك.. فالمكان كان خاليًا تمامًا قبل وبعد الحادثة. أطرق قليلًا ثم أضاف: «الكاميرات الخارجية وكاميرات الجيران لم تلتقط أحدًا دخل الڤيلّا أو خرج منها، سواء من الباب أو من فوق الأسوار.. ولكن، التقطت خُيالات لرجالٍ يتّشحون بالسواد في الدور الثاني للڤيلّا ويطلقون النيران من أسلحة آليَّة، قبل أن يسقط المهندس «يحيى» من الشرفة.. وبعد ذلك حدث انفجارٌ آخر مماثل للأول.. ثم عادت الڤيلّا خالية إلا من جثث المهندس وأسرته».

صمت من جديد، ثم أضاف في بطءٍ مُشدِّدًا على مخارج كلماته:

- باختصار يا أفندم.. مَنْ نفذ الجريمة قد ظهر واختفى داخل الـقـيـلَّا.

***

000000

25 نوفمبر 1915 (ساعة وربع الساعة قبل الكارثة)

10:45 مساءً.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

هبَّت رياحٌ باردةٌ على أطراف «واحة هليوبوليس» شرق القاهرة، وعلا صوت صفيرُها وهي تعبُر بين المباني والقصور الجديدة المشيَّدة على طرازٍ فريدٍ، يجمع بين فنون العمارة الأوروبية والعمارة الإسلامية المستحدَثة. تطايرت ذرَّات الرمال القادمة من الصحراء المحيطة بالحي الناشئ، مُشكِّلةً دوَّاماتٍ متباعدةً تحمل أوراق الشجر الجافة المتساقطة، دوامات من الأتربة والرمال حجبت ضوء القمر، وألقت بظلال متراقصة من الرهبة على الشوارع شبه الخالية. أُغلِقَت المحالُّ القليلة المتناثرة، وأُطفِئَت أعمدة الإنارة رضوخًا لقرار رئاسة مجلس النظار بعدم إنارة المصابيح الخارجية في الليالي المقمرة، فغلَّف القمر الشوارع المُقفِرة بطبقة فضية كئيبة تقطعها بقع صفراء متناثرة تنبعث من مصابيح كهربائية، وأخرى غازية مُتوهِّجة داخل بيوت تسودها في

تلك اللحظة مشاعر متنامية من الترقُّب والخوف والهلع.

شق سوطٌ جلديٌّ سميكٌ الهواءَ العاصف مُصدرًا قرقعته الرهيبة وهو يهوي على ظهر حصان أسود، يجرُّ عربة (حنطور) يجاهد سائقها العجوز من أجل الفرار. زاد الحصان من سرعته فارتجَّت العربة في قفزات متتالية وعجلاتها الخشبية ترتطم بحصى الشوارع المُعبَّدة، قفزات وهزات سحبت روحه وحفرت المزيد من علامات الرعب الغائرة في وجهه المجعَّد. كاد الرجل أن يكسر عنقه وهو يدير رأسه إلى الخلف في حركاتٍ حادَّةٍ ينظر إلى تلك الـڤـيلَّا البعيدة بنظرات يملؤها الهلع. مالت العربة بشدة وكادت أن تنقلب على جانبها حين شدَّ الحوذيُّ العجوز اللجام في شدة ليدير الحصان بزاوية شبه قائمة، بعد أن تجاوز ناصية شارع نوبار ومنه إلى شارع السرايات العمودي. أدار رأسه في التفاتةٍ أخيرةٍ قبل أن يلهب ظهر حصانه بضربة جديدة من السوط تجبره على الإسراع ومواصلة الفرار مبتعدًا.

لم يعبأ سكان المنازل المحيطة بصوت عجلات العربة الهاربة أو صهيل خيلها أو حتى صيحات سائقها العجوز، بل هُرع أغلبهم يغلقون النوافذ ويُسدلون الستائر ويطفئون الأنوار، ثم ينزوون في الأركان وهم يضمُّون إليهم صغارهم في خوف، فيما حاول أشجعهم استراق السمع واختلاس

النظر من وراء الستائر المسدلة يراقبون تلك الـڤـيلّا المنكوبة.

كان يومًا مختلفًا وصعبًا على سكان ذلك الحي الرتيب، يوم مضطرب مليء بالأحداث المتعاقبة التي انتهت بذلك المشهد الدامي أمام ڤـيلّا «إسماعيل بك الخازندار»، أستاذ الرياضيات الهادئ الخَجُول الذي تحولت ڤـيلّته إلى مسرح مفتوح لأحداث شكسبيرية غامضة.

دماء طازَجة أُريقت ولطّخت رصيف وسلالم الـڤـيلّا المنكوبة، دماء قانية انسابت من رؤوس وأجساد أربعة من عساكر الدَّرَك المصري الذين سدَّت جثثهم مدخل حديقة الـڤـيلّا.

اشتدت الرياح عصفًا حتى وجدت طريقها إلى داخل الـڤـيلّا عبر زجاج النوافذ المهشَّمة، فتطايرت الستائر وتراقصت أنوار المصابيح الغازية التي تنير بعض أركان الطابق الأرضي، فيما أصدرت المصابيح الكهربائية المحطمة شررًا تاه صوته وسط شهقاتِ رعبٍ ودموعٍ مكتومةٍ على وشك الانفجار.

أزيزٌ خافتٌ انبعث من جهاز جرامافون يحتلُّ أحد أركان غرفة المكتب الأنيقة ذات الأثاث الخشبي الذي يعود طرازه إلى أوائل القرن التاسع عشر، صوت رفيع ناجم عن احتكاك إبرة الجرامافون بأسطوانة انتهت من بَثِّ ألحانها فأصدرت

شوشرةً متواصلةً امتزجت بصوت أنفاس إسماعيل بك الخازندار المتهدجة، فكوّنا معًا نغماتٍ جنائزيةً رتيبة.

وقف إسماعيل وظهره باتجاه باب الغرفة مائلًا إلى الأمام، يستند براحتيه إلى طرف مكتبه الخشبي فرنسي الطراز بأركانه النُّحاسيَّة وأرجله المقوَّسة طراز «لوي كانز»، ويحدِّق واجمًا في أوراق وصور مُلطَّخة بالدماء ومبعثرة على سطح المكتب، صور فوتوغرافية وأوراق بلاستيكية لامعة تعكس ضوء الغرفة الخافت. ضوء أصفر خافت ينبعث من مصباح كهربائي ذي حامل نُحاسيّ مزخرف معقوف يستقرُّ على أحد جانبَي المكتب، فيلقي بظلال طويلة ثابتة تُضفي المزيد من الرهبة على جوٍّ خانقٍ مُقبِضٍ للقلوب. امتد ظِلُّ إسماعيل يغطي المكتبة الخشبية الضخمة ويلامس سقف الغرفة المرتفع، ظِلٌّ عملاقٌ رفيعٌ لجسدٍ نحيلٍ انحنت قامته الطويلة تحت وطأة ألم لم يتحمله الجسد الضعيف.

أغمض عينيه وزفر في عمقٍ قبل أن يفتحهما ويعدل من وضعية نظارته المستديرة؛ لتستقر أعلى أنفه المدبب أمام عينيه الزائغتين. عينان غائرتان يحيطهما سواد ينافس في قتامته شعرًا أسود لامعًا مشعثًا انحسر عن مقدمة جبهته. هيئة مرتبكة لنفسية تحطمت. بقايا روح انكسرت فأعلنت عن استسلامها بربطة عنق رفيعة مفكوكة وقميص أبيض

«مكرمش» ملطَّخ بالدماء، شرد طرفه في إهمال خارج سروال بذلة كُحليَّة صبغتها الدماء القانية ببقعٍ أكثر قتامة.

- أسْرِع!

لهجة صارمة آمرة خرجت من حنجرةِ رجلٍ أجَشّ، يرتدي زيًّا عسكريًّا حالك السواد ويمسك بيديه سلاحًا آليًّا متطورًا لا يتناسب مع تلك الفترة من بدايات القرن العشرين. التفت إليه إسماعيل نصف التفاتة وحَدَجه بنظرة استسلام، قبل أن يحرك شفتيه ثم يُطبقهما مجددًا حين عجز صوته عن الإفلات من حنجرته المتحشرجة. ابتلع ريقه ثم أجاب بصوتٍ واهن:

- حسنًا.

أخرج حافظة أوراق جلدية بُنية اللون مغلقة بحزام جلدي عتيق الطراز، زُيِّنَت حوافُّها بأركان نُحاسية مزخرفة. فَضَّ الحزام الجلدي وفتح الحافظة في سرعة قبل أن يقلبها ليفرغ محتوياتها على الأرضية الخشبية بغير اكترات. تَنهَّد من جديد ثم شرع يجمع جميع الصور الفوتوغرافية والأوراق البلاستيكية من فوق سطح المكتب ويضعها في الحافظة الجلدية، قبل أن يعيد غلقها بالحزام الجلدي ويلتفت إلى الرجلِ الأجَشِّ في خضوع.

اقتاده الرجل إلى ردهة الـفـيلّا وهو يلكزه بكعب سلاحه، فتعثر إسماعيل وكاد أن يسقط قبل أن يتمالك نفسه ويتقدم في خطواتٍ أسرع قليلًا حتى بلغ الردهة. تهدَّجت أنفاسه بصوت مسموع وترقرقت عيناه بالدموع وهو يتأمل المشهد بضوئه الواهن وظلاله المتراقصة في ألمٍ يعتصر قلبه الضعيف. فأمامه تمدَّد جسد «إدريس» كبير الخدم النوبي فوق بِرْكة دماء واسعة، امتزجت بدماء «نعيمة» الخادمة التي لم يتجاوز عمرها العشرين عامًا. بينما انتشر في أرجاء المكان سبعة مقاتلين آخرين يرتدون الزِّيَّ الأسود ذاته والذي يزينه شعار لرمزٍ مُتشعِّب أزرق اللون أشبه بنُدْفَة ثلج سداسية الأفرع. رجال أشدَّاء مدججون بأسلحة متطورة، تغطي وجوههم أقنعة مضادة للغازات ونظارات متطورة للرؤية الليلية، أزياء وأدوات عجز عن إدراك كُنْهِها أو وظيفتها ولم يرَ مثيلًا لها من قبل.

شهقة خافتة صدرت من حنجرة أنثوية فأغمض إسماعيل عينيه في ألمٍ، غير قادر على النظر في وجه زوجته الجاثية على رُكبتيها وأحد الرجال يصوِّب إلى رأسها سلاحه المُعدَّ للإطلاق، بينما ارتسمت علامات الهلع التام على طفلته الصغيرة التي لم تبلغ بعد عامها الخامس، وقد حملها رجل آخر وهو يضغط على عنقها بنصل خِنْجَر حربي حاد.

تقدم إسماعيل صاغرًا إلى منتصف الردهة حيث وقفت قائدة المجموعة حمراء الشعر، كاشفةً وجهها الأبيض المشرَّب بحُمْرة ناجمة عن نَمشٍ كثيفٍ يغطي أنفها ووجنتيها. ظلت الصهباء تقف ساكنةً في منتصف الردهة تراقب المشهد والتعبيرات الصارمة تعلو وجهها، بينما تقدم نائبها القوي، الذي لا يتعدى الخامسة والثلاثين من عمره بملامح مصرية واضحة، ومدَّ يدَه في هدوءٍ ليأخذ الحافظة الجلدية من إسماعيل، ثم شرع في فضِّ حزامها السميك.

- لا يا إسماعيل.. لا تسلم الأوراق.. لست مُضطرًّا لفعل أي شيء.

هتفت زوجته بعبارتها في شجاعةٍ وصرامةٍ لا تتناسب مع وضعها، فلطمها المقاتل الواقف خلفها بكعب سلاحه، فتأوَّهت تلقائيًا قبل أن تبتلع تأوُّهاتها في سرعةٍ وتُقَطّبَ جبينها في غضب وتحدجه بنظرة غاضبة متوعدة اقشعرَّ لها بدنه رغمًا عنه.

عضَّ إسماعيل شفتيه ألمًا، وتلعثم حين حاول إجابتها بالعربية، فأبَى عقله أن يُكوِّن الجملة، فأجابها بألمانية متلعثمة وهو يسلم الحافظة إلى نائب القائدة ذي الملامح المصرية:

- قُققق.. قُقضـ.. قُضي الأمر، قُضي الأمر يا أمينة!

- لا.. ليس بعد.

أجابته بالألمانية كذلك في محاولةٍ للتخفيف عنه، فهي تدرك اضطرابه وعدم قدرته على التحدث بالعربية في مَوَاطِن الضغط النفسي الشديد حيث يبدأ في التلعثم و«التأتأة».

- اصمتي.

قالها الرجل في صرامةٍ وهو يتناول حافظة الأوراق الجلدية قبل أن يتفقَّد محتوياتها ويقول في تهكُّم:

- براڤـو يا إسماعيل! هل هذا كل شيء؟

- أنت غبي.. من المستحيل أنك لم تلحظ أو تشعر بـ.....

هتفت أمينة في الرجل المصري وهو يتفقَّد محتويات الحافظة، فقاطعها إسماعيل صارخًا في صرامة:

- أمينة!

- لا يا إسماعيل.. يجب أن يفهم.....

- أمينة!!

قاطَعها إسماعيل مجددًا في نبرةٍ أشد صرامة من سابقتها، هو شخصيًّا لم يكن يدرك أنه يمتلك تلك الصرامة. وهنا

تدخلت القائدة الصهباء، ولطمت أمينة على خدِّها الأيمن بقوة أسالت الدماء من جانب شفتيها، وهي تهتف في صرامةٍ وبلُغةٍ ألمانيةٍ غليظة:

- ألم يأمركِ بالصمت!

تابع المقاتل المصري المشهد وقد اتسعت عيناه في دهشةٍ قبل أن تنفجر الطفلة الصغيرة في البكاء، فالتفت إليها وخفق قلبه للحظةٍ قبل أن يُشيح بوجهه بعيدًا. ثم ما لبث أن تحولت دهشته إلى صرامة أعادت السيطرة مجددًا على قلبه الذي كاد أن يرقَّ أمام بكاء تلك الطفلة البريئة، فعقد حاجبيه وقال موجهًا حديثه إلى إسماعيل بنبرةٍ حازمةٍ، أراد بها أن يذكِّر نفسه أولًا بغايته الأسمَى وأن يفرض سيطرةً كاسحةً على قلبه المختلج:

- الأمر ليس شخصيًا.. بل من أجل مصلحة الجميع.

أطرق قليلًا، وسار عدة خطوات بلا هدف ثم عقد حاجبيه في صرامة ورفع الحافظة الجلدية أمام عَينَيْ إسماعيل قبل أن يضيف بألمانية حازمة:

- لقد أمضينا سنواتٍ عديدةً نتتبَّع هذه المستندات ومصدرها. سنوات قليلة من عمرنا ولكنها عقود وعقود من الزمن بالنسبة إليكم.

أخرج بعض الصور الفوتوغرافية من الحافظة الجلدية ولوَّح بها أمام أعين الحاضرين بمَنْ فيهم رجاله، وتابع بصوتٍ قويٍّ وكأنما يخطب في الجميع:

- هؤلاء الأشخاص لا يستحقون الحياة.. لا يهمني إن كانوا أبرياءَ أم لا، أطفالًا أم عجائز، رجالًا أشدَّاء أم نساء مستضعفات.. لكنهم يشكلون الخطر الأكبر على كل شيء أقسمنا على حمايته.

صمت قليلًا للسيطرة على مشاعره حين اختلجت شفتاه من فرط الانفعال. لحظات قليلة ثم هز رأسه وأضاف وقد تضاعف حزمُه وصرامتُه:

- لا يمكننا أبدًا قبول مسار الزمن كما هو الآن.. لقد أقسمنا على تغييره.. وسنغيره.

- غبي!

صرخت أمينة في الرجل، فأخرستها المُقاتِلة الصهباء بلطمةٍ أخرى على وجهها ثم تابعت في صرامة:

- الأمر يجب أن ينتهي هنا والآن.

انتهت من عبارتها ثم تقدَّمت باتجاه إسماعيل وأعدَّت سلاحها للإطلاق مُوجهةً فوَّهته إلى رأسه. لم يَبدُ عليه

الذهول مما سمع أو الهلع من مصيرٍ بات وشيكًا، بل ترقرقت عيناه بالدموع، وخرَّ جسده النحيل يركع جاثيًا على ركبتيه في استسلام، فهتفت فيه زوجته:

- لا تستسلم يا إسماعيل.. هناك أمل.

لاحت ابتسامةُ تهكُّم مريرة واهنة على شفتيه قبل أن يجيبها في استسلام:

- أأأأ.. أأنتِ تعلمين جيدًا أنها نهايتي.. لا شيء يمكننا القيام به.. فقط اعتني بصغيرتي.

دقت ساعة الحائط الكبيرة ذات البندول دقَّاتٍ متتابعةً عاليةً معلنةً الحاديةَ عشرةَ مساءً، دقات رتيبة مزلزلة غطت على صرخات أمينة الملتاعة تحثُّ زوجها على ألا يستسلم. تجاهل إسماعيل صرخاتها وتابع دقات الساعة التي أضحت تمثل عَدًّا تنازليًا ينتهي بموته. دقات تتناقص في اتجاه نهاية وشيكة لحياةٍ كانت سعيدة حتى صباح هذا اليوم. حياة يزعم أنه لم يؤذِ فيها أحدًا سواء بقصد أو بغيره. حياة هادئة عاشها مُنكبًّا على العلم والرياضيات التي ملأت حياته حتى التقى أمينة، حب حياته ومنتهى آماله. حياة كاملة عاشها منغلقًا في سلام نفسي حافظ عليه، وكان يأمل في استمراره حتى ينقضي الأجَل.

آمال تبخرت وسلام نفسي تصدّع وانهار بغتةً صباح اليوم، أحداث ثقيلة متتابعة حطمت فؤاده وفتّتت روحه، فأدرك أنها نهايته لا مَحالة، وتقبّلها، فطالما كان زاهدًا فيها، فيا مرحبًا بالنهاية إن لم يكُنْ بيده ما يفعله.. أحداث اليوم أثبتت ذلك، لقد كان ذلك الزائر الصباحي مُحقًّا.. إنها نهايته.

انتهت الساعة من دقاتها معلنةً لحظة النهاية. فأغمض عينيه والمقاتلة الصهباء تستعد لضغط زناد سلاحها المتطور...

ثم دوّى صوت انفجار عاليًا..

انفجر الجدار الذي يحتوي على باب الـڤيلّا. انفجار محدود هدم الجدار، ثم اقتحمت سيارة ضخمة حالكة السواد بهو الـڤيلّا قبل أن يدير سائقها المقوَد في براعةٍ ضاغطًا مكابحها، لتقف مستعرضةً في منتصف البهو وتدهس في طريقها أحد المقاتلين.

سيارة سوداء كبيرة مصفّحة بشرائح ودروع معدنية قوية متداخلة، انفتح باباها الأماميان لأعلى مثل أجنحة نَسْر ضخم ينقضُّ على فريسته، وقفز خارجها رجل قوي صارم يرتدي سروالًا أسود قاتمًا وقميصًا رَماديًا يُبرز عضلاته المفتولة. صوّب الرجل سلاحًا آليًا متطورًا يشبه إلى حدٍّ كبير أسلحة فرقة المقاتلين حاملي شارة «نُدْفَة الثلج».

تبادل قائد السيارة النيران مع مقاتلي «ندفة الثلج»، وأردَى أحدهم قتيلًا فيما تراجعت الصهباء ونائبها إلى داخل غرفة الطعام يحتميان خلف جدرانها ويطلقان منها النيران على السيارة وقائدها المحتمي بها.

مالت أمينة إلى الخلف وأمسكت بسلاح المقاتل المرتبك خلفها ورفعت فوّهته نحو رأسه ثم اعتصرت سبّابته التي تحتضن الزناد، فانطلقت دفعة سريعة من الطلقات استقرت في رأسه وأردته قتيلًا. استغلّت أمينة حالة الهرَج والتخبُّط وهبّت واقفةً لتنقضّ على المقاتل الذي يحمل طفلتها. أدارت رسغه الممسك بالخنجر في براعةٍ قبل أن تنتزعه بيدها الأخرى وتستعمل النصل الحاد لتقطع وريده العنقي وتذبحه من فوره، في حركاتٍ احترافيةٍ سريعةٍ متجانسة. أفلت المقاتل المذبوح الصغيرة من يده حين فارت الدماء من عنقه تلطّخها وتلطخ وجه أمينة، التي تلقّفت الصغيرة في اللحظة ذاتها التي قذفت فيها بالخنجر على امتداد ذراعها ليستقر في عنق المقاتل الذي يقف خلف زوجها. ثم هُرعت إلى زوجها الراكع تنتزعه من ذهوله.

- إلى المُدرَّعة، أسرعا. هتف بها قائد السيارة مفتول العضلات ذو القميص الرمادي، وهو يواصل إطلاق النيران ليحمي أمينة وطفلتها.

اتسعت عينا إسماعيل في ذهولٍ حين رأى زوجته وقد خلَّصت طفلتها من براثن المقاتلين الأشدَّاء ببراعة قتالية تتعدى حدود إدراكه. تيبَّست مفاصله حتى جذبته أمينة من ملابسه في قوة بإحدى يديها، وهي تحمل طفلتها بالأخرى وتدفعه نحو السيارة المدرَّعة ليقفز ثلاثتهم داخلها يتوارون في مقاعدها الخلفية.

أسقط قائدُ السيارة مقاتلًا آخر قبل أن يقفز داخل مدرعته ويغلق بابيها الأماميَّيْن بضغطةِ زِرٍّ سريعة. أدار مِقوَد السيارة وهو يعود بها إلى الخلف في حركة نصف دائرية أطاحت بأثاث الردهة، ثم انطلق عبر فجوة الجدار إلى الشارع الواسع تلاحقه نيران المقاتلة الصهباء ونائبها المصري.

هبَّ المقاتل المصري من مخبئِه وحاول اجتياز ردهة الـفيلَّا في قفزاتٍ سريعةٍ ليطارد السيارة المدرعة الهاربة، إلا أن الصهباء أمسكت بمرفقه في قوة وهي تقول بصرامة:

- انتظر.. لن يبتعدوا كثيرًا.. سنلحق بهم، ولكن ليس الآن.

ثم أشارت إلى حافظة الأوراق الجلدية الملقاة في ركنٍ قَصيٍّ من الردهة، قائلة في حزم:

- هناك أمور أوْلَى وأهم.. فلنتخلص من هؤلاء أولًا.

مطَّ المقاتل شفتيه في امتعاض، وأدام النظر يحدِّق في

السيارة المدرعة التي انطلقت مبتعدة، ثم تنفَّس في عمقٍ مُحاولًا كظم غيظه والسيطرة على انفعالاته، قبل أن يزفر زفرةَ ضيقٍ أخيرةً ويومئ برأسه موافقًا في استسلام.

***

وفي الطابق الثالث من إحدى البنايات المجاورة، جلس في هدوء رجلٌ عجوزٌ تجاوز الثمانين من عمره ذو شارب كَثّ، وملامح قوية هادئة، يرتدي بذلة أنيقة دَكْنَاء وربطة عنق حريرية متناسقة. جلس على مقعد جلدي وثير واضعًا ساقًا فوق الأخرى، يدخن سيجارًا كوبيًّا فاخرًا أهال رماده في مطفأة كريستال أنيقة على منضدة خشبية، يستقر فوقها مصباح كهربائي ڤيكتوري الطراز. امتد ظِلُّ الرجل المَهِيب يغطي أحد الجدران ليضفي على المشهد المزيد من الرهبة والغموض. حافظ العجوز على هدوئه وهو يتابع في اهتمام حارسه الشخصي ذا الملامح الجامدة والشعر الناعم القصير المنتصب فضي اللون، رغم عدم بلوغه الأربعين، وهو يقف عند النافذة وراء الستارة السميكة يراقب أحداث ڤيلَّا «إسماعيل بك الخازندار» الدامية من خلال نظارة مُقرِّبة ثُنائية العدسة.

تابع الحارس الشخصي الأحداث المتتالية حتى هربَت السيارة السوداء المدرعة منطلقة في شوارع «واحة

هليوبوليس» الخالية. وما هي إلا لحظاتٌ قليلةٌ حتى سطع في الأفق نور أبيض مُتوهِّج تبعه صوت انفجار مكتوم يأتي من ردهة الـڤيلّا المنكوبة، فخفض الحارس النظارة المقربة ونظر إلى سيده قائلًا في اقتضاب:

- لقد غادروا يا سيدي البارون!

أشار البارون العجوز براحته إلى حارسه الشخصي بإشارة ذات معنى، فتحرك الرجل من فوره باتجاه الـڤيلّا ذات الواجهة المحطمة. أسرع الرجل الخُطَى وقد تناهى إلى مسامعه صوت سنابك خيل الفيلق الأسترالي النيوزيلندي، الذي كان يتخذ من لوكاندة «هليوبوليس بالاس» مستشفًى ميدانيًّا، ومن منطقة سباق الخيل معسكرًا تدريبيًّا للقوات المشاركة في الحرب العظمى، حيث انطلقت الخيل تقطع الشوارع حاملةً جنودًا مسلحين ببنادق بدائية لن تصمد للحظةٍ أمام أخطار الـڤيلّا المنكوبة.

وبجوار بوّابة الـڤيلّا الخارجية تأوّه أحد العساكر الأربعة الصَّرْعَى في وَهَن حيث لا تزال عروقه تنبض بالحياة، فاستلّ الرجل ذو الشعر الفِضّي الشائك مسدسه المزوّد بكاتمٍ للصوت وأطلق منه رصاصة استقرت في رأس العسكري المُحتضَر. دلف الرجل إلى الـڤيلّا يتفقّدها، حتى اطمأن لخلوّها إلا من خدّامها الصرعى، فأشعل النيران في

محتوياتها وغادرها مسرعًا قبل أن تنفجر بصوتٍ مُدوٍّ بلغ أقاصي الواحة الهادئة.

***

000011

8:55 صباحًا.. مصر الجديدة

مكث شريف في جلسته بلا حراك لدقائق طالت، لم يحرك فيها ساكنًا، لم تتوانَ المفاجآت المتلاحقة عن تحطيم قدرته على الإدراك، فما حاول النهوض إلا وتلقَّى مفاجأة جديدة أعتى من سابقتها، حتى خضع ورضخ معلنًا استسلامه الكامل لحكم الزمن. تَنهَّد بعمق، مُحدِّقًا في موطئ قدمه، واسترجع ما دار بينه وبين مَنْ تبدو أنها زوجته، مُحاولًا إيجاد أي رابط منطقي يجمع كل ما سمعه ورآه، هل السفر عبر الزمن ممكنٌ أم أنها خُدْعة؟، ولكن حتى وإن كان ممكنًا، فلماذا هو بالذات؟ وكيف حدث ذلك؟ ولماذا؟

قَطَّبَ جبينه، وزفر بعمق، ثم جاب المكان بنظره مجددًا، فلمح بابًا خشبيًّا جرَّارًا واسعًا ذا مصراعين يزدان بزخارف خشبية بارزة في الجانب الأيسر من الردهة. نهض متجهًا نحوه عساه أن يكون باب غرفة المكتب التي ذكرتها ليلى، فقد وجب عليه الآن إدراك ذاته في واقعها الجديد، لعلَّه

يتبين ما حدث له، وكيف حدث. كما يلزمه الآن التعرُّف إلى «شريف»، الشخص الذي أصبح عليه في مستقبله بينما يحيا في الماضي، الشخص الذي يبدو أنه استقرَّ في الماضي بكل أريحيَّة لدرجة تكوين أسرة وإنجاب طفلة صغيرة.

دَلَفَ إلى الغرفة، غرفة مكتب واسعة، يقع في صدرها مكتبٌ خشبيٌّ أنيق، خلفه مقعدٌ جلديٌّ وثير، ويحتل جهاز كمبيوتر عتيق الطراز أحد جوانبه، تأمله شريف للحظاتٍ هربَت خلالها السخرية من عقله الحائر المشوَّش ووجدت طريقها إلى شفتيه، فغمغم ساخرًا: «ممتازا! على الأقل أمتلك كمبيوتر». أدار رأسه يتأمل عددًا لا بأس به من الكتب المتراصَّة في مكتبة أنيقة تحتلُّ أحد جدران الغرفة، معظمها كتب علمية وتاريخية باللغتين: الإنجليزية والألمانية. تناول أحدها، وقلَّبَ صفحاته، فتبين أنه عن «ميكانيكا الكَمّ»، اتسعت عيناه بدهشة، ليس لأنه لا يتذكر تعمُّقه في ميكانيكا الكَمّ إلى هذا الحد من قبل، أو لوجودِ كتابٍ حولها باللغة الألمانية في مكتبته، بل لأنه لم يجد صعوبةً في فهم اللغة والمضمون، هو الذي لم يدرس الألمانية طيلة حياته، وجد نفسه فجأةً يُجيدها لدرجة استيعاب نص ألماني عن فيزياء الجُسَيْمات وميكانيكا الكَمِّ بسهولة ويُسر. عقد حاجبيه متمتمًا: «ألماني وQuantenphysik!» قالها بالألمانية، فصمت للحظةٍ ثم تَنهَّد بعمقٍ وهو يواصل تأمل المكتبة.

لمح في الجزء السُّفْلي من المكتبة درفة مزدوجة مغلقة، أبت أن تستجيب لمحاولاته في فتحها، فأعمل النظر بحثًا عن المفتاح، فلما يئِس عالج رتاجها بأداة فتح الخطابات الحديدية الموجودة على سطح المكتب، ليجد بداخلها خزينة كبيرة يتوسطها قُفْلٌ دائريٌّ عتيقُ الطراز. جثا على ركبتيه يحاول فتحها، فاستعصت، أدار القفل مستخدمًا عدة تركيبات من الأرقام واللفّات، فأبَتْ.

نهض واقفًا يتأمل الخزينة في يأس، ثم مَطَّ شفتيه واتجه صوب المكتب الخشبي الضخم. جلس خلف المكتب يتفقَّد سطحه وأدراجه، يقلِّب في محتوياته، فوجد ساعة «أوميجا»، أولى موديلات «كونستليشين مانهاتن» الشهيرة باهظة الثمن، فوضعها حول رُسْغه وتأمَّلها في إعجاب، ثم غمغم متهكمًا: «رائع يا شريف بيه».

عاودَ تفقُّد محتويات المكتب، فعثر على محفظة جلدية أنيقة، لا بد أنه قد تركها على مكتبه عقب عودته من الخارج ليلًا كما أخبرته ليلى. أخرج محتويات المحفظة يتفحَّصها، قلَّب البطاقة الشخصية الورقية القديمة بين يديه يقرأ سطورها: «شريف عزيز أسعد القاضي.. من مواليد الزمالك في 5 يناير 1935.. المهنة: رجل أعمال!».

أطرق برأسه مفكرًا، 5 يناير هو يوم ميلاده بالفعل، الفرق

الوحيد أن أمَّه قد ولدته حقًّا بعد ذلك التاريخ بنصف قرن من الزمن، في عام 1985. وفقًا للبطاقة فيبدو أنه سيبلغ عامه الخمسين بعد شهرين من الآن، أي أنه فَقَد عشرين عامًا كاملة من عمره منذ أن انقطعت ذكرياته عند سِنِّ الثلاثين.

زفر في ضيق، ثم عاد يقلب في محتويات محفظته التي وجد بينها بطاقات تعريف طُبِعَ عليها اسمه الجديد وتحته جملة «رئيس مجلس إدارة شركة القاضي للاستيراد والتصدير»، إلى جانب بطاقات أخرى لشركاتٍ ورجالٍ يعملون في مجال الاستيراد والتصدير كذلك، أسماء عديدة، «جميل حمزاوي»، و«سليم فاضل» وآخرون.. فغمغم متهكمًا: «استيراد وتصدير؟! بالطبع! فإنها الثمانينيَّات.. بالتأكيد أقوم باستيراد «بولوبيف» وفراخ فاسدة كما في أفلام عادل إمام!»، هزَّ رأسه في حسرةٍ مُنَحِّيًا البطاقات والأموال جانبًا، حين جذبت انتباهَه ورقةٌ صغيرةٌ مطوية. فَضَّها فتبين أنها إيصال تَسلُّم من أحدِ مَحالِّ إصلاح الأجهزة الكهربائية في أحد ميادين مصر الجديدة يُسمَّى «نسيم سمعان لإصلاح الأجهزة الكهربائية».

إيصال بتَسلُّم كابل كهربائي بغرض الإصلاح وبصورة عاجلة، ليكون موعد تسليمه للعميل في السادس من نوفمبر، أي اليوم، كما أخبرته ليلى وأيَّدتها الجريدة.

عقد حاجبيه للحظاتٍ يتفحَّص الإيصال، ثم انتفض من مقعده بغتةً فاغرًا فاهُ، حين وقع بصره على اسم العميل. فكما هو مدوَّن في الإيصال، اسم العميل هو «الأستاذ/ أحمد سالم».

هبَّ شريف واقفًا مذهولًا، فيبدو أنه استخدم اسمه الحقيقي، اسمه الذي يأبَى الجميع أن يناديَه به منذ الصباح.

إذًا فحتى أمس، لم يكن يحيا في حياته الجديدة فاقدًا ذكريات حياته الأولى، كان يدرك ذاته، كان يفطن إلى ازدواجية حياته الحالية، كان على علم بأنه «أحمد رؤوف سالم» وليس «شريف عزيز القاضي». ابتسم للحظاتٍ، ما لبث أن تحولت فيها ابتسامته إلى مزيجٍ من التَّوَتُّر والشك، فلماذا استخدم اسمه الحقيقي؟ ولمَ العجلة في إصلاح كابل كهربائي يتسلَّمَهُ في نفس يوم سفره كما خَبِرَ من ليلى؟ قَطَّبَ جبينه بشدة، وهو يقلب الأمر على الأوجه كافة، أكان يستتر باسمه الحقيقي من خطرٍ ما يداهمه، أكانت رسالةً منه إلى نفسه عندما استشعر الخطر.. أم أن الأمر كله لا يعدو كونه خُدْعَة مُحكمة، وأن تلك الورقة قد وجدت طريقها إلى المحفظة بطريق الخطأ، قد يكون نسيها مَنْ أعدَّ الخدعة. تضاعفت حيرته، ثم هرول إلى نافذة الغرفة يحدِّق في انعكاس وجهه في زجاجها، يَحُكُّه بعصبية وعنف لعله يزيل

آثار مساحيق تجعله يبدو أكبر سِنًّا.

تبدد الأمل من روحه بعد أن تبين أن تجاعيد وجهه حقيقة لا مجال فيها للخداع، فاستيأس، وأطرق برأسه، مستندًا براحتيه إلى طرف المكتب. كادت أن تترقرق عيناه بدموع الأسى والقنوط، إلا أن صلابته أبَتِ الاستسلام، فاعتدل في وقفته ثم اندفع خارج الغرفة يصعد السلَّم إلى الطابق العلوي في وَثَباتٍ سريعة، فلا سبيل للتأكُّد مما التبس عليه سوى بالخروج، لا وقت لليأس أو الحيرة، عليه أن يستطلع الأمر بنفسه.

دلف مسرعًا إلى حجرة نومه، الحجرة التي بدأ فيها الأمر كله، فإذا بليلى، زوجته، تحمل طفلتها الرضيعة تُرضعها في حنان، وقد كَسَا الوجوم ملامحها. هدأت خطواته، ووقف لحظاتٍ يتأمل المشهد، ثم تقدم بخطواتٍ مترددةٍ ثقيلةٍ إلى حيث تجلس ليلى وابنتها، متجاهلًا نظراتها المتشككة وهو يدنو من الرضيعة.

اقشعرَّ بدنه، واختلج قلبه في صدره الذي أخذ يعلو ويهبط مع وَقْع أنفاسٍ بطيئةٍ علا صوتها فلم يعُد يسمع سواها. توقف العالم والزمن بغتةً فور أن وقعت عيناه على سلمى، ابنته.. «رَبَّاه!!»، صرَخَت روحه تناجي ربَّها، الذي أبدع كل شيء خلقه. لم يخفق قلبه من قبل كتلك اللحظة، تأملها وهي

ترضع في سكينةٍ وطُمأنِينَة، مشاعر جارفة متناقضة هزَّت وجدانه، سَرَتْ في جسده رجفة كصدمة كهربائية أيقظت قلبه وعقله، فهتف في حرارة:

- سلمى!!!

رفَعتْ ليلى عينيها في لهفةٍ تنظر إلى شريف الذي وقف مشدوهًا يتأمل ابنته، حين تدفَّقت ذكريات واهنة إلى عقله. تذكَّر ولادتها، تذكر حملها بين ذراعيه، تذكر مشاعره عندما رآها للمرَّة الأولى، بل مشاعره عندما سمع بكاءها الأول. أضاءت تلك الذكريات عقله ببارقة أمل، ما لبثت أن تبددت مع كثافة غيوم لم تنقشع بعدُ عن ذاكرته، لكنها على الأقل بدَّدت يأسًا كاد أن يودي به.

صمت لبرهة، ثم شرع يرتدي ملابس تسمح له بالخروج من المنزل وتقيه البرد، فتساءلت ليلى في قلق: «هل ستخرج الآن؟!».

واصل ارتداء ملابسه، وهو يُجيبها مُطمئِنًا:

- لا تقلقي.. لن أتأخر.

- هل ستخرج وأنت في تلك الحالة؟

- أنا أفضَل الآن.. أين مفتاح السيارة؟ كان معي حين فقدت

الوعي.

- في الرَّدْهَة على المنضدة. صمتت للحظةٍ ثم أردفت في توسُّل: «لا تتأخرا»

اكتفى بابتسامة هادئة مُطمئِنة، وألقى نظرةً حانيةً على سلمى، ثم أسرع متجهًا إلى السيارة، والتقط في طريقه سلسلة المفاتيح وكذلك محفظة نقوده من غرفة المكتب.

دلف إلى سيارته السويدية الزرقاء، ماركة ڤـولـڤـو، موديل 240 الشهير في تلك الفترة من الثمانينيَّات، وأدار محركها وانطلق مبتعدًا.

وقبل ابتعاده، وعلى بُعد أمتار قليلة من منزله، وفي سيارة سوداء ألمانية الصنع جلست امرأة بيضاء، رياضية القوام، سوداء الشعر، تراقبه في اهتمام. ومع انطلاقه، زفرت المرأة في عمق، ثم أدارت محرِّك سيارتها، وانطلقت خلفه تتبعه في هدوء.

***

000010

10:00 مساءً..

تسلَّل الوعي في بطءٍ يوقظ خلايا يحيى العصبية، تباعدت

جفونه في وَهَنٍ لتفسح الطريق أمام ضوء أصفر هادئ يَعْبر حدقتيه فيُنَشِّط شبكية عينيه الخاملة، فيما غَزَت رائحة المطهِّرات الطبية أغشية أنفه لتَبعَث خلايا الجسد من رُقادٍ طال. قضى لحظاتٍ ودقائق حتى تخلل وعيه ثنايا عقله المظلمة، أضاء بؤر الإدراك المتفرقة في تتابُع مؤلم، وخز إبر عملاقة تخترق ظهره وكتفيه.. مكابس عملاقة تسحق عظامه.. وهن وآلام تسري في عروقه.. تأوَّه في ضعف، فلم تتجاوز الآهات شفتيه.. تسلل الوعي فأضاء بؤرة الذكريات، ومضات متتابعة من مشاهد مختلطة.. عشاء، شاشة كمبيوتر بأسطر خضراء متتابعة، فيلم رسوم متحركة، ضحكات، صرخات.. ثم دماء.. دماء تغطي كل شيء، ملثمون متَّشحون بالسواد يُطلقون نيرانًا كثيفة، زجاج يتطاير، تعبيرات الهلع تعتلي الوجوه، وجهه وطفلاه.. مصطفى وآدم.. فصرخ، أو جاهد ليصرخ، فأخرسته الآلام وكَبَّلَه الوَهَن، فاستحالت صرخته إلى همهماتٍ ذابلةٍ لا تكاد تبلغ أذنيه.

- «لقد استيقظ المريض من الغيبوبة».

صوت أنثوي يتردد في أنحاء الغرفة، صوت هادئ مريح تسرَّب عبر أذنيه فأيقظ ما تبقَّى من خلاياه الغافلة، تابَع الصوت بنفس الهدوء:

- مرحبًا بعودتك من جديد يا سيدي.. فريدة في خدمتك.

بدأ ضوء الغرفة في السطوع تدريجيًا، تحول اللون الأصفر الواهن إلى لون أبيض بهيّ مريح للعين ينبعث من تجاويف رفيعة في جدران الغرفة.. جال بنظره في أرجاء الغرفة بحثًا عن مصدر الصوت، فلم يجده.. تحامل على نفسه ليحافظ على عينيه مُوَارَبَتين يتأمل مرقده، أعمل النظر فيما حوله مرَّاتٍ ومرات، حتى بلغ الوعي غايته واستفاق عقله.. أدرك أنه يرقد على سرير طبي في غرفة واسعة تبدو كإحدى غرف المستشفيات برائحتها المميزة. تحيط بالسرير عدة ألواح زجاجية شفافة فيما يشبه الحواسب اللوحية التي تعرض وظائفه الحيوية، نبضات قلبه، معدل تنفسه، أرقام متعاقبة تتسابق مع خطوط إشارات قلبه ودماغه الكهربائية وهي تعدو في طريقٍ أبديٍّ لا نهايةَ له.. لم يشعر بأسلاك أو مجسَّات تلتصق بصدره وأطرافه كما جرت العادة، بل لاحظ أعلى رأسه جهازًا له شكل نصف دائري تصطفُّ عليه بالتناوب مصابيح صغيرة سوداء وبيضاء مُعتِمة لا يخرج منها ضوء.. نزع قناع التنفس عن أنفه، وحاول الاعتدال في مرقده، فتهدَّجت أنفاسه، وتأوَّه في ألمٍ قبل أن يخرَّ جسده راقدًا من الوهن. تعالت أنفاسه اللاهثة فعاجَله الصوت الأنثوي من جديد:

- من فضلك ابقَ دون حراك حتى وصول طاقم التمريض.. لقد تم إخطارهم بالفعل.. وهم في طريقهم إليك.

ما إن أتمَّ الصوت جملته حتى انفتح باب الغرفة الذي يشبه أبواب الطائرات، مُصدرًا صوتًا أشبه بمعادلة الضغط الجويّ ومعه هسيس غاز التعقيم الأبيض، وهو يخرج من جوانبه ليغطي الزائرة ويُعقّمها. دلفت ممرضة قصيرة هادئة الملامح قبل أن ينغلق الباب من خلفها تلقائيًا. تقدمت نحوه وابتسامتُها الرقيقة تعلو وجهَها، ثم قالت بنبرةٍ حانية:

- حمدًا لله على سلامتك يا سيدي.

حاول يحيى الاعتدال من جديد وهو يقول بصوتٍ واهنٍ غلبه الألم:

- أين ولداي؟ أين آدم ومصطفى؟! وأين رانيا؟! أهم أحياء؟! طمئنيني أرجوكِ.

لم تدرِ الممرضة بماذا تخبره، فلاذت بالصمت وأطرقت في شفقة، فتابع بجزع:

- هل أصابهم مكروه؟! هل قُتلوا؟!

فأسرعت تجيبه:

- «لا لا.. اطمئن!» صمتت لوهلةٍ تتأمله ثم أضافت: «ولكن لنطمئن نحن على صحتك أولًا.. فلقد مكثتَ في غيبوبةٍ لمدة ليست بالقصيرة».

اتسعت عيناه في ذهول وهو يحدِّق في وجهها للحظاتٍ طالت قبل أن يتجاوز ذهوله ليسألها:

- «غيبوبة!! منذ متى وأنا هنا؟!»، ثم عقد حاجبيه وقد بدأ الغضب يكسو ملامحه ويجد طريقه إلى نبراته: «لماذا لا تريدين إخباري بأمر أسرتي؟ ماذا تخفين عني؟!»

أقلقَتها نبرتُه الغاضبة، فتلعثمت وهي تقول في لهجةٍ حاولت أن تجعلها حازمة:

- من فضلك تمالك أعصابك! فحالتُك لا زالت غير مستقرَّة.. لقد تم إخطار د. أيمن، الطبيب المسئول عن حالتك تلقائيًا بواسطة نظام متابعة المرضى المعزز (Enhanced Patient Monitoring System)، وسيحضر إلى هنا في غضونِ دقيقةٍ على الأكثر.. هو فقط من يستطيع الإجابة عن تساؤلاتك كافة.

همَّ أن يهتف في وجهها مجددًا لولا أن قطع حديثهما صوتُ هسيسِ غازات التعقيم المميز لفتح باب الغرفة، حيث دلف طبيب شاب ضئيل الجسد في منتصف الثلاثينات من عمره. خَطَا الطبيب النحيل بهدوء نحو يحيى، قبل أن يرمق الممرضة الشابة بنظرة مستنكرة وقد لمح علامات غضب وتوتر لم تُخطئها عيناه، ترتسم على وجه مريضه الذي استفاق توًّا من غيبوبةٍ طالت. هزت الممرضة كتفيها

في استسلام، وأشاحت بوجهها بعيدًا، ثم تراجعت خطواتٍ قليلةً إلى الوراء لتفسح المجال للطبيب، الذي نظر إلى يحيى بابتسامةٍ هادئةٍ وهو يقول:

- مرحبًا بعودتك إلى الحياة مرة أخرى.. أنا د. أيمن النشّار طبيب المخ والأعصاب المسئول عن حالتك.

حافظ على ابتسامته وهو يُخرج من جيب معطفه لوحًا زجاجـيا شفَّافًا صغيرًا بحجم كفّ اليد، تأمله باهتمام وعيناه تتحركان في حركات رأسية بطيئة فتَتبعها البيانات بصورة متزامنة على الجهاز اللوحي. ثم مَطَّ شفتيه وهزَّ رأسه في رضا، قبل أن ينظر إلى يحيى قائلًا وقد اتسعت ابتسامته:

- المؤشرات الحيوية كلها إيجابية.. جزيئات النَّانُو في موضعها.. الوظائف العصبية والعضلية تعمل بكفاءة.. نحتاج إلى المزيد من الوقت فحسب.. ومع جهاز التعافي المُتسارِع (Accelerated Recovery Device)، سيمكنك الخروج من المستشفى في خلال أسبوع على الأكثر. تأمل نظرات يحيى التائهة، وحافظ على ابتسامته وهو يسأله: «هل تستطيع أن تخبرني باسمك؟ وتاريخ مولدك؟»

تبدَّد الغضب من وجه يحيى وحلَّ محلّه المزيد من التَّوتُّر والحيرة، فحدَّق في وجه أيمن يتفرَّس ملامحه في شك، ثم أجابه ببطء وحذر:

- يحيى عبدالحكيم المصري.. مواليد القاهرة سنة 1978.

- «1978!!»، قالها أيمن في دهشةٍ قبل أن يتابع: «وماذا بشأن.....»

- أستحقق معي؟! أين أسرتي؟ لماذا لا تريدون إخباري بمصيرهم؟

صاح يحيى يقاطعه بعد أن تضاعَف توتره. لم يتضاعف فقط بسبب ما يلمسه من تجاهل مُتعمَّد لأمر أسرته، بل نتيجة كل ما يراه منذ أن أدركه الوعي، الغرفة، الأجهزة المحيطة، الطبيب ومُرافِقته، بل حالته الصحية هو شخصيًّا، لقد استعاد قدرته على الغضب والحديث في زمنٍ قياسيّ رغم ما يشعر به من الوَهَن والضعف.

عقد أيمن حاجبيه، ثم نظر إلى الممرضة متسائلًا، فمطَّت شفتيها ورَفعتْ حاجبيها بمعنى «هذا ما أردت أن أخبرك به»، ثم قالت وهي تنظر إلى يحيى في إشفاق:

- مستر يحيى يريد الاطمئنان على أسرته.. زوجة وولدان يخشى أن يكون قد أصابهم مكروه.

صمت أيمن مفكرًا للحظات، ثم سحب نَفَسًا عميقًا وهو ينظر في عَينَيْ يحيى مباشرةً قبل أن يقول:

- مستر يحيى، اسمح لي أن أكون صادقًا معك.. منذ فترة، عثرت عليك قوات الإنقاذ السريع مصابًا بطلقات قاتلة في منطقة قاحلة في صحراء شرق القاهرة.. إصابات متفرقة في الكتف والظهر، إلى جانب إصابة خطيرة في العمود الفِقَريّ.. لحُسن الحظ فقد تم إنقاذك بعد إصابتك بثوانٍ معدودة، كما أثبتت التحاليل، فجاء تدخلنا في الوقت المناسب.. قمنا بعد ذلك بإجراء عمليات مجهرية، وعلاج العمود الفقري باستخدام جزيئات النانو؛ وكذلك تم تعويض الأعصاب التالفة بالجزيئات التعويضية الملائمة.. وأما بالنسبة إلى عضلات الظهر فقد عوضنا التالف منها بألياف عضلية مُصنَّعة.. وبالفعل نجحت العمليات الدقيقة كافة، لكنك مكثت بعدها في غيبوبة عميقة.

راقب أيمن علامات الحيرة والذهول وهي تغزو ملامح مريضه حين عجز عن إدراكِ جُلِّ ما ذكره. هزَّ يحيى رأسه لينفض عنه الذهول، قبل أن يهتف في الطبيب مستنكرًا:

- ماذا تعني بالعثور عليّ وسط الصحراء؟! لقد كنت في بيتي وسط أسرتي!

تَنهَّد أيمن في عمق قبل أن يضيف:

- هنا تكمن المشكلة. فلقد عثرت عليك قوات الإنقاذ السريع وحدك تمامًا في منطقة تبعد عن العمران بقرابة ثلاثين دقيقة

على الأقل، في منطقة قاحلة لا يوجد بها آثار أخرى لبشر أو سيارات أو حتى دَوابّ.. وكأنك هبطتَ من السماء.

تهدجت أنفاس يحيى وتسارعت ضربات قلبه، صمت أيمن قلقًا، فصاح فيه يحيى بغضب يحثُّه على الاستمرار، فرضخ الطبيب وزفر في استسلام ثم أردف:

- قامت الأجهزة الأمنية بالاستعلام عنك في قاعدة البيانات المركزية للحَمْض النووي، لكنهم لم يجدوا سجل حمضك النووي، وهذا أمر غير مفهوم.. فأنت تعلم بالطبع أن أي طفل يُولد في العالم منذ عام 1971 يتم تسجيل حمضه النووي في قاعدة البيانات المركزية بصورة آليَّة؛ ولهذا تعجبت كونك من مواليد 1978 كما تقول. عقد حاجبيه ثم أضاف في بطء: «أما بالنسبة إلى طفليك، فمع الأسف بالبحث في قاعدة البيانات المركزية، لم تجد السلطات تشابهًا لحمضك النووي لا مع والدين ولا مع أطفال محتملين!» ثم استطرد في بطءٍ مؤكدًا كلماتِهِ: «بالنسبة إلى السلطات الأمنية أنت مجرد شبح!»

اتسعت عينا يحيى عن آخرهما وهو يحدِّق في وجه الطبيب، واختلج صدره بمزيجٍ مخيفٍ متنامٍ من الذعر والغضب، فارتعشت شفتاه وهو يغمغم:

- «شبح؟! أنا لا أفهم حرفًا مما تقول! ماذا تعني بعدم وجود

آدم ومصطفى؟! وما قاعدةُ بيانات الحَمْض النووي تلك؟ ما هذا الجنون؟»، ثم صرخ في غضب هادر: «ما هذا الهُراء الذي تتفوَّه به؟! أنا أريد أطفالي!!»

واصل يحيى صياحه الغاضب، ثم أمسك بذراع أيمن في عنف محاولًا النهوض، فخانته قُوَاه، وتهاوى على الفراش، فتأوَّه في ألم، ثم تمادى في صياحه الهستيري مُلتاعًا على طفليه. أُسقِط في يد الطبيب الذي تراجع خطوة إلى الوراء بعد أن انتزع معصمه من قبضة مريضه الواهن، حين تردد في الغرفة ذلك الصوت الأنثوي من جديد:

- صدمة عصبية محتملة.. يُنصح بإعطاء مهدئ بصورة فورية.. د. أيمن، هل تصرح بإعطاء جرعة مهدئة؟

- نعم يا فريدة.. أصرح بإعطاء الجرعة.. كود 325.

- أمرُك سيدي.. سيتم حقن المريض بجرعة مهدئ وفقًا للبروتوكول رقم 325.

قالتها، ثم أُضيئَت إحدى اللوحات الزجاجية المثبتة بجوار السرير بلون أحمر قرمزي، تلاه سَرَيان سائل من اللون ذاته ينساب في الأنبوب الشفاف المتصل بوريد يحيي، فهدأ وأغمض عينيه ونام من فوره.

أطال أيمن النظر إلى يحيى، التقط أنفاسه ثم التفت إلى

الممرضة قائلًا:

- يجب أن نبلغ المُقدَّم خالد بما حدث.. سأعدل بروتوكول العلاج للأيام القادمة.. تابعي التنفيذ مع فريدة بكل دقة.

أومأت برأسها في طاعة. همّا بالخروج من الغرفة، إلا أن توقَّفَ أيمن مُطرِقًا يفكر ويسترجع ما حدث في الدقائق الماضية، ثم قال في حزم:

- فريدة، أرجو إبلاغ المقدم خالد صبري، وإرسال الحوار كاملًا.. كود أمني 7.

رد الصوت الأنثوي الهادئ قائلًا:

- تم إرسال التسجيل مع رسالة عاجلة، كود أمني 7، إلى المقدم خالد صبري.

- حسنًا! أرجو تعقيم الغرفة إلى الدرجة البيضاء.

قالها أيمن ثم غادر الغرفة في خُطًى بطيئة حائرة ومتوترة، قبل أن يُغلَق الباب من خلفه مُصدرًا صوته المميز، تاركًا يحيى يرقد في سُباته العميق، وفريدة تواصل سرد خطوات التعقيم المتتالية، إلى أن خفتت الأضواء تدريجيًّا وساد الضوء الأصفر الهادئ مجددًا.

***

000011

10:00 صباحًا.. مصر الجديدة

انطلق شريف بسيارته ينهب شوارع مصر الجديدة متجهًا إلى ميدان الحجاز حيث محل «نسيم سمعان» الكهربائي، لعله يجد تفسيرًا لاستخدام اسمه الحقيقي في الإيصال الذي عثر عليه مطويًا في محفظته. لجوؤه إلى تغيير اسمه المعروف به في هذا الزمن يعني أن ثمّة أمرًا ما يلزم الحيطة. ثم ما كُنْه ذلك الشيء الذي يستدعي إصلاحه كل هذا التخفي. «ألذلك فقدَ الذاكرة؟» تردد السؤال في عقله، فشرد ذهنه يَزِن الاحتمالات كافة، حَدْسه يخبره أن هذا هو طرف الخيط الذي سيقوده حتمًا لمعرفة ما ألمَّ به. بل قد يكون هو الخيط الوحيد المتاح حاليًا.

وسيارته تجوب شوارع مصر الجديدة الهادئة، شرعَ شريف يتأمل البنايات والشوارع ولافتات الإعلانات، وملصقات الأفلام (الأفيش) المرسومة يدويًا والمميزة لسنوات ما قبل الصور الرقمية. تذكّر فترة طفولته في نهاية الثمانينيّات بكُلِّ تفاصيلها، وأفلامها، وأغانيها، تذكّر عندما كان يلعب الكرة مع أقرانه في الشارع الخالي تحيطه الأشجار الوارفة من كل جانب، تذكر مدرسته الواقعة في شارع الحجاز، أحد أشهر شوارع مصر الجديدة، ومُدَرِّسيه وأصدقاء طفولته.

نوستالـچـيا صارخة ألهبت كيانه، فتَنهَّد في حرارةٍ مع شبح ابتسامة وجدت طريقها إلى فمه، رغم كل ما يمر به، حين غمغم بالإنجليزية: «إن الأمر ليس بهذا السوء رغم كل شيء».

استرعى انتباهَهُ انتشارُ صور الرئيس السادات في معظم الشوارع، فتذكَّر أن ذكرى حرب السادس من أكتوبر قد مر عليها شهر واحد فقط، وقد يكون انتشار صور الرئيس الراحل نوعًا من الوفاء في ذكرى اغتياله الثالثة. الشوارع والبنايات تبدو أكثر نظافةً وجمالًا، هناك اختلافات طفيفة عما يَذكُره، اختلافات لا يدري كُنْهَها، لكنها تضفي رونقًا وبهاءً على الحي الهادئ.

لمح من بعيد لافتة «نسيم سمعان لإصلاح الأجهزة الكهربائية»، فأوقف سيارته بعيدًا، وغادرها مترجِّلًا، ثم سار بخُطًى هادئة يتأمل ما حوله حتى دلف إلى المحل، فاستقبله شابٌّ في بداية الثلاثينات من عمره، صائحًا في حرارة:

- أستاذ أحمد! لقد حاولت الاتصال بك، لكنك لم تترك رقم هاتفك.. انتظرني ثواني قليلة وسأكون معك.

اكتفى شريف بابتسامةٍ تخفي ارتباكه، وراقب الشاب وهو يتحدث إلى سيدة عجوز، سرعان ما أنهى معها حديثه واصطحبها إلى الباب. فألقى شريف نظرة عابرة على المحل،

محل صغير تتراصُّ فيه بعض الأجهزة الكهربائية المفتوحة في غير نظام، ثم تسمَّرت عيناه بغتة، واتسعتا في دهشة، حين لمح «نجمة داود» السداسية معلقةً على أحد جدران المحل، وإلى جوارها بعض اللوحات المنقوش عليها صلوات باللغة العِبْريَّة. عقد حاجبيه مفكرًا، وربط ذلك بملامح الشاب السامية، واسم المحل ذي السَّمْت العبري، فتمتم متعجبًا: «هل ظل اليهود يعيشون في مصر الجديدة حتى منتصف الثمانينيَّات؟ أنا لا أتذكر أمرًا كهذا».

أدار بصره إلى الشاب الذي اصطحب السيدة العجوز إلى الخارج، ثم تلفَّت حوله في حذر قبل أن يغلق باب المحل من الداخل، ويدير اللافتة المعلقة على الباب الزجاجي لتشير إلى أن المحل «مُغلَق». ثم نظر الشاب إلى شريف نظرةً ذات معنى، مشيرًا إليه كي يتبعه إلى غرفة مكتبه خلف باب مغلق صغير في نهاية المحل.

تضاعفت الرِّيبَة في نفس شريف، وإن لم تظهر على ملامحه الذي أرهقه الحفاظ على هدوئها رغم كل ما يعتمل في صدره من شَكٍّ وارتباك، بل وغضب. تقدم يتبعه إلى غرفة المكتب الذي جلس خلفه الشاب العبراني، مشيرًا إلى شريف بالجلوس وهو يقول: «مع الأسف لم أتمكن من إصلاح السلك.. لسنا معتادين في مصر على تلك

التكنولوچـيا».

صمت شريف عاقدًا حاجبيه وضامًّا شفتيه في استياء، هو لا يدري عما يتحدث الشاب تحديدًا، لكنه يشعر أن في إصلاح ذلك الكابل أو السلك، أو أيًّا كان كُنهَهُ، يكمن السر. فتلعثم الشاب، وأردف:

- لقد حاولت إصلاحه كما أخبرتني بالضبط، استبدلت قطع الغيار التي طلبتها بكل دقة.. ولكن دون جدوى! صمت لوهلةٍ تأمل فيها وجه شريف الذي ظل صامتًا ينظر إليه في ثبات، فاستدرك قائلًا: «إلا إذا......»

عاجله شريف بلهجةٍ هادئةٍ وحازمة:

- إلا إذا ماذا؟

ضاقت عينا الشاب الزرقاوان وهو يقول في خبث:

- أستاذ أحمد، من أين لك بمثل ذلك السلك؟

ارتبك الشاب عندما لم يتلقَّ إجابة، واصطدم بوجه شريف الجامد، فاستدرك:

- لا يهمني بالطبع من أين لك به أو ما كُنْه تقنيته المتقدمة.. أنا أدرك تمامًا أنه ولهذا السبب تحديدًا أنت قد جئت إليَّ أنا. ثم رفع هامَتَهُ وهو يضيف في فخر: «جئت إلى نسيم».

صمت لبرهةٍ وقد توتر مجددًا وهو يتأمل قسمات شريف الجامدة ونظراته الثابتة التي لا تتغير، فاستطرد قائلًا:

- كما أخبرتك، لقد استبدلت القطع التي طلبتها وقمت بلحام الجزء المقطوع.. لكن كانت هناك مشكلة أخرى... ضاقت عيناه وهو يميل إلى الأمام ليقترب بوجهه من شريف، قبل أن يتابع في بطء: «مشكلة في قطعة غيار أخرى.. قطعة غيار لن يجدها أحد في مصر أو في خارجها..»، ثم أضاف في خبث: «بالطبع أنت تفهم ما أعنيه؟»

- ماذا تريد بالضبط؟ اختصرا

قالها شريف بتلك النبرة الحازمة الهادئة التي ضاعَفت من توتر نسيم، فتراجع الأخير في مقعده مرتبكًا، وقد شعر بأن عَينَيْ شريف الثاقبتين تسبران غَوْرَه وتكشفان ما يجول بخاطره. نفض نسيم عنه تلك الأفكار، وحاول السيطرة على نبراته واختلاج شفتيه حتى لا يُظهِر ضعفًا أو توترًا وهو يقول:

- «لقد حصلت على تلك القطعة النادرة، والتي لا يوجد منها اثنتان»، ثم غمز بعينه وتابع بأسلوبه الخبيث ذاته: «لكن التكلفة ستكون باهظة».

حافظ شريف على هدوئه، وهو ينزع ساعته الثمينة

من حول معصمه، ويضعها على سطح المكتب، ثم يدفعها بأصابعه ببطءٍ في حركةٍ مسرحيةٍ نحو نسيم. سال لُعاب الأخير، وهو يفحص الساعة بين يديه في جشع، ثم رفع نظره إلى شريف الذي قال بلهجةٍ صارمةٍ آمِرَة:

- أرني تلك القطعة!

- حالًا.

هتف بها نسيم في لهفة، ثم عالج قُفْل الخزينة خلفه وأخرج منها سلكًا أسود اللون، ولوحة دوائر كهربائية سوداء كذلك، وناولهما إلى شريف. تفحَّص الأخير السلك بدهشةٍ حاول ألَّا تظهر على ملامحه، فهو سلك أسود ذو طرفَيْن يشبهان إلى حدٍّ ما أطراف سلك USB أو USB-C، ولكنهما ليسا كذلك. توسَّط السلكَ كرتان مصمتتان إحداهما أكبر من الأخرى، في حجمِ كفِّ اليد، وتبدو وكأنها نوعٌ من أنواع المحولات الكهربائية المتطورة أو ما شابه. هو بالتأكيد لم يرَ مثيلًا لذلك السلك من قبل، وحتى انقطعت ذكرياته في عام 2015.

فشل شريف في الحفاظ على هدوئه، وارتسمت الدهشة ثم الذهول على ملامحه، وهو يمسك بلوحة الدوائر الكهربائية السوداء يقلِّبها بين يده. إنها ليست لوحة دوائر عادية، بل هي مُعالِج بيانات كمِّي (Quantum Processor)متطور

لم يكن ليتواجد في عصره المستقبلي، إلا في الحواسب الكمِّية العملاقة التي تتطلب درجة حرارة الصفر المطلق. لقد فطن إلى طبيعة معالج البيانات من اللحظة الأولى التي وقع فيها بصره عليه، وذلك لخبرته الجديدة في مجال ميكانيكا الكَمِّ والحواسب الكمِّية، والتي يبدو أنه اكتسبها خلال سنواته العشرين المفقودة.

«مستحيل»، تمتم شريف وهو يدير بصره بين اللوحة وبين نسيم الذي ارتاب من ردَّة فعله، فهمس الأخير في توتر:

- هذه هي القطعة التي يجب تركيبها.

تجاهله شريف تمامًا، وسيطرتْ على عقله فكرة واحدة فقط، ذلك السلك بمُكوِّناته لا يمكن أن ينتمي إلى زمنه، ماضيه ومستقبله على حَدٍّ سواء، تلك التكنولوچيا يفصلها عن عام 2015 ثلاثون عامًا أخرى على الأقل، لا يمكن تطويرها قبل أربعينيَّات الألفية الجديدة بأي حال من الأحوال..

كيف ذلك؟ كيف وصلت تلك التكنولوچيا إلى ثمانينيَّات القرن العشرين؟

بل كيف وصلت إليه هو شخصيًّا؟!

«هل ذهب إلى المستقبل كذلك؟».

تفجَّرت تلك الخاطرة في عقله، وكادت أن تُودِي بوعيه مجددًا.. فهل عاش في المستقبل قبل أن يأتي إلى الماضي؟ أم أنه الآن يعيش في المستقبل؟

***

نفض شريف عن ذهنه التساؤلات الجديدة حول جولاته في مجرى الزمن، وتحولت حيرته وتشوُّش ذهنه إلى غضبٍ عارم، فنظر إلى نسيم نظرة غاضبة بثَّت الخوف في نَفْس الأخير، ثم أتبعها بلهجةٍ صارمةٍ وهو يقول:

- كيف جئت بتلك القطعة؟

تلعثم نسيم وهو يجيبه بنبرةٍ فشلت في أن تداري خوفه:

- مُهرَّبة.. مُهرَّبة من السوق السوداء في أوروبا.

استشاط شريف غضبًا، ولم يدرِ بنفسه إلَّا وهو يباغت الشاب العبراني ويمسكه من تلابيبه في قوة. تصاعدت الصرامة والقسوة في نبراته وهو يقول:

- «لن أكرر سؤالي مرة أخرى.. تلك التكنولوجيا تسبق عصرك بستين سنة على الأقل». عقد حاجبيه وهو يكرر سؤاله ببطء مُشدِّدًا على كلماته: «كيف جئتَ بتلك القطعة؟»

صرخ فيه نسيم:

- كيف تجرؤ أيها الـ.....

قاطعه شريف وقد خطف فتَّاحة الخطابات من فوق المكتب، ووضع نصلها على رقبته في حركة سريعة قائلًا في قسوة:

- كيف جئتَ بها؟ وكيف عرفت طبيعتها النادرة؟

أجابه نسيم وقد تمكَّن منه الهلع:

- فتاة! فتاة أحضرتها إليّ وطلبت مني تركيبها، واستبدالها مثيلتها الأصلية في السلك!

غمغم شريف وقد تراخت قبضته الممسكة بملابس الشاب:

- فتاة! أيَّة فتاة؟! ولماذا؟!

انتهز نسيم الفرصة وأبعد رقبته عن نصل فاتحة الخطابات، وخَلَّصَ ملابسه من يد شريف، ثم هَبَّ واقفًا، وتراجع خطوتين إلى الوراء بعد أن استلَّ مسدسًا صغيرًا يخفيه أسفل سطح مكتبه.

ارتعشت يده وهو يصوِّب المسدس نحو شريف قائلًا في جزع:

- «لا أعلم.. واترك المحل حالًا»، ثم صرخ: «اخرج الآن!»

نظر شريف إلى المسدس الذي يصوبه إليه نسيم في صرامة وهدوء عَجِبَ لهما، ثم باغَت الأخير بحركة سريعة احترافية انتزع فيها المسدس من يده، في نفس اللحظة التي عاجَله فيها بضربه جانبية من مرفقه أسقطته أرضًا، ثم جثم على صدره بإحدى ركبتيه مُصوِّبًا المسدس إلى منتصف جبهته، وهو يمسك بالمسدس بكلتا قبضتيه.

تصلَّبت عضلات شريف لوهلةٍ والذهول يحاول السيطرة على عقله، فكيف له ما فعله لتَوِّه؟ ثم ما لبث أن استعاد زمام السيطرة على نفسه سريعًا، وحدج نسيم بنظرةٍ أودت بما تبقَّى من مقاومة الأخير، وهو يقول في صرامة:

- مَنْ هي تلك الفتاة؟! ولماذا طلبت منك ذلك؟

صرخ نسيم في هلع وقد فقد السيطرة على أعصابه بالكلية:

- لا أعلم!! لا أعلم!! هي فقط منحتني مبلغًا كبيرًا من المال وطلبت مني استبدال القطعة دون أن أخبرك. ازدرد لُعابَه ثم استطرد: «لكنني طمعت.. طمعت في المزيد، فحاولت مساومتك، فالقطعة تبدو غالية الثمن ونادرة.. هذا هو كل شيء.. أقسم لك».

- ما اسمُها؟ صِفْها لي!

- لا أعلم.. لم تذكر اسمها.. هي فتاة مثل باقي الفتيات.. بيضاء، ممشوقة القوام، ذات شعر أسود قصير.. لم أرَ عينيها حيث أخفتهما بنظارة شمس قاتمة.. أقسم لك أن هذا هو كل ما حدث.. ليس لديَّ المزيد.

تفرَّس شريف تعبيرات وجهه للحظات مرَّت دهرًا على نسيم الملقى أرضًا وصدره يعلو ويهبط من الرعب، بينما تئنُّ ضلوعه من الألم. الرجل لا يكذب، هو فقط طمَّاع.

نهض شريف ببطء، وتراجع خطواتٍ إلى الوراء محافظًا على فوَّهة المسدس باتجاه جبهة نسيم الذي أمسك أنفاسه من الخوف. ثم جمع السلك ومُعالِج البيانات الكمِّي وكذلك الساعة الثمينة ووضعها في جيب سُترته، منذرًا الشاب العبراني في صرامة:

- «إذا جاءت الفتاة مجددًا أخبرها بأنك نفذت ما أمرتْكَ به.. وحاول أن تعرف منها المزيد»، ثم عقد حاجبيه وهو يضيف في لهجةٍ حملت تهديدًا واضحًا: «وبالتأكيد لا أحتاج إلى أن أخبرك بألَّا تقصَّ عليها ما حدث.. أتفهمني؟»

أومأ نسيم برأسه موافقًا، وهتف في لهفة:

- «بكل تأكيد.. لن أخبرها بأي شيء.. أنا لست مجنونًا»، راقب شريف وهو يخفض المسدس ويضعه في جيب سُترته

الآخر، فاستطرد قائلًا في تردد: «أتريد مني الاتصال بك وإبلاغك فور عودتها؟»

هزَّ شريف رأسه نافيًا، وقد عاد الهدوءُ إلى نبراته وهو يقول:

- «لا.. سأزورك مجددًا»، ثم ابتسم في سخريةٍ وهو يتابع: «وإن ساعدتني على الوصول إلى تلك الفتاة، فستكون تلك الساعة الثمينة من نصيبك».

- بالتأكيد! بالتأكيد!

كررها نسيم وهو يهز رأسه موافقًا في لهفة المذعور الذي كان على شَفَا الموت. حبس أنفاسه وهو يتابع شريف وقد همَّ بالمغادرة.. تنفس الصُّعَدَاء عندما اتجه شريف إلى باب الغرفة، إلا أنه أمسك أنفاسه مجددًا في ترقُّب حين توقف الأخير والتفت إليه متسائلًا: «لماذا لم تهاجر؟».

رفع نسيم حاجبيه في دهشةٍ وهو يجيبه في بطء:

- أهاجر إلى أين؟

- إسرائيل؟

- أين؟

- أقصد فلسطين المحتلة؟

رفع نسيم حاجبيه في دهشة، وهو يحدّق في هذا الرجل المجنون غريب الأطوار، ومغالبًا رغبة جامحة في سَبّه بأقذع الألفاظ، ولكن خوفه وأمله في أن ينتهي هذا الموقف على خير قد لَجّمَا لسانه، فأردف في نفادِ صبر:

- هذه البلد أفضل من غيرها.. أنا سعيد هنا.

ابتسم شريف ابتسامة هادئة، ثم استدار مغادرًا المحل.

استقلّ سيارته، وأدار محركها، ثم قادها مبتعدًا، مع أطنان من التساؤلات الجديدة التي تزيد حيرته غموضًا. سُحُب كثيفة من الغموض والارتباك تُظلم عقله، لكنه على الأقل قد قبض على طرف الخيط الذي سيبدّد تلك السحب، حتى وإن بدأت مشاعر الخوف تتسلل إلى قلبه.. ليس الخوف من هذا الزمن أو مما هو فيه، ولكنه الخوف من نفسه.. نفسه التي يكاد يجزم أنه لا يعرفها.. «أحمد رؤوف سالم» المهندس الهادئ ليس هو «شريف عزيز القاضي» المقاتل الصارم الذي لقيَه بالداخل.. رجلان لا يفصلهما فقط عقدان من العمر وثلاثة عقود من الزمن، ولكن يبدو أن ما يفصلهما هو الأهداف والوسائل.. فمَنْ هو حقًّا؟!

***

000010

23 ديسمبر 2019

6:00 صباحًا.. حَيّ الزمالك

استقلّت سارة تاكسي القاهرة الكلاسيكي، بلونيه: الأسود والأبيض، من أمام منزلها بجزيرة الزمالك الهادئة. تصاعد بخار الهواء الساخن من فمها وتكاثف على زجاج السيارة الجانبي، ففركت يديها مرارًا جلبًا للدفء وهي تتأمّل في شرود شوارع القاهرة شبه الخالية في هذا الوقت المبكر من صباح يوم قارس البرودة.

قطع رنين خافت أشبه برنين الهاتف شرودها، فألقت نظرة خاطفة على ساعة يدها، ثم أرجعت رأسها إلى الوراء وتَنهّدت في أسى، قبل أن تضغط زِرًّا في جهاز صغير خلف أذنها اليمنى، وأجابت قائلة:

- صباح الخير يا أمي.

صمتت للحظة، أنصتت فيها إلى صوت أمها من الجهة المقابلة، ثم قَطّبَت جبينها في ضيق، وزفرت مُجدّدًا وهي تجيب بعصبية واضحة:

- نعم.. نعم يا أمي، أخذتُ العينة إلى المعمل.. والنتيجة ستظهر اليوم أو غدًا.

هزت رأسها في حنق وهي تستمع إلى التَّوبيخ العنيف من الجهة الأخرى، فقاطعت أمها قائلةً في نفادِ صبر:

- ما تقولينه ليس له معنى يا أمي.. أنا حقًّا لا أستطيع أن أفهمك.. هذه العملية كان يجب أن تُجرى منذ فترة طويلة.. هل تعجبك حالتك هكذا؟ صحتك تتدهور يومًا بعد يوم.. رَفْضُك إجراء العملية هو أمر غير مفهوم بالنسبة إليَّ......

قطع حديثها العصبي رنين ساعتها من جديد، فرمقتها بنظرة سريعة، ثم أردفت:

- لحظة واحدة، سأجيب على مكالمة عمل.. ابقَيْ معي.

رَمَشت بعينيها مرتين متتابعتين وهي تحدِّق في ساعتها لتسمح لها باستقبال المكالمة الواردة وتضع الحالية على الانتظار، ثم أخذت نَفَسًا عميقًا وهي تجيب مُحدَّثها في نبرة جاهدت لتجعلها هادئة:

- «صباح الخير يا خالد.. أنا في الطريق». ثم نظرت إلى الشاشة الأمامية للسيارة وتابعت: «19 دقيقة بالضبط.. هل استفاق؟»

أنصتت باهتمام قبل أن تضيف في حزم:

- حسنًا.. ممتاز.. سأصل قريبًا.. سلام.

انتظرت حتى أنهى خالد المكالمة، وتَنهَّدت من جديدٍ في محاولةٍ للسيطرة على أعصابها، قبل أن تقول:

- آلو.. يا أمي أنت أغلى ما أملك.. وبصراحة لا أستطيع أن أراكِ في هذا الوضع أكثر من ذلك.. العلم تقدم وأنتِ ترفضينه.. لا أفهم لماذا؟ أريد سببًا واحدًا يبرر هذا العذاب.

حاولت الاستماع إلى ردود أمها، لكنها كلمات لم تجد آذانًا مُصغية لعدم منطقيتها في نظر سارة، فهزَّت رأسها في ضيقٍ وأضافت:

- هذا الكلام غير منطقي بالمرة.. تحليل الحَمْض النووي سيساعد في العثور على المتبرع الأنسب، وسيقلِّل من احتمالات رفض الأعضاء يا أمي.. حالتك لا ينفع معها الألياف المُصنَّعة وجزيئات النَّانُو.. وأنتِ رافضة تمامًا لفكرة قيامي بالتبرُّع.. إذًا اتركي لي حرية التصرف وإيجاد المتبرع الملائم.

أطرقت برأسها وكلمات والدتها تنهال عليها كوَخْز إبرٍ نافذةٍ تهتك جدران قلبها الرقيق، فانتظرت حتى فرغت أمها من التأنيب والتهديد والوعيد ثم أجابتها في أسى:

- حسنًا.. كما تريدين.. لا تقلقي، سألغي التحليل.

جزَّت على أسنانها في غيظ، وأمها تواصل كلماتها الموجعة، فأجابتها:

- لا، لن أعطيَك الرقم السـرِّي لِلعيِّنة.. سألغي التحليل.. لا تقلقي.. هذا وعد.

انتهت المكالمة، فعادت سارة تتأمل شوارع القاهرة والسيارة تقطعها باتجاه الشرق، وظلت على شرودها فترةً تسترجع مكالمة والدتها، وحالتها الصحية المتدهورة، قبل أن يقطع رنين جهاز الاتصال الخافت أفكارها من جديد، فزفرت في ضيق، وألقت نظرةً خاطفةً على المتصل، توترت للحظةٍ ثم أجابت:

- «نعم، أنا هي..»، وصمتت للحظةٍ قبل أن تضيف: «79865».

انتظرت حتى تحقق المُتَّصِل الآليُّ من البيانات، أنصتت جيدًا لما يقول، وهي تغمغم: «عصر اليوم!!»، جال بخاطرها أن تطلب من المعمل إلغاء تحليل الحمض النووي كما وعدت أمها، ففرجت شفتيها وهمّت أن تنطقها لولا أن تراجعت، فأطبقتهما من جديد. حافظت على صمتها حتى فرغ المتصل من رسالته ثم أجابته في حزم:

- حسنًا.. العصر.. في انتظار النتيجة.

عقدت حاجبيها في حزم وقد أيقنت أنها فعلت ما يتوجَّب عليها فعله، فأرسلت رسالة صوتية إلى أمِّها تُبلغها أنها قد

تحدثت إلى المعمل بالفعل..

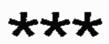
وأنها ألغت التحليل نهائيًا.. كما وعدتها!!

دقائق قليلة مرت، حتى تصاعَد صوتٌ أنثوي هادئ من سماعات السيارة يعلن وصولها إلى وجهتها، ويطالب سارة بإبراز بطاقة هُويَّتها الرقمية.

انتظرت سارة حتى تحول زجاج نافذة السيارة المصمت، بصورةٍ تلقائيَّة، من لونه الأدْكَن الحاجب لأشعَّة الشمس إلى درجة نقية شفافة، فقرَبَّت ساعتها من الزجاج ليلتقط جهاز صغير على البوابة ترددات ساعتها الرقمية ذات مُكوِّن التعرُّف البيولوجي، ويتحقق من هُويَّتها بعد أن يقرنها بنتيجة مسح بصمة عينها اليُمنى.

أعلن نظام تأمين البوابة الأمنية التحقق من هوية الراكبة، والسماح لها بالمرور. ففُتحَت البوابة الفولاذية على مصراعيها لتَسمَح لسيارة الأجرة ذاتية القيادة بالمرور وبلوغ وجهتها النهائية..

مدخل المستشفى..



000011

10:45 صباحًا.. مصر الجديدة

خَيَّم الوجوم على شريف وهو يقود سيارته على غير هدى في شوارع مصر الجديدة. لقد أصبحت روحه ساحة معركة، يتصارع فيها أحمد ضد شريف، عقل واعٍ وقلب، ضد غريزة وجسد لا يعلم عن حدود قدراتهما شيئًا، بل الأدهَى أنه لا يدرك عقيدتهما وأساليبهما. لقد غدا كالكولوسيوم، صرح المصارعة الرومانية المَهِيب، فقط على أحد المتصارعين أن ينجو ويحيا، إما أحمد بسلاح الذكريات، أو شريف بالقدرات.

كيف تمكَّن من تعلُّم فنون القتال وتنفيذها بتلك البراعة، أم أن الأمر لا يعدو كونه مصادفةً ساعده فيها ضعف نسيم الجسماني.. ولكن لا يزال مشهد استخلاصه المسدس من يد الشاب وضرَبَّته الاحترافية المتزامنة لا يفارق مُخَيِّلَته، بل ما أثار في نفسه الريبة هو عدم شعوره بالخوف، لم تهتزَّ له شعرة أو يختلج قلبه وهو يرى مسدسًا مُصوَّبًا إلى رأسه، فرباطة جأشه تدل على اعتياد تلك المواقف.

خفق قلبه عندما تذكَّر أنه لم يطلق النار على نسيم فقط لحاجته إليه، وليس لرحمةٍ سكنت قلبه. لقد حرَّضته غريزته على استئصال الخائن، ولكنها رجَّحت كِفَّة مصلحته الآنية على الرغبة في الانتقام..

رَبَّاه! أتتحرك غريزته بشهوة القتل أم بالرغبة في

القصاص؟!

أيًّا كانت الإجابة، فلقد فَطِن إلى أن مقارعة الموت ولعبة الدم أصبحتا خِصَاله المستحدثة.. ما كان يعدُّه أحمد رذيلة، يجده شريف فضيلة.

زفر في ضيق، ثم أدار زِرَّ المذياع يستأنس بأغاني وذكريات الثمانينيَّات، لعلَّها تعيد إليه فطرته التي حاد عنها. أعلن المذيع عن إحدى أغاني المطرب الشاب «حميد الشاعري» من ألبومه الجديد «رحيل»، فابتسم شريف، وصار ينقر بأصابعه على عجلة القيادة مع نغمات الأغنية القديمة، معاودًا تأمل شوارع وبنايات حي طفولته. ثم ما لبث أن بدأ يساوره إحساس مُلِحّ بعدم الأُلْفَة، فقد لاحظ بعض الاختلافات عما اعتاد عليه في طفولته، اختلافات في المعمار مع تغييرات في بعض المعالم الرئيسة التي كانت تميز حي مصر الجديدة. عقله يهتف على استحياء: «لا تزال هي مصر الجديدة في الثمانينيَّات، لكنها في الوقت ذاته ليست بالضبط كمصر الجديدة في الثمانينيَّات!! ماذا؟!!».

ثمَّة شيءٌ ما مختلفٌ لم يدرك كُنْهَهُ، نعم لقد أضْفَت تلك الاختلافات رونقًا وسحرًا خلَّابًا على الحي الراقي، ولكنها تظل اختلافاتٍ تنثر في أعماقه بذور عدم الارتياح. قَطَّبَ جبينه، ثم غمغم: «ألا ينتهي هذا الكابوس؟» ثم أدار مِقوَد

سيارته، عاقدًا العزم على الذهاب إلى المكان الوحيد القادر على إعادة إحساسه بالألْفة والأمان..

المكان الوحيد القادر على إخماد نيرانه المتأججة..

إلى بيت والديه.

***

قاد شريف سيارته الأنيقة إلى داخل مربعٍ سكنيٍّ راقٍ، على أطراف حي مصر الجديدة، تتوسطه حديقة رَحْبة، حيث تقع بناية والديه في صدرها. خفق قلبه في عنف، وتهدجت أنفاسه حين لمح البناية التي قضى فيها طفولته، والشرفة الواسعة التي طالما جلس فيها يتسامر مع والديه، كم اشتاق إليهما! تدفقت الذكريات في عروقه تروي أرضًا خاشعة تشققت جنباتها، لتنبت أشجارًا وارفة من الحنين تظلل روحه التائهة وتقيه قَيْظ الوحدة والخوف.

نزل من سيارته وعيناه تجوبان المكان في شوقٍ جارف، ذكريات ومشاعر تفجَّرت ينابيعها في كُلِّ ركنٍ من أركان هذا المكان، انتصرت مشاعر فطرته على صرامة وقسوة شخصيته المستحدثة، فترقرقت عيناه بالدموع، وقرر ألا يقاوم. فيض من المشاعر والدموع انهمرت، فكسرت جموده، وانسابت تغسل قرارة نفسه لتزيح رواسب تراكمت عبر

سنوات لم يدركها، لم يَعِشْها، رواسب من ذنوب محتملة لا يعلمها، ولكنه رأى قبحها وقد لطَّخ فطرته.

طالت لحظات الشجن والحنين، حيث اسْتَمْهَلتهُ روحه طلبًا للسَّكِينَة، فأمهلها.

مسح عينيه، واستجمع قُوَاه، وعدل هندامه، ثم زفر زفرةَ استعدادٍ طردت ما تبقَّى في نفسه من تردد أو ضعف، وتقدم ناحية البناية في خُطًى ثابتة.

تهلَّلت أساريره، وابتسم ملء شدقيه عندما لمح «عَمْ رمضان» بوَّاب بناية والديه، لقد شبَّ على «عَمّ رمضان» البواب الريفي المُسِنّ خفيف الظل، لا يتذكر أنه سبق وأن رآه شابًا، كان دائم الاعتقاد أن «عَمّ رمضان» عمره وهيئته ثابتان، أحد نواميس الكون، الكل يكبر ويشيخ أو حتى يصغر إذا كان ذلك ممكنًا، إلا «عَمّ رمضان»، وُلِدَ وعاش ومات على نفس الهيئة. بالتأكيد شعر بالسعادة لرؤية «عَمّ رمضان» في مرحلة عمرية لم يكن يظن أبدًا أنها ممكنة. تقدم نحوه، قائلًا في ود:

- «السلام عليكم يا عَمّ رمضان! كيف حالك؟»، ثم تلعثم وهو يسأله: «هل الحَجّ رؤوف.... أقصد المهندس رؤوف موجود؟»

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. الحمد لله.. نحمده!»، قالها رمضان وهو يتفرَّس ملامح شريف. صمت للحظة، ثم أردف مبتسمًا: «هل سيادتك الأخ الأكبر لباشمهندس رؤوف؟»

أفلتت ضحكة من شريف، هو بالتأكيد يشبه والده بشدة، هذا حقيقي، ولكن يا لها من مفارقه فبعد أن كان الأقرباء يصفونه بأنه النسخة المُصغَّرة من رؤوف، فسيلقاه الآن وهو يَكْبُرُه بقرابة سبعة عشر عامًا كاملة، فأجابه ضاحكًا:

- لا! لستُ أخاه.. ولكننا أقارب!

- يا مرحب بك يا أستاذ...؟

- أحمد.. أحمد سالم.. من عائلة سالم كذلك.. هل المهندس رؤوف في منزله؟

- «لا ليس في منزله». ثم استطرد وقد اتسعت ابتسامته: «السِّتّ جاءها المخاض، فذهب بها إلى المستشفى.. العُقبَى لك!»

تبدلت ملامح شريف، ورفع حاجبيه في دهشة.. مخاض؟!! أيّ مخاض؟! موعد مَولِدِه لم يَحِنْ بعد.. بالتحديد بعد شهرين كاملين من الآن، يوم ميلاده هو الخامس من يناير عام 1985، وليس السادس من نوفمبر 1984.

هل تلِدُهُ أمُّه بعد سبعة أشهر فقط، فغمغم في ذهول: «ابن سبعة.. كيف هذا؟».

- أتقول شيئًا يا أستاذ؟

قالها رمضان وقد تعجَّب من ردَّة فعله.

تجاهل شريف السؤال، واستمر فاغرًا فَاهُ، ثم عقد حاجبيه وهو يسأل رمضان في شَكٍّ:

- هل ستلد السيدة فاطمة اليوم؟

- السيدة فاطمة مَنْ يا أفندي؟! ألم تقُلْ إنك قريب الباشمهندس؟

قالها رمضان بشيء من الرِّيبَة، وهو يشاهد وَقْع جملته الأخيرة على شريف الذي لم يحرك ساكنًا، بل بدأ الشحوب يكسو ملامحه. فصمت لوهلةٍ يتأمل فيها الضيف الشاحب، ولمَّا لم يتلقَّ سوى صمتٍ ذاهل، أردف:

- الستُّ صفيَّة زوجة باشمهندس رؤوف هي مَنْ تلد الآن.

اهتزت الأرض تحت قدمَي شريف. شعر بالحرارة تنحسر تدريجيًا عن أطرافه، ليحلَّ مكانها صقيع يتمكن من أوصاله، فشُلَّت مفاصله وتيبَّست قسمات وجهه، مع ضربات قلب متسارعة تتسابق مع أنفاسٍ لاهثةٍ أيهما يقضي عليه أولًا.

- ما بك يا حضرة؟ أتريد كوبًا من الماء؟

قالها رمضان، وقد جزع لما رآه.

لم يتلقَّ جوابًا..

- يا أستاذ أحمد!!!

حاول شريف مقاومة أحشائه التي تتصارع من أجل هلاكه، وتمالك أعصابه، قائلًا:

- لا تشغل بالك.. إلى أي مستشفى ذهبا؟

أجابه في شَكٍّ:

- مستشفى د. فايز القريب من هنا.. على شريط المترو.

صمت شريف مُتجهِّمًا، فلم يتمكن بعد من التحكم في أعصابه وتجاوز الصدمة، وظلت عيناه ثابتتَيْن تحدِّقان في الفراغ.

- يا أفندي!!

قالها رمضان في نفاد صبر، فالتفت إليه شريف، قائلًا باقتضاب:

- شكرًا لك.

ثم انطلق يعدو مبتعدًا في اتجاه المستشفى. رفع رمضان حاجبيه في دهشةٍ عارمة، وهو يتابعه يعدو مبتعدًا، ثم ضرب كفًا بكفٍّ وهو يقول:

- لا حولَ ولا قُوةَ إلا بالله.. ماذا حل به؟

ومن بعيد جلست فتاة بيضاء سوداء الشعر خلف مِقوَد سيارتها الألمانية السوداء تراقب المشهد بأكمله في صمت. ضمَّت شفتيها، وهزَّت رأسها في بطء، فهي تدرك ما أَلَمَّ به، ولكنه لا يزال بعيدًا عن الحقيقة، ما زال لا يدرك حقيقة وجوده، أين هو، ومتى هو.. بل والأهم، إلى ماذا ينتمي!

***

ترك شريف بوَّاب بناية طفولته في دهشته، وفرَّ عدوًا، لا يفكر في شيء، لا شيء يجول بخاطره على الإطلاق، فراغ مَهِيب مُعْتِم، فقط سواد يغشى كُلَّ شيء بداخله، سواد أوَّلي بِكْر لم يبدِّد ظُلمته شعاع من ضوء أو بارقة من أمل. وظل يعدو، يعدو حتى أنَّث قدماه، حتى صرخ جسده تحت وطأة السن والانكسار، ولكن أبَى الغضب الذي يحركه أن يستجيب، فليرضخ الجسد، فليدفع حدوده البيولوچية بعيدًا، لا شأن له بذلك، طاقة الغضب ستتحول إلى طاقة عَدْو، عَدْو غاضب، عَدْو لن يتوقف حتى يصل إلى المستشفى، حتى يرى والده، حتى يصرخ قائلًا: «أين أمي؟ بل أين أنا؟».

وصل إلى باب المركز، مركز الدكتور فايز لأمراض النساء والتَّوليد، فوقف لاهثًا، راكعًا، يستند بكَفَّيْه على ركبتيه، يجاهد لالتقاط أنفاسه، لا يدري ما يجب عليه فعله، أو قوله، ولكنه يعلم يقينًا أن عليه الدخول، عليه المواجهة، مواجهة مَنْ؟! لا يدري، ولكن عليه الدخول ولقاء والده. انتظر لحظات حتى هدأت أنفاسه، يتأمل المركز الصغير، الأقرب إلى عيادة منه إلى مستشفى، يحتلُّ الطابق الأرضي لبناية سكنية قصيرة تطل على محطة مترو النزهة، أشهر معالم حَيّ مصر الجديدة حتى بدايات القرن الواحد والعشرين، مترو النزهة الذي يحتل مكانة مميزة في ذكريات أجيال طويلة من قاطني الحي الدافئ، ذكرياته هو شخصيًا عندما كان يتنزَّه مع أصدقائه.. «تبًا.. لا وقت للذكريات الآن».. صرخ الغضب بداخله.. «لتُنَحِّ جانبًا ذكرياتك التافهة وحنينك لماضيك.. فلتعلم أين أنت الآن؟ ومَن تكون؟».. عقد حاجبيه وهو يجزُّ على أسنانه، ثم اعتدل ودلف بخُطى ثابتة إلى داخل المركز، المركز الذي وُلِدَ فيه هو من قبل، من نحو نصف قرن من الزمان بحساب عمره، أو بعد شهرين من الآن بحساب التاريخ. نظر حوله وسأل ممرضة الاستقبال:

- أين غرفة المهندس رؤوف سالم وحرمه من فضلك؟

رمقته الممرضة في شَكّ، وهي ترى العرق يتصبَّب من

جبينه، فأجابته في حزم:

- انتظِر ثانية واحدة. سأناديه!

غابت للحظات، تعلقت فيها عيناه بباب الغرفة التي دخلتها. لحظات تَرَقُّب علا فيها صوتُ نبضاتِ قلبه يتردد صداها فيما حوله، صوت يخشع له صفير المترو التاريخي. ثم خرجت الممرضة من الغرفة، يتبعها بخطوات «رؤوف سالم»، والده، يتقدم ونظرات التساؤل، ثم الدهشة من التشابه بينهما، تعلو وجهه. وفورَ أن التقت الأعيُن توقف نبض شريف عن الضجيج، وانطفأت جذوة غضبه، فانقشعت الغيوم عن أملٍ يبدِّد بأشعته الواهنة ظلمة استوحش بها قلبه، فها هو يرى والده، مَثَله الأعلى وبطل طفولته، يراه أمامه رأي العين، يراه في رَيْعان شبابه، وأَوْج بهائه.. «إنه هو.. نعم إنه هو.. كم اشتقت إليك»، هتف بها عقله في لهفة.

واصل التحديق في والده يتأمله وهو يقترب، مع ابتسامةٍ حانيةٍ قاومت، وصارعت، وانتصرت لترتسم على شفتيه وتطفو على وجهه، لتعكس ما يموج به قلبه من شوقٍ وحنينٍ إلى والده. لاحظ رؤوف تعبيرات شريف الحانية، فتلعثم حرجًا وهو يقول:

- الممرضة أخبرتني أنك تسأل عليّ.

صمت لوهلةٍ مرت ثقيلةً على والده، الذي رفع حاجبيه يحثُّه على الحديث، فسعل شريف ليُخفي حشرجةً في صوته وهو يقول في تلعثُم:

- أنا أحـ.. شريف.. شريف القاضي.. قريبكم من بعيد.. لقد ذهبت إلى زيارتك في المنزل، لكن عَمّ رمـ.. لكن البواب أخبرني أن زوجتك تلد الآن.. ألف مبروك!

- بارك الله فيك.. أشكرك.. لقد وَلَدت بالفعل منذ قليل.

- هل المولود ذَكَر؟

تساءل شريف وقد فشل في إخفاء لهفته. فحدجه رؤوف بنظرة بها المزيج من الدهشة والرِّيبَة، وصمت لحظات، قبل أن يطغى الشك على نبراته وهو يجيبه بكلمات ثقيلة بطيئة، يراقب معها تعبيرات وجه ضيفه المريب:

- لا.. أنثى.. الحمد لله طفلة جميلة.

تضارَبَّت المشاعر واختلطت بداخله، فلم يدرِ شريف أيندهش أم يُصدم أم يسعد، فللمرة الأولى منذ أن بدأت المفاجآت تُصَدِّع وجدانه لم يسيطر عليه أحد المشاعر المهلكة، بل تملَّكته سِكِينةٌ لا يعلم سببها. أشعر بالسَّكِينَة لأنه ظفر لتَوِّه بأخت قد حُرِمَ منها؟ أم لأنه لم يُولَد لأُمٍّ أخرى؟ فابتسم قائلًا:

- ألف مبروك.. تتربى في عزك!

- «أشكرك..»، ثم ضاقت عينا رؤوف وهو يسأل الزائر: «لم تخبرني بعد عن صلة القرابة.. فالشبه كبير».

- هناك علاقة نَسَب بين عائلة القاضي وعائلة سالم.. قرابة بعيدة نوعًا، ولكن العِرْق يمتد لسابع جدّ كما يقولون.

- أهلًا وسهلًا.. هل جئت لزيارتي في أمرٍ ما؟

- في الحقيقة، لقد جئتك باحثًا عن ابنة عمك فاطمة.. فأنا أعيش في الخارج وقد أرسل لها أحد أقربائنا المشتركين أمانة صغيرة.. سألت عنها في منزل العائلة، ولكن لم أجدها، فأعطاني أحدهم عنوانك.

رفع رؤوف حاجبيه في دهشةٍ متسائلًا:

- فاطمة مَن؟!

تعجَّب شريف لدهشة والده، فأجابه في بطء:

- ابنة عمك الكبير سعيد.. فاطمة سعيد سالم.. ألا تعرفها؟!

تضاعفت دهشة رؤوف وهو يجيب زائره في ريبة:

- «ليس لديَّ ابنة عم تُدعى فاطمة؛ لأنه ليس لديَّ أعمام من الأساس!» عقد حاجبيه مفكرًا للحظات ثم استطرد: «أعتقد

أنه كان لديَّ بالفعل عَمٌّ يُدعى سعيد ولكنه قُتل صغيرًا في إحدى غارات الحرب الكبرى.. لقد قُتل قبل ميلاد والدي نفسه بسنوات».

- ماذا؟!!

غمغم شريف في ذهول مع عودة البرودة إلى أطرافه. ثم وَهَن صوته وهو يصارع للخروج من حنجرته المتيبسة حين استطرد مغمغمًا:

- ماذا تعني؟! ألم تتزوج من فاطمة؟! ألن تلد لكَ ابنًا؟

هتف رؤوف في نبرةٍ اختلطت فيها الدهشة بالاستنكار:

- «أتزوج مِن مَن؟!! ومن هي تلك التي ستلد لي ابنًا؟ أنا لا أعرف فاطمة تلك! لا من قريب ولا من بعيد!»، ثم كَسَا الحنق نبراته وهو يتابع: «واتركني إذا سمحت.. فأنا أرغب في العودة إلى ابنتي الوليدة!»

صمت شريف مُحدِّقًا في وجه والده، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة خافتة مصطنعة تخفي ما بداخله، وهو يقول:

- آسف على الإزعاج.. وألف مبروك مرة أخرى.

فردَّ عليه رؤوف في امتعاض:

- لا تشغل بالك.. بارك الله فيك.. تشرفنا!

قالها ثم استدار عائدًا إلى الغرفة حيث زوجته وابنته الوليدة، فاستوقفه شريف قائلًا: «مهندس رؤوف! معذرةً.. أمر أخير».

فالتفت إليه رؤوف قائلًا في نفاد صبر: «تفضَّل».

نزع شريف ساعته الثمينة عن رُسْغه، وناولها إلى والده وقد عادت ابتسامته الحانية إلى نبراته وهو يقول:

- من فضلك تقبَّل هذه الهدية الصغيرة.

تردد رؤوف، فعاجله شريف بنبرة متوسلة وهو يمدُّ يده إليه بالساعة: «من فضلك!» فأخذها رؤوف وهو يَرقُب ضيفه يعود أدراجه مغادرًا المركز، مُخلِّفًا وراءَه مشاعر اختلط فيها الامتنان بالريبة بشعور غير مُبرَّر بالأُلفة، فاكتفى بمتابعة ضيفه حتى اختفى عن ناظريه. ظل رؤوف محدِّقًا في الباب للحظاتٍ انتهت بابتسامةٍ دافئة، قبل أن يعود إلى مولودته الجديدة تغمره مشاعر أُبوَّة.. أبوة مُضاعَفة.

***

000010

اليوم التالي

6:45 صباحًا.. المستشفى

استيقظ يحيى في اليوم التالي لا يدري كَمْ من الوقت مر عليه بعد أن تم حقنه بالمهدئ، تمنى أن يكون كل ما مر به كابوسًا ثقيلًا وانتهى، تمنى أن يفتح عينيه فيرى وجه زوجته رانيا الملائكي وهي ترقد إلى جواره، وخصلات شعرها المخملية تلامس وجهه وتعبر بين خلاياه الناعسة فيستنشق رحيقها الخلاب الذي يُنعِش روحه. تمنى أن تداعب أشعة شمس الصباح الدافئة جفونه الكسولة، بينما صيحات طفليه المرحة تدغدغ عقله، فيستيقظ مبتسمًا راضيًا مستعدًّا ليوم جديد من العمل والابتكار.. تمنى ذلك.. لكنه استيقظ على مشهد غرفة مصمتة انقبض لها قلبُه، على طنين شاشات عرض الوظائف الحيويَّة الرتيب، على رحيق مُطهرات ألهبت خلاياه، استيقظ على وَخْزٍ وآلام يئنُّ لها جسده، فأيقن أن الكابوس أصبح سُباعيّ الأبعاد، كابوس فَقَدَ فيه أسرته وخلَّف وراءه حطام جسد وبقايا روح.

وما إن تباعدت جفونه كاشفةً عن مُقلتين حائرتين، حتى أخذَ ضوء الغرفة الأصفر في السطوع تدريجـيًّا بصورة تلقائيَّة حتى بلغ تلك الدرجة البيضاء الهادئة المريحة لأعينٍ عليلة، فلما اعتادت عيناه الضوء، بادرته «فريدة» قائلةً بصوتها الأنثوي المميز ونبرتها الهادئة:

- صباح الخير يا يحيي.. أتمنى أن تكون قد نعمت بنومٍ هادئ.

تجاهلها يحيى تمامًا، وبقي على وضعه عدة دقائق يسترجع حديث طبيبه وممرضته أمس، ثم شرع يجول ببصره في الغرفة يستطلعها. غرفة نظيفة واسعة بالنسبة إلى حجم غرف المستشفيات الكلاسيكية، غرفة مصمتة ذات جدران بيضاء بلا نوافذ أو فتحات على العالم الخارجي، تزيِّنها تجاويف رفيعة متوازية على ارتفاعات مختلفة تشعُّ بضوءٍ أبيض هادئ، خطوط غائرة هي مصدر الإضاءة الوحيد في غرفة تفتقد إلى نوافذ ومصابيح، غرفة مستشفى غير تقليدية بكل المقاييس التي خبرها من قبل، حتى بابها المُصمَت الأشبه بأبواب الطائرات - والذي لن تتمكن بعوضة من اجتيازه - يفتقر هو الآخر إلى مقبض لفتحه أو لغلقه، بل يفتقر إلى جوانب يخترقها الضوء، فلولا لونه الأدْكَن المُغَاير لظنَّ أنها غرفة بلا أبواب، فيها خُلقَ وفيها يموت.

قَطَّبَ جبينه وغمغم بكلمات مبهمة عبَّر فيها عن دهشته، ثم واصل تفحُّص الغرفة، حيث يقع سريره في صدرها محاطًا بعدد من الألواح الزجاجية التي تعرض وظائفه الحيوية، فحدَّق في تلك الشاشات المتقدمة متسائلًا عن كيفية وجود أجهزة كمبيوتر لوحيَّة حديثة كتلك في مصر،

بل هل بدأ استخدام مثل تلك التقنيات في العالم حاليًّا؟! بدأ التَّوتر يتدفق في عروقه، فعدَّل من وضعه محاولًا الجلوس قبل أن يُصدر السـرير أزيزًا مميزًا ويأخذ في ضبط ثناياه تلقائيًّا، حيث ارتفع الفراش ومال إلى الأمام كي يساعده على الجلوس ويحافظ على سلامة عموده الفقري، بينما ارتفع ذلك الجزء أسفل ركبتيه ليتلاءم مع منحنيات ساقيه بما يسمح بأكبر قدر من الراحة والسلامة لمريضٍ في جلسته. رفع حاجبيه في دهشة يتأمل الفراش الذكي الذي اتخذ وضعية جسده بصورةٍ تلقائيَّة ودون أن يطلبها، حيث استرخت عضلاته، وخَفَّت آلامه، فهز رأسه وتَنهَّد في توتر ثم أرجع بصـره من جديد يتأمل الأجهزة اللوحية المحيطة به، متعجبًا كيف لأجهزة الكمبيوتر اللوحية تلك أن تقرأ وظائفه الحيوية دون أسلاك أو مجسَّات تغزو جسده؟! لاحظ الجهاز نصف الدائري ذا المصابيح المعتمة والمثبت في الحائط أعلى رأسه، فاستنتج أن تلك المصابيح الصغيرة هي مجسات متقدمة كمصابيح الأشعَّة تحت الحمراء مع فارق التقنية بكل تأكيد، فغمغم في دهشة: «هل هذا مستشفى؟! وفي مصر؟!».

- هل أستطيع مساعدتك يا يحيى؟

انتزعته فريدة من دهشته، فرفع عينيه يبحث عن مصدر الصوت، ثم قال في حنق:

- ومن تكونين أنتِ الأخرى؟

- أنا فريدة.

- حصل لنا الشرف!! ومن تكون فريدة هذه؟

- أنا نظام ذكاء متكامل.. يمكنك اعتبار نظام متابعة المرضى المعزز EPMS هو أحد مُكوِّناتي، إنه النظام المسئول عن متابعة حالتك الصحية وتسجيل وظائفك الحيوية منذ دخولك المستشفى وحتى مغادرتها.. كما يمكنك اعتباري مساعدتك الشخصية كذلك.

بلغت عيناه أقصى اتساعهما، ثم شرع ينفض عنه الذهول وهو يتبادل مع فريدة سيلًا من الأسئلة التي يتلقَّى إجاباتها صفعاتٍ متتاليةً تتلاعب بعقله ككُرَة تِنِس في نهائي إحدى بطولات الجراند سلام، حين سألها:

- أنا لم أسمع عن هذا النظام الذكي من قبل؟! هل أنت مثل الأجهزة والأنظمة الذكية Amazon Echo أو Siri أو حتى Google Assistant؟!

- معذرةً، لكني لا أعرف شيئًا مما ذكرت.. ووفقًا لبحث قمت به توًّا فلا توجد أنظمة ذكية بتلك الأسماء. ولكن يمكنك تزويدي بمزيد من المعلومات لأُجري بحثًا جديدًا أكثر دقة.

- «ماذا تعنين؟ Siri هو النظام الذكي لشركة أپل الأمريكية. شركة أپل، صاحبة iPhone. أما باقي الأنظمة الذكية فهي لشركات أمازون وجوجل وغيرها». تضاعفت الدهشة في عينيه وهو يسألها مستنكرًا: «ألا تعرفين هؤلاء؟! ما الشركةُ التي طوَّرتكِ إذًا؟!»

ساد الصمت لحظاتٍ قليلةً ثم جاء صوت فريدة يجيبه من جديد:

- لقد أجريث بحثًا جديدًا بناءً على ما أفدت به من معلومات.. لا توجد شركة أُنشِئث باسم جوجل في آخر خمسين سنة.. ولكن توجد شركة مواد غذائية بريطانية باسم «أپل»، كما يوجد عدد من الشركات التي تحمل أسماء مشتقة من كلمة أمازون في أمريكا الجنوبية، ولكن جميعها شركات لا تطور أجهزة أو أنظمة ذكية.

- !!!!

- أما بخصوص سؤالك حول الشركة التي قامت بتطويري، فكما هو معلوم أن من طوَّرني هي الهيئة القومية لأنظمة الذكاء الاصطناعي (National Authority for Artificial Intelligence Systems) والتي تُعرف اختصارًا باسم NA2IS، وهي هيئة مصرية شبه خاصة مقرُّها في غرب القاهرة.. وقد أطلقتني للاستخدام العام في ثمانينيَّات القرن

الماضي.

تدلَّى فك يحيى السُّفلي عند تلك النقطة تحديدًا غير قادر على استيعاب ما قالته «فريدة»، ثم هز رأسه في عنفٍ لينفض عنه بعض الأفكار الخيالية التي تداهم عقله في شراسة، فقال في نبرةٍ ذاهلةٍ فشل في إخفائها أو السيطرة عليها:

- لا توجد جوجل! وأپل ليست شركة تكنولوچيا! وهيئة مصرية طوَّرتكِ! هل مكثتُ في الغيبوبة لمدة خمسين عامًا؟!

- لا.. لقد مكثت في الغيبوبة لمدة 16 يومًا و9 ساعات تقريبًا.. اليوم هو 23 ديسمبر 2019، ولقد دخلتُ المستشفى في تمام الساعة العاشرة من مساء يوم 6 ديسمبر 2019.

صمت يحيى طويلًا يحاول الفصل بين أفكاره المتناحرة، شرَع يُمَنطِق الأحداث ويعيد ترتيب المعلومات التي حصل عليها علَّه يستخلص تفسيرًا ما يهدِّئ من روعه. لقد غاب عن الوعي لمدة أسبوعين تقريبًا، واستيقظ ليجد نفسه في مستشفى تبدو متطورة للغاية، قام طاقمها بإجراء عمليات معقدة أنقذته من الموت والشلل باستخدام تقنية النَّانُو وأنسجة مُصنَّعة، بل تم تعويض التلفيات العصبية كما ذكر ذلك الطبيب أيمن! أي تم تعويض تلفيات لا يمكن تعويضها وفق معلوماته البسيطة، فكيف ذلك؟! كما أنه، وبكل تأكيد، لا

يشعر بضَعْف مَنْ مَكَثَ في غيبوبة لمدة 16 يومًا؛ وبخاصة بعد أن تلقَّى طلقاتٍ تكفي لقتل جاموس وحشي. هو ليس طبيبًا لكن حالته العامة ليست سيئة بالتأكيد.

وقبل كل ذلك، فقد استيقظ من الغيبوبة ليجد نفسه يتحدث مع نظامٍ فائق الذكاء يكاد يصل إلى نقطة التفرُّد التكنولوچي(1)(Technological Singularity)، نظام ذكي ينكر وجود كبرى شركات النُّظُم الذكية الأمريكية، بل تم تطويره بواسطة شركة أو هيئة مصرية خاصة في الثمانينيَّات!! الثمانينيَّات، حين كانت قدرة رقائق معالجة البيانات بالكاد تكفي لتشغيل ألعاب يتخطى حجمها ميجابايت واحدة، في حين تقوم هذه الفريدة بملايين، إن لم يكن أكثر، من العمليات الحسابية في الثانية الواحدة.. كيف يكون هذا ممكنًا ابتداءً؟!

عقد حاجبيه بشدة، فكلما حاول جعل المعلومات منطقية ازدادت غموضًا، وتاهت، بل وغرقت، في رمال الـ «لا منطق» المتحركة. أخذ نَفَسًا عميقًا في محاولةٍ للسيطرة على ضربات قلبه المتسارعة والدماء المندفعة إلى رأسه فتنتفخ بها أوداجُه من فرط الغضب، دائمًا ما تلتهب أعصابه ويصل إلى درجاتٍ عاليةٍ من الغضب والعصبية عندما تخرج الأمور عن السيطرة أو يعجز عن إدراكِ أمرٍ ما، هو الآن على شفا

الانفجار ما لم يصل إلى تفسير منطقي ما.

زفر أنفاسه الحارَّة، ثم عاد مرةً أخرى يقلب الأمر على الأوجه كافة، فهل تم تطوير فريدة باستخدام كمبيوتر كمِّي؟! لكن هل توافرت هذه التقنية في الثمانينيات؟ بل هل يمكن استخدامها على هذا النطاق حاليًّا، التكنولوچيا الكمِّية لا زالت تحبو بالمقارنة بما يجب أن تكون عليه! فكيف بحقِّ الله أن تكون لدى هيئة حكومية أو خاصة القدرة على تطويرِ نظامٍ بتلك القدرات منذ ثلث قرن من الزمان؟!

«تبًّا».. أطلق عدة شتائم قصيرة متتالية يُنَفِّس بها عمَّا يدور في عقله ويختنق به صدره، التفسير المنطقي الوحيد هو أن ذلك لا يعدو كونه حُلمًا..

بل كابوسًا..

أو ..

أو أنه ربما يخضع لإحدى التجارب النفسية التي كان يقرأ عنها ..

سَرتْ قُشَعْريرة في جسده، شعر بخوف حقيقي من إمكانية أن يكون فأرَ تجارب في اختبارٍ ما أو خُدْعَة نفسية، ولكن مَن يقف وراء خُدْعَة كتلك؟ ولماذا؟! هل يتعلق الأمر بنظام الأمن الرقمي الذي تطوره شركته؟! احتمال ليس

بالبعيد، فذلك النظام يُعدُّ أول نظام أمني ذكي من نوعه في العالم مُعَدٍّ بخُوارزميّات التعلُّم الذاتي (Self-Learning Algorithms) المعقدة التي طورتها زوجته رانيا، خوارزميات سريعة وفعَّالة تعمل على أنظمة موزعة بتقنيات متوازية بشكلٍ متأصّل بدلًا من بعض التقنيات التسلسلية التقليدية البطيئة، خوارزميات تُضاعف من سرعة التعلم الذاتي بتسارُعٍ أُسّي فائق. تلك الخوارزميات كانت ستجعله أول نظام أمني رقمي لديه قدرة على التعلُّم والتطوُّر بصورة ذاتية؛ لسد الثغرات الأمنية في أنظمة تشغيل بنوك المعلومات ومَزارع البيانات الضخمة (Data Farms) دون تدخل بشري.

هل يمكن أن تكون تلك هي محاولة من أحد أجهزة المخابرات العالمية من أجل الحصول على تلك الخوارزميات؟!

أو أنها فقط محاولة لمنع الشركة من إطلاق التحديث الأخير الذي يشمل خوارزميات التعلُّم الذاتي فائقة التطور والسرعة؟! هو ذاك بالتأكيد، فإن تحديث النظام وجعله أكثر ذكاءً يعني تشديد القدرات الأمنية للأنظمة الوطنية، وتهديدًا مباشرًا لمصالح بعض الدول المعادية.

بدأت الفكرة تختمر داخل عقله وتتحول تدريجيًا إلى

يقين؛ فاستشاط غضبًا عندما أدرك أن تلك الأجهزة أو الجهات المعادية أيًّا كانت قد نجحت بالفعل في منع إطلاق التحديث وحماية مصالحها السامة. عضَّ على أنامله من الغيظ فقد كان قابَ قوسين أو أدنى من إطلاق التحديث وهدم خططهم، لولا أن خَطف ابنه الصغير آدم جهاز التشفير (Dongle)، مفتاح النظام الأمني الرئيس الذي من دونه لا يمكن إجراء تلك التحديثات الأمنية. تذكَّر أمر إصابة مصطفى التي ذهبَت بعقله وألهَته عن استرداد «الدُّونجل». برزت صورة طفليه أمام عينيه بضحكاتهما البريئة، فتهدَّج صدره بأنفاس متسارعة، وكادت أن تفلت الدموع من عينيه لولا أن عقد حاجبيه وأقسم على أن يبذل قُصارَى جهده لتقصِّي مصير أسرته، وأن يجدَهم، قبل أن ينتقم ممَّن آذوهم وإن كلفه ذلك حياته.

دفعه الغضب إلى أن يهبَّ واقفًا ليغادر فراشه، فأسقطه الألم، تأوَّه بشدة؛ فلا يزال جسده البدين غير قادر على تلك الحركات المفاجئة وبخاصةٍ بعد عمليات جراحية معقدة وغيبوبة مُطوَّلة، فاستسلم، وتجاهل نصائح «فريدة» التي حثَّته على عدم الحركة والرضوخ لحكم السِّنِّ وقدرات الجسد.

استسلم حتى هدأت أنفاسه، فارتطم نظره مجددًا بالأجهزة

اللوحية التي ارتفع أنينُها الرتيب مع تسارُع ضربات قلبه، فعقد حاجبيه مفكرًا وهو يحدِّق في تلك الأجهزة المتقدمة التي لم يسبق له وأن رأى مثيلها من قبل، فإن كان الأمر خدعة، وهو كذلك بكل تأكيد، فلا بد من وجود تفسير منطقي لكل تلك التقنيّات المتقدمة.

شرع عقله من جديد يحاول إيجاد منطق متماسك وواضح يتفق ونظرية المؤامرة التي اهتدى إليها، فعاد يتأمل الغرفة، الأجهزة اللوحية ليست بالأمر المُعجِز فهناك فعلًا بعض الشركات التي طوَّرت وسائل لعرض البيانات على ألواح زجاجية بالفعل، قد لا تكون بتلك الدقة والتصميم، ولكن ربما تكون تلك الألواح تعتمد على تقنية حديثة طوَّرتها أجهزة مخابرات، فهي ليست بالأمر المستحيل. تَنهَّد في ارتياحٍ عندما توصل إلى تلك النقطة، واعتدل في جلسته يواصل تفسيراته متحمسًا؛ فلقد وجد تفسيرًا منطقيًّا لمسألة الشاشات اللوحية، وأما بالنسبة إلى عرضها رسومَ قلبِه ومُخِّه ووظائفه الحيوية المختلفة دون أسلاك ومجسَّات تتصل بجسده فهو أمر هين، فربما تقوم تلك الأجهزة بإعادة عرض بعض البيانات المسجلة بشكل عشوائي لإتقان الخدعة وإضفاء صبغة مستقبلية على المشهد تصيبه بالهذَيان. ثم ابتسم ساخرًا عندما برز اسم «فريدة» في ذهنه، حيث عَدَّ أمرها الجزء الأسهل في الخُدعة، فهي بكل تأكيد لا تعدو

كونها فتاةً حقيقية تمكث في إحدى الغرف المجاورة تراقبه وتتحدث معه؛ لإيهامِه بأنها نظام فائق الذكاء وتكتمل الخدعة.

أعاد رأسه إلى الوراء يبتسم في رضا، ثم مَطَّ شفتيه فخرًا وإعجابًا بذكائه الذي تفوق على أجهزة أمنية بكل إمكاناتها ووسائلها المخادعة المتقنة، فأطلق ضحكةَ تهكُّمٍ قصيرةً قبل أن يغمغم بنبرةٍ غاضبة: «يا ولاد الـ....».

- حان الآن موعد محلول التغذية الصباحي. من فضلك حافظ على يدك في حالة استرخاء.

قطعت «فريدة» حبل أفكاره وفخره باكتشاف الخدعة المعقدة التي يعيشها، قاطَعته قبل أن يَفرُغُ من تلاوة قاموس شتائمه، فأجفَل، وعقد حاجبيه واختفت ابتسامته عندما تناهَى إلى مسامعه صوتٌ خافتٌ يخرج من تجويف خلفه في الحائط، مع تحوُّل لون أحد الألواح الزجاجية إلى لون أزرق سماوي فاتر قبل أن يسري محلول بنفس اللون في أنبوب المحاليل المتصل بوريده. حدَّق يحيى في المحلول الذي يسري في هدوء قاطعًا الأنبوب المرن ليصل إلى يده، فيختلط بدمائه ويُبحر عبر أوردَته في رحلةٍ جديدةٍ تُغَذي خلايا جسده المنهكة، فتذكَّر الحادثة والإصابات وحالته الصحية الـجيدة والتي هي بالتأكيد نتيجة تدخل جراحي

متقدم، فعاد الشكُّ يتسـرب إليه، ويسري في دمائه ليغذي عقله المرتبك، فهتف في سخط:

- أين أنا حقًّا؟

- أنت في قسم العناية المركَّزة بالمستشفى العسكري في تكنات شرق القاهرة.

- !!!

لم تتلقَّ تعليقًا، فالتزمت الصمت لحظاتٍ قبل أن تضيف:

- لقد وصل المقدَّم خالد صبري. سيدخل إليك بعد قليل.

***

وخارج الغرفة، وفي نهايةِ رُواقٍ طويلٍ شبه خالٍ ذي جدران بيضاء مصمتة، اجتمع المقدم خالد صبري بفتاةٍ هادئةِ الملامح في منتصف العشرينات من عمرها، ورجلٍ أحمر الشعر ذي شاربٍ كَثٍّ ونَمَشٍ كثيفٍ يغطي وجهه الأبيض المُشـرَّب بالحُمرة، والذي يبدو عليه الوقار بلباسه العسكري وتجاعيد وجهه الغائرة، والتي تعكس سنوات عمره التي قارَبَّت على الستين.

اجتمع ثلاثتهم في غرفةٍ تحتلُّ شاشات المراقبة إحدى جدرانها، حيث انتهوا لتَوِّهم من مشاهدة حية لغرفة يحيى،

واستمعوا لحواره مع «فريدة». فعقد خالد حاجبيه ونظر إلى الرجل ذي الزِّيّ العسكري، الذي أومأ برأسه في صرامةٍ آذِنًا له بالانصراف. فعدَّل خالد هندامه وغادر الغرفة متجهًا إلى غرفة يحيى بخُطًى ثابتة، وفي جعبته العديد من الأسئلة التي تبحث عن إجابات.

***

000011

12:00 ظهرًا.. مصر الجديدة بلا أُمّ..

غادر المستشفى تتلاعب به أمواج متلاطمة، بعضُها فوق بعض، أمواجٌ من الحنين والسَّكِينَة للقائه والده بعد أعوامِ اشتياقٍ طالت، تغشاها أمواج أشد عنفًا من الارتباك وقلَّة الحيلة. لا يدري على أي شطٍ ترسو روحه التائهة، أيستسلم لأعاصير غضب عاتية، مُحقَّة، تأخذ في طريقها بقايا فطرته، أم يتشبَّث بحطام أمل طَفَا بعدما رأى والده سليمًا عفيًّا وعلم بأختٍ لم يدركها.. فقرر شريف التشبُّث بألواح الأمل المتهالكة.

ساقته قدماه بخُطًى ثقيلةٍ إلى حيث ترك سيارته بالقرب من منزل طفولته، وهو يسأل نفسه:

«والدي لم يتزوج ابنة عمه فاطمة.. أمي.. فأمي لم تُولَد

قط.. لأن والدها، جدِّي، قد قُتل صغيرًا.. وبالتالي أمي لم أو لن تلدني، حيث أنها غير موجودة من الأساس!

لكن كيف هذا؟!

كيف أحيا الآن وأنا لم أُولَدُ في الأصل؟ أتلك هي إحدى مفارقات السفر عبر الزمن؟ لم أُولَدُ، ولكنني ما زلت حيًّا!!!».

وقف أمام سيارته لحظاتٍ أدار خلالها عينيه في مربع طفولته السَّكَنِي يتأمل جنباته، ثم ألقى نظرةَ وداعٍ أخيرةً على شرفة شقة والديه، فقد عقد العزم على عدم الاستسلام، على إيجاد مخرَج لما هو فيه.

زفر زفرةً حارةً قبل أن يدلف إلى السيارة عائدًا إلى بيته الجديد، عقد حاجبيه كي يتذكَّر من أين جاء، أين استيقظ هذا الصباح، أين «ڤيلّته» تلك، حيث زوجته التي لا يعرفها، وطفلته التي لا يتذكَّرها، لكنها لمست قلبه. فأدار مقود سيارته يجوب شوارع مصر الجديدة على مَهَل يتحرى الطريق إلى منزله.

استمر راديو السيارة في بَثِّ أغانٍ قديمة لمطربي فترة الثمانينيّات، بعضهم تَعَرَّفَه وعديدهم لا، فاستمر يتفحَّص الشوارع مليًّا علَّه يهتدي إلى حيث جاء. لا يزال يلحظ الاختلافات بين مصر الجديدة التي يعيش فيها الآن وتلك

التي نشأ فيها، الاختلافات أصبحت أكثر وضوحًا، هناك شوارع بأكملها يكاد يقسم أنها لم توجد أو لم تكن تبدو كذلك في صباه وشبابه على حَدٍّ سواء...

جالت بخاطره أحداث اليوم وطرف الخيط المتاح لديه الآن، السلك الكهربائي، أو المحوِّل الكمِّي، ومعه لوحة الدوائر الكمِّية المستقبلية.. والخزينة، كيف نسيَ تلك الخزينة القابعة في غرفة مكتبه.. قد تحتوي على باقي الخيط، لعلَّه يفقه ما هو فيه.. بل قد تحتوي على ما يساعده على العودة إلى عصره.. إذا كان ذلك ممكنًا.

ألهبت تلك الخاطرة حماسه، فاسترجع محاولاته لفتحها وتَمَنُّعَها. بالتأكيد هو لا يتذكر شفرة الخزينة، لكنه في جميع الأحوال هو مَنْ وضعها، سواء أكان أحمد أم شريف، فلا بد أنه يستخدم نفس طريقة التفكير. بلغ حماسه ذروته عند تلك النقطة، فاسترسل في خواطره، إنه دائمًا ما كان يستخدم تاريخ ميلاده أو تاريخ ميلاد والدته عند تعيين كلمة سر أو كلمة مرور، ولكن بعد أن يقوم بتغيير الأرقام عن طريق إجراء عملية حسابية معينة فيصعب لأحد غيره فَكُّ شفرتها حتى لو علم تاريخ الميلاد. ارتسمت ابتسامة على وجهه بعد أن أشرق الأمل من جديد، سيحاول فتح الخزينة، لكن عليه أولًا بلوغ منزله.

قطع أفكارَه صوتُ مذيع الراديو يعلن عن نشرة الأخبار، فلم يُعِرْه انتباهًا في البداية وقد شحذ ذهنه ليجد طريق العودة إلى منزله وسط شوارع جديدة لم يَعْتَدها. انتبه شريف بغتةً ثم رفع صوت المذياع بحركةٍ حادة، وهو يصغي باهتمام مُقَطِّبًا جبينه في شدة، فما يستمع إليه يتنافى مع المنطق، يتعارض مع كل شيء درسه أو عاشه، حيث أتى صوت المذيع هادئًا وهو يقول:

«....وقد شارك الرئيس السادات ضمن لجنة الوساطة الثلاثية، والتي تضم مصر والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، في الجولة الأخيرة من مؤتمر نيويورك للسلام والتي عُقدت أمس، الخامس من نوفمبر، بهدف التَّوصُّل إلى الترتيبات النهائية نحو إحلال سلام دائم وعادل في القارة الأوروبية.. وكذلك تنظيم انسحاب ألمانيا من الأراضي البريطانية، وإنهاء احتلالٍ دام لأكثر من 68 عامًا، منذ هزيمة بريطانيا في الحرب الكبرى واحتلالها من قِبَل ألمانيا في عام 1916..

كما أكَّد السفير المصري لدى الولايات المتحدة الأمريكية، محمد حسني مبارك، أن اليوم يُعدُّ يومًا تاريخيًّا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، مشيرًا إلى توقيع الأطراف كافةً على «اتفاقية السلام الشامل»، والتي تُعد تكليلًا للجهود المصرية

وجهود لجنة الوساطة الثلاثية في تحقيق السلام في أوروبا. مؤكِّدًا على أن مصر قد لمست جدية الأطراف كافة، وعزم ألمانيا على إنهاء الاحتلال والانسحاب الكامل من جميع الأراضي التي احتلتها عام 1916، وخلال عام واحد فقط وفقًا للجدول الزمني المنصوص عليه في الاتفاقية، بحيث ينسحب آخر جندي ألماني من لندن بنهاية ديسمبر 1985.. ومن المنتظر عودة السيد الرئيس والوفد المرافق له إلى القاهرة مساء اليوم، حيث...».

كبس مكابح سيارته بصورة فجائية، وأطلق سبَّة قصيرة. عقد حاجبيه في شدة، فهذا ما كان يخشاه منذ البداية، ومنذ لحظ الاختلافات، بل منذ أن لقي نسيم اليهودي، منذ أن أدرك أن والدته لم تلده، بل لم تُولَد هي من الأساس. التاريخ الذي يحيا فيه الآن يختلف كليًا عن التاريخ الذي نشأ عليه، الماضي قد تغير.. ولكن كيف ذلك؟ ألمانيا هزمت بريطانيا في الحرب العالمية الأولى! والرئيس السادات ما زال حيًّا! والرئيس مبارك سفيرًا! و....

قاطعته غريزتُه المستحدثة، فرفع نظره إلى مرآة السيارة حين لمح خلفه سيارة ألمانية سوداء تقودها فتاةٌ شابَّةٌ بيضاء، سوداء الشعر. لقد لمح تلك السيارة مرة أو مرتين هذا الصباح، حَدْسه يخبره بذلك، كما أن وجه الفتاة يثير

في نفسه هواجس متضاربة. قفز من سيارته متجهًا إليها، فسارعت هي بأن أدارت مِقوَد سيارتها لتصعد فوق الرصيف الجانبي ثم انطلقت مبتعدة.

عاد شريف إلى سيارته في وثبةٍ سريعة، قبل أن يعتصر دوَّاسة الوقود وينطلق خلفها بأقصى سرعة في شوارع مصر الجديدة شبه الخالية.. «تبًّا للشوارع الخالية».. ثم غمغم: «لم تكن لتهرب أبدًا في زحام 2015».

بلغت السيارتان سرعتهما القصوى، الفتاة تقود ببراعة في اتجاه طريق الإسماعيلية الصحراوي، يساعدها محرك سيارتها القوي، فيما قلَّصت مهارة شريف الاستثنائية في القيادة فارق إمكانات المحركات، يبدو أنه اكتسب تلك المهارة كما اكتسب غيرها. مهارة لم يألفها من قبل لكنها مهارة مثيرة للاهتمام، غريزته هي من تقود، سيظفر بالفتاة تحت أي ظرف. تقلصت المسافة بين السيارتين، حتى سارتا جنبًا إلى جنب، فأدار شريف مقود سيارته ليضرب جانب سيارتها في محاولةٍ لدفعها خارج الطريق، أبت مهارة الفتاة أن تستسلم، فسارت السيارتان متلاصقتَيْن تحاول كُلٌّ منهما دفع الأخرى، قبل أن تبطئ الفتاة سيارتها بصورة فجائية وتدير المقود باتجاه سيارة شريف، فترتطم مقدمة سيارتها بمؤخَّرة سيارته، فدارت سيارته حول نفسها دورةً كاملة،

وانزلقت خارج الطريق وسط الرمال دون أن تنقلب. ثم انطلقت الفتاة مبتعدةً تلوذ بالفرار، تاركةً سيارة شريف تقبع وسط عاصفة لا تهدأ من الرمال.. والحنق.

***

000010

7:30 صباحًا.. المستشفى

أطلق باب غرفة المستشفى صوته المميز المشابه لصوت معادلة الضغط الجوي، ومعه هسيس الغازات البيضاء التي ضُخَّت من جوانبه لتعقيم الزائر. دلف رجل قوي البنية، رياضي القوام، في منتصف الثلاثينات من عمره، ذو وجه مربع تكسوه الملامح الصارمة، وتقدم بخُطًى ثابته نحو يحيى الراقد في فراشه والتوتر يفترش قسماته. ابتسم الزائر ابتسامة مصطنعة ثم قال في هدوء:

- مقدم خالد صبري من جهاز الأمن الداخلي.. هل من الممكن أن نتحدث قليلًا؟

- بالتأكيد! تفضل.

قالها يحيى وابتسامة مضطربة ترتسم على شفتيه، ثم أشار بيده يدعو ضيفه إلى الجلوس، وقد أدرك أن فرصته قد

حانت أخيرًا ليعلم مصير أسرته المفقودة. جلس خالد وهو يحدج يحيى بنظرةٍ طويلةٍ حملت من الشكِّ والرِّيبَة، أكثر مما حملت من الهدوء الذي حاول جاهدًا أن يخرج به صوته وهو يقول:

- حمدًا لله على سلامتك! كيف حالُك الآن؟

حافظ يحيى على ابتسامته الباهتة وهو يومئ برأسِه بمعنى أنه أفضل حالًا، ثم اختفت ابتسامتُه فجأةً وضم حاجبيه قائلًا في توسُّل:

- أين أسرتي؟ ولداي؟ ماذا حدث لهم؟ لماذا لا يريد أحد إخباري بالحقيقة؟

- قُصّ عليّ ما حدث من البداية.

قالها خالد في هدوء، فأجابه يحيى متلعثمًا حيث تلاطمت الأفكار في عقله الذي سيطر عليه الجزع؛ فخرجت كلماته مرتبكةً مضطربة:

- «اثنان أو ثلاثة رجال يتّشحون بالسواد اقتحموا المنزل.. أطلقوا نيرانًا كثيفة.. حطموا كل شيء.. ثم حدث انفجار.. لا، لا بل انفجاران..»، ارتفع صوته واحتدَّت نبرته وهو يتابع: «لا أعرف.. أنا فقط أريد أسرتي».

أشار إليه خالد براحتيه يُهدئ من رَوْعه، ثم قال في هدوء:

- اهدأ، رجاءً! خذ نَفَسًا عميقًا ثم عرفني بنفسك أولًا.

حدَّق يحيى في وجه خالد للحظاتٍ قليلة قبل أن يأخذ نَفسًا عميقًا ملأ به رئتيه ثم زفره في يأس، ليقول بعده في استسلام:

- أنا يحيى عبدالحكيم المصري. مواليد القاهرة سنة 1978. مهندس نُظم أمن المعلومات، والمدير التنفيذي وصاحب شركة «Sky Shield» أو «درع السماء» لأنظمة الأمن الرقمي الذكية.. متزوج من رانيا سليم فيَّاض، مهندسة ذكاء اصطناعي ومديرة التكنولوچيا في الشركة.. ولدينا ولدان؛ مصطفى 6 سنوات، وآدم 4 سنوات.. من سكان التجمع الخامس، كُمبَوِنْد «لا مادروجادا».

عقد خالد حاجبيه في اهتمام، ثم قاطعه متسائلًا:

- أين تسكن؟!

- في كمبوند «لا مادروجادا».. على أطراف التجمع الخامس.

قالها يحيى في دهشة، فكيف لضابط في جهاز أمني رفيع كما يبدو على خالد وأسلوبه ألا يعلم أين يقع «لا مادروجادا»،

أشهر التجمعات السكنية المُسَوَّرة بالتجمع الخامس. تأمل في قلقٍ تعبيرات الحيرة على وجه الضابط، فصمت محدَّقًا في وجهه للحظاتٍ قصيرة قبل أن يحثَّه الأخير على الاستمرار، فتَنهَّد يحيى ثم استطرد في نبرةٍ حملت الكثير من الشك:

- حسنًا، منذ حوالي 5 سنوات، طرحت شركتي في السوق نظامًا أمنيًا رقميًا شهيرًا، بالتأكيد حضرتك سمعت عنه «Clypeus»، ويعني «الدِّرْع» باللاتينية، وهو نظام لحماية بنوك المعلومات ومزارع البيانات.. نحن تقريبًا نمتلك قرابة 10% من السوق العالمي في مجال حماية مزارع البيانات الضخمة.. وكل ذلك بفضل مُكَوِّن الذكاء الاصطناعي الذي طوَّرناه في الشركة. صمت قليلًا ثم عقد حاجبية وهو يقول: «وهنا تكمن المشكلة برُمَّتها. حيث كان من المقرر أن تطلق الشركة تحديثًا جديدًا للنظام يوم 7 ديسمبر، تحديث يمنح النظام القدرة على التعلُّم والتطور الذاتي، وأطلقنا عليه اسم «Unica». ارتفع صوته هذه المرة بفعل الحماس وهو يتابع: «فكرة التحديث ببساطة تعتمد على أن يستخدم النظام الأصلي، «كليبيوس»، البيانات المتوافرة لدية في مزارع البيانات وكذلك محاولات الاختراق المتواصلة؛ كي يتعلم طُرُقًا جديدة للحماية وسَدّ الثغرات الأمنية.. وليس هذا فحسب، بل سيقوم بتطوير نفسه عن طريق برمجة بعض الوظائف والدَّالَّات بصورة ذاتية، بمعنى أنه سيُعِد كودًا

برمجيًا متكاملًا بل وسينفذه من تلقاء نفسه لضمان تلافي أخطاء العنصر البشري. ثم هتف وقد بلغ حماسُه مبلغه: «خيال علمي كما يجب أن يكون».

صمت يحيى للحظاتٍ يتأمل نظرات الحيرة والاهتمام على وجه خالد الذي تعجب بدوره من حماسة يحيى وهو يصف إمكانات نظامه الأمني، بل لمس إحساسه بالفخر وحَجْم شغفه باختراعه لدرجةٍ أنْسَته أسرته التي كان يصرخ بشأنها منذ لحظاتٍ قليلة، فرفع حاجبيه في دهشة، ثم أردف:

- وأين المشكلة إذًا؟

سعل يحيى في حرج وقد أدرك أن شغفه عندما يتعلق الأمر بابتكاراته قد سيطر عليه مجددًا، فمطَّ شفتيه حرجًا ثم أضاف في تلعثُم:

- المشكلة أنه من المؤكد أن أجهزة مخابرات الدول المعادية لا تريد أن تمتلك مصر تكنولوچيا متقدمة كتلك.

- أتعني أنك فعلت ذلك من أجل مصر؟!

- ابتكار وتطوير مثل تلك التقنيات والأنظمة المتطورة في مصر هو أمر مهم، وبالتأكيد سيعود بالنفع على مصر وعلى أمنها القومي وقوتها.. أم أن لدى حضرتك رأيًا آخر؟

قالها يحيى في دهشةٍ وهو يحدِّق في وجه خالد الصارم الذي قَطَّبَ جبينه يتفرَّس ملامح الأول في شكٍّ واضح. لقد تبادل كلاهما تعبيرات الدهشة والحيرة والشك منذ أن بدآ حديثهما ككرة بنج بونج حائرة في مباراة بين بطلين من الصين، فأردف خالد في هدوء:

- ماذا تعني لك مصر؟

في دهشةٍ عارمةٍ أجابه يحيى:

- ما هذا السؤال؟! أهو اختبار ولاء؟!، ثم هتف: «حسنًا، تحيا مصر!»

حدجه خالد بنظرةٍ حادَّة، ثم عقد حاجبيه في شدَّة وهو يسأله بلهجةٍ صارمة:

- هل لك أي علاقة بتنظيم «كفاح طِيبَة» الإرهابي؟! هل تعرف «الأيوبي» زعيم التنظيم؟!

بُهِت يحيى، وانحسرت الدماء عن أطرافه، فشعر بالبرودة تغزو جسده من منبت شعره حتى أخْمَص قدميه، فهتف في ذعرٍ تحول مع خروج الكلمات من حلقه إلى غضبٍ واضح:

- «تنظيم ماذا؟! أقول لك تحيا مصر، وأنت تتهمني بالإرهاب؟!»، تصاعدت نبرته الغاضبة وهو يتابع: «بل، أنا

وأسرتي من تعرض لعمل إرهابي.. هناك إرهابيون تهجَّموا علينا في منزلنا وأطلقوا علينا نيرانهم بل وفجَّروا المنزل.. نعم فجروه.. أنا سمعت صوت الانفجار قبل أن أفقد الوعي.. وأنت تركت كل هذا وتصفني أنا بالإرهابي؟!»

مال خالد في جلسته وهو يراقب يحيى وانفعاله الواضح، وساد الصمت لحظاتٍ نهض بعدها خالد يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا في محيط السرير وعينا يحيى تتابعانه في حركة دائرية أصابته بالتَّوتر، قبل أن يُطرِق برأسه مفكرًا للحظاتٍ أنهاها بأن نظر إلى يحيى وهو يقول:

- لقد التقطت أجهزتنا بالفعل موجات انفجارية في نفس الإحداثيات التي وجدناك بها.. ولكن نمط تلك الموجات وتردداتها المتغيرة بمعدلات فائقة السرعة قد أصابت أجهزة الرصد والتتبُّع المُسيَّرة بخلل في محيط 2 كم.. نمط انفجاري غير مألوف! هل لديك فكرة عن ذلك؟!

- ماذا؟! لا، ليس لديَّ أدنى فكرة عما تقول!

واصل خالد خطواته التي يقطع بها الغرفة من أقصاها إلى أدناها، ثم رمق يحيى بنظرةٍ متشككة وهو يقول:

- «وأنت شخصيًّا، وجودك في حد ذاته هو أمر غير مألوف.. لا يوجد لك سجل حمض نووي في قاعدة البيانات المركزية

في لندن.. ولا حتى سجِلّ واحد لك أو لأحد من أقاربك وحتى عام 1971! أنت بالنسبة إلينا مجرد شبح، شبح ليس له وجود! هل لديك أي تفسير؟!»، ثم عقد حاجبيه في شدة حين أردف بصرامة: «هل ساعدك أحدٌ من التنظيم لمسح سجلات الحَمْض النَّووِي؟!»

- !!!!

- وماذا بشأن الموقع الذي وجدناك به مصابًا؟ ماذا كنت تفعل هناك؟.

- هذا بيتي! أتسألني ماذا أفعل في بيتي؟!

- بيتُك في الصحراء؟! لقد وجدناك وحيدًا في الصحراء، بعيدًا عن منطقة أطلال شرق القاهرة بحوالي 30 كم! ازدادت نبرته صرامةً وهو يسأل: ماذا كنت تفعل بالقرب من أطراف المنطقة المشعَّة؟! أكُنتم تعدُّون لعملية إرهابية جديدة ثم اختلفتم؟!

حدَّق يحيى في وجهه في ذهولٍ غيرَ قادرٍ على استيعاب حرف مما يقول، ثم نفض عنه الذهول حين شعر بالدماء تغلي في عروقه، ليهتف في غضبٍ عارم:

- أتعيد اتهامي بالإرهاب مرةً أخرى؟! ثم ماذا تعني بالمنطقة المشعة؟! وماذا تكون منطقة أطلال شرق القاهرة

هذه؟! ما خطبُك يا حضرة الضابط؟!

تجاهل خالد أسلوبه الغاضب، وثبَّت عينيه في عَينَيْ يحيى في تَحدٍّ واضح قبل أن يقول:

- فريدة، اعرضي الموقع الذي وجدنا به يحيى.

أفادت فريدة بالموافقة، ثم خبا الضوء المنبعث من التجاويف الجانبية المتوازية، قبل أن يضيء الجدار المواجه للسرير بضوءٍ برَّاقٍ ثم تظهر بداخله لقطات حية للقاهرة، مع نقطة حمراء بعيدة تومض في منطقة صحراوية قاحلة. اقترَبَت الكاميرا في سرعة حتى بلغت تلك البقعة من الصحراء، البقعة التي وُجِدَ فيها يحيى بين الحياة والموت.

تدلَّى فَكُّ يحيى السفلي في ذهول، زاغت عيناه في محجريهما، وارتعشت شفتاه استجابةً لقلبه الثائر، الذي يكاد يتوقف من فرط سرعة النبضات.. لقد أصابه الهلع والذهول، وشارَف عقله على الجنون، ليس بسبب البقعة الحمراء التي تتوسط صحراء قاحلة في موقعٍ كان ينعم فيه بحياة صاخبة منذ أسبوعين فقط.. ولكن بسبب المشاهد الحية التي تبثُّها «فريدة»، فالقاهرة الجديدة بأكملها قد اختفت، اندثرت، بتجمُّعاتها وشوارعها وأسواقها.. فقط صحراء قاحلة لم تَطْلها يدُ العمران من قبل..

وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل مصر الجديدة ذاتها، موطنه الذي وُلد فيه، ونشأ فيه ولعب في شوارعه.. لقد أضحت أنقاضًا؛ أطلالًا متراكمة عظيمة وممتدة.. شرق القاهرة بأكمله أضحى عبارة عن أطلال بالية تطوف فوقها طائرات صغيرة مُسيَّرة آليًا تُمشِّطُ أرجاءَها في تَحدٍّ وإصرارا

هذه ليست مصر التي عرفها وعشقها..

هذه أرضٌ أخرى..

أرضٌ لا يعلم عنها شيئًا.

***

000011

1:30 ظهرًا.. مصر الجديدة أخرى..

وأخيرًا، عاد شريف إلى منزله، منزله الذي يقبع في ماضٍ بعيد، ماضٍ يبعد عن حاضره الذي اعتاد عليه بثلاثين عامًا، بل في ماضٍ كان قد اكتشف لتَوِّه أنه يختلف كليًا عن ماضيه الذي وُلد فيه ونشأ فيه. عاد بعد أن قبع حانقًا في سيارته دقائق وسط غبار لم ينقشع، بعد أن خسر مطاردة مع فتاةٍ تراقبه وتَفُوقه مهارة، تفوقه في مهارةٍ لم يدرك أنه يمتلكها، مهارة اكتسبها في سنوات عمره المفقودة. عاد إلى منزله بعد

أن ساعده بعض المسافرين على الطريق الصحراوي، سحبوا سيارته من الرمال إلى نهر الطريق، ثم قادها وأصوات اصطكاك قوائمها بأبوابها المحطمة تَصُمُّ أذنيه، اهتدى إلى منزله بعد محاولاتٍ عدةٍ شحذ فيها ذهنه واقتفى آثار مغامراته التي ملأت صباح يومه.

دَلَف إلى المنزل مليئًا بالحنق والارتباك.. ولكن ينقصه اليأس. استقبلته ليلى في الردهة عندما سمعت صوت المحرك ولمحت سيارته وهو يَصُفُّها أمام بوابة الحديقة. ثم صرخت في جزعٍ حين رأته مُغبرًا والدماء الجافة أعلى جبهته:

- شريف!! ماذا حدث؟

- حادثة بسيطة.. لا تقلقي!

- بسيطة؟! كيف؟ ماذا حلَّ بك منذ الصباح؟ أخبرني أرجوك!

- بسيطة حقًّا.. أنا فقط مُتعَب.. اعذريني.

قالها وألقى بنفسه على الأريكة المواجهة لجهاز التلفاز العتيق. تَنهَّدت ليلى في استسلام، ثم هُرعت تحضر بعض الأدوية والأربطة لتُضمِّد جراحه. أزالت دماءَه المُتجلِّطة بقطَع القطن الطبي المُبلَّلة، وضمَّدت جراح جبهته. اختلج

قلبها مع رؤية علامات الألم وقد بَدَت على قسماته، فتحسست وجهه بأناملها ورَبَّتت على ظهره في حنان. نظر شريف في عينيها، وتفرّس ملامحها الحانية للحظات، فارتسمت ابتسامة دافئة على شفتيه، ابتسامة لم يقوَ على أن يُتبعها بكلمات، فالمشاعر متضاربة والكلمات تائهة. كانت ابتسامته كافية لنقل كل ما يدور بخَلَدِه. هو لا يدري سببًا، ولكنه بدأ يشعر ناحيتها بنوع من الأُلْفَة والسَّكِينَة. لقد رآها دقائق معدودة، لكن مشاعرها الحانية ومشهدها وهي تُرضع طفلته الصغيرة قد أزالا جزءًا من القشـرة التي تغطي ذاكرته، ذاكرته العاطفية على الأقل. بادلته الابتسامة بواحدةٍ أكثر دفئًا، ثم قالت وهي تُرَبِّت على ساقه:

- أنت لم تتناول إفطارك يا شريف.. وأنا كذلك، لم آكل منذ الصباح.. سأعدُّ الغداء الآن.

قالتها ونهضت مسرعةً تعدُّ الطعام. فمكث شريف في جلسته يسترجع ما كان يدور في رأسه قبل أن تفاجئه الفتاة. لقد أدرك قبلها بلحظات أن الثمانينيات التي يحيا فيها الآن تختلف عن الثمانينيات التي وُلد فيها، 1984 ليست هي 1984 التي يعلمها. ولكن كيف تغير التاريخ، ومَنْ غيّره، ثم كيف عاد هو شخصيًا إلى الماضي ليجده ماضيًا مختلفًا، لقد التبس عليه الأمر، وازداد تعقيدًا. ثم تذكَّر السلك الأسود

الغريب ولوحة الدوائر الكمِّية، فتحسَّس جيب سُترته في لهفة، ثم تنفس الصُّعَدَاء وهو يخرجهما ويتفحَّصهما في تمعُّن، هذا طرف الخيط بالتأكيد، والطرف الآخر يقبع في خزينة مكتبه من دون شك.

نهض مهرولًا إلى غرفة المكتب، يحاول فَكَّ شفرة الخزينة مرة أخرى، استخدم تاريخ ميلاده، وتاريخ ميلاد والدته، ثم تواريخ ذكرياته المحببة كافة، استعمل معادلته الراسخة التي دأب على استخدامها طيلة حياته عند تعيين كلمات المرور الخاصة به. لكنه فشل، أبَتِ الخزينة القديمة إلا أن تبقى صامدة، فركلها ساخطًا، مستندًا براحتيه إلى المكتبة، وزفر في حنقٍ قبل أن يلمح أحد الكتب باللغة الألمانية بعنوان: «تاريخ الحرب الكبرى»، ثم ضاقت عيناه وسحب الكتاب ببطء.

مرَّ بنظرِه سريعًا على فهرس المحتويات، فلاحظ بعض التشابه في عناوين الفصول الأولى مع أحداث الحرب العالمية الأولى، هو ليس خبيرًا في التاريخ بكل تأكيد، لكنه يعلم ما يكَفِّيه عن تاريخ الحرب العالمية الأولى والثانية وما إلى ذلك. على الأقل هو يعلم أنها بدأت في 1914 وانتهت في 1918 بهزيمة مخزية لألمانيا، نتجت عنها معاهدة ڤرساي المجحفة بالنسبة إلى الألمان. فهرس الكتاب يوحي

بأن التاريخ كان متطابقًا مع ما دَرَسَه وعَلِمَه وشاهده في الأفلام السينمائية كذلك، تطابقٌ تامٌّ حتى العام 1916، حتى وجد فصلًا بعنوان: «اجتياح لندن»، فقلَّب الصفحات في لهفة، تتسابق عيناه تقرأ سطور الفصل في سرعة. فَطِنَ إلى أن ألمانيا قد سحقت الأسطول الإنجليزي في معركة بحرية باسم معركة «يوتلاند» في 31 مايو 1916، تلاها إنزال برِّي للقوات الألمانية على السواحل الإنجليزية بعدها بأسابيع قليلة، ثم استسلام غير مشروط لبريطانيا. عقد حاجبيه بشدة، واختلطت الدهشة بالتَّوتر لتملأ عقله بمزيجٍ ثقيل، ليس فقط لأن التاريخ قد تغير في تلك اللحظة، ولكن لأنه وجد دائرة خُطَّت بحبرٍ أزرق اللون حول «معركة يوتلاند»، ثم تبيَّن خط يده والجملة المكتوبة على جانب الصفحة «لامبسون 25/11/1915» والمُشدَّدة بخطَّيْن أسفلها.

عقد حاجبيه حتى كادا أن يتلامسا، ثم أغلق الكتاب في بطءٍ وقد انصهرت خلايا مُخِّه من أفكار ومخاوف ملتهبة تسري في ثنايا مخه كحِمَم بركانية مستعرة.. ماذا يعني ذلك؟ يبدو أنه كان يدرك اللحظة التي تغير فيها التاريخ! ولكن هل له يدٌ في ذلك؟ هل هو من غيَّر هذا التاريخ؟ ولكن كيف؟ كيف تنقَّل بين الماضي والمستقبل؟ ولماذا يفعل ذلك؟! لماذا يغير الماضي فيفقد أمَّه.. ونفسه؟

- شريف!! الغداء جاهز.

قطع نداؤها تدفقات أفكاره الملتهبة، فأبطأ انصهار خلايا مخّه المنهكة. أعاد الكتاب إلى موضعه، ثم رافَق ليلى إلى مائدة الطعام، محاولًا ألَّا تلحظ شروده والغيوم البركانية التي ضاقت بها جنبات رأسه لتخرج من فتحتَيْ أنفه، فقد رأت منه اليوم ما يكفي، وزيادة قلقها لن تساعده في شيء، بل قد تُعيقه، كما أنه يشعر بالجوع على كل حال.

جلسا معًا يتناولان طعامها الشهي. ولدهشته لم يختلف الطعام كثيرًا عما اعتاد عليه في زمنه من حيث الأنواع، ولكنه اختلف يقينًا من حيث الطعم. التهم الطعام بشراهة لم يَعتدْها، محاولًا تلطيف الأجواء مع ليلى، فأثنى على طعامها وتجاذب معها أطراف الحديث، بطريقةٍ حاول فيها تجنُّب تفاصيل يجهلها هو أو أحداث لن تفهمها زوجته.

أصغى إلى كلماتها، تأمل وجهها وقسماته واختلاج شفتيها، أدرك لماذا قد يكون تزوجها في المقام الأول، إنها تجمع مزيجًا مُلِهمًا من الضعف والقوة في آنٍ واحد، مزيج تجسَّد في هيئة حنان وعطف ومَودّة وشجاعة، أيًا كان اسمه عندما تزوجها، «أحمد سالم» أَمْ «شريف القاضي»، فهي تناسب كليهما، هي الفتاة التي طالما حلم بها.

يبدو أنه قد اختلط عليه الأمر، أتُعَدُّ مشاعره تجاهها حُبًا

من النظرة الأولى لظروفه الحالية، أم مشاعر متراكمة كانت قد غرقت في غياهب الذاكرة ثم طفت مجددًا عندما لمس روحها. أيًّا كانت الحقيقة فإن ليلى وطفلتها هما شعاع الضوء الوحيد الذي يبدِّد ظُلمته الموحشة. وحين وصل إلى تلك النقطة، برزت خاطرة مُلحَّة في ذهنه بغتة، فسألها في اهتمامٍ ولهفةٍ عجز عن إخفائهما:

- ما تاريخ ميلاد سلمى؟

- 11 يوليو.. هل نسيت؟

- «11 يوليو 1984» ردَّدها وقد لمعت عيناه، ثم أردف: «اعذريني يا ليلى، لم أستطع تذكُّر اليوم بالضبط.. من الواضح أن الحادثة قد أثرت عليَّ قليلًا.. لا تقلقي!»

قالها ثم نهض مسرعًا بعد أن أثنى على طعامها، ووعدها باحتساء الشاي معًا في وجود سلمى، ولكن عليه أن يُنهي بعض العمل في مكتبه أولًا.

تابعته بنظرها وهو يخطو مسرعًا إلى غرفة المكتب ويغلق بابها خلفه، فرفعت حاجبيها وزمّت شفتيها وهي تهزُّ رأسها في استسلام، ثم نهضت ترفع الأطباق عن المائدة لتذهب وتطمئنَّ على ابنتها الرضيعة.

***

000000

31 ديسمبر 1911

11:00 قبل منتصف الليل.. صوفيا

توقفت عربة أرستقراطية سوداء ذات عجلات خشبية أربع، طراز Landau، يجرُّها حصانان حالكا السواد، وتتوسطها قمرة ذات ستائر مخملية حمراء، مُزيَّنة من الخارج بزخارف ذهبية على شكل إكليل من الأزهار المتشابكة. توقفت العربة أمام مدخل بهو عملاق في صدر أحد القصور الفخمة بالعاصمة البلغارية «صوفيا»، وترجَّل منها رجل في أوائل الأربعينات من عمره، وسيم، بملامح شرق أوسطية واضحة، وشعر أسود مُصفَّف بعناية تخفي الشعيرات البيضاء التي انتشرت في مناطق متفرقة من فروة رأسه، يرتدي بذلة سهرة سوداء طويلة (فرَاك) وربطة عنق سوداء قصيرة (بابيون). مشهد أسطوري أضفى على صاحبه مهابة ومنحه ثقة واضحة، وهو يخطو إلى بهو القصر الفخم ذي الأعمدة الرخامية المزخرفة، والأسقف العالية المزينة بنقوش ذهبية ورسومات كلاسيكية على الطراز القوطي، أسقف مزخرفة يتدلى منها ثُريَّات عظيمة برَّاقة. تقدم الرجل بخُطَى واثقةٍ في بهو القصر بينما تعزف فرقة موسيقاة أنغام موسيقى الـفالس الكلاسيكية، ويطوف

عدد من النُّدُل بصَوانٍ تحمل مشروبات الشمبانيا والنبيذ على عشرات المدعوِّين المتأنقين في ثياب السهرة الرسمية، والتي تتناسب مع موضة تلك الفترة من أوائل القرن العشرين، يتزيَّن بعضهم بأوسمة ونياشين رسمية؛ مما يضفي على الحفل طابَعًا دبلوماسيًا رسميًا.

جال الرجل ببصره في أرجاء البهو الفخم الذي يستضيف حفلًا ملكيًا كبيرًا بمناسبة رأس السنة الميلادية وبداية عام 1912. وفي انبهار، حاول السيطرة عليه، تأمَّل المدعوِّين وأزياءَهم المميزة لتلك الفترة من أوائل القرن العشرين في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى؛ إذ اتسمت أزياء الرجال بالطابَع الكلاسيكي المميز لحفلات «ربطة العنق السوداء» الرسمية، حيث القمصان البيضاء الناصعة ذات الياقات القصيرة التي تحتضن «بابيون» أسود أدْكَن يتباين مع صديري أبيض مُنشًّى (طراز مارسيلًا)، أسفل بَذْلاتٍ سوداء فاخرة ذات طيَّاتٍ لامعةٍ بعضها تقليدي، والآخر تمتد سُترته لتصنع ذيلًا عريضًا يصل إلى منتصف الساق أو أطول قليلًا (فراك)، اعتمر بعضهم قبّعات سهرة طويلة فيما أبقى غالبيتهم رأسه مكشوفًا. أما النساء، فقد تألقن وأبدعن في ملابسهن، ما بين عجائز تزينَّ بفساتين كلاسيكية أقرب إلى أزياء الحقبة الـڤيكتورية مع بعض التعديلات العصرية، وشابات تمردن وتجملنَ في أزياء السهرة تلك ذات الطابع

الشرقي التي اجتاحت أوروبا خلال العامين السابقين، بعد أن قدمت فرقة الباليه الروسية عرضها التاريخي الأيقوني «باليه شهرزاد» في باريس في عام 1910، فاجتاح أوروبا هوَسٌ مَرضيٌّ بموضة الأزياء ذات الطابَع الشرقي «الشهرزادي».

نجح أخيرًا في السيطرة على مشاعر الانبهار وكتمها بداخله، ثم ألقى نظراتٍ خاطفةً يتفقَّد المدعوين، حيث لمح الملك «فرديناند الأول» ملك بلغاريا يتبادل الأحاديث مع سفراء وقناصل الدول التي اعترفت رسميًّا ببلغاريا دولةً مستقلةً ذات سيادة، عقب إعلان الأخيرة استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية قبلها بثلاث سنوات. بدا أن المدعوين يستمتعون بوقتهم غير عابئين بالوضع المتأزِّم في منطقة البلقان ككل، أو أن بلغاريا وجاراتها من الدول على أعتاب حرب طاحنة ستدور رَحَاها في غضون أشهر قليلة، الحرب التي ستُعرف فيما بعد بحرب البلقان الأولى، فتبادلوا الضحكات العالية وهم يرقصون على أنغام «الـفـالس» ويقرعون الكؤوس مستمتعين بالشراب الغزير والأطعمة الشهية.

ألقى الرجل الشرق أوسطي التحية وتبادل بعض الأحاديث الودية مع عدد من المدعوين حتى لمح ذلك

الشاب الإنجليزي، طويل القامة، أشقر الشعر، والذي يبدو في الثلاثين من عمره. راقبه وهو يتبادل الحديث مع ثلاثة من المدعوين ذوي السمت الدبلوماسي. استأذن الرجل الشرق أوسطي وتوجه في خطواتٍ هادئةٍ إلى الدبلوماسي الإنجليزي الشاب قبل أن يُحيِّيه بإنجليزية سليمة:

- مستر لامبسون، كيف حالُك؟

نظر إليه مايلز لامبسون، الدبلوماسي الشاب بالسفارة البريطانية في بلغاريا، بابتسامةٍ تحمل من الدهشة والتساؤل أكثر مما تحمل من الترحاب، فهو قد وصل العاصمة البلغارية منذ أقل من شهرين، ولم يتسنَّ له بعد لقاء الكثير من الشخصيات ذات الحيثية في المجتمع الأرستقراطي البلغاري، ممَّن قد يتعرفون إليه في مثل هذا الحفل الرسمي رفيع المستوى. نحَّى أفكاره جانبًا وردَّ التحية في بطءٍ وقد ضاقت حَدَقتاهُ ومال رأسه قليلًا في تساؤل واضح:

- بخير حال، أشكرك.

- أهنِّئك على عملك الجديد بالسفارة البريطانية في صوفيا.

قالها الشرق أوسطي قبل أن يصمت للحظةٍ نظر خلالها في عَينَيْ لامبسون مباشرة، ثم استطرد قائلًا:

- ولكني أشعر بالأسى كونك ستغادر بلغاريا قريبًا. كنت آمل

أن تكمل فترة عملك هنا.

نظر إليه لامبسون في دهشةٍ وشبح الابتسامة يذوي على شفتيه قبل أن يقول:

- كيف عرفت ذلك؟ لقد علمت خبر استدعائي إلى لندن صباح اليوم فقط!

تجاهل الرجل دهشة لامبسون، واكتفى بابتسامةٍ واثقةٍ زادت من توتر الدبلوماسي الشاب الذي عقد حاجبيه وأضاف، وقد تسلل الشك والتَّوَتر إلى نبراته:

- هل تقابَلنا من قبل؟!

ابتسم الرجل في سخريةٍ وهو يجيب لامبسون:

- بالطبع. مراتٍ عديدة ولكن ليس كما تتذكَّر أنت.

راقب الرجل علامات التَّوَتر وهي تتصاعد لتغزو جنبات وقسمات لامبسون، ففرت، رغمًا عنه، ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يتطلع في شماتة إلى الدبلوماسي المتوتر. «مايلز لامبسون» الرجل القوي الذي سيصبح يومًا ما أشهر مندوبٍ سامٍ بريطاني في تاريخ مصر، بمواقفه البغيضة التي تجلَّت في حادثة حصار «قصر عابدين» في عام 1942.

ابتلع الشرق أوسطي سخريته وغضبه من تلك الذكريات

التاريخية بالنسبة إليه والمستقبلية بالنسبة إلى الدبلوماسي الشاب، ثم مَطّ شفتيه قائلًا في هدوء:

- مستر لامبسون، أنا أعرف عنك الكثير والكثير من المعلومات والأحداث. ولحُسن حظك معظمها لم يحدث بعد.

صمت قليلًا يتأمل عَينَيْ لامبسون الزائغتين، ثم أضاف في بطء:

- «أعرف أنك ستتزوج العام المقبل على سبيل المثال». ثم وضع سبَّابته أمام فمه في حركةٍ مسرحيةٍ وضاقت حَدَقتاهُ وهو يضيف: «لا لا، بل ستتزوج مرتين. اسمح لي أن أهنئك بأولاهما على الأقل.. السيدة «راشيل فيبس» ستكون زوجةً رائعةً بلا شك. وستحظيان بثلاثة أطفال رائعين؛ ماري، وجراهام، ومارجريت. سأزورك في لندن خِصِّيصًا في 1915 لأهنئك على ميلاد «ماري» ابنتك البِكْر».

راقب وجه لامبسون الذي أصبح ساحة مفتوحة لتعبيرات مختلطة من التَّوَتُّر والقلق والغضب، والخوف. سحب الرجلُ لامبسون من مرفقه في هدوء ليتراجعا خطوتين إلى الوراء ويبتعدا عن أقرب المحيطين، ثم زفر في ضيقٍ ومَطّ شفتيه علامة التأثر قبل أن يقول في أسًى مُصطنَع:

- لا أعرف ما إذا كان يجب عليّ أن أخبرك أم لا. ولكن كما

تعلم فإن اللحظات السعيدة لا تدوم إلى الأبد.

تحولت تعبيرات وجهه إلى صرامة بثَّت الخوف في قلب لامبسون، وهو يضيف في نبرةٍ مسرحيةٍ تحمل مزيجًا مخيفًا من الصرامة والتهديد والسخرية:

- ستموت السيدة راشيل فجأةً في «هونج كونج». ولكن لن أخبرك بالتاريخ المحدد حتى لا أُفسد عليك المفاجأة.

تصلَّب ظهر لامبسون وتسمَّر في مكانه للحظاتٍ فيما اتسعت عيناه في ذهولٍ وذعر محاولًا استيعاب ما قاله الرجل الغامض، قبل أن يتحول ذهوله إلى غضبٍ عارم، فانتفخت أوداجه، والتهب وجهه الأحمر بالمزيد من الدماء، ثم قال وهو يجزُّ على أسنانه:

- كيف تجرؤ أيها الحقيـ.....

قاطعه الشرق أوسطي في صرامة، وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- اسمع يا مايلز! أنا أكثر أهميةً لك ولمستقبلك ولمستقبل الإمبراطورية البريطانية كلها مما يمكنك أن تتخيله. لقد اخترتُك خصيصًا لأمرٍ جَلَل سيترتب عليه مصير التاج البريطاني.

انحسر الغضب قليلًا عن وجه لامبسون وحل محله الترقُّب، فلانت قسماته وإن حافظت عيناه على نظرةٍ عدائيةٍ حانقة وهو يحدّق في الرجل الشرق أوسطي في ترقُّب، قبل أن يتابع الأخير:

- «بعد عامين من الآن، وتحديدًا في عام 1914 ستندلع حرب كبرى. أكبر حرب عرفتها البشرية حتى وقتكم هذا. مصير بريطانيا العظمى سيتوقف على معركة محددة في عام 1916. أنت أمل بريطانيا في تلك المعركة». صمت للحظةٍ ثم أضاف: «سأخبرك بكل شيء عندما يحين الوقت المناسب».

تدلَّى فكُّ لامبسون في ذهولٍ لوهلةٍ قبل أن يهز رأسه، ويقول في غضبٍ عارم وإن حافظ على صوته خفيضًا:

- أنت مجنون.. مجنون تمامًا.. اغرب عن وجهي الآن.

ابتسم الشرق أوسطي في سخرية، ثم مَطَّ شفتيه وهزَّ رأسه علامة النفي، وقال في هدوءٍ يتناقض مع نبرته السابقة:

- لا.. لست مجنونًا.. وستتأكد من ذلك بنفسك لاحقًا.

ثم أخرج ورقةً مطويّةً من جيبه وضعها في يد لامبسون، وهو يقول وقد عادت لهجتُه إلى صرامتها:

- هذه أحداث مستقبلية ستثبت لك أنني على حق.. كُنْ حَذِرًا!

قالها واستدار مغادرًا دون أن ينتظر رَدًّا من لامبسون الذي فغر فَاهُ ذهولًا، وزاغت عيناه وهو يديرهما بين تلك الورقة المطوية في يده والرجل الغامض المغادر، ثم نفض عنه الذهول وهتف يستوقف الرجل:

- مَنْ أنت؟

التفت إليه الرجل وقد ارتسمت ابتسامةٌ واسعةٌ على شفتيه وهو يجيبه:

- القاضي.. شريف القاضي.. أراك بعد أربعة أعوام.

ثم لوَّح له بيده بمعنى إلى اللقاء وأكمل طريقه مغادرًا الحفل، تاركًا مايلز لامبسون يتابعه بعينين غرقتا في مستنقعٍ عميقٍ لا قرار له من الذهول والخوف.

صعد شريف إلى قمرة العربة الكلاسيكية السوداء لينطلق بها سائقها يجوب شوارع صوفيا على أضواء متلألئة، تصاحب ألعابًا نارية تدوِّي في سماء العاصمة البلغارية معلنةً عامًا جديدًا، وبدايةً لمرحلةٍ أخرى في حياة «أحمد رؤوف سالم»..

مرحلة جديدة بأهداف ودوافع مختلفة..

مرحلة «شريف عزيز القاضي».

***

000010

8:00 صباحًا.. المستشفى.. قاهرة أخرى

وقف «چون برادشو» ضابط المخابرات البريطانية العجوز ومرافقته الشابة، الملازم سارة، يراقبان باهتمام حديث خالد ويحيى في غرفة الأخير بالمستشفى العسكري المتطور، عقد الضابط الإنجليزي حاجبيه وهو يتابع علامات الذهول المرتسمة على وجه يحيى وهو يشاهد اللقطات الحيَّة لأطلال مصر الجديدة ومنطقة شرق القاهرة التي لم يَطُلها العمران، لاحظ ذهولًا ممزوجًا بغضبٍ مكتومٍ يكسو ملامحه. فما شاهده يحيى فاق أسوأ كوابيسه؛ لقد شاهد قاهرة مختلفة، قاهرة محطمة، تنتشر في أرجائها أطلال متراكمة، أطلال تعلوها بقايا مهترئة للعلم الملكي المصري القديم بلونه الأخضر ونجومه الثلاث التي يحتضنها هلال أبيض رمزًا لثقافةٍ عريقةٍ ودينٍ عظيم، شاهد مبانيَ أخرى، ثكنات عسكرية يرفرف عليها علَم مختلف، علم بريطانيا العظمى!

استمع برادشو لشهقة الذهول وصيحة الغضب التي أطلقها

يحيى في وجه خالد، راقبه وهو يحاول النهوض من مرقده في غضبٍ قبل أن يصرخ:

- ماذا حدث في البلد؟!! ماذا فعلتم بها؟! أين أولادي وأهلي؟! أجبني!

أجفل خالد من ردَّة فعل يحيى، وتراجع خطوةً إلى الوراء وهو يحدِّق في وجه الأخير في دهشة، قبل أن يقول في حيرة حقيقية:

- ماذا تقصد؟!

صاح يحيى وقد التهبت أعصابه، تفاقم غضبه الذي خرج عن نطاق السيطرة، أَنَّث جراحه التي لم تتعافَ بعد، فتجاهلها وقد سيطر الغضب على مراكز الألم في جسده، فخرج صوته هادرًا:

- هل ستدَّعي الجنون أم الخبال؟! ألا تدري ماذا أقصد؟! ما تلك الأعلام؟! أين علَمُ مصر؟! أين علمُ الجمهورية؟! هل قامت الحرب؟!

فَغَر خالد فَاهُ في ذهولٍ وقد عجز عن فهم صرخات يحيى الهادرة، واختلج قلبه وهو يغمغم:

- جمهورية؟!

- الحرب قائمة، وأنت تقف هنا تستجوبني وتتهمني بالإرهاب.. يجب أن أذهب إلى أولادي، إلى أهلي.. إلى بلدي.. مصر!!

واصَل يحيى غضبه الهادر، نزع أنبوب المحاليل المتصل بوريده، قبل أن يهبَّ من فراشه محاولًا الوقوف، فتهاوى وقد انهارت قدماه تحت وطأة الألم والوهن وجسده الثقيل، شهق في ألم، ثم تحامل على نفسه يجاهد للوقوف مجددًا، هُرِع إليه خالد يساعده، فنهره بشدّه ودفعه بمرفقه بعيدًا في إصرار، أخذ يلهث من فرط المجهود، فتهاوى على الفراش.. جاهد للوقوف مجددًا في عِناد.. لكنه سقط من جديد.. فصرخ باكيًا:

- مصر.. بلدي!

هتف خالد في «فريدة» لتستدعي طاقم التمريض، فهرع إلى الغرفة ممرضان أمسكا به ثم حقنه أحدهما بحقنة مهدئة في عُنقه قبل أن يُعيدَاه إلى فراشه، قاومهما يحيى وهو يصرخ باسم زوجته، وولدَيْه، وأهله، وبلده.. مصر.. ثم تحول صراخه إلى همهمات فقدت معناها قبل أن تُغلَق عيناه، ويهوي في سُباتٍ جديد.

وقف خالد يلهث من فرط الإثارة التي حملتها الدقائق الماضية، أخذ يحدِّق مذهولًا في يحيى الراقد على فراشه.

عجز عن فهم ردَّة فعل الأخير المبالَغ فيها وغضبه الهادر، ماذا أثاره؟، وماذا كان يعني بـ....

- هذا الرجل هو بالتأكيد عضو في تنظيم «كفاح طِيبَة» الإرهابي.. لقد أمرت بوضعه تحت الحراسة المشددة.

قطع صوت برادشو الصارم حبل أفكار خالد، وانتزعه من ذهوله، فالتفت إليه خالد ينظر إليه في شرود، فتابع الضابط البريطاني بالإنجليزية وبلهجةٍ آمرة:

- استمر في العمل مع «سارة» للتعرُّف إلى هُويَّته، والإلمام بسِرِّ وأسباب الانفجار الغريب الذي تسبب فيه.. التكنولوچيا المستخدمة.. استجوبه بكل الوسائل، أريد معرفة إلى أي خلية ينتمي؟ كيف استطاع اختراق قاعدة بيانات الحَمْض النووي ومسح بياناته؟ ما مُخطَّطاتهم ضد قوات صاحبة الجلالة؟ كل شيء.. أريد كل شيء.. كل الوسائل متاحة.. هذا إرهابي من الفئة أ.

أنهى أوامره وغادر الغرفة دون أن ينتظر ردًّا من خالد الذي وقف واجمًا للحظات، ثم رفع بصره ينظر إلى سارة فوجدها ترمقه بنظرةٍ متشككة، فسعل في حرج ونفض عنه الذهول، ثم عقد حاجبيه، وعادت تعبيراته الصارمة تكسو وجهه من جديدٍ وهو يقول في حزم:

- سنبقى في المستشفى حتى يستيقظ.. سنستمر في استجوابه طيلة اليوم.. هو فئة «أ» كما سمعتِ.

أومأت سارة برأسها إيجابًا، قبل أن يغادرا معًا الغرفة التي وقف على بابها جندي بريطاني مُدجَّج بالسلاح يحرس الغرفة ومريضها، يحيى، مهندس الكمبيوتر البدين المسالم الذي استيقظ من غيبوبته فوجد نفسه إرهابيًّا.. بل إرهابيًّا من الفئة أ..

إرهابي في بقعةٍ من الأرض لا يعرفها..

في بقعةٍ تسيطر عليها جيوش صاحبة الجلالة..

جيوش بريطانيا العظمى.

***

وعلى بُعد عدة كيلومترات غربًا، انطلقت السيارة العسكرية المصفَّحة ذاتية القيادة على طول الطريق السريع الذي يربط شرق القاهرة بغربها. وعلى مقعدها الخلفي، جلس برادشو شاردًا يتأمل أطلال شرق القاهرة، تلك المنطقة التي كانت تُعَدُّ يومًا أرقى مشروعات القاهرة الحضارية، واستنساخًا للطراز المعماري الأوروبي في ثوب فن العمارة الإسلامية الخلَّاب في أوائل القرن العشرين. تَنهَّد بعمقٍ لينتزع عقله من شروده قبل أن يضغط زرًّا خلف أذنه اليمنى لتشغيل

جهاز الاتصال المؤمَّن، والذي يعمل بتقنية التَّوصيل العَظْميّ السَّمْعيّ(2) (Bone Conduction). انتظر الضابط العجوز حتى سمع صوت محدثه الهادئ من الطرف الآخر، ثم عقد حاجبيه قائلًا في حزم:

«أعتقد أنه هو يا هانز .... إنه هو».

***

000011

2:30 ظهرًا.. مصر الجديدة أخرى..

واستجابت الخزينة، أذعنت لمحاولته الأخيرة، رضخت لتاريخ ميلاد سلمى، ابنته التي اتضح أنها أغلى ما يمتلكه لدرجة جعلتها مفتاح بوابة أسراره وملاذ نجاته الوحيد. تنفس شريف الصُّعَدَاء مع سماع صوت تلك التَّكَّة المحبَّبة، تَكَّة فتح قفل الخزينة المشفَّر العنيد. فتحها في بطء، وأدام النظر يحدِّق في محتوياتها قبل أن يجرؤ على لمسها. متجاهلًا حُزَم النقود المكدسة في جانب الخزينة، لمح شريف صندوقًا معدنيًا متوسط الحجم، وآخر مكعب الشكل صغير الحجم، وعلى رَفِّها الأعلى عثر على حافظة أوراق جلدية بُنية اللون مغلقة بحزام جلدي عتيق الطراز، في حين زُينَت حوافُّها بأركان نُحاسية مزخرفة فيما يشبه كتب

القرون الوسطى. سحب المحتويات الثلاثة في حرص ثم جلس خلف مكتبه يتفحَّصها.

فتح الصندوق المعدني متوسط الحجم متأملًا محتوياته، عقد حاجبيه وهو يُخرج عدة سبائك ذهبية تغطي جنيهات مصرية وأخرى بريطانية تعود إلى بدايات القرن العشرين، وأخرى مطبوعة في سنوات لاحقة وحتى العام 2020. أمعن النظر يقلبها بين يديه. ارتفع حاجباه في دهشةٍ حين وقع بصره على نقود مصرية تحمل صورة الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا، تضاعفت دهشته وهو يحدِّق في التاريخ المطبوع على النقود، لقد طُبعت في المستقبل، في عام 2015، في المستقبل الذي من المفترض أن يكون قد جاء منه.. «ما هذا الهُرَاء؟!».. وضع النقود جانبًا ليتفحَّص عددًا من جوازات السفر التي تحمل صورته، منها ما يحمل صورته في شبابه، في السِّنِّ التي توقفت فيها ذكرياته، وأخرى في عمره الحالي، بعضها باسم «شريف عزيز القاضي» والبعض الآخر باسمه الحقيقي «أحمد رؤوف سالم».. تحولت دهشته إلى ذهول، ليس بسبب تواريخ إصدارها والتي تمتد عبر قرنٍ من الزمان، بل بسبب الدول التي تنتمي إليها، فمنها المصرية والبريطانية، بعضها ملكي وبعضها جمهوري، وأخرى تعود إلى القرن الحادي والعشرين لم يميزها أهي مصرية أم بريطانية، جمهورية أم ملكية.

حدَّق في جوازات السفر والنقود متعددة الأزمنة والدول والأنظمة الحاكمة، وغمغم في ذهولٍ وقد تسارعت ضربات قلبه: «ما هذا؟! ماذا يعني؟!».

ظل صامتًا للحظاتٍ تتصارع فيها أفكاره كبحرٍ هائجٍ تتلاطم أمواجه..

هل تغير الماضي من جديد؟! أم تغير المستقبل؟

هل هُزِمَت بريطانيا في الحرب؟ أم انتصرت؟

هل أصبحت مصر جَمهُوريَّة كما يقول التاريخ؟ أم ظلت مَلَكيَّة كما تقول تلك الأوراق؟

هل نالت استقلالها؟ أم ظلت تابعةً للتاج البريطاني؟

في أي زمنٍ يحيا الآن؟ أهو في الماضي الذي خَبرَه أم في مستقبلٍ لا يعلم عنه شيئًا؟

ولكن الأهم، وقبل كل شيء، هل له يد في كل ذلك؟!!

ماذا فعل في سنواته المفقودة تلك؟

ثم غمغم بصوتٍ مرتفع:

- مَنْ أنا حقًّا؟!

مرت لحظات طويلة لم يحرك فيها ساكنًا، ظل مُحدِّقًا

في محتويات الصندوق، فشل عقله في ترجيح إجابة على الأخرى، أصدر عقله أنينًا مكتومًا حين عجز عن إيجاد تفسير لما يعيشه أو يراه، فكلما تقدم خطوة إلى الأمام ازداد الأمر تعقيدًا، ما ظنَّه طرف خيط يقوده إلى حقيقة مضيئة تنير طريق العودة إلى حياته الدافئة، تبين أنه يقوده إلى بوابة متاهة في صحراء قاحلة تحت سماءٍ حالكة السواد لا ينيرها نور قمر ولا ضياء نجم.

أعاد المحتويات إلى الصندوق في بطء، حين وقع بصره على حافظة الأوراق الجلدية، رمقها بنظرة مُتشكِّكة مُطوَّلة.. هل سيتحمل ما تحتوي عليه؟ هل هو مستعدٌّ لتلقِّي صدمات جديدة؟ أمسكها في ترددٍ يتأملها، تبدو قَيِّمَة وثمينة بجلدها المدبوغ وحوافِّها النحاسية المزخرفة. ضاقت حَدَقتاهُ وهو يقرأ الكلمة المحفورة عليها بالخط الديواني الانسيابي «ساوباولو 13». هز رأسه في استسلامٍ ثم فَضَّ الحزام الجلدي الملفوف حولها وفتحها في حرص، فأخرج منها مجموعة أوراق بلاستيكية شفافة، سميكة نوعًا ما، لكنها مرنة في الوقت ذاته، تزين أركانها اليُمنى شرائح معدنية أشبه بشرائح الهواتف المحمولة في زمنه، وبجانبها أربعة مربعات صغيرة دَكْنَاء ومتلاصقة فيما يشبه خلايا الطاقة الشمسية، في حين تستقرُّ في أسفلها دائرةٌ صغيرةٌ ذات لون أزرق باهت. ضغط بإبهامه الدائرة الباهتة في حركة تلقائية،

فتحول لون الورقة البلاستيكية تدريجيًا إلى اللون الأبيض، وظهرت عليها للحظات صورة لنُدْفَة ثلج (snowflake) برّاقه ثلاثية الأبعاد بأفرعها المتشعبة والتي تزداد طولًا وتفرعًا في الاتجاهات كافة، قبل أن تومض الدائرة الباهتة بلونٍ أحمر فاقع لعدة لحظات مع ظهور جملة في المنتصف: «برجاء الشحن لعدة دقائق إضافية»، ثم اختفت الجملة وكَفَّتِ الدائرة عن الوميض قبل أن تعود الورقة إلى شفافيتها المعهودة. مَطَّ شفتيه في دهشةٍ وهو يُقَلِّبُها بين يديه يتفحّصها، فتلك الأوراق البلاستيكية تبدو كالحواسب اللوحية المتقدمة، حيث تكنولوچيتها المتطورة تسبق زمنه المستقبلي بنحو عشرة إلى عشرين سنة في المتوسط. وضع الأوراق البلاستيكية جانبًا بطريقة تسمح لجميعها باستقبال الضوء بعد أن استشفَّ أن المربعات الصغيرة الدَّكْنَاء أعلاها ما هي إلا خلايا شحن بالطاقة الشمسية.

فتح الحافظة الجلدية من جديد ينظر في محتوياتها، فأخرج منها جهازًا معدنيًا سميكًا يشبه إلى حدٍّ كبير الحواسب اللوحية (Tablet) في زمنه، فيما احتل صفّان من الخلايا الشمسية الجزء العلوي بعرض الجهاز بالكامل، في حين يوجد زِرّ بارز على جانبه الأيمن، وفتحتان متباينتان في الحجم على جانبه الأيسر. ضغط الزر البارز، فومَضَ باللون الأحمر مراتٍ معدودةً ثم توقف، فوضعه شريف جانبًا

لعلَّه يحتاج إلى شحن بطاريته هو الآخر. وقعت عيناه على إحدى فتحتيه الجانبيتين، تأملها باهتمام ثم عقد حاجبيه وأخرج من جيب سُترته السلك الأسود المتطور ممعنًا النظر في أحد طرفيه الذي يبدو كطرف سلك USB، ولكنه أكبر حجمًا بالإضافة إلى وجود بعض اختلافات التصميم التقني الواضحة. أوْلَج طرف السلك بالفتحة الجانبية الأكبر حجمًا حتى أصدرت صوت تلك التَّكَّة المعروفة، فارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه، وأمسك بطرف السلك الآخر يتأمله، هو يشبه الطرف الأول ولكنه أصغر حجمًا بنحو عشر مرات على الأقل بما يناسب جهازًا صغير الحجم.

وضع السلك جانبًا وعاد ينظر بداخل الحافظة الجلدية علَّه يجد جهازًا آخر يلائم ذلك الطرف، ثم توقف بغتةً وجحظت عيناه، وذابت الابتسامة الباهتة من شفتيه وهو يُخرج مجموعة من الصور الفوتوغرافية متوسطة الحجم. مع كل صورة يقع عليها بصره يزداد وجهه شحوبًا، وتنحسر الدماء عن أطرافه مع تباطؤ ضربات قلبه التي كادت أن تختفي، فلا يقوَى القلب على ضخ دمائه لإنعاشِ عقلٍ عاجزٍ منهار.

مادت به الأرض لولا أن تمالك نفسه، فالصور تحمل وجوه رجال ونساء.. بل وأطفال.. مطبوع على ظهرها 15 سطرًا من الأرقام المختلفة فيما يربو على الثلاثمائة رقم.. أما على

وجهها الأمامي فميَّز خَطَّه، حيث توجد علامة إكس (X) حمراء كبيرة، كُتِبَتْ أسفلها تواريخ تمتد عبر أكثر من 120 عامًا بين الماضي والمستقبل، بين نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحادي والعشرين. تضاعف شحوبه حين لاحظ بُقعًا حمراء قانية على بعض تلك الصور، فعادت مطارق الصداع والذكريات الثقيلة تضرب عقله في عنف، ومضات سريعة صُبِغَت بلون الدم، مشاهد متباعدة متفرقة، لهؤلاء الرجال والنساء تتوسَّل إليه قبل أن يخمد صريخهم بطلقاتٍ صامتةٍ لا تعرف الرحمة، مشاهد لأطفال لا تدري بأي ذنب قُتلت، لم تشفع نظراتهم البريئة في استعطافه واستجداء رحمته.

«رَبَّاه.. ماذا فعلت؟».. صرخت روحه تناجي ربها طلبًا للمغفرة.. وقعت الصور من بين يديه وانتشرت على الأرضية الخشبية. دفن رأسه في كَفَّيْه، لا يدري أيبكي أم يصرخ، ماذا دهاه ليرتكب تلك الآثام؟ أقَتَل نساءً وأطفالًا؟ بل أقَتَل أي إنسان يخطو على ظهر تلك الأرض؟

مرت الدقائق تلو الدقائق لم يَجْسُر فيها على الحركة، ولدهشته لم تتفجر دموعه كما تمنى، بل جفَّت الأعين وسكن القلب.. بل مات القلب.. رفع وجهه من بين راحتيه وأدار رأسه ببطء يتأمل الصور الملقاة بجانبه، جذبت

إحداها انتباهه، الوجه لامرأةٍ لا يستطيع تحديد ملامحها؛ الملامح مشوَّشة غير واضحة، مع وجود علامة استفهام كبيرة الحجم، أسفلها كلمتان فقط.. «1984».. وبخطٍّ أكبر، «هــنا!!».

عقد حاجبيه، والتقط الصورة يقلِّبها بين يديه، لا توجد عليها علامة «X» الرهيبة، أما ظهرها، فلا توجد عليه أسطُر الأرقام الطويلة المرهِقَة، بل يوجد رقم واحد فقط.. رقم «صفر».

أمعن النظر في الصورة، قلَّبها بين يديه مرةً أخرى، فلما عجز عن تبيُّن صاحبتها وضعها جانبًا وشرع يسأل نفسه..

هل قَتَلَ هؤلاء فعلًا؟

ولكن لماذا؟

ما ذنبُهم؟

ماذا يمكن لطفلٍ أو طفلةٍ أن تفعل كي تستحق القتل؟!

هل تحول خلال عشرين عامًا إلى وحشٍ لا يعرف الرحمة؟!

ثم ماذا تعني تلك الأرقام المبهمة؟

وماذا يعني الرقم «صفر» على ظهر تلك الصورة المشوشة؟

ولماذا هي مشوشة؟

من هي تلك الفتاة الغامضة صاحبة الصورة؟

بل ولماذا يحمل صورةَ فتاةٍ لا يعرف حتى ملامحها؟!

توقف سيل الأسئلة الحائرة عن مطاردته عندما وقع بصره على جملة خَطَّها أعلى إحدى الصور الساقطة إلى جواره على أرضية الغرفة.. جملة مشددة بخطين أسفلها، جملة كتبها بخط عصبي كبير، جملة تقول: «لا تأمن لها!». هَبَّ يلتقطها، واتسعت عيناه في دهشةٍ تحولت إلى غضبٍ وهو يتفرَّس ملامح صاحبتها، يبدو أنه يعرف صاحبة الصورة، فقد خطَّ اسمها أسفلها. إنها فتاة بيضاء سوداء الشعر.. إنها تلك الفتاة التي لاقاها صباحًا.. تلك الفتاة التي يُرجح أنها حاولت التلاعب به بمساعدة «نسيم».. تلك الفتاة التي راقبته، وطاردها.. تلك الفتاة التي تفوَّقت عليه..

إنها «مَايَا»..

***

000010

12:00 ظهرًا.. المستشفى العسكري البريطاني.. قاهرة أخرى

فتح يحيى عينيه بعد عدة ساعاتٍ قضاها في نومٍ عميقٍ تحت تأثير الحقنة المهدئة محدودة المدَّة التي حقنه بها ممرضا المستشفى العسكري البريطاني في شرق القاهرة، أو أنقاض شرق القاهرة لو أردنا الدقة، إنها قاهرة تختلف عن تلك التي كان ينعم فيها بحياةٍ هادئةٍ منذ أيامٍ قليلةٍ ماضية، قاهرة تختلف عن تلك التي كانت تمرح فيها زوجته وولداه. داعب ضوء الغرفة جفونه من جديد، بينما يسري سائل فاقع اللون في الأنبوب الوريدي المتصل بيده اليسرى، لينهي السائل رحلته عند خلايا عقله الناعسة فيوقظها، وينعشها، استعدادًا لاستجوابٍ جديد، استجواب يختلف عن سابقه، هذه المرة سيخضع لاستجوابٍ بصفته إرهابيًا من الفئة «أ»، بصفته عدوًّا لبريطانيا العظمى من الفئة الأولى.

وقعت عيناه على خالد الجالس إلى جواره يرمقه في هدوء، فأشاح يحيى بوجهه بعيدًا وقد عادت ذكريات الساعات الماضية تطرُق جنبات عقله، فتَنهَّد في عمقٍ مراتٍ عديدةً ليمنع الغضب من التسلُّل إليه من جديد، ساعده الوَهَن الذي يسري في أوصاله نتيجة الحقنة المهدئة والعمليات الجراحية التي خضع لها في السيطرة على أعصابه الملتهبة دومًا.

ظل خالد صامتًا يراقبه في هدوء، قرر أن يمنح المحلول

فاقع اللون الفرصة لتنشيط عقله وإزالة آثار الحقنة المهدئة أو المُخدِّرة أيًّا كانت، انتظر حتى استعاد يحيى كامل وعيه، واعتدل في جلسته بمساعدة الفِرَاش الذكي، ثم أخذ خالد نَفَسًا عميقًا قبل أن يسأله في هدوء:

- أتمنى أن تكون قد استرحت وهدأت كي نكمل حديثنا.

لم يتلقَّ إجابةً من يحيى الغارق في مستنقعٍ من الحيرة والوجوم، فاعتدل خالد في جلسته وأردف في نبرةٍ غلبها الحزم والصرامة:

- يجب أن تقص عليّ كل شيء لأساعدك، فموقفك شديد الصعوبة.

نظر إليه يحيى بنظرة خاوية، ثم أردف في استسلام:

- ماذا تريد أن تعرف؟

- كل شيء منذ مولدك وحتى هذه اللحظة. فريدة أجرت بحثًا مبدئيًّا، ولم تعثر على شركة باسم «سكاي شيلد» التي تدَّعي أنك صاحبُها ومديرُها.. ثم مَنْ أنت؟ أين بياناتُك؟ سجلُّ حَمْضِك النووي؟ اشرح لي رد فعلك عندما شاهدت تلك اللقطات الحية للقاهرة؟ ما الذي شاهدته فاستثارك بهذا الشكل؟ للمرة الأخيرة، احْكِ لي كل شيء مهما كان بسيطًا في رأيك.

أدرك يحيى أن الدهشة أصبحت تعبيره الرسمي منذ أن استفاق من غيبوبته، فحسم أمره، وقرر الاستسلام والخضوع علَّه يدرك حاضره ويستقصي مصير أسرته، ولكن جملة خالد الأخيرة استثارته بشكلٍ عنيف، فهتف في غيظ:

- ماذا تقصد بسؤالك عما استثارني؟ أنت مصمم على استفزازي مجددًا؟ ألم ترَ تلك المشاهد الغريبة المروِّعة مثلي؟ ألا تشعر بحجم المصيبة؟ عندما تصبح القاهرة خرابًا، ولا وجود لعلَم الجمهورية، وبدلًا منه علم إنجلترا أو بريطانيا أو أي بلاء أزرق، فهل ترى ذلك طبيعيًّا؟! أين النخوة؟ هذه مصر!!!

- هل أنت ممن يطالبون باستقلال مصر؟!

أطلق يحيى سُبَّة قصيرة أتبعها بصوتٍ بذيء من أنفه، غير مصدق ما سمعه لتَوِّه من كلمات هتكت طبلة أذنيه وأضرمت النيران في صدره، فهتف مستنكرًا، وقد غطى الغضب على الذهول والشك اللذين بدآ يتسللان بخُطًى حثيثةٍ إلى عقله مع نبرات خالد الهادئة والصادقة في الوقت ذاته:

- نعم؟!! اعقل كلامك يا باشا؟ أليست مصر مستقلة؟ هل أصبحنا جزءًا من بريطانيا حين كنت نائمًا أم ماذا؟!

- أيعني هذا أنك ترفض وتنكر الوجود البريطاني؟!

- وجود بريطاني؟!!! هل عدنا إلى ما قبل ثورة 52 أم ماذا؟ ألم يخرج الإنجليز من مصر في 56 أم أنني كنت أتخيل؟ هل ذهب مجهود الفدائيين وما أذاقوه للإنجليز في القناة هباءً؟ أفَهِمْني ماذا حدث في الأسبوعين الماضيين جنَّنكم وسيدفعني إلى الجنون معكم؟!

رفع خالد حاجبيه في دهشةٍ طمسها سريعًا بأن عقد حاجبيه في صرامة، ورمق يحيى بنظرة مُتشكّكة طالت، قبل أن يقول في بطءٍ ضاغطًا على كلماته:

- «فدائيين؟!! هل أنت عضو في تنظيم «كفاح طيبة» الإرهابي؟»

- أتكررها مرة أخرى؟!! «كفاح طيبة»، وإرهاب! أنا.....

هبَّ خالد من مقعده في غضب وضغط بأصابعه على جراح يحيى، فتأوَّه الأخير في ألمٍ شديد، فزاد خالد الضغط على موضع الألم وأخذ يحرك أصابعه في حركات دائرية متباينة ضاعفت الألم ووسَّعت نطاقه ليشمل جزءه بأكمله، واصل الضغط حتى أطلق يحيى صرخة ألم هادرة، قاطعها خالد قائلًا:

- لن أكرر سؤالي مجددًا! ما علاقتك بتنظيم «كفاح طيبة"؟

قالها ورفع أصابعه عن مَوَاطن الألم، فلهث يحيى في عنف، لهاثًا متواصلًا عنيفًا ضاعف آلامه، فشهق وتأوَّه حتى أنَّ صدره من فرط الألم والمجهود، ثم أجابه بصوتٍ متهدِّجٍ وعلامات الألم لم تغادر قسماته:

- «أنا لست إرهابيًّا.. أنا مهندس.. مجرد مهندس كمبيوتر ناجح، لا إرهابي ولا عضو في أي تنظيم أو جماعة.. أنا أحب هذا البلد ومستعد أن أفديه بروحي إذا تطلَّب الأمر»، ثم قال في توسل: «أنا حقيقي لا أفهم شيئًا».

واصل حاجبا خالد انعقادهما وهو يرمق يحيى في صرامة، ثم خلع سُترته وشمَّر عن ساعديه، قائلًا في قسوة:

- من الواضح أن أسلوب الحوار لا يُجدي معك.. أنت إرهابي فئة أ، أي ليست لك دِيَة.

نظر إليه يحيى في هلع، ورفع يديه أمام وجهه في حركة تلقائية وهو يهتف متوسلًا:

- أقسم بالله أنا لست إرهابيًّا.. صدقني أرجوك.

صمت خالد وتأمل ملامح يحيى التي كساها الرعب وعينيه اللتين تعكسان حيرة صادقة، فأطرق برأسه مفكرًا للحظاتٍ طالت، ثم أردف في حزم:

- فريدة، أوقفي تسجيل عملية الاستجواب سواء صوتًا أو صورة.. كود 5أ سِرِّية فائقة.

- أمرك سيدي.. تم تنفيذ كود أمني 5أ، وإيقاف التسجيل لمدة ساعة كاملة بدءًا من الآن.

واصلت مشاعر الرعب والهلع سيطرتها على يحيى وهو ينظر إلى خالد، ثم بدأت نبضات قلبه تتباطأ ومشاعر الهلع تتبدد تدريجيًّا لتحلَّ محلَّها مشاعر الترقُّب حين رأى نظرات خالد الصارمة تتبدَّل في بطءٍ لتحل محلها أخرى هادئة تعكس شيئًا من التردد. تَنهَّد خالد قبل أن يقول محاولًا تهدئة يحيى:

- لا تخَفْ! اهدأ، واحْكِ لي كل ما يخص الإنجليز والفدائيين وكل ما ذكرته.. خذ وقتك.

أجابه يحيى ذاهلًا:

- يا أفندم! إنجليز وفدائيين؟! هذا منهج التاريخ للصف السادس الابتدائي!!!

عقَّب خالد بنفس النبرة الهادئة:

- احْكِ لي هذا التاريخ وكأنك تحكيه لطفل صغير.

حدَّق يحيى في وجه الضابط في دهشة للحظاتٍ طالت

متعجبًا من طلبه الغريب، ومرتابًا من عدم إلمام ضابط أمني بتاريخ بلده. رَوَت مشاعر الدهشة والارتياب بذور الشك في أعماقه، شكٌّ نبَت في روحه وتسلَّقها في شراهة ضاعَفها ما رآه وما سمعه منذ أمس، إحساس غير مريح عزَّزَه حديثهما المتناقض، حديث بلغتين مختلفتين يتشاركان في الحروف والكلمات ويتناقضان في المعاني والمقاصد. واصل التحديق والتفكير إلى أن نفض عن نفسه تلك المشاعر، وتَنهَّد في استسلام، ثم شرع يقصُّ عليه كل ما يعلمه عن تاريخ مصر منذ معركةِ التلِّ الكبير في 1882 واحتلال مصر وحتى جلاء الإنجليز الكامل في 1956، مرورًا بثورتَيْ 1919 و1952؛ وكذلك استقلال مصر المنقوص في 1922 واتفاقية 1936 وغيرها من الأحداث المحورية في تاريخ مصر ما قبل الثورة وفقًا لمعلوماته العامة، متمنيًا ألا يكون قد ذكر معلومات أو تواريخ مغلوطة أو غير دقيقة.

راقب يحيى تعبيرات وجه خالد الذاهلة وهو يستمع إلى قصص يحيى عن تاريخ مصر، تعجَّب من علامات الذهول المرتسمة على وجه الرجل الصارم، تلك التعبيرات التي كانت تتخللها ابتساماتُ أملٍ واهنة، بل ابتسامات حسرة في بعض اللحظات، يكاد يُقسم أنه قد لمح الدموع تترقرق في عَينَيْ خالد مع ذكر وقائع الجلاء وحرب 1956 وبسالة المصريين في مدن القناة.

أنهى حديثه وهو يتأمل وجه خالد، قبل أن يسأله في دهشة:

- ألم تكن تعلم هذا الكلام من قبل؟ ألم تتلقَّ تعليمك في مصر؟

تجاهل خالد أسئلته التي حملت من الدهشة أكثر مما حملت من الاستنكار، وأخذ يتأمل وجه يحيى في شرودٍ مع شبح ابتسامة هادئة تجاهد لتطفو على شفتيه، قبل أن يقول بصوتٍ متهدج:

- وفقًا لما ذكرت فقد قاومت مصر، وصمدت، وطردت الإنجليز، وحصلت على استقلالها؟

- !!!

وقبل أن يعلق يحيى على جملة خالد الأخيرة التي يعدُّها لا محل لها من الإعراب، صدح صوت «فريدة» الهادئ في الغرفة:

- سيد خالد، الملازم سارة تطلب الإذن بالدخول.. تقول إن الأمر مهم وعاجل.

واصل خالد تحديقه في وجه يحيى للحظاتٍ حتى ظن الأخير أنه لم يستمع إلى ما قالته «فريدة»، فسعل في حرج

قبل أن يعتدل خالد في مقعده، وتعود الصرامة مجددًا لتكسوَ ملامحه وتسيطر على نبراته وهو يقول:

- اسمحي لها بالدخول.

ثم التفت إلى يحيى قائلًا في حزم:

- لا تُعِد ذكر ما قلته مجددًا، إلا بأوامري.. مفهوم؟!

أومأ يحيى برأسه في استسلام علامة الإيجاب، قبل أن يُصدر باب الغرفة صوته المميز المتزامن مع هسيس غاز التعقيم الأبيض وهو يخرج من جوانبه ليغطي الزائرة ويُعقِّمها.

دلفت سارة بقَوَامِها الرياضي وزيِّها الأسود الأنيق، برز وجهها الهادئ من بين الغمام الأبيض.. فاتسعت عينا يحيى عن آخرهما.. واختلج قلبه بين ضلوعه في عنف.. بل كاد قلبه أن يشق صدره ويقفز خارجًا.. يقفز ليحتضن الزائرة.. أطبَق جفون عينيه في شدَّة قبل أن يُبَاعدهما عنوة ليَتحقق من الزائرة..

إنها هي..

هي بذاتها..

إنها «رانيا»..

نعم، «رانيا» زوجته وأمُّ ولديه..

تيبّست قسمات وجهه للحظاتٍ على ذلك المزيج من الدهشة والسرور.. ثم ما لبث هذا المزيج المبهر أن تبدَّد بغتة، فضاقت حَدَقتاهُ، وعقد حاجبيه في شدة، قبل أن تنقطع أوتارهما فيَرتَّدا عاليًا في ذهول، فمن يراها الآن هي حقًّا زوجته «رانيا»، بملامحها وقسماتها التي أدمنها..

لكنها ليست «رانيا» التي تركها منذ أسبوعين..

فتلك التي تقف أمامه هي «رانيا» أخرى..

«رانيا» التي عرفها وأحبَّها وتزوجها..

«رانيا» الأصغر سنًّا..

«رانيا» على هيئتها التي كانت عليها حين التقاها أول مرة..

في ذلك المقهى منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا!!!

***

000011

6:30 مساءً.. مصر الجديدة أخرى..

الصداع يزداد مع ومضات الذكريات القاتلة، ترك شريف محتويات الحافظة الجلدية وقام مترنحًا، فألقى بنفسه على

الأريكة التي تحتلُّ أحد جوانب الغرفة. أغمض عينيه في محاولةٍ لوقف ضربات المطارق الثقيلة التي ارتجَّ بها رأسه، بل أغمضهما في محاولةٍ للهروب من أنين ضحايا أحاطت بعقله وروحه. غَطَّ في نومٍ عميق، داهمته خلاله كوابيس شنيعة لأطفالٍ تغطيهم الدماء، تصرخ وهي تتشبث في طَرَفَيْ سرواله تجذبه لتقذفه في أتون الجحيم. استحالت وسيلة هروبه المزعومة إلى عذابٍ مقيمٍ لا مناصَ منه، لكنه لم يقوَ على المقاومة، اختار ألَّا يستيقظ فيواجه حقيقته المقيتة.. فاستسلم.. لقد تقطعت به السبل، سبل الهروب من ذكريات أليمة دامية، بل سبل الهروب من نفسٍ شريرةٍ حاقَت به، نفسه التي أصبح عليها، نفسه التي لا يدرك كيف اشتدت وقست في سنوات عمره المفقودة.

- شريف!! أنت نائم منذ أكثر من ثلاث ساعات، لقد حلَّ الليل.

قالتها ليلى وهي تهزُّه في حنانٍ في محاولةٍ لإيقاظه. فتح شريف عينيه في بطء، أدام النظر إليها للحظاتٍ امتدت. لحظات طويلة مَرَّت وهو محدِّق في عينيها الحانية، ثم اعتدل في جلسته، ووضع رأسه على صدرها في قنوط، فاحتضنته في دفء. حاوطها بذراعيه، ثم فاضت عيناه بدموع ساخنة.

جزعت ليلى لمشاهدته هكذا، لقد ألفته قويًا، لا باكيًا ولا يائسًا، لم تعهد منه ضعفًا ولا قنوطًا، كان دائمًا الجدار الصلب الذي تَركَن إليه في لحظات ضعفها. مررت يدها في خصلات شعره تتحسسها، ورَبَّتت بيدها الأخرى على ذراعه. احترمت لحظة ضعفه، وظلت صامته تُرَبِّت عليه في حنان، حتى فرغ من بكائه، ورفع رأسه ينظر إليها، فاحتضنت وجهه بكَفَّيْها، ونظرت في عينيه الحمراوين هامسةً:

- شريف.. أنا بجانبك.

أطال النظر في عينيها ثم مسح دموعه، وأمسك كَفَّيْها وقَبَّلهُما، قائلًا بنبرةٍ حملت لهيبًا من المشاعر الدافئة التي افتقدتها: «أشكرِك يا ليلى.. اعذريني، فلقد تذكرت بعض الذكريات القديمة الثقيلة على قلبي».

تأملته في صمت، لم ترغب في الضغط عليه، فاكتفت بسؤالٍ مقتضب:

- هل أُحضِّر لك العشاء؟

ارتسمت ابتسامة خافتة على جانبَيْ شفتيه وقد فطن إلى محاولتها تجنب إحراجه، فأومأ برأسه موافقًا. تابعها ببصره وهي تغادر غرفة المكتب، ثم زفر في أسى، ونهض إلى مكتبه يجمع الصور المبعثرة على أرضية الغرفة، ويعيدها

والأوراق البلاستيكية إلى الحافظة الجلدية، حين وقع بصره على الصندوق الحديدي صغير الحجم الذي عثر عليه في الخزينة. تأمله لبرهةٍ قبل أن يرفعه إلى مستوى عينيه يتفحَّصه. صندوق معدني مكعَّب الشكل، ثقيل، يبدو مصنوعًا من معدن الرصاص. قَلَّبَه بين يديه يتفحَّص جوانبه وحوافَّه المتعرجة، فبالمقارنة بباقي المحتويات التي عثر عليها، يبدو هذا الصندوق بدائي الصنع إلى حدٍّ كبير، كأنه قد تم تصنيعه على عَجَل في إحدى ورش الخراطة العادية.

عالج القُفْل الخارجي، وعقد حاجبيه وهو يزيل غطاءه في حذرٍ ليكشف عن صندوقٍ آخر بداخله أقلَّ حجمًا. صندوق مُعتِم، شديد السواد، منقوش على سطحه علامة «ندفة الثلج» الشبيهة بتلك التي رآها في إحدى الأوراق البلاستيكية الإلكترونية بداخل حافظة أسراره، وإن كانت تحمل عددًا أقل من الأفرع. ضاقت حَدَقتاهُ وهو يحدِّق في ذلك الصندوق المعتم، ثم أخرجه وفتحه ليعثر بداخله على ما يشبه السُّوَار أو ساعة اليد الرقمية في زمنه.

رفع السوار يتفحَّصه في دهشة، سُوَار عريض سميك أسود اللون، كامل الاستدارة، ذو لمعة هادئة، يحمل رمز ندفة الثلج سداسية الأفرع ذاتها المحفورة على صندوقه القاتم، وعلى أحد جانبيه يبرز زِرَّان متجاوران، ضغطهما فلم يستجيبا،

حاول مجددًا مراتٍ فلم يتغير من الأمر شيء.

تناهى إلى مسامعه رنين جرس الباب الخارجي للـڤـيلّا، رفع بصره عن السوار لوهلة، ثم ما لبث أن أعاد النظر إليه في شرودٍ يتأمل تجويفًا صغيرًا في الجهة المقابلة. لمعت عيناه وهو يتأمل ذلك التجويف، فأمسك الطرف الآخر من السلك الأسود المتطوِّر ذي الكرتين السوداوين ليصله بالسوار. تَنهَّد في ارتياح عندما سمع صوت تلك التكة التي توحي بأن طرف السلك قد وجد ضالته. تأمل السلك وقد اتصل طرفاه، أحدهما بالجهاز اللوحي والآخر بالسوار الذي بدأ يومض ومضاتٍ بيضاءَ هادئةً وبطيئة.

تأمل السوار، وهَمَّ أن يضغط أحد زِرَّيه الجانبيين مرةً أخرى، لولا أن قاطعه صوت ليلى وهي تقول في قلق: «شريف! هناك سيدة ترغب في لقائك».

رفع عينيه إليها بنظرة متسائلة، فإذا بالفتاة البيضاء ذات الشعر الأسود القصير التي طاردها منذ عدة ساعات، تدفع ليلى إلى الداخل في عنف، وهي تصوِّب إليه مسدسًا متطورًا. شهقت ليلى في رعبٍ وهي تسقط أرضًا، تحولت نظرته إلى غضبٍ هادر، ولكن قبل أن يحرك ساكنًا عاجَلته الفتاة بطلقة مكتومة مرت بجوار رأسه وهتفت في حزم:

- أعِدْ هذا السوار إلى صندوقه المعدني، وأعطني إياه!

ظل صامتًا يحمل السوار في يده. احتقن وجهه وتضاعف غضبه وهو يرى نظرة الهلع في عَينَيْ زوجته، فحدج الفتاة بنظرةٍ ملتهبة، قائلًا في صرامة:

- أنا من يحذرك.. ارمِ المسدس من يدكِ، أو سأجعلكِ تتمنين العودة بالزمن حتى تفكري ألف مرة قبل أن تمسّي شعرة واحدة من رأسها.

- «لن أكرر ما قلته مجددًا.. ارفع إصبعك عن الزر، وأعِد السوار إلى مكانه قبل أن تعطيني إياه!»، ثم هتفت بلهجةٍ آمرة: «الآن!»

صمت شريف لوهلة، تذكّر المسدس الذي انتزعه من نسيم وقد دسّه في جيب سُترته، فقال بلهجةٍ صارمةٍ وهو يرفع السوار أمام عينيها:

- ليلى تغادر الغرفة أولًا!

صمتت الفتاة للحظة، تحدجه بنظرةٍ ثاقبةٍ وقد ضاقت حدقتاها، ثم ما لبثت أن أفسحت الطريق لتسمح لليلى بالخروج، قبل أن تقول في صرامة: «اخرجـي.. ولكن إذ أقدمتِ على فعلٍ مجنونٍ فسيكون لديّ الوقت الكافي لقتلكما معًا».

تطلعت إليه ليلى بنظرةٍ خائفةٍ مترددة، فأومأ برأسه بمعنى «ألا تخافي وغادري». فنهضت تغادر الغرفة وعلامات الرعب تسيطر عليها. انتهز شريف لحظة مغادرة ليلى، فالتقط الصندوق المعدني بدائي الصنع وقذفه باتجاه الفتاة في حركة مفاجئة، ثم ألقى بنفسه أرضًا ليدور حول نفسه وهو يستلُّ المسدس من جيب سُترته، ويصوبه ناحيتها، ويطلق عليها ثلاثَ طلقاتٍ متتابعة؛ واحدة في الرأس واثنتان في الصدر.

باغتتها مناورته السريعة، فتسمَّرت في مكانها في انتظار اختراق الطلقات الثلاث جسدها، لقد أدركت أن مهارته ستُرديها قتيلةً من هذا النطاق القصير لا محالة. أصاب الذهول كليهما عندما لم تُصِبها الطلقات، حيث تبيَّن أن مسدس نسيم يحتوي على طلقات صوت فارغة..

«تبًّا!».. تمتم دون أن تغادر الكلمة شفتيه..

قذف بالمسدس في وجهها، فأربكها، ثم قفز يقطع المسافة التي تفصلهما في سرعة، ليركل المسدس من يدها بعيدًا، قبل أن تفيق «مايا» من ارتباكها في سرعةٍ تعكس احترافيَّتها العالية، وتُعاجله بضربةٍ قويةٍ من راحة يدها اليمنى في صدره مباشرةً، وتُتبِعُها بضربة جانبية بمرفقها الأيسر في فكِّه. كادت الضربة الأخيرة أن تهشم فكَّه لولا أن تلقاها على

ساعده، وأعقبها بلكمة قوية بقبضته المقابلة، فخفضت الفتاة رأسها لتتجاوزها، ثم عاجلته بضربةٍ أخرى أشد قوةً براحة يدها المفرودة في معدته مباشرة. شهق في ألم، ثم أمسك ذراعها وأدارها بحرفية لتدور مايا حول نفسها في الهواء وتسقط على ظهرها تتأوّه في ألم.

قفز شريف يلتقط مسدسها الملقى على الأرض، ويصوِّبه ناحيتها وهو يهبُّ واقفًا، فصرخت وهي ترفع يدها أمام وجهها في حركة تلقائيَّة يائسة:

- أحمد! انتظر!

تجمَّد شريف لوهلة، ثم أبعد سبَّابته عن الزناد، وقد ارتفع حاجباه في دهشةٍ وهو يسألها: «هل تعرفين من أنا؟».

- «بالطبع!» هتفت بتلقائيَّة ثم أضافت وهي تلهث: «أنت أحمد رؤوف سالم، من مواليد 5 يناير 1985، أي أنك لم تُولَد بعد، ولن تولد في هذا الزمن من الأساس.. وأعلم أمر ضحاياك من النساء والأطفال قبل الرجال. ابتلعت ريقها، ثم عقدت حاجبيها، وتابعت في رجاء: «ليس هذا وقت النقاش، فلنغادر جميعنا المنزل الآن».

فغر فَاهُ محدِّقًا في وجهها في ذهول، ثم أردف: «مَنْ أنتِ؟».

- أنا مايا.. هذا ليس مهمًّا الآن.. نحن في خطرٍ داهم.. سيصلون في غضون دقائق.. ليس لدينا الكثير من الوقت.. فلنغادر قبل وصولهم!

- أيُّ خطر؟! مَنِ الذي سيصل؟!

قالها في ذهول، ثم ما لبث أن قَطَّبَ جبينه، وصوَّب المسدس إلى رأسها مباشرة، وهَمَّ بمواصلة استجوابها لولا أن قطع حديثهما صوت شهقة خافتة تأتي من ناحية باب الغرفة، فإذا بليلى تستند إلى الباب تسترقُ السمع إلى حديثهما، والدموع تنسابُ على وجنتيها، مع علامات اللوعة والذهول ترتسم على قسماتها. فنظر إليها شريف، وهتف مستعطفًا:

- ليلى!!

أجفل ثلاثتهم مع صوتِ انفجارٍ مكتوم يأتي من محيط الـڤـيلَّا..

أرعشت مصابيح الـڤـيلَّا، فصرخت مايا في ليلى:

- «ادخلي بسرعة واختبئي خلف المكتب.. هيَّا!!»، ثم نظرت إلى عَينَيْ شريف مباشرة، قائلةً في حزم: «أنت من فتحت علينا أبواب الجحيم. الأمل الوحيد في نجاتنا الآن هو أن نتكاتف معًا. وإلا فموتُنا سيكون مسألة دقائق».

التقت أعينهم تتبادل نظرات التحدِّي، فصمت شريف للحظةٍ قَيَّمَ فيها الوضع، ثم أومأ برأسه موافقًا. فقفزت مايا تسحب ليلى الذاهلة وتدفعها باتجاه المكتب، وهي تشير إلى شريف بأن يتوارى بجوار المكتبة، قبل أن تصُمَّ آذانهم قرقعة عالية تلاها انقطاع الكهرباء عن الـڤـيلَّا بأكملها. سارعت مايا تتوارى وتلتصق بالحائط المجاور لباب الغرفة وهي تستلُّ خنجرًا حادًّا من حذائها الطويل. كتم ثلاثتهم أنفاسهم وقد تناهى إلى مسامعهم صوت الباب الداخلي للـڤـيلَّا يتهاوى تحت وطأة أقدام ثقيلة لمجموعةٍ مُدجَّجةٍ بالسلاح، هدفها الوحيد هو القضاء عليهم جميعًا.



باقٍ من الزمن أربعُ ثوانٍ

00:00:04

5 يناير 2021

9:30 مساءً.. مزرعة نائية في وادي النطرون

«.....الموجة الثانية من ڤيروس كورونا تجتاح العالم... منظمة الصحة العالمية تحذر: الأسوأ لم يأتِ بعد.. رئيس الوزراء يؤكد أن هناك ما يقرب من 500 مستشفى تقدم خدماتها حاليًّا لمرضى ڤيروس كورونا في مصر... وزيرة الصحة تعلن عن توفير اللقاحات ضد ڤيروس كورونا.....».

سنة قاسية مرت على العالم تكرر فيها ذلك الشريط الإخباري الأحمر على الشاشات الإخبارية العالمية بصيَغ مختلفة، أحداث نمطية مكررة على مستوى العالم، حالة من القلق والخوف والترقُّب اجتاحت العالم بأسره؛ كبيرِه وصغيرِه، غنيِّه وفقيرِه، برامج حوارية ساخنة بين علماء ودجالين يدَّعون العلم، بين أصحاب نظرية المؤامرة وأصحاب الأدلة والبراهين.

ضجيج وتخبُّط لم يعبأ به ذلك الرجل الوسيم الذي شارف على الأربعين من عمره، وقد جلس مسترخيًا في مقعده يشاهد البرامج الحوارية في نصف تركيز، أنَّت أذناه

من ضجيج الحوارات وعبثها، ومن صراخ مقدمي البرامج الحوارية غير المُبرَّر الذي أصبح عادة. تناول رشفة من كوب الشاي الساخن، بينما يتطلع في شرود إلى ورقة صغيرة في يده دوَّن عليها بعض الخواطر المقتضبة. كان جسده يئنُّ طلبًا للراحة بعد سنوات متواصلة من التدريب والعمل والجهد البدني الشاق، فيما كان عقله يعجُّ بأفكارٍ مُقلِقة وهواجس متنامية....

- وجدناه!!

هتفت الفتاة الصهباء بجملتها في لهفةٍ وحماس، فقاطعت أفكاره وانتزعته من شروده، بعد أن اقتحمت الغرفة ومن خلفها أحد مساعديها ذوي الجسد الضئيل والنظارات الطبية المقعَّرة التي تمنحه وقار علماء الفيزياء الكلاسيكيين. أجفل الرجل الأربعيني وهبَّ واقفًا من مقعده بعد أن سارع وأخفى الورقة الصغيرة في جيب سرواله. اتسعت عيناه في دهشةٍ وضاقت حَدَقتاهُ وهو يسألها في ترقُّب:

- الأصل؟

- لا.. المؤرِّخ.

قالتها بعد أن هزَّت رأسها نافيةً، ثم فردت على الطاولة أمامه خريطة للقاهرة رُسمت عليها أربع دوائر حمراء، خطَّت

إلى جوارها أربعة تواريخ بتوقيتات مختلفة، ثم أخرجت أوراقًا بلاستيكية شفافة، وعدة صور فوتوغرافية وأخرى رقمية مرسومة بواسطة أنظمة حاسوبية متطورة لترميم الوجه. رصَّت الصور والأوراق البلاستيكية حول الدوائر الأربع قبل أن تستطرد في حماسٍ وبنفس اللغة الألمانية:

- لكن فريق العلماء استطاع أخيرًا فكَّ رموز «البصمة الزمنية» رقم «صفر» في أوراق «إسماعيل الخازندار».. صحيح أنه لم يتم تحديد شخصية «الأصل» بعد، لكن نجحنا في كشف ارتباط وثيق بين «المؤرِّخ» وبين «الأصل» أو كما نطلق عليه «المسافر صفر.. أصل الأزمة وبدايتها».

عقد الأربعيني حاجبيه، ثم نظر إلى الصهباء في عدم فهم، قبل أن يسألها في بطء:

- المؤرخ؟! لم تذكريه من قبل يا تانيا.

- إنه سبب المتاهة الزمنية التي نعيشها.

قالتها ثم أشارت تانيا بيدها إلى الفيزيائي ذي النظارة المُقعَّرة، الذي تلعثم قليلًا وهو يقول:

- هو رجل من المستقبل.. نطلق عليه لقب «المؤرخ»؛ نظرًا لنوعية العمليات الزمنية التي يقوم بها، عمليات ذات طابَع تاريخي.. نحاول تتبُّعه ورصده منذ فترة دون جدوى..

فالمؤرخ يچيد التخفِّي والتنقُّل في مجرى الزمن.. دوافعه وأسبابه غير معروفة بالنسبة إلينا.. دائمًا يسبقنا بخطوة واحدة.. أو كان يسبقنا بتلك الخطوة حتى ساعاتٍ قليلةٍ مضت.. حتى أخطأ.. حتى أشعل السُّوَار الزمني المُعدَّل دون تأمين أو تشفير.

صمت الفيزيائي للحظةٍ أدار فيها عينيه بين الرجل الأربعيني وتانيا، ثم تطلَّع إليها يستأذنها في الاسترسال، فأذنت له بإشارة أخرى من يدها. أخرج عدة أوراق بلاستيكية من الحافظة الجلدية التي استولوا عليها من «إسماعيل الخازندار» منذ قرنٍ مضى، ثم أشعل بعضها حين ضغط بإبهامه زِرًّا أزرق باهتًا في طرفها السفلي، فتوهَّجت الأوراق وتتابعت عليها البيانات والأرقام الطويلة. رصَّ الأوراق، الأقرب إلى الحواسب اللوحية المرنة، إلى جوار مثيلاتها على الطَّاوِلة قبل أن يشير إلى البيانات المعروضة عليها وتابَع قائلًا:

- المؤرخ هو رجل شديد البراعة في التلاعب «بالبصمة الزمنية» وبيانات «القفزات الزمنية»، عن طريق ضبط خصائص «السُّوَار الزمني». تكنولوچـيا لا نمتلكها ولا نعرفها، على الأغلب هو مَنْ طوَّرها بنفسه.. جميع القفزات المجهولة والبصمات المُشفَّرة المدرجة في تلك الأوراق من المرجح

أنها تعود إليه.. لكنه أخطأ أخيرًا.. رصدته أجهزتنا وتم تحديد موقعه الزمني وتوقيت وجوده.

أخذ نَفَسًا عميقًا ولاحت ابتسامة عريضة على شفتيه قبل أن يضيف:

- المفاجأة أن تحليل «البصمات الزمنية» يؤكد وجود ارتباط وثيق يجمعه بالمسافر صفر.. أصل كل شيء.. فأينما وُجدت بصمة المسافر المجهول كان المؤرخ حاضرًا. ثم ضاقت حَدَقتاهُ وهو يضيف في بطءٍ ليؤكد مخارجَ ألفاظه: «بل على الأرجح أنه هو «الأصل»، هو «المسافر صفر» بذاته.. المسافر الذي أضنانا البحث عنه طيلة السنوات الماضية».

هز الأربعينيُّ رأسه علامةَ الفهم، ثم أطرق قليلًا في وجوم وهو يتحسس جيبه، قبل أن يبتسم ابتسامةً مصطنعةً واسعةً ويقول:

- «أخيرًا!»، ثم أشار بسَبَّابته إلى التَّواريخ الأربعة المدوَّنة على خريطة القاهرة: «متى يوجد؟»

ابتسمت تانيا في فخرٍ وهي تقول:

- تم رصد «المؤرخ» وربطه بصورة وثيقة بـ «المسافر صفر» في أربعة أماكن وتوقيتات محددة في أعوام 2019 و1985 و1915.. لقد كان موجودًا أثناء حادثة «إسماعيل

الخازندار.. لك أن تتخيل؟ كان بين أيدينا؟ لقد كنت مُحقًّا.. كان يجب التخلص منهم جميعًا في تلك اللحظة.

- إذًا إلى أي زمن نذهب؟

ابتسمت تانيا ثم قالت في حزم:

- جميعها.. كمَّاشة زمنية.. أربع فرَق زمنية إلى أربعة أزمنة مختلفة.. أنا أقود واحدة، وأنت على رأس الثانية، و«توماس» و«يورجن» يقودان الاثنتين الأخريين.. عمليات متزامنة عبر نسيج الزَّمَكَان تمنعه من أي تلاعب زمني.. لا يجب أن نمنحه الفرصة للقفز والتخفِّي هذه المرة.

أطبقت شفتيها للحظةٍ لترى وقع كلماتها عليه ثم أضافت بنفس اللهجة الحازمة:

- سنعدُّ لتلك العملية كما لم نعدّ لأي عملية سابقة أو لاحقة.. «ستيفان» و«هانز» سيقومان بمهام نوعية واستخباراتية تحضيرية في 2019 و1915.. سيسافران أولًا ثم ينضمَّان إلى الفرَق المقاتلة في الوقت المحدد.. أما «رالف» فسيكون مستعدًّا للتدخل في حال قفز المؤرخ هاربًا إلى نقطة زمنية أخرى.

راقب الأربعيني قائدتهم الصهباء «تانيا» وهي تعطي الأوامر للمقاتلين كافةً بالاستعداد وتجهيز السلاح والعتاد؛

لتنفيذ مهمة أخيرة للقضاء على «المؤرخ» أو «المسافر صفر». راقبها وقد تعاقبت الذكريات أمام عينيه، ذكريات لقائهما الأول منذ ما يقرب من عشر سنوات، عشر سنوات كاملة قضياها معًا متنقلَيْن عبر الزمن يجندان المقاتلين والعلماء المؤمنين بالهدف النهائي. سنوات طويلة يتتبَّعان دلائل واهيةً وخيوطًا تترابط عبر الزمن بحثًا عن «الأصل»، أصل الأزمة ونهايتها. «الأصل» الذي يحمل بصمة زمنية صفرية في أوراق إسماعيل الخازندار البلاستيكية، بصمة قيمتها دائمًا صفر مهما حاول العلماء فكَّ شفرتها، فأطلقوا على ذلك «الأصل» لقب «المسافر صفر»، المسافر المجهول الذي يجب الخلاص منه ليكون مجرى الزمن كما أرادت تانيا وكما أقنعته بضرورته.

عشرة أعوام كاملة، مرَّ نصفها بعد مهمة إسماعيل الخازندار منذ قرن مضى، خمس سنوات منذ أن نفَّذا معًا تلك المهمة وانتزعا حافظة الأسرار الجلدية، مفتاح الأسرار الزمنية، منذ أن انتزعا الحافظة التي احتوت على بيانات البصمات الزمنية والحوادث التاريخية وصور أصحاب النفوذ الزمني. خمس سنوات منذ تلك الواقعة، نفَّذا خلالها مهامَّ لا تعرف الرحمة ضد مسافرين زمنيين وآخرين أبرياء، أسهموا عن قصدٍ أو دونه في شق مجرى الزمن الذي تعارضه تانيا.

الآن قد بلغت الرحلة نهايتها، سيلتقون وجهًا لوجه بالأصل، المسافر صفر، أصل الشرور كما وصفته تانيا. لكن شيئًا ما بداخله يصرخ رافضًا هذه المهمة تحديدًا. لقد كان يُجري تحرياته الزمنية السرية الخاصة منذ فترة، هو الآخر يسبقهم بخطوة. خطوة أجَّجت الصراع بداخله، أفكاره تتلاطم وتتصارع، أينفذ المهمة الأخيرة ويُجهِزون على «الأصل» وذلك «المؤرخ» المزعوم في ضربة واحدة عبر «كمَّاشة زمنية» مُحْـكمة، أم يتبع حَدْسه الذي يلحُّ عليه بالتريُّث؟

أطرق قليلًا مفكرًا ثم حسم أمره. زفر في حرارة قبل أن يعقد حاجبيه في صرامةٍ ويومئ برأسه لتانيا علامةَ الانصياع والموافقة على الكمَّاشة الزمنية والمهمة النهائية.

تجمع المقاتلون يحملون أسلحتهم المتطورة، ويتَّشحون بزيِّهم الأسود القاتم المزين برمز نُدْفة الثلج السداسية الزرقاء. اصطفُّوا في مجموعات، تضم كل منها اثنين أو ثلاثة من المقاتلين الأشداء. وقفوا في ثباتٍ يتطلعون إلى «تانيا» قائدتهم الصهباء، التي عقدت حاجبيها في حزمٍ ثم خطبت فيهم بلهجة حماسية صارمة:

- اليوم هو يوم الفصل.. المهمة الأخيرة.. اليوم نسطِّر الزمن كما تعاهدنا عليه.. كما كان وكما يجب أن يكون.. اليوم نقضي على «المؤرخ».. بل وسنقضي على «الأصل»،

على «المسافر صفر.. فلا تأخذكم شفقة ولا رحمة به ولا بمَنْ حوله، نساءً كانوا أو أطفالًا.. وتذكَّروا أنه إذ التقينا الأشرار والمجرمين في صباهم لوجدنا حاضرهم بريئًا قبل أن يكون مستقبلهم خبيثًا.. فلا شفقة عليهم ولا رحمة.. اليوم ننهي الأمر بضربة واحدة وإلى الأبد.

انقسمت المجموعات إلى أربع فرَقٍ رئيسةٍ وثلاثٍ فرعيةٍ تحت إمرة قُوَّاد أشدَّاء كما أمرت تانيا.. فرق قتالية مُسلَّحة بإيمان راسخ بهدف واحد، ومُدجَّجة بأسلحة متطورة وإحداثيات «زمكانية» دقيقة..

مقاتلون لن يتهاونوا في تنفيذ مهمتهم الكبرى التي يأملون أن تكون الأخيرة..

مقاتلون تعاهدوا على تنفيذ «كمَّاشة زمنيَّة» مُحكمة للقضاء على «المؤرِّخ»..

وعلى «الأصل».. أو «المسافر صفر» ومن معه.

***

000010

1:05 ظهرًا.. المستشفى العسكري البريطاني

- رانيا.

هتف يحيى باسم زوجته وهو يحدِّق في الملازم «سارة» الضابط بجهاز الأمن الداخلي في حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا، هتف باسمها وخفقان قلبه يكاد يصل إلى مسامعها وهي تخطو داخل غرفته بالمستشفى العسكري البريطاني، دمعت عيناه فورَ رؤيتها، لقد تغلَّب القلبُ على العقل، بل هزَم البصَر، لم يُعطِ نفسه فرصةً كي يتحقق منها أو يتساءل كيف فقدت ما يقرب من خمسة عشر عامًا من عمرها لتعود إلى سيرتها الأولى، كما التقاها أول مرة، لقد حُفِرَت هيئتها تلك في ذاكرته، بل يكاد يقسم أن ابتسامتها قد نُحِتَت نحتًا في ذاكرته الأوَّلية، في جوهر مُخه، في ذاكرة البشر الأوَّلية التي تتوارثها الأجيال المتعاقبة. تحول ذهوله إلى اشتياقٍ جارف، إلى طوفان من مشاعر دافئة سرَت في عروقه مجرى الدم، حتى تجمَّعت خلف عينيه، وكسرت ساتر الحياء حين تفجَّرت عيناه بدموع الشجن الجارفة، فهتف في لهفة:

«رانيا.. الحمد لله أنك بخير». صمت للحظةٍ وعيناه تتخبطان في محجريهما بين طوفان دموعه المتلاطمة، ثم أضاف في ارتباك: «لكن.. لكن كيف؟ ماذا تفعلين هنا؟ و.. وكيف تبدين هكذا؟».

اتسعت عينا سارة في دهشةٍ ثم ارتباكٍ من ردَّة فعل يحيى

وكلماته، فتساءل خالد في دهشة:

- هل تعرف الملازم سارة يا يحيى؟

- هذه رانيا زوجتي.. أين آدم ومصطفى يا رانيا؟

هتف بها يحيى وهو يحدِّق في وجه سارة الحائر، وخرج صوته مختنقًا من أثر الدموع وهو يستجدي منها نظرة واحدة تُطمئن قلبه، تُشعره أنها هي، زوجته وحبيبته، نظرة تُطمئنه على مصيرها ومصير طفليهما.. ساد صمتٌ ثقيلٌ للحظاتٍ حتى أدارت وجهها تنظر إلى خالد في تساؤل، فالتفت خالد إليه قائلًا في شك:

- هذه ليست زوجتك يا يحيى.. بل هي الملازم سارة من الأمن الداخلي.

صاح يحيى في عصبيّة وقد بدأ يسيطر على دموعه نوعًا ما:

- «لا.. بل هي رانيا.. هي زوجتي»، ثم التفت إليها متوسلًا: «تكلمي يا رانيا.. أخبريه بالحقيقة.. أخبريه أنك زوجتي».

حدَّق في وجهها مليًّا. حدَّق في جزع يتوسل إليها أن تتكلم، أن تتفوَّه بكلمةٍ واحدة، أن تؤيد ما يقول، أن تهتف قائلةً إنها زوجته، أن تُهرع إليه وتضمُّه إليها، أن تنتشله من

واقعٍ مفزعٍ لا يعلم عن حدوده وقوانينه شيئًا، عن واقع لا يدرك مرادفات كلماته، لا يدرك معانيه ومقاصده المتناقضة.. لكنها صمتت، أطبقت شفتيها، بل طغت نظرات الارتباك في عينيها، نظراتٌ كسهامٍ أودت بقلبه وغادرته جريحًا، فهَتف:

- تكلمي يا رانيا.. أرجوكِ!

قاطعه خالد في نفاد صبر:

- قلت لك إنها ليست رانيا تلك.. لا أريد المزيد من الخبال.

أدار يحيى نظراته بينهما في جزع، قبل أن تخرج سارة عن صمتها قائلةً في إشفاق:

- اسمي سارة يا يحيى.. أعتقد أنك مشوَّش الذهن بسبب الغيبوبة، وربما بسبب الإضاءة.. يخلق من الشبه أربعين.

رَبَّاه! إنها هي، هي رانيا زوجته، صوتها، نبراتها، بل تلك البُحَّة المحببة في صوتها.. لقد هتفت باسمه، نطقت به بطريقتها وأسلوبها، طالما أحب سماع اسمه من بين شفتيها بما له من وقع يجعل جرح قلبه يندمل.. تهلَّلت أساريره، وهرَبت ضحكة أمل خاطفة من بين شفتيه، انشرح صدره، واستحالت دموع الشجن إلى دموع ارتياح، فهتف مستبشرًا:

- «بل أنت هي.. حُب عمري.. هو صوتُك الذي أعشقه، بُحَّتُه،

رعشة شفتيك حين تنطقين اسمي.. نظرة عينيك عندما تريدين التحدُّث بجدِّية ولكن أصابك الارتباك.. إيماءة يديك ذاتها، ضمَّة أصابعك.. جميع تفاصيلك التي أعشقها». تأمَّلها مجددًا ثم هتف: «أنا يحيى يا رانيا».

اتسعت العيون في دهشة، فسادَ الصمت الثقيل لحظاتٍ طويلةً قطعها يحيى حين أردف ونظرات عينيه لا تغادر وجهها الحائر:

- أعلم أنني قد أبدو مجنونًا، لكنك على نفس هيئتك قبل 13 عامًا.. نفس البشرة.. طول الشعر.. النحافة الزائدة.. وكأن الزمن قد عاد بك إلى لقائنا الأول، حين سلبتِ عقلي.

أفلتت ضحكة ساخرة من خالد لم يأبَه بها يحيى الذي تسمَّرت عيناه على وجه مَن يظنُّها حبيبته، فالتفتت سارة إلى خالد ترمقه في عتاب، فأردف وهو يحاول إخفاء ابتسامة ساخرة أخرى تجاهد للهروب من شفتيه:

- «لدى يحيى خيال واسع.. لا أدري إن كان بسبب الحادثة، أم أنه كان دائمًا على هذا النحو». ثم التفت إلى سارة قائلًا في نبرةٍ غلبتها السخرية: «لقد قصَّ عليّ قبل قليل قصة مُشوِّقة عن عالم آخر في مُخيِّلته.. عالم يرى فيه مصر وقد كافحت وحصلت على استقلالها وأصبحت جمهورية منذ ستين أو سبعين عامًا، إن كنت أتذكَّر جيدًا. التفت إلى يحيى

ثم استطرد وقد تمكّنت السخرية، التي عجز عن مقاومتها، من نبراته تمامًا: «قصة رائعة يا يحيى.. لا أنكر أنني كدت أن أصدقك.. يمكنك كتابتها كروايةِ خيالٍ علميّ إن أردت.. ولكنك ستأتيني بعدها مُجدَّدًا بتهمة معاداة بريطانيا العظمى».

صمتَ يراقب تعبيرات وجه يحيى المُحبَطة، ثم أضاف بصرامته المعهودة:

- «أشعر أنك لست إرهابيًّا.. قد يكون من الصعب تبرئتُك، لكنني مقتنع أنك لست إرهابيًّا.. أنت مجنون على الأغلب، ولديك ذُهَان كما يقول الأطباء النفسيون». مَطَّ شفتيه ثم استطرد: «مع الأسف ستطول إقامتك معنا حتى نعرف حقيقتك كاملةً».

تابعت سارة كلمات خالد باهتمام شديد، ثم عقدت حاجبيها في شدة، وأطرقت مُفكِّرةً عدةَ لحظات خَيَّم عليها الصمت، قبل أن ترفع نظرها بغتةً إلى خالد وتسأله في جدية:

- هل قلت إنه حدثك عن واقع مختلف؟ عن عالم آخر به أحداث غير التي نعرفها؟

أطلق خالد ضحكة تهكُّم خافتة، وأومأ برأسه إيجابًا قبل أن تخفُت تعبيرات السخرية من وجهه وتحلَّ محلَّها علامات

التَّوجس، فقَطَّبَ جبينه ثم أردف في لهجةٍ حاول أن يجعلها ساخرة، فخرجت متوترة تعكس ما بداخله من قلق:

- نعم.. ثورة قامت في 1952، وبعدها تم خلع الملك على يد مجموعة من ضباط الجيش المصري. ضباط أحرار أجبروا الإنجليز على الانسحاب الكامل من مصر بعدها بسنوات قليلة.. مصر أصبحت جمهورية، بل وأمَّمت قناة السويس.. هل تدركين ما يقول؟! قناة السويس عادت إلينا وتم إجلاء الإنجليز عن مصر.. خيال علمي رفيع المستوى!

ازداد القلق بداخله وهو يتأمل تعبيرات وجهها التي طغت عليها الجدِّية المفرطة، وكأنه شعَر بموجات مُخِّها الكهربائية وهي تبرق وتُرعِد في تفكيرٍ متواصلٍ يصمُّ ضجيجُه الآذان، قبل أن يتساءل في توترٍ واضحٍ فشل في إخفائه:

- لماذا تهتمين بتلك القصة؟

تجاهلته سارة تمامًا، واتخذت مقعدًا إلى جوار سرير يحيى، ثم مالت ناحية الأخير تسأله باهتمام:

- يحيى، هل لك أن تخبرني بتفاصيل حياتك قبل الحادثة؟ أخبرني بكل شيء عن مصر؟ عن سياستها؟ عن حكامها؟ عن الثقافة والسينما والفنون.. أريد أن أرى مصر بعينيك أنت.

تعجَّب خالد من ردَّة فعلها، وهتف يستنكر ما تطلبه من

يحيى، فقاطعته بنظرة توسُّل صادقة.. فأشاح بيديه وتَنهَّد في استسلام قبل أن يشير إلى يحيى لينفذ ما طلبَتْ.
أدار يحيى نظراته بينهما في تردد، فأومأت سارة برأسها وابتسمت له ابتسامة هادئة تشجعه على الحديث.

تَنهَّد يحيى في ارتياحٍ بعد أن وجد آذانًا مصغية، وشرع يقصُّ عليها كل شيء من وجهة نظره، نجاحات مصر وإخفاقاتها، موسيقاها، مطربيها الجُدُد، بل أخبرها عن أغاني المهرجانات، عن السينما، عن رجال الدين بمختلف طوائفهم، عن سياسة مصر وحكامها المتعاقبين، عن شكل الحياة، عن شهر رمضان وبهجته. ثم حكى لها عنها، هي كما يراها، كما يراها كرانيا زوجته، حكى لها عن قصة حبهما، عن تعارفهما الأول رفقة والدها في ذلك المقهى في مصر الجديدة، عن كفاحهما معًا لإنشاء شركتهما التكنولوچية الناجحة. حكت عيناه تفاصيل لم يقُلْها، تفاصيل عن حبٍّ جارف، عن شخصين يكملان بعضهما البعض في الحياة الواقعية والحياة العملية على حَدٍّ سواء. ثم استفاض يخبرها عن طفليهما عن تصرفاتهما المرحة، عن طريقة تربيتها لهما.. استرسل يقصُّ عليها كل شيء كما يراه، بل كما يشعر به، كما عاشه، استرسل في حديثٍ مفصَّلٍ متواصل لم تقطعه سوى دموع واختناقات الشجن بين الحين والآخر.. ثم فرغ من حديثه.. فصمتَ.. صمتَ يتأمل الوجوه.. تعجَّب من علامات

التَّأثُر البادية على وجهيهما، لقد دغدغت كلماته العواطف، ووجدت طريقها إلى القلوب، فرقرقت المشاعر وفاضت على الملامح بصورةٍ لا تُخطئها العين.

خَيَّم الصمت للحظاتٍ طالت، لحظات لم يرغب أحدهم في قطعها في ظل اختلاج القلوب والتأثر الواضح عليهم جميعًا، ثم ما لبث خالد أن تنحنح بعد أن نفض عنه مشاعر الضعف والتأثر، وهتف متهكمًا ليقطع تلك النظرات الحانية بين يحيى وسارة:

- «رائع يا يحيى، خيالك مبهر حقًّا.. لقد صنعت عالمًا متكاملًا.. هو بالتأكيد من تأثير حقنة المهدئ». ثم هتف في سارة ينتزعها من شرودها، ويقطع نظراتها التائهة في عَينَيْ يحيى: «هل تأكدتِ الآن من جنونه؟»

لم تنتبه سارة لما قال، حيث بلغت الكلمات أذنيها كأنها قادمة من بئر سحيق، لقد أحبت ما قاله يحيى، لمس قلبها، لقد وصفها وصفًا دقيقًا، لقد وصف أسلوبها، حركاتها، بل ومشاعرها، لقد بلغ وصفه لها من الدقة أنها أيقنت أن ذلك هو أسلوبها بالفعل مع الأطفال، فتمنَّت أن يرزقها الله بآدم ومصطفى لتعيش ما قاله يحيى.. تمنت أن تنعَم بمثل تلك الحياة الهادئة.. فغرقت في مشاعرها، وتاهت في عينيه؛ لقد أسرها بأسلوبه، بنظراته إليها، بقوة وصفه، وحماسته

التي تتضاعف عندما ذكر زوجته وهو يتأملها، لقد شعرت به، شعرت بخفقان قلبه.. أحست به، وذُهِلَت من خفقان قلبها هي الأخرى استجابةً لما ذكر، ذُهِلَت لتجَاوبها مع نبضات قلبه الصادقة....

- ملازم سارة!!

هتف بها خالد في صرامة، فقطع حبل أفكارها، وسيطر على خفقان قلبها، فأطرقت وسعلت في حرج، ثم نهضت من مقعدها وعينا يحيى تتابعانها في شغف، سارت بخُطًى بطيئة وعقدت حاجبيها وقد عادت إلى جديتها المعهودة، ثم زفرت في عمقٍ قبل أن تقول:

- أكثر ما لفت انتباهنا منذ أنقذنا يحيى لم يكن موقعه وسط الصحراء، أو الكلام الغريب الذي ذكره.. بل كانت تلك الموجات الانفجارية التي التقطتها أجهزتنا.. تردُّدات الأشعة الكهرومغناطيسية كانت تتغير بوتيرةٍ فائقة السرعة، الطول الموجي (Wavelength) للأشعَّة الناجمة عن الانفجار قد غطت الطيف الكهرومغناطيسي بالكامل، بدايةً من الموجات متناهية القِصَر فائقة التردد كأشعَّة جاما، وحتى الموجات الطويلة ضعيفة التردد كأشعَّة الراديو.. وليس هذا فحسب بل لاحظنا كذلك أنماطًا شديدة الغرابة لتَغَيُّر الطول الموجي من حيث السرعة والنطاق.. شيء لم نرَ مثيلًا له من قبل.

صمتت عندما لمحت علامات عدم الفهم في عَينَيْ خالد، بينما عقد يحيى حاجبيه في اهتمام، فسعَلت في حرجٍ قبل أن تتابع بجدِّية:

- «سأوضح أكثر.. ذلك الانفجار المحدود وأشعته المصاحبة كان غريبًا وغير مسبوق، فطلبتُ من «فريدة» إجراء بحث عن سوابق تاريخية مماثلة..»، ثم مطَّت شفتيها قبل أن تقول: «ولكن مع الأسف لم نجد أحداثًا مشابهة مسجلة لدينا».

لاحظت ازدياد الاهتمام البادي على وجه خالد، الذي عقد حاجبيه وأومأ برأسه يحثُّها على الاستمرار في لهفة، في حين تابعها يحيى في ترقُّب وشغف، فتابعت:

- فاتبعنا أسلوبًا مغايرًا.. قامت «فريدة» بعمل مسح زمني لأنماط مماثلة من الترددات التي التقطتها أجهزتنا الحالية شديدة الحساسية والدقة.. المسح الزمني تم عن طريق حساب الموجات الكهرومغناطيسية المنعكسة من الأجرام السماوية القريبة مثل القمر والكواكب وغيرها؛ وكذلك بعض مُكوِّنات الأرض.. وبعد تطبيق خوارزميَّات وعمليات حسابية شديدة التعقيد، تمكَّنت «فريدة» من تطوير نموذج فعَّال يلغي آثار الأشعَّة الكونية المتداخلة ويضيف مُكافئًا للأشعة التي حجبها الغلاف الجوي أو أثَّر على شدتها طول المسافة

والزمن حتى.......

- تحدثي بالعربية يا سارة.. لا أفهم شيئًا!

قالها خالد ممتعضًا وهو يدير بصره بين سارة التي تستخدم مفردات علمية تتجاوز معرفته حتى مع محاولاتها الفاشلة للتبسيط، ويحيى الذي تبدو عليه علامات الفهم وإدراك ما تقول، فضحك يحيى هاتفًا:

- «هي طريقتك ذاتها.. لم ولن تتغير». ثم أدار وجهه إلى خالد وابتسم قبل أن يضيف في ثقة: «باختصار حاولت «فريدة» الكشف عن أنماط انفجارية مماثلة حدثت في الماضي القريب والبعيد.. لا يهمُّ الكيفية العلمية لطريقة البحث، ولكن على ما يبدو فقد نجحت «فريدة» في العثور على انفجارات مماثلة في الماضي، أليس كذلك؟»

أنهى جملته وهو يرمق سارة بنظرة دافئة، فحافظت الأخيرة على جدِّيتها حتى أشاحت بوجهها بعيدًا لتخفي ابتسامة إعجاب واضحة، ثم أضافت:

- بالضبط هو كذلك.. باختصار استطاعت «فريدة» التَّوصُّل إلى عدة انفجارات مشابهة وقعت خلال المائة عام الماضية.. وبالتأكيد كلما بَعُدَ الزمن انخفضت قدرة «فريدة» على تحديد التاريخ وموقع الانفجار بدقة عالية نتيجة ضعف

الأشعة المرصودة.

نظرت لخالد تطلب منه الإذن بالسماح لفريدة بعرض ما توصلت إليه في وجود يحيى، فعقد الأخير حاجبيه مفكرًا، ثم أومأ برأسه موافقًا، فتهلَّلت أساريرها، ثم أمرت فريدة بعرض ما لديها.

توهَّج الجدار المواجه للسرير كشاشة تلفاز ضخم، وظهرت في منتصفه الكرة الأرضية تدور حول محورها المائل، ثم وَمَضت بقعةٌ ما على سطحها فتحولت الشاشة إلى لون أسود حالك، في حين ومضت تلك البقعة المضيئة بومضاتٍ سريعةٍ متعاقبة في نمطٍ ميَّزته ألوانٌ متباينةٌ لدوائر بعضها داخل بعض تتسع بشكلٍ تدريجـيًّا، ليخرج بعضها خارج الغلاف الجوي للأرض، لترتطم بالقمر والكواكب البعيدة وترتدَّ عائدةً إلى الأرض من جديد في مشهدٍ أخَّاذٍ اتسعت له العيون في انبهار، ثم جاء صوت «فريدة» هادئًا وهي تقول:

- هذا هو النمط الكهرومغناطيسي للانفجار المصاحب لحادثة يحيى.. قامت أجهزة الرصد الحديثة شديدة الحساسية بالتقاط الموجات المنعكسة من الأجسام السماوية المحيطة.. فاكتشفت خمسة انفجارات متشابهة على الأقل.. يعود بعضها إلى بداية القرن العشرين.

ثم ارتسم خط أحمر أفقي بعرض الجدار تنبت منه ستة

خطوط رأسية متباعدة كُتبت تحتها علاماتُ استفهامٍ كبيرة. ثم تلاشت أولى علامات الاستفهام تحت الخط الرأسي الأول وظهر بدلًا منها تاريخ، 6 ديسمبر 2019، التاريخ الذي وُجِدَ فيه يحيى، وتحته توقيت الانفجار، 9:42 مساءً، ثم دارت الكرة الأرضية من جديد وبرزت عليها علامة تشير إلى موقع الانفجار الأخير بدقَّة عالية، فتابعت «فريدة»:

- تلك الخطوط تمثل الانفجارات ذات النمط المشابه.. علامات الاستفهام تعكس عدم تحديد موقع وتاريخ الانفجار بشكل دقيق بَعد، وذلك بسبب ضعف الأشعَّة المنعكسة والتي تتطلب تطبيق نموذج حسابي متغير، يأخذ في الاعتبار العديد من العوامل المتداخلة بسبب بُعد المدة الزمنية التي وقع فيها الانفجار.. لكنني تمكّنت من استخلاص وتحليل الأشعة الصادرة عن أقرب الانفجارات إلينا، وتحديد الزمان والموعد بشكلٍ تقريبيٍّ وبدقةٍ مقبولة نوعًا ما.

اختفت علامة الاستفهام أسفل الخط الرأسي الثاني، وظهر بدلًا منها تاريخ، 4-8 نوفمبر 1984، بينما لم يتم تحديد توقيت الانفجار. دارت الكرة الأرضية من جديد تشير إلى موقع الانفجار في شرق القاهرة في منطقة الأطلال، المنطقة التي كانت تُعرف يومًا باسم مصر الجديدة. عقد خالد حاجبيه في دهشة، ثم رمق سارة بنظرةٍ متسائلةٍ فأومأت

برأسها وأشارت بيدها بمعنى «اصبر قليلًا».. فارتدَّ بصره إلى الجدار يتابع ما تعرضه «فريدة» وهي تقول:

- بعد تحديد الموعد والمكان التقريبي لانفجار عام 1984، طلبَت الملازم سارة إجراء بحث عن أحداث غير طبيعية أو استثنائية وقعت خلال الفترة من 4-8 نوفمبر من ذلك العام.. لكن مع الأسف لم يتم رصد أية أحداث خارقة للعادة أو خارجة عن المألوف في تلك الفترة.

لاحظت سارة ملامح الإحباط تكسو وجهَيْ خالد ويحيى عند تلك النقطة، فابتسمت في فخرٍ قبل أن تشير إلى الجدار من جديدٍ لتستعيد اهتمامهما حين تلاشى الخط الزمني للانفجارات، لتحلَّ بدلًا منه صورة قديمة لشابٍّ في بداية الثلاثينات من عمره ذي أنف كبير وعينين زرقاوين حادَّتين، فتابعت «فريدة»:

- ولكن.. طلبت الملازم سارة توسيع دائرة البحث لتشمل سجلات المستشفيات بأنواعها المختلفة في القاهرة وضواحيها حتى نهاية شهر ديسمبر من العام ذاته.. وهنا يصبح الأمر أكثر إثارةً للاهتمام.. فلقد عثرت على ملف في مستشفى «روبرت ماكميلان للصحة النفسية» يشير إلى استقبالِ شابٍّ في ديسمبر 1984 رَثِّ الثياب في حالةِ إعياءٍ شديد، ويعاني خللًا نفسيًّا وهلاوس.. حيث رفض الشابُّ

الواقعَ المصريَّ مُدَّعيًا وجود واقع آخر بأحداث تاريخية تتناقض مع تاريخنا المعروف.. حيث أشار إلى أن مصر أصبحت جمهورية مستقلة قوية وذات نفوذ وهيمنة على المستويين: الإقليمي والدولي.. وذكر أن بريطانيا تقع تحت الاحتلال الألماني من زمن الحرب العالمية الأولى.. وتفاصيل أخرى لا يتسع المجال لذكرها.

فغر خالد فَاهُ، واتسعت عيناه عن آخرهما في ذهول، ثم ما لبث أن نفض عنه ذلك الذهول وقال في لهجةٍ متوترة:

- وما المشكلة؟ مجنون آخر! أسنسير خلف المجانين يا سارة؟!

همَّت سارة أن تجيبه لولا أن هتف يحيى في حماس:

- «لا.. ليس مجنونًا هو الآخر.. لديك رجلان تفصل بينهما خمسة وثلاثون عامًا يؤكدان أن واقعك يختلف عن عالمهما.. وتزامن ظهورهما مع موجات انفجاريَّة بأنماط غير مسبوقة. إذًا، فالأمر تخطى مسألة الجنون.. ثمَّة شيءٌ ما حدث أو يحدث ونحن لسنا على دراية به وبأبعاده.. أنا وهذا الشاب...»، نظر إلى الجدار يقرأ الاسم المدوَّن أسفل الصورة، ثم استطرد بالحماسة ذاتها: «نسيم سمعان.. نحن لسنا مجانين.. ولكن عشنا واقعًا يختلف تمامًا عنك، واقعًا لا يوجد به احتلال ولا دمار ولا أيٌّ من تلك الأمور المثيرة للاشمئزاز».

صمت مُجدّدًا وأطرق يفكر للحظات، ثم ضاقت حَدَقتاهُ وهو يدير نظرَه بين خالد وسارة قبل أن يقول بنبرةٍ جادَّةٍ غلبها القلق:

- التفسير الوحيد هو أن هذا الانفجار يفتح بوابةً في نسيج «الزَّمَكَان» بين عوالم موازية.. أدرك أن هذا الكلام يبدو محض جنون، لكنه التفسير الوحيد.. الواقع أو العالم الذي أتيتُ منه ليس متقدمًا كعالمك.. التكنولوچيا في العالمين أساسها واحد، ولكن عالمك يسبقنا بعشرين أو ثلاثين عامًا بالتقريب. تأمل علامات التَّوَتُّر التي وجدت طريقها إلى ملامح خالد، فتابع: «هناك حدثٌ ما وقع في هذا العالم دفع التكنولوچيا للتقدم بوتيرةٍ أسرع من عالمي.. ولكن الأكيد أن الأصل واحد لأن لهجتنا مماثلة.. حتى الملك فاروق كان آخر ملوك مصر في عالمي وعالمك كما سبق وأن تحدثنا.. هذا يدل على أن الاختلاف أو الفصل بين العالمين قد بدأ في أربعينيات أو خمسينيات القرن الماضي».

تأمل يحيى وقع كلماته على خالد وزميلته، تأمل تعبيرات خالد الذاهلة وعينيه الزائغتين المرتبكتين، ونقيضها على وجه سارة التي عقدت حاجبيها وغرقت في تفكيرٍ عميق، فأخذ يحيى نَفَسًا عميقًا قبل أن يردف في بطءٍ مشددًا على كلماته:

- ولكن أيضًا هذا ليس واقعًا موازيًا.. بل هو واقعٌ متشعب.. عوالم تفرعت من أصل واحد.. التاريخ والزمن كانا مُتَّحدين حتى وقع حدث ما عظيم فصل العوالم وشعَّبها مثل الشجرة.. فكلما وقع حدث عظيم تشعَّب الواقع وتفرَّع.. الأمر أشبه بنُدْفَة الثلج، Snowflake، مركز واحد وفروع متشعبة.. هذا هو التفسير الوحيد لتشارُكنا في ماضٍ واحدٍ حتى نقطة معينة تغير بعدها كل شيء.

خَيَّم الصمت على ثلاثتهم، فعلى الرغم من وجاهة التفسير وفقًا لتلك المعطيات غير المألوفة، رفض عقل خالد الانصياع أو التصديق والتسليم بهذا العبث الجنوني، بالنسبة إليه لا يعدو الأمر كونه انفجارًا إرهابيًّا نتج عنه تلف في عقول ضعيفة خانعة، انفجار إرهابي تمخَّض عنه يحيى وذلك الشاب، نسيم سمعان، أو أيًّا كان اسمه، رجلان مختلَّان بعقول مضطربة مشوَّشة ترى هلاوس متشابهة، فهتف في توتر:

- كفَى هُراءً.. أنت مجنون.

أطرق يحيى برأسه مستسلمًا فهو يدرك أن تفسيره أقرب إلى الجنون منه إلى الواقع، هو نفسه لا يستطيع تصديقه، ولولا أنه اصطدم بالواقع الحالي بتقنيَّاته المتقدمة وتاريخه المختلف عن واقعه الذي جاء منه، لما فكر في هذا التفسير

المجنون، هذا هو التفسير المنطقي الوحيد، هذا هو طرف الخيط الذي يجب تتبُّعه كي يعودَ إلى أسرته، إلى طفليه، إلى زوجته رانيا.. اختلج قلبه عندما تذكَّر زوجته رانيا التي تقف أمامه شابَّةً كاملة الحيوية وقد فقدت 14 عامًا من عمرها، فرفع بصره إليها بنظرةٍ متوسلة. لاحظ شرودها، فقد لمس تفسيره شيئًا ما في عقلها، لا تدري لماذا، ولكنها صدقته، تبنَّت تفسيره نوعًا ما، ورغم بُعد تفسيره الكامل عن المنطق وحدوده، فقد لمس وترًا ما في عقلها فأضاء بؤرًا مظلمة، بؤرًا تائهة في غياهب النسيان، صمتت لوهلةٍ ثم غمغمت بصوتٍ مسموع:

- لا.. لستَ مجنونًا يا يحيى!

همَّ خالد أن يهتف بها مستنكرًا لولا أن قاطعه صوت «فريدة» الهادئ وهي تقول:

- مقدم خالد.. أنا أستشعر خطرًا داهمًا عليكم الآن.. أعتقد أنه يجب عليك أن تشاهد ذلك البَثّ الحيّ.

التفت ثلاثتهم يشاهدون ما تبثُّه «فريدة» على الحائط الأبيض، مشَاهِد أشعلت بؤر التَّوَتُّر والخوف ثم الغضب في عقل يحيى، حين رأى أربعة رجال يتَّشحون بالسواد، مُدجَّجين بالسلاح، ويزين زِيَّهم العسكريَّ رمز «ندفة الثلج» ذو الأفرع السداسية الزرقاء، الرمز نفسه الذي لاحظه يحيى

على زِيّ تلك المجموعة التي هاجمت منزله في واقعه الموازي، أو واقعه «المتفرِّع» كما وصفه، ذلك الرمز الذي حُفِرَ في ذاكرته دون أن يدري وظهر عندما ترابطت الخيوط..

أربعة رجال يتقدمون بخُطًى ثابتة داخل أروقة المستشفى؛ بحثًا عن هدف واحد فقط..

غرفة يحيى عبدالحكيم المصري..

***

000011

6:55 مساءً.. مصر الجديدة أخرى..

تحطم الباب الأمامي لـڤيلّا «شريف القاضي» بفعل ركلات أقدام مجموعة تتكون من ستة مقاتلين مُتّشحين بالسواد، يغطون وجوههم بأقنعة غاز ونظارات للرؤية الليلية، مُدجّجين بأسلحة نارية متطورة، ويزين ملابسهم رمز «ندفة الثلج» السداسية زرقاء اللون. أشار إليهم قائدهم بالتقدم إلى داخل الـڤيلّا تباعًا في تشكيلٍ يسمح لهم بحماية بعضهم البعض، ثم أتبعها بإشارة أخرى إلى ثلاثة منهم لتفقُّد الدور الأرضي، فيما رافقه المقاتلان الآخرَان إلى الدور العلوي يصعدان الدَّرَج بخُطًى بطيئة، مُصوِّبين فوهات أسلحتهم في تحفُّزٍ حَذِر.

شهقت ليلى وهي ترتجف في مخبئِها خلف المكتب الخشبي في صدر غرفة المكتب، قائلةً في صوتٍ خفيضٍ غلبه الرعب:

- سلمى! سلمى يا شريف!

- شش!

نهرتها مايا هامسةً وهي تضع سبّابتها أمام شفتيها تأمرها بالصمت، ثم عقدت حاجبيها ترهف السمع في محاولة لتبيُّن تحركات المقتحمين. وعلى ضوء القمر الواهن الذي تسلل عبر نافذة الغرفة فأضفى المزيد من الرهبة على الموقف المتأزم، رفعت مايا سبّابتها إلى شريف مشيرةً إلى الدور العلوي حيث ترقد سلمى، فأومأ برأسه إيجابًا ثم فتح النافذة في بطء وقفز خارجها إلى الحديقة الخلفية للڤيلّا يخطو خطواتٍ سريعة، محافظًا على رأسه منخفضًا وهو يقبض على المسدس الذي استولى عليه من مايا. جال ببصره يبحث عن وسيلةٍ يصعد بها إلى الدور العلوي أو يلتف حول مجموعة الاقتحام التي لا يعلم عددها. ألقى النظر عبر إحدى النوافذ فلمح أحد المهاجمين يتقدم في بطءٍ باتجاه غرفة المكتب، فيما يتفقَّد الآخر غرفة الطعام. حاول معالجة مزلاج النافذة من الخارج دون جدوى، فضربه براحته ضرباتٍ متتاليةً مكتومة حتى انفتحت النافذة على مصراعيها، ثم قفز إلى

الداخل مرةً أخرى.

تسلَّل في حذرٍ حتى صار على بُعد أمتار قليلة من ظهر أولهم، الذي التفت في سرعة عندما تناهى إلى مسامعه صوت طقطقة الخطوات البطيئة على أرضية البيت الخشبية، فعاجَله شريف بضربة قوية احترافية من راحة يده المفرودة في حنجرته مباشرةً، شهق الرجل من فرط الألم وأفلَت السلاح وهو يرفع يديه ممسكًا برقبته يصارع لاستنشاق الهواء عبرَ حنجرته المُحطَّمة، فأجهز عليه شريف يثبِّت أطرافه كي لا يُحدث المزيد من الجلبة، وقد تحشرجت أنفاسه وهو يصارع لالتقاطها حتى خَفتَ خُوَاره وسكنت حركته.

خفق قلبه وهو يتابع بنظره المقاتل الآخر وهو يخطو بحذرٍ داخل غرفة المكتب حيث ليلى ومعها الفتاة الغامضة مايا، كتم أنفاسه وعيناه تجاهدان الظلام ليصوِّب مسدسه، ارتعشت يداه وهو يقف عاجزًا يمنعه الظلام والمسافة البعيدة التي تفصل بينهما من أن ينقذ زوجته، ليلى، أقرب الناس إليه في هذا الزمن.

ركضَ في اتجاه باب الغرفة وقد غاب الرجل بداخلها، ثم تسمَّر في مكانه وأُسقِطَ في يده عندما تناهَى إلى مسمعه صوتُ جَلَبة، فشهقة، فارتطام مكتوم بالأرض، كاد أن يقفز

قلبه من حلقه، لولا أن رأى مايا تخرج بحذرٍ من الغرفة وترتدي القناع ونظارة الرؤية الليلية اللذين انتزعتهما من المقاتل الصريع.

وقبل أن يتنفس الصُّعَدَاء لمح ظِلَّ رجلٍ يأتي من خلفه، فقفز جانبًا بصورة تلقائيَّة لتتجاوزه طلقات مكتومة، قبل أن يدور حول نفسه ويطلق النار على صاحب الظل، إلا أن الظلام واحترافية مهاجمه حالت دون إصابة الرجل، الذي صوَّب سلاحه المتقدم مجددًا، وهمَّ بإطلاق النار في منتصف جبهة شريف مباشرةً، لولا أن عاجلته مايا بثلاث طلقات متتالية أردته قتيـلًا.

نظر إليها شريف بطرف عينيه وقد ارتسمت على ملامحه علامات الامتنان، وجالت بخاطره للحظةٍ صورة مايا التي وجدها بين أوراقه، وتعجَّب من الجملة التي خطَّها على الصورة.. «لا تأمَنْ لها».. ولكن لماذا؟ لقد أنقذت حياته للتَّوّ..

وقبل أن يسترسل في أفكاره، صكَّ مسامعَه صوتُ ارتطام جسم معدني بالأرض، تلاه هسيسُ غازٍ كثيفٍ ينتشر في سرعةٍ ليملأ الطابق الأرضي بأكمله. كتم أنفاسه وزحف في اتجاه الرجل الملقَى إلى جواره، فنزع عنه قناع الغاز وقذفه باتجاه مايا صارخًا: «ليلى»، تلقَّفته مايا قبل أن تعود أدراجها في سرعةٍ إلى داخل غرفة المكتب.

واصل كَتمْ أنفاسه وقد توالى أزيز طلقات مكتومة ترتطم بالأرضية الخشبية، طلقات تأتي من الطابق العلوي لتقطع أبخرة الغاز التي تكاد تخترق رئتيه. غالَبَ صراخ رئتيه طلبًا للهواء وأسرع في زحفه نحو الرجل الذي حطم حنجرته فنزع عنه قناعه، ووضعه على أنفه وفمه في سرعة ثم شهق في عنفٍ وعمقٍ ليتدفَّق الهواء يملأ رئتيه.

أسرع يتوارى خلف أحد الجدران والطلقات المكتومة تلاحقه وتحاصره. التقط أنفاسه ثم عدَّل من وضع القناع ونظارة الرؤية الليلية على وجهه، وقد توقفت الطلقات عن ملاحقته حين تناهى إلى مسامعه صوت نيران متبادلة فيما يبدو بين مايا والمقاتلين القادمين من الدور العلوي.

عقد حاجبيه حين تذكَّر مشهد مواسير الصرف التي تربط طابقَي الـڤيلَّا، فانتهز الفرصة وزحف في سرعةٍ نحو النافذة التي دلف منها. زفر في صرامة، قبل أن يقفز إلى الخارج ويتسلَّق المواسير الصَّدِئَة في مهارةٍ لا تتناسب وعمره الذي بلغ الخمسين. تسلَّقها في إصرار وعيناه لا تريان سوى صورة ابنته سلمى، فقط سلمى وبراءتها تحفز عضلاته التي أنَّت تحت وطأةِ مجهودٍ بدنيّ وعقليّ متواصل يخشع له أعتى الرجال. وصل إلى شرفة الدور العلوي، فقفز إلى داخلها، ثم حطم زجاجها، قبل أن يلمح أحد المقاتلين فيعاجله بطلقات

غاضبة متواصلة حوّلته إلى مصفاة مهترئة.

تقدم شريف في حذَر ودلف إلى حجرة سلمى، ابنته الرضيعة التي لا ذنب لها فيما اقترفه والدها، ابنته التي ستدفع ثمن آثام يجهل مداها، آثام ثقيلة لا يدرك لها سببًا ولا تبريرًا.

تيبّست عضلاته وتهاوى قلبه بين قدميه وقد رأى قائد المقاتلين يحمل ابنته بين يديه، عقد حاجبيه وقد تحول خوفه عليها إلى نيران غاضبة تملأ عينيه، ولولا القناع والنظارة التي تخفي وجهه لأحرق لهيب عينيه المقاتل الذي تجرّأ ولمس ابنته. صوّب شريف مسدسه تجاه رأس القائد قائلًا في صرامة:

- أعِدِ ابنتي إلى سريرها!

لم يستجِب المقاتل العنيد ولم يحرك ساكنًا وقد أخفى قناعه نظرات التحدّي التي تعكس قلبًا لا يعرف الخوف. فأردف شريف صارخًا بنبرة ارتجفت لها جنبات الغرفة:

- قلت أعِدْها!

استجاب المقاتل وأعاد سلمى إلى سريرها، ثم قفز جانبًا في سرعةٍ يتفادى رصاصات شريف التي تجاوزت رأسه، قبل أن يستلَّ نصلًا صغيرًا على شكل سهم من حزامه

ويقذفه في مهارة حيث كاد أن يستقر في قلب شريف، لولا أن انحنى الأخير جانبًا في سرعة ليصيب الخنجر جانب كتفه اليُمنى ويُسقط سلاحه. عاجَله قائد المقاتلين بركلةٍ قويةٍ في صدره ليرتطم بالحائط قبل أن يُتبعها بلكمةٍ قويةٍ حطمت قناع الغاز. استعاد شريف توازنه متغلبًا على آلامه ليوجه ركلتين متتاليتين لصدر المقاتل ليمنعه من تصويب سلاحه، ثم يعاجله بلكمةٍ قويةٍ في أعلى معدته انحنى على إثرها يشهق من الألم. حاول شريف توجيه ضربة أخرى يحطم بها حنجرته، لولا أن أمسك المقاتل الصلب راحة يده وأدارها بمهارة، فدار شريف حول نفسه ليسقط أرضًا في عنف. التقط المقاتل منشفةً مُلقاةً إلى جواره وأحاط بها عنق شريف وهو يستقر على الأرض خلفه يعتصر رقبته في عنف. حرك شريف ذراعيه للخلف في حركات عشوائية في محاولةٍ للإمساك بالمقاتل، الذي وضع ركبتيه خلف كتفَيْ شريف ليبتعد عن مرمى قبضته، ويزيد الضغط على رقبته في الوقت ذاته.

انحسر الهواء عن رئتَيْ شريف، واحمرَّ وجهه وجحظت عيناه وقد احتبست الدماء في رأسه، سقط قناع الغاز والنظارة عن وجهه، أوشكت قصبته الهوائيَّة على التحطُّم، فخَفَتت حركتُه، وكفَّت قدماه عن الحركة..

واستسلم..

استسلم وقد أدرك أن وقت الحساب قد حان..

حان الوقت ليلقَى جزاء خطاياه..

جزاءً وفاقًا..

جزاءً من جنس العمل..

استسلم شريف استعدادًا للقاءِ رَبِّه، فكفَّت جوارحه عن المقاومة..

ثم خفَّ الضغط عن رقبته بغتة، حين ترك المقاتل المنشفة بصورة فجائية، وكفَّ عن اعتصار رقبة شريف المستلم الواهن..

دفع المقاتل شريف بعيدًا حين رأى انعكاس وجهه في المرآة أمامه، وهتف بصوتٍ أنثويٍ ذاهل:

- أحمد!!

سقط شريف على وجهه في إعياءٍ يلهث في عنف، يتسابق فمه وأنفه على تجرُّع الهواء وملء رئتيه، بينما تندفع الدماء في رحلة العودة من رأسه إلى باقي أطرافه. جثَتِ المقاتلة على ركبتيها تتفقَّد شريف الذي سعل في عنفٍ عاجزًا حتى عن فتح عينيه من فرط الإعياء. كشفت تانيا عن وجهها

الأبيض المشرب بحمرة، وعن نمشٍ يغطي وجنتيها في تناغمٍ تامٍّ مع شعر رأسها شديد الحمرة. زاغت عيناها وهي تحدِّق في وجه شريف في فزع، وهمَّت أن تقول شيئًا قبل أن تخترق جسدَها ورأسَها عدَّةُ طلقاتٍ مكتومة فتهاوت أرضًا، لتظهر من خلفها مايا ممسكةً بسلاحها، تلهث وقد عقدت حاجبيها تتأمل المشهد في حزم.

***

000000

25 نوفمبر 1915 (55 دقيقة قبل الكارثة)

11:05 مساءً.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

انطلقت السيارة المدرَّعة القوية مبتعدةً عن ڤيلَّا «إسماعيل الخازندار» المنكوبة. أثارت عاصفةً ترابيةً وهي تقطع شارعَيْ كنيسة البازيليك وسان ستيفانو مبتعدةً عن خط سير جنود الفيلق الأسترالي النيوزيلندي الذين هبُّوا من ثكناتهم بجوار «لونا بارك» نحو الڤيلَّا يتقصَّوْن الأمر ويفرضون سيطرتهم. بلغت المدرعة السوداء أطراف الواحة حيث منطقة المطار(3)، منطقة مُقفِرة تحاوطها صحراء رملية متموِّجة تعكس ضوء القمر الفضي، الذي أضفى عليها مظهرًا أشدَّ وحشةً وكآبة.

احتضنت أمينة طفلتها الصغيرة التي انكمشت في مقعدها واحتبست الدموع في عينيها من هول ما رأته خلال الساعات الماضية. التفتت إلى إسماعيل الذي غلبه الإعياء، حاولت السيطرة على أنفاسها اللاهثة وهي تُرَبِّت على ظهر زوجها قائلةً في صوتٍ خفيضٍ بنبرةٍ حانية تهدِّئ من روعه:

- إسماعيل.. أخبرتك أن هناك أملًا.. لن نستسلم لهم أبدًا، و.....

قطعت جملتها وشهقت في لوعة عندما شعرت بملمس دماء دافئة لزجة تندفع من ثقب في ظهر زوجها تلطخ كفَّها وتتخلل أصابعها. اتسعت عينا إسماعيل ذعرًا عندما تطلَّع إلى يدها وقد شعر بروحه تنسحب من أوصاله. لحظات ودارت عيناه في محجريهما قبل أن يخبو بريقهما تدريجيًا. احتضنته أمينة وصرخت في قائد المدرعة أن يتوقف، فاعتصر مكابحها في عنفٍ مثيرًا عاصفةً لا تهدأ من الأتربة والرمال حزنًا على روح على وشك الرحيل.

زاغت عيناه وفارت الدماء من فمه وانسابت في بطءٍ من شدقيه، فصرخت أمينة في لوعةٍ وهي تضمُّه إلى صدرها ودماؤه الدافئة تُلهب جسدها:

- لا لا لا.. لا يا إسماعيل!! ابقَ معي.. إسماعيل.. ابقَ معي أرجوك.. إسماعيييييييل!!

انزوت الصغيرة في مقعدها وقد هالها مشهد الدماء، فضمَّت ركبتيها إلى صدرها ودفنت بينهما وجهها، وقد أغلقت عينيها وسدت أذنيها بكَفَّيْها في قوة، تهرب من صرخاتِ لوعةٍ يتردد صداها مزلزلًا كيانها البريء. ارتفعت أبواب المدرعة إلى أعلى وهبَّ قائدها من مقعده يسارع إلى إسماعيل المُحتضَر، فسحبه إلى خارج السيارة مُمدًّا إياه على الأرض المسطحة ثم جثا على ركبتيه يتفقَّد إصابته، حاول النهوض كي يحضر الإسعافات اللازمة، فتشبث إسماعيل بذراعه يمنعه من النهوض؛ لقد أدرك أن أجَله قد حان، ففتح شفتيه في وَهَنٍ محاولًا الحديث فلم يتجاوز الصوت حنجرته، وخرج على هيئة همهمات وسعال مختلط بالدماء.

جاهد إسماعيل محاولًا بلوغ جيب بذلته الداخلي، فعجز، حاول مجددًا فانهارت يده إلى جواره والدماء تواصل تدفقها من فمه. عقد قائد المدرعة حاجبيه، ثم مدَّ يدَه إلى جيب البذلة الداخلي حيث أراد إسماعيل، فأخرج منه صورة فوتوغرافية لطَّختها الدماء ومعها قطعة بلاستيكية صغيرة سوداء. حدَّق في القطعة البلاستيكية السوداء وتلك الصورة في ذهول، ثم نظر في عَينَيْ إسماعيل الزائغتين بنظرةٍ يمتزج فيها التساؤل بالشفقة، فجذبه الأخير إليه هامسًا في أذنه بصوتٍ واهنٍ جاهَد كي يخرج مفهومًا:

- النهاية هنا.. والنجاة هنا.. أعطها له، إنه.....

قطع جملته حين داهمته نوبةُ سعالٍ أخيرةٌ قذفت المزيد من الدماء القانية.. ثم انطفأ بريق عينيه.. غادرت روحه جسده لتصعد إلى بارئها.. فصرخت أمينة بملء صدرها، أطلقت صرخةً بلغت أقاصي الواحة الخالية.

جزَّ قائد المدرعة على أسنانه، وأطرق في أسى وهو يغمض عَينَيْ الرجل. انهارت أمينة على صدر زوجها تحتضنه في لوعةٍ قبل أن تدخل في نوباتٍ من الصراخ والعويل، تختلط فيها دموعها بدمائه الطازَجة. وقف قائد المدرعة وضرب براحته صفائح سيارته القاتمة في غضب، نظر إلى ما أعطاه إسماعيل إيَّاه ثم أطبق أصابعه عليهما في قوة ووضعهما في جيبه قبل أن يُقَطِّبَ جبينه مُتوعِّدًا مقاتلي «نُدْفَة الثلج» بعقابٍ أليم.

أدار بصره في أسى بين الطفلة المذعورة والزوجة الملتاعة، قبل أن يرتجَّ المكان بوميضٍ أبيض ساطعٍ وانفجارٍ مكتوم تندفع من داخله سيارة قوية أشبه بسيارات «همر» (Hummer) أو «المطرقة» المميزة للجيش الأمريكي بلونها الأصفر الصحراوي، وإن كانت هذه أكثر قوةً وتطورًا. اندفعت السيارة الصفراء بأقصى سرعتها نحو المدرعة السوداء، فارتطمت بها في قوة لتدفعها عدة أمتار لتنقلب في

الصحراء الرملية المحيطة. تناثرت شظايا صفائحها القوية التي لم تصمد أمام «مطرقة» ندفة الثلج المستقبلية شديدة الصلابة.

طار الرجل جانبًا وارتطمت جبهته بالأرض الرملية وسالت الدماء من عينه اليسرى بعد أن اخترقتها إحدى شظايا الارتطام. صرخت أمينة وقفزت مسرعةً إلى ابنتها التي طارت خارج السيارة وغاص جسدها الغَضُّ في الرمال الباردة، سحبتها أمينة بعيدًا خلف جسم المدرعة المقلوبة تحتميان معًا بجسدها المصفَّح.

توقفت «المطرقة» الصفراء وقفز خارجها ثلاثةٌ من مقاتلي «ندفة الثلج» بزيِّهم الأسود وشارتهم الزرقاء المميزة. صوَّب أحدهم سلاحه الآليّ نحو أمينة وابنتها مُطْلِقًا عليهما دفعات متعاقبة من الطلقات التي ارتطمت بجسد السيارة المصفح. احتضنت ابنتها في قوة، ثم سحبت بيُسراها سلاحًا آليًّا سقط إلى جوارها فأطلقت منه نيرانًا كثيفة على المقاتلين، قبل أن تنتزع من شعرها جهازين صغيرين متماثلين، أشبه بدبوس الشعر بعموده الرفيع الطويل ذي الطرف المدبَّب، غرست أحدهما في ساق ابنتها التي صرخت في رعب والآخر في ساقها هي. وضعت السلاح جانبًا لتضغط بكلتا يديها كرةً سوداء دَكْنَاء في منتصفِ كُلٍّ من

الجهازين. احتضنت أمينة طفلتها وغطتها بجسدها، حين ومض الجهازان وسطعا بضوء أبيض مبهر أغشى العيون، في اللحظة ذاتها التي التفَّ حول السيارة أحد المقاتلين مُطلِقًا دفعة جديدة من الطلقات. التهم الضوء الساطع المرأة وصغيرتها قبل أن يدوي الانفجار المصاحب المكتوم الذي ارتجَّت له رمال الصحراء.

خلع مقاتلو «ندفة الثلج» نظارات الرؤية الليلية، وتسمَّروا في أماكنهم يتطلَّعون في سخطٍ إلى موضع الانفجار والرمال الملتهبة، ذلك الموضع الذي كان يحتضن منذ لحظاتٍ طفلةً بريئةً وزوجةً ملتاعة.

نفض قائد المجموعة الأربعيني مصري الملامح عنه الذهول وتفقَّد جثة إسماعيل، ذلك الرجل الذي التقاه في قيلَّته منذ خمس سنوات كاملة حافلة بالنسبة إليه، وخمس دقائق فقط بالنسبة إلى القتيل. مَطَّ الأربعيني شفتيه وهو يتقدم نحو قائد المدرعة السوداء المحطمة، الذي كان يتأوَّه وقد فُقئت عينه اليسرى، وعمود من المعدن ينغرس حتى منتصفه في ساقه اليمنى، حاول الأخير أن يزحف باحثًا عن سلاحٍ يدافع به عن نفسه فعاجله الأربعيني بركلةٍ قويةٍ في فكِّه كادت أن تودي بوعيه.

لحظات وجاءت سيارة كبيرة صفراء مشابهة، توقفت

مثيرةً عاصفةً ترابية، ثم ترجَّل منها «ستيفان» أحد المقاتلين المكلفين من تانيا بمهمة محددة، وسحب من سيارته سيدة في منتصف العشرينات من عمرها وطفلتها الرضيعة التي لا يتعدى عمرها تسعة الأشهر.

سحب ستيفان السيدة من شعرها والدماء تسيل من ثقب في بطنها. صرخت في لوعة طغت على إحساسها بالألم والاحتضار حين لمحت زوجها المُمدَّ أرضًا فاقدًا عينه اليسرى، أطلقت صرخةً بها مزيجٌ من اللوعة والتَّوسُّل والاستغاثة والرجاء. تحامل زوجها على نفسه محاولًا النهوض، فعاجَله القائد الأربعيني بركلةٍ أخرى في بطنه تأوَّه لها، ثم قال في توسل:

- لااا.. إلا زوجتي وابنتي.. ابنتي لا، ابنتي لا!

ترك ستيفان السيدة تُحتضَر ثم مد يده إلى قائده المصري الأربعيني بصورةٍ ملطخةٍ بالدماء للفتاة الرضيعة وهي تتوسط والديها. والدتها التي تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة، ووالدها الذي فقد عينه وفي الطريق لفقدان حياته. صورة قد زيَّنها ستيفان بعلامة «X» حمراء كبيرة بارزة، حُكم إعدام نهائي لا يقبل الاستئناف. تناول القائد الصورة، تأملها للحظات قبل أن يرفع عينيه إلى ستيفان الذي سأله في نبرةٍ حاسمة:

- لقد أمرت تانيا بإعدام العائلة بأكملها هنا والآن! هل تأمر بالتنفيذ يا أحمد؟

عقد أحمد سالم، القائد المصري الأربعيني، حاجبيه وأطرق مفكرًا للحظاتٍ وهو يتطلّع إلى الصورة بين يديه والطفلة التي بين يدَيْ رجاله. تحسَّس جيب سرواله، ثم ضاقت حَدَقتاهُ وهو ينظر إلى الرجل المُسجَّى أمامه، والذي واصل محاولاته اليائسة للنهوض والذَّوْد عن ابنته قبل أن ينهار جسده تمامًا، فصرخ في استسلامٍ ورجاء:

- ابنتي لا.

عقد أحمد حاجبيه في شدة ثم حسم أمره، فاستلَّ مسدسًا من حزامه وصوَّبه إلى الرجل وأطلق عليه طلقتين متتابعتين، ساد بعدهما الصمت إلا من صريخ الرضيعة.

نظر أحمد إلى عَينَيْ ستيفان مباشرة قائـلًا في صرامة:

- سأتولى بنفسي أمر الرضيعة كذلك.

ثم أمر الرجل الممسك بالرضيعة أن يتبعه إلى السيارة الأولى، وأن ينطلق الآخرون بالسيارة الثانية قبل وصول القوات البريطانية.

لحظات قليلة ودوَّى انفجاران متتابعان سبقهما ضوءٌ أبيض

ساطع، ثم اختفت المطارق الصفراء ومقاتلوها.

خَيّم السكون على المكان إلا من صفير رياح غاضبة تحمل ذَّرات الرمال في دوّامات تترنح.

رمال اختلطت بدماء رجلين وامرأة كفَّنهم القمر بضوئه البارد.

***

000010

2:23 ظهرًا.. المستشفى العسكري البريطاني

اتسعت عينا يحيى وهو يشاهد ما تبثُّه «فريدة» على الحائط المواجه للفراش، مشاهد متفرقة لمجموعات ثلاثية من رجال مُتَّشحين بالسواد ومُدجَّجين بالسلاح يجوبون أروقة المستشفى العسكري البريطاني، وينتشرون في ساحاته يسدُّون أبوابه ومخارجه، ثم عقد حاجبيه في غضبٍ وقد لاحظ رمز «ندفة الثلج» يزين ملابسهم المُقبِضة، ذلك الرمز الذي أدركه في المجموعة التي هاجمت منزله في واقعه الحقيقي، فنظر إلى سارة هاتفًا وهو يشير إليهم بسبَّابةٍ ترتجفُ من فرط الغضب:

- هؤلاء هم من قتلوا ولدينا يا رانيا.

رمقه خالد بنظرةٍ متوترةٍ قبل أن ينقل بصره بين سارة والمشاهد الحيَّة لأروقة المستشفى، فعقد حاجبيه مفكرًا وهمَّ أن يسأل «فريدة» عن هؤلاء المقتَحِمين، وكيفية دخولهم إلى المستشفى الواقع بإحدى الثكنات العسكرية المُؤمَّنة، لولا أن منعه صوت باب الغرفة وهو يُفتَح بهسيسه المميز، فأجفل ثلاثتهم قبل أن يدلف أيمن الطبيب المسئول عن حالة يحيى، دلف إلى الغرفة مهرولًا وعلى وجهه علامات الجزع وهو يهتف قائـلًا:

- لا بد أن نترك المستشفى في الحال.. الجميع في خطر.

- كيف دخلتَ هنا؟ چنرال برادشو وضع حراسة مشددة على يحيى.. نحن في وسط عملية استجواب من الفئة الأولى؟ كيف فُتح الباب دون تصريح مباشر مني؟

صاح خالد في غضب موجهًا حديثه إلى أيمن الذي وقف في منتصف الغرفة يجاهد لالتقاط أنفاسه، قبل أن يُجيبه لاهثًا:

- انسحب الحراس من المستشفى بكامله.. لا يوجد جندي واحد داخل المستشفى ومحيطه.

اتسعت عيون الجميع في ذهول، عاودوا الالتفات إلى الصورة الحية يتحققون مما قاله أيمن، قبل أن يصرخ خالد

في غضب هادر:

- فريدة.. ماذا يحدث؟

أجابت فريدة بنبرتها الهادئة التي لا تتغير:

- بالفعل لقد تم سحب الجنود من المستشفى ومحيطه.. الأوامر الصادرة محجوبة، لا يمكن الوصول إلى منبعها.. كما تم حذف بروتوكول تأمين الأبواب.. جميع الأبواب قابلة للفتح دون تأشيرات أمنية.

تعالت الأنفاس، وتسارَعت النبضات، وسرى التَّوَتُّر في العروق، فاتسعت الأعين، وعجزت الألسنة عن التعقيب، قبل أن يقطع الصمتَ رنينٌ خافتٌ أشبه برنين الهاتف، هاتف يعاود الرنين في إصرار، فكلما حاولت سارة إسكاته عاودت والدتها الاتصال في إصرار واضح، فغمغمت: «ليس هذا وقته يا أمي»، ثم التفتت إلى خالد في توتر، فهتف الأخير في صرامة:

- فريدة.. أنا آمرك أن تعيدي تطبيق بروتوكولات التأمين.. وأن تغلقي الأبواب كافة.

- أعتذر منك سيدي.. ولكنك لا تمتلك تلك الصلاحيات.. الأوامر الصادرة لا يمكنك إبطالها أو تجاوزها.

- تبًا.. إذًا اتصلي بالـچنرال برادشو حالًا.

- عفوًا سيدي.. الاتصالات بسلسلة القيادة قد تم حظرُها هي الأخرى.

التقى حاجِبا خالد في غضب، وقد اضطرب عقله عاجزًا عن إدراك سبب المصيدة التي أطبقت عليهم، تلك المصيدة التي أحكمها مخططُهَا من أجل قتل يحيى.. والتضحية بهم جميعًا إذا لزم الأمر.. أو ربما من أجل الظَّفَر به وتسليمه إلى جهةٍ أخرى، جهة أيقنت خطورة وجود يحيى بين أيادٍ مُعادية.. يحيى الذي هوَى قلبه بين قدميه ليس خوفًا على حياته بل خوفًا على سارة، أو رانيا؛ خوفًا على زوجته من أن تلقَى مصيرًا داميًا كالذي لاقته منذ أسبوعين في واقعٍ آخر.. لقد عقد العزم على أن يحميَها وطفليهما ولو كلفه ذلك حياته.. رفع بصره إليها في جزع، وتأملها، تأمل قوتها وقد حافظت على رباطة جأشها وعقلها يعمل في قوةٍ وسرعةٍ لإيجادِ حل، إيجاد وسيلة للهرب من المصيدة..

خَيَّم صمت العجز فوق رؤوسهم جميعًا، وهم يتابعون المقاتلين يجتازون الأروقة، يصعدون الطوابق، ويتقدمون بلا هوادة. الأمل في الهروب يتضاءل، بل الأمل في الحياة ذاتها يَذبُل.. ثم قطعت فريدة الصمت حين قالت في هدوء:

- سارة.. لو كنت مكانكِ لأمرتُ بغلق الأبواب المؤدية إلى

الطابق الحالي، وفتح طريق واحد إلى سطح المبنى، ثم استدعاء طائرة ذاتية القيادة تنقلكم إلى بقعةٍ أخرى من الأرض.

اتسعت عينا سارة وهي تقول في دهشة:

- لكنكِ قلتِ للتوِّ إنه لا يمكن لأحد تجاوز الأوامر الحالية.

- نعم لا يمكن لأحدٍ تجاوزها.. لكن بالتأكيد يمكن لأحد أعضاء مجموعة «ألفا» السابقين الولوج إلى إعدادات النظام وتغيير صلاحيات القيادة لأحدكما.. عندها لن يسعني سوى الانصياع الكامل للأوامر الجديدة.

اتسعت عيون الجميع في دهشة، فيما لمعت عينا سارة وقد أدركت ما تعنيه فريدة، فالتفتت إلى أيمن قائلةً في لهفة:

- أعطني الـ Access Tab الخاص بنظام متابعة المرضى المُعزَّز.

انتزعَه سؤالها من ذهوله، فبحث الطبيب في جيوب معطفه الطبي في سرعة، ليُخرج منه حاسوبًا لوحيًّا شفافًا صغير الحجم، مد به يده إلى سارة في سرعة يناولها إيَّاه، فاختطفته في لهفة، وشرعت تضغط بأصابعها سطح اللوح الشفاف في سرعةٍ وتتابُعٍ مُتقنٍ وهي تقول في حماس:

- منذ ثلاث سنوات كنتُ عضوةً في مجموعة «ألفا»، المجموعة المسئولة عن تطوير خُوارزميّات التأمين الخاصة بفريدة.. وبصفتي عضوًا في «ألفا» لديّ صلاحيات إدارة النظام وإضافة وتعديل المستخدمين من الناحية الأمنية.. شكرًا يا فريدة!

تهللت أسارير يحيى، وارتسمت ابتسامة ثقة على شفتيه، هو وحده يعلم قدرات زوجته، حتى وإن لم يتزوجها بعد لكنه يدرك قدراتها الذهنية والعملية الفائقة، التي لم ولن تفقدها أيًّا كان عمرها أو واقعها الذي تعيش فيه.. غرق يحيى في غبطته وثقته في زوجته المستقبلية، في حين حدَّق خالد في وجهها في ذهول، هو رئيسها في العمل وصديقها كذلك ولم يكن على علم بأنها كانت أحد أعضاء المجموعة «ألفا»، طبقة الـ Elite العلمي والتقني، تلك المجموعة فائقة السرية، المجموعة التي يعدُّ هُوَّية أعضائها أحد أسرار الإمبراطورية العظمى، فهم المسئولون عن «فريدة»، عصب الدولة، عصب الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، «فريدة» النظام فائق القدرة الذي يربط مفاصل الدولة كافةً بنواحيها العلمية والأمنية والإدارية....

- تبًّا!!!!

قطعت صرختُها الحانقةُ أفكارَه الذاهلة، فأجفل، والتفت

إليها متسائلًا، فأردفت في توتر:

- كلمة السر لا تعمل، شخص ما أوقف حسابي.. كأحد أفراد الفئة «أ» في ألفا، يبقى حسابي مُفعَّلًا مدى الحياة إلا بقرار إداري داخلي أُخطر به رسميًا وبصورة فورية.. من الواضح أن وجود يحيى قد استثار بعض ذوي النفوذ.

قالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إلى يحيى الذي كسا الإحباط ملامحه، قبل أن يرتفع ذلك الرنين الخافت الشبيه برنين الهاتف من جديد، فألقت سارة نظرةً خاطفةً على ساعتها حيث والدتها تعاود الاتصال في إصرار، فتجاهلتها وهي تحدّق في الصورة الحيَّة لإحدى المجموعات تجتاز الباب الرئيس لطابقهم، بدأ الخوف يجد طريقه إليها قبل أن تقاطعها فريدة قائلة:

- لقد قام أحدهم بإزالة الحظر عن حسابك بشكل مؤقت.. أمامك دقيقة واحدة فقط قبل أن يتم الحظر من جديد.

اتسعت عيناها في دهشة، ولكنها نفضتها سريعًا، فليس الآن وقت معرفة هُويَّة مَن يساعدها ومن يحظُرُها، فشرعت تعمل على اللوح، حين عقد خالد حاجبيه قائلًا في حزم:

- استمري يا سارة فيما تفعلين، وأنا سأحاول تعطيلهم.. فلنتقابل على سطح المستشفى.. استدعي طائرة ذاتية فئة

Z17. ثم التفت إلى أيمن قائلًا: «جهِّز يحيى واسبق به إلى السطح».

غادر خالد الغرفة مسرعًا وهو يستلُّ مسدسه المتطور، في حين أخذ أيمن ينزع الأنبوب الوريدي وباقي أنابيب التغذية والإخراج التي كانت تحافظ على يحيى وأجهزته الحيوية طيلة فترة الغيبوبة، تأوَّه يحيى في ألمٍ وهو يحاول النهوض بمساعدة أيمن. تناهى إلى مسامعهم صوت طلقات سريعة متبادلة، تجاهلتها سارة وهي تعمل في سرعةٍ قبل أن يُصدر الجهاز اللوحي طنينًا مميزًا وتظهر على شاشته عبارة حمراء كبيرة، تفيد بأن حسابها قد تم حظره من جديد.

اتسعت عيناها في جزعٍ قبل أن تقاطعها فريدة معلنةً أن عملية ترقية الصلاحيات قد تمت بنجاح، فتهلَّلت أساريرها، وتنفَّست الصُّعَدَاء، وأمرت فريدة باستدعاء طائرة ذاتية فئة Z17، وغلق جميع الأبواب المؤدية إلى سطح المستشفى فيما عدا طريق واحد يسمح لهم بالوصول الآمن إلى السطح.

انطلق ثلاثتهم في خُطَى سريعة بقدر ما يحتمل يحيى وهو يستند إلى أيمن الذي واصل التقدم في إصرار، حتى بلغوا سطح المستشفى، في اللحظة ذاتها التي اقترَبت طائرة، شبه مستديرة، مضادَّة للجاذبية، ذات لون أسود قاتم لا يعكس الضوء أو الموجات بأنواعها، فاقترَبت من المبنى

وانخفضت بصورةٍ عموديةٍ حتى استقرت على سطحه وانفتح بابُها.

دلف ثلاثتهم إلى داخل الطائرة في سرعةٍ وهم ينظرون إلى مدخل السطح في ترقُّب، في انتظار خالد، وصوت «فريدة» يخرج من المذياع الداخلي للطائرة يُنذرهم من اقتراب الخطر وعدم تمكُّن الأبواب الداخلية من الصمود أمام أسلحة المهاجمين المتطورة. استلَّت سارة سلاحها، صوَّبته باتجاه باب السطح في توتر وقد تناهَى إلى مسامعها صوتُ انفجارٍ تلاه صوتُ سقوطِ أحد الأبواب، فقالت فريدة:

- سارة، ستحلق الطائرة الآن.. سلامتك تأتي أولًا.. قواعد «ألفا» الأمنية تُحتِّم ذلك.

صرَخَت سارة تأمرها بالانتظار، فتجاهلتها «فريدة» وبدأت بتلاوة خطوات التحليق، قبل أن يظهر خالد على باب السطح يعدو باتجاه الطائرة التي أوشك بابها على الإغلاق والتحليق، فصرخت فيها سارة من جديد لتنتظر بضعَ ثوانٍ إضافية.. فاستجابت فريدة.. وصول خالد إلى السطح في تلك اللحظة ونجاته من الطلقات التي صوبت تجاهه قبلها بلحظات قد غيرت الوضع.. لقد نجا.. ووجوده إلى جوارهم الآن يزيد من فرصة نجاة المجموعة بأكملها، ذلك ما أدركه نظامها فائق الذكاء بعد مقارنة سيناريوهات النجاة المختلفة، فأضافت

بهدوئها المُطمئِن:

- في انتظار المقدم خالد.. ولكن عليك إطلاق النار بكثافة في منتصف الباب لمنع المهاجمين من اللحاق به.. الآن.

نفَّذَت سارة اقتراح فريدة، فأطلقت نيرانًا كثيفةً حالت دون وصول مهاجميهم حتى بلغ خالد الطائرة وقفز بداخلها، فتابعت فريدة خطوات التحليق بإغلاق الباب ثم التحليق عموديًا في سرعةٍ، في محاولةٍ للابتعاد عن مرمى نيران مجموعة المقاتلين، الذين اقتحموا السطح يُمطرون الطائرة بطلقات نارية كادت أن تخترق حصونها، لولا أن حلقت بعيدًا في مساراتٍ متعرجة وقد بدأ سطحها القاتم في تغيير لونه، استحال سطحها إلى شاشة عملاقه حيث تعكس كل جهة الناحية المقابلة لها، فأصبحت كسطحٍ شفَّاف لا تدركه العين من تلك المسافة البعيدة.. فاختفت عن الأنظار.

وقف «يورجن» قائد المجموعة على سطح المستشفى، خفض سلاحه في غيظ، وقد ارتسمت علامات الحنق على وجهه الذي يخفيه قناع مضادّ للغازات، ثم قَطَّبَ جبينه وهو يتأمل الطائرة المتقدمة تحلق بعيدًا، فضغط زرًّا صغيرًا خلف أذنه اليمنى قائلًا بالألمانية:

- لقد هرب الهدف يا «هانز» بطائرة Z17 غير القابلة للرصد بالوسائل التقليدية.

صمت قليلًا يستمع إلى مُحدِّثه، قبل أن يردفَ في حزم:

- نعم، ليس أمامنا سوى حل من اثنين.. إما اللجوء إلى «فريدة» والقيادات المتعاونة معنا، أو... عقد حاجبيه مفكرًا للحظات ثم تابع: «أو استخدام جهاز تتبُّع بداخل الطائرة ذاتها».

أنهى جملته ثم أغلق الاتصال.

حافظ على حاجبيه في حالةِ انعقادٍ دائم، وقد تمكَّن منه الحنق..

لقد هرب الهدف من جديد..

لكنه على الأقل هرب منهم مكانيًّا وليس زمنيًّا هذه المرة..

دائمًا ما يسبقهم بخطوة واحدة..

خطوة واحدة فقط تفصلهم عن تحقيق غايتهم الأسمَى..

غايتهم التي أقسموا على تحقيقها مهما كانت التضحيات..

وسيُحقِّقها..

سيكسرون الدائرة..

سيكسرون دائرة الزمن حتى لو كانت روحه ذاتها هي الثمن..

***

000010

2:45 ظهرًا.. سماء القاهرة الأخرى

انطلقت الطائرة Z17 ذاتية القيادة في سماء القاهرة، تَقِلُّ ثنائي الأمن الداخلي المقدم خالد صبري، الضابط الصارم الذي لا يزال عقله يرتجُّ عاجزًا عن استيعاب تطور الأحداث خلال الساعات القليلة الماضية، ومُساعِدته الملازم سارة، زميلته وصديقته الذي اكتشَفَ لتَوِّه أنها أحد أعضاء المجموعة «ألفا» الرفيعة شديدة السرية، أشد أسرار الإمبراطورية خطورة، المجموعة التي طورت المكوِّن فائق الذكاء وكذلك المكون الأمني في «فريدة»، ويجلس خلفهم يحيى، المريض الذي يئنُّ جسده من آلام حادثة فقد فيها وعيه وأسرته، بينما يصرخ عقله بتفسيرات جنونية عن واقع بديل وخطوط زمنية متفرعة انتقل عبرها قسرًا، صراخ بلغ مسامع طبيبه الشاب أيمن، أول من أنذر ثلاثتهم باستيلاء فرق «ندفة الثلج» الرهيبة على المستشفى الذي خلا من حُراسه وقُطِعَ عنه اتصالاته، الطبيب الذي يبدو أنه انحاز إلى مريضه وتبنَّى موقفه. اختفت الطائرة عن الأنظار باستخدام تكنولوچيا الألياف البصرية الناقلة، والتي تعكس الصور المتقابلة بما يجعلها تبدو غير مرئية بالأساليب التقليدية،

الطائرة التي يتميز طلاؤها بامتصاص الموجات الصوتية ومعظم الموجات الكهرومغناطيسية؛ ليخفيَها عن الرادارات وأجهزة الرصد المتطورة التي تعجُّ بها سماء وأرض ذلك الواقع الأليم.

تنفس أربعتُهم الصُّعَدَاء بعد نجاحهم في الهروب في اللحظات الأخيرة، وتبادلوا ابتسامات خاطفة ثم نظرات وتعبيرات متعاقبة من الذهول، فالتَّوَتُّر، ثم الوجوم الذي قطعه أيمن حين غمغم:

- إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

اتسعت عيونهم في توتر، وتبادلوا نظرات متسائلة حائرة، حتى قالت فريدة في هدوء:

- ملازم سارة.. والدتك ترغب في التحدث إليك الآن.. سيتم إجراء الاتصال.

رَفعث سارة حاجبيها في دهشة، وهمَّت أن تنهَى فريدة عن إتمام الاتصال بحجة أن الظرف لا يسمح، لولا أن خرج صوت والدتها من مذياع الطائرة، صوت هادئ رتيب، وهي تقول:

- حمدًا لله على سلامتكم جميعًا.. أحسنتِ يا سارة.. لقد كنتُ واثقة من أنكِ ستحسنين استغلال ثغرات النظام.

تضاعفت دهشة سارة، فهتفت:

- أنتِ من رفع الحظر عن حسابي؟ لكن كيف؟

تجاهلت السيدة أسئلة ابنتها الذاهلة، وأردفت بنفس النبرة والوتيرة:

- الآن لا يمكن لأحدكم العودة إلى منزله.. مؤقتًا على الأقل.. أرسلت إلى «فريدة» إحداثيات منزلنا الآمن على حدود مدينة «الغردقة» القديمة.. المنزل مجهز بغرفة عناية مُركَّزة صغيرة بها جهاز التعافي المتسارع ARD.. أعتقد أنه كافٍ من أجل استشفاء يحيى.. المشكلة حاليًّا أن......

قاطعها أيمن صائحًا:

- الغردقة القديمة! إنها قلب المنطقة المُشعة!!!

خَيَّم الوجوم على الجميع، وحافظت الأعين الذاهلة على اتساعها، والألسنة على انعقادها، حتى هتف خالد مستنكرًا:

- يجب أن أعود إلى المنزل.. لن أترك ابنتي وزوجتي وحدهما.

تجاهلت والدة سارة التعقيبات مجددًا بما ضاعف الإحساس العام بالخطر والتَّوَتُّر، فواصلت حديثها قائلةً:

- الأمر شارَف على النهاية.. الوضع أخطر مما تتخيلون..

نجاتكم قد تشكل فارقًا.

حصدت جملتها الأخيرة اهتمامهم وتوترهم، وانعكست من خلال نظرات ترقُّبهم الواضحة، فأردفت:

- يجب الآن التركيز على النجاة والهرب.. الوصول إلى المنطقة المشعَّة هو الأمل الأخير.. فعلى الرغم من أن أجهزة الرصد لا يمكنها رصد الطائرات من طراز Z17.. فإنه يمكن تتبُّعها من خلال «فريدة» عبر صلاحيات النظام المتقدمة.. أنا أحاول، وقد نجحت بالفعل في منع التحكُّم بها عن بُعد، لكن الأهم هو منع تتبُّعها.. محاولاتي لن تصمد كثيرًا أمام إصرارهم.. لا بد من الصمود حتى الوصول إلى المنطقة المشعة.

لم يُعقِّب أحدهم حيث طغى القلق.. والخوف.. فواصلت:

- عند بلوغ المنطقة المشعَّة، ستقوم فريدة بغلق أجهزة الملاحة، فيستحيل تعقُّب الطائرة أو تتبعها.. ثم تتولى هي القيادة باستخدام الـ Safe Mode غير المتصل بالشبكة الفضائية.. عندها فقط ستكونون في أمان.. فاصمدوا، فما هي إلا دقائق معدودة ونصل إلى المنطقة الآمنة.. الآن علينا فقط الصمود.....

قاطعها أزيز خافت يصدر من الطائرة، أزيز أخذ يرتفع

بصورة تدريجيَّة، فعقَّبت والدة سارة قائلةً:

- آسفة يا سارة.. لقد فشلت محاولاتي.. لقد تم رصْدُكم بالفعل.. ستطاردكم طائرات V3 المقاتلة.. يبدو أنني قد خذلتكِ مجددًا.

هوت القلوب، وتسمَّرت الأبدان، وسيطر اليأس على العقول.. جاهد يحيى ليُبقي عينيه مفتوحتين، وقد صرعَت الآلام المتفرقة غريزة البقاء لديه، فاستسلم جسده.. حاول أن يصرخ أو يصيح، لكنه عجز.. عجز حتى عن إنذار سارة حين لمح «أيمن» وقد انتحى جانبًا مُخرِجًا جهازًا صغيرًا من جيب معطفه، ضغط أزراره في سرعة وبيدٍ واحدة ليخفيَه عن الأنظار.. حاول يحيى إنذارها مجددًا، ولكن زاغت العينان وانتصر السواد، وغشَّى عينيه.. ثم فقد الوعي..

- أرجو الاستسلام والهبوط بالطائرة الآن.

دوَّى في أرجاء الطائرة صوت صارم بالإنجليزية ينذرهم.. فلم يستجيبوا، فأعاد الإنذار مجددًا، وظهرت في الأفق ثلاث طائرات على شكل حرف V الإنجليزي، قبل أن يدوي الصوت بصورة أكثر صرامة:

- الإنذار الأخير.. إما استسلام غير مشـروط وهبوط فوري.. أو إفناء الطائرة بصواريخ التردُّدات المتماثلة الفائقة.

عقدت سارة حاجبيها في غضب وشرعت تركض في أرجاء عقلها بحثًا عن مخرَج، لكنها ارتدَّت خائبة.. فأدارت نظرها بحثًا عن أمل في عَينَيْ خالد، فوجدته يائسًا وقد تيبست أطرافه وهو يحدِّق في شاشة الطائرة التي تتوسطها عبارة كبيرة باللون الأحمر المَهِيب: «إنذار! الطائرة في مرمى صواريخ EUF».. اتسعت عيناها في رعب وهي تحدِّق في العبارة ذاتها مع دوِيّ صَفَّارات الإنذار يصمُّ آذانهم، فارتخت عضلاتها مستسلمةً وهي ترى يحيى فاقدًا الوعي خلفها، فيما عقد أيمن حاجبيه، وضاقت عيناه في توتر، وهو يتأمل جهازًا صغيرًا في يده.. لم تُعِرْه اهتمامًا، فقد كانت تبحث في فرص النجاة المتاحة، إن وُجدت.

همَّت بإعلان الاستسلام والهبوط بالطائرة، فلا سبيل آخر للنجاة، هذا إن كانت نية مهاجميهم هي إلقاء القبض عليهم دون قتلهم، بل دون إفنائهم بصواريخ EUF الرهيبة، ففتحت شفتيها لتعلن الاستسلام.....

ثم دوَّى صوت تعلمه جيدًا..

صوت إطلاق صواريخ من مدافع دقيقة..

ثم صوت أزيزها وهي تخترق الهواء نحو هدفها..

صوت الأزيز المخيف الذي تتوقف من هوله القلوب..

ثلاثة صواريخ انطلقت نحو أهدافها..

فأغمضت عينيها..

واستسلمت..

ثم دوَّت الانفجارات الثلاثة..

دوت على مقربة من هدفها فأصدرت موجاتٍ فائقةَ التردد..

تردُّدات تتماثل وترددات جزيئات هدفها..

فاستحال الهدف إلى ذرَّات متباعدة..

تلاشى الهدف..

أُفْنِيَ تمامًا..

كأنما انتقل إلى العدم..

***

000011

7:15 مساءً.. مصر الجديدة أخرى..

سعل شريف في وَهَن وهو ممدَّد على الأرض إلى جوار سرير ابنته والدماء تقطر من جرح كتفه اليُمنى. تحامل على

جسده الذي يئنُّ من فرط الألم والإعياء، تجاهل صرخات عضلاته التي لا تقوَى على حمله، فخفقات قلبه المتتالية خوفًا عليها منحته دفعات إضافية من الطاقة، بل دُفعة طاقة أخيرة يستجدي بها نظرة واحدة إلى سلمى، ابنته التي وُهِبَت إليه، وتعلق بها، وكاد أن يفقدها في اليوم ذاته، فاستند بيده إلى طرف سريرها الصغير يجاهد للوقوف. والتقت أعينهما، عيناه الملهوفة وعينا سلمى البريئة تنظر إليه.. فاطمأنَّ عليها.. بل طمأنته هي على نفسها بوجهها الباسم، وحركات يديها العفوية وكأنها تُرَبِّت على فؤاده.. فسرى الخدَر في ساقَيْه، نفدت طاقة الخوف وحل محلها استرخاء السَّكِينَة، فاستسلم وتهاوى جسده، تهاوى إلى جوار مهاجميه الذين كست دماؤهم طابقَي منزله، مقاتلين كادوا أن يسلبوه روح ابنته بسبب خطايا اقترفها لا يعلم عن دوافعها شيئًا.

هُرعت مايا إلى سلمى تغطي وجهها بقناع الغاز الذي تجاوز رأسها الصغير لتحميَها من سُحب الغاز المتراكمة، حملتها وضمتها إليها، قبل أن تندفع ليلى إلى داخل الحجرة صارخةً في هلع: «سلمى!».

اختطفت ابنتها من بين ذراعَيْ مايا، مسحت جسدها بيدها وعيناها تتفقّدانها في لهفة، ثم تنفست الصُّعَدَاء وضمتها إلى

صدرها في حنان وقد تفجرت عيناها بدموع ساخنة، دموع ألهبتها مشاعرُ خوفٍ حاولت السيطرة عليها منذ الصباح، منذ أن لمحت في عَينَيْ زوجها نظرة لم تعهدها من قبل، نظرة كَشَفَت عن ماضٍ لا تعلم عنه شيئًا، ماضٍ قد يجهله هو أيضًا، ولكنه كاد أن يكلفها أعز ما تملك.

- يجب أن نغادر الآن!

هتفت مايا وهي تتفقّد المقاتلين الصرعى وتنتزع من أيديهم سُوارًا مشابهًا لذلك الذي عثر عليه شريف في الصندوق المعدني الصغير بخزانته، سوار يزدان بنقشِ «ندفة الثلج» الذي وجده شريف أينما نظر، رمز «ندفة الثلج» السداسي ذاته الذي يزين زيّ المقاتلين الأسود القاتم. تفحّصت السوار في سرعة قبل أن تغمسه في دم صاحبه الصريع وتضعه في حرص في جيب سترتها الواسعة. عاونت شريف على النهوض وهبوط الدَّرَج إلى الطابق الأرضي، تتبعهم ليلى الذاهلة حاملةً ابنتها الرضيعة.

تناهى إلى المسامع صوت متصاعد بعيد لصافرات سيارات الشرطة وهي تقطع الشوارع الخالية باتجاه الـڤـيلّا المنكوبة.

- أسْرِعا واخرُجا من الـڤـيلّا، وسألحق بكما!

قالتها في حزمٍ دون أن تنتظر ردًّا من شريف المستسلم أو

ليلى الملتاعة. خلَّفتهم وراءَها حين هرعت في سرعة إلى غرفة المكتب لتأتي بسوار شريف وتضعه داخل صندوقه الصغير المصنوع من الرَّصاص.

التقطت كذلك حافظة الأوراق الجلدية المهيبة، وغادرت الغرفة على عَجَلٍ دون أن تنتزع الأساور السوداء الباقية في أيدي ثلاثة من المقاتلين الصرعى بالدور الأرضي.

لحقت بهما إلى الخارج، ثم أرشدتهما إلى سيارتها السوداء ألمانية الصنع، فانطلقوا في سرعة مبتعدين عن أعين الجيران المتلصِّصة التي اختلط فيها الخوف بالفضول.

***

خَيَّم الصمت على السيارة وهي تقطع شوارع القاهرة إلى غربها، لم تتوقف عينا ليلى عن ذَرْف الدموع وهي تهز ابنتها الرضيعة علَّها تنام. حمدت الله أن ابنتها لا تدرك ما مرت به، لم تدرك أن أباها كاد أن يكلفها روحها، بل أرواحهم جميعًا.

حافظ شريف على صمته وهو يتابع الطريق في شرود. قطع شروده بنظراتٍ خاطفةٍ حانية على ابنته التي ترقد في حضن أمها إلى جواره في المقعد الخلفي للسيارة المسرعة، ثم ما لبث أن رمق مايا بنظرة خاوية وهو يسألها:

- مَنْ هؤلاء؟

صمتت مايا للحظةٍ عقدت فيها حاجبيها، ثم أجابته في اقتضابٍ بألمانية سليمة:

- فرسان الزمن.

- «مَنْ؟! ماذا تعني؟ وماذا يريدون؟» أجابها في دهشة وبالألمانية كذلك، وقد أدرك رغبتها في ألا تعي ليلى ما يقولان، بل لقد شعر بارتياح لتلك الفكرة علّه يقي ليلى الرقيقة شر صدمات جديدة.

- يريدون قتلك.. بل قتلكم جميعًا.

- لماذا؟! ومَنْ هم؟!

تَنهَّدت مايا في عمق، ثم نظرت في المرآة الأمامية إلى عَينَيْ شريف مباشرة، ثم أجابته في حسم:

- «هم مجموعة من المقاتلين يسافرون عبر الزمن لتنفيذ مَهامّ محددة.. مهام تتعلق بحماية مجرى الزمن.. حاولوا على مدار سنوات عديدة التَّوصُّل إليك ولكنهم فشلوا.» صمتت للحظةٍ ثم أضافت في نبرة غَلبها اللوم: «حتى أخرَجْتَ سوار الزمن من صندوق الرصاص وحاولت تشغيله.. تلك اللحظة أرشدتهم إليك.. تمكّنوا من تحديد موقعك الزمني.. ثم جاءوا لقتلك.. لولا أن جِئتك أنا أولًا».

اتسعت عيناه في ذهولٍ يحاول استيعاب ما سمعه لتوِّه. سرى التَّوَتُّر في جسد ليلى من حديثهما الذي لا تفقه منه شيئًا، تضاعَف توترها وتحول إلى خوف وهي ترى علامات الذهول ترتسم على وجه زوجها، فارتعشت شفتاها وهي تقول: «ماذا يحدث يا شريف؟».

رمقها شريف بنظرةٍ شاردةٍ وهو يُرَبِّت على ركبتها في هدوء، ثم أرجع بصره إلى مايا متمتمًا:

- لا أعتقد أنني أفهمك جيدًا! لماذا يريدون قتلي؟

- لأنهم أدركوا أنكَ أصبحتَ تمثل خطرًا داهمًا على مجرى الزمن.

- أنا؟!!!

- سأخبرك بكل شيء حين نصل إلى مكانٍ آمن.. اسْتَرِحِ الآن.

***

قادت مايا سيارتها حتى وصلت إلى ڤيلًا صغيرة في منطقة نائية بحي العجمي غرب الإسكندرية. ثلاث ساعات كاملةً لم ينبس أحدهم ببنت شفة، التزموا الصمت، كُلٌّ يسبح في عالمه الخاص بأفكاره وتساؤلاته وشواغله.. ومخاوفه..

ثلاث ساعات من القيادة لم يتوقفوا خلالها سوى دقائق معدودات حين ضمَّدت مايا جراح شريف الغائرة، وأرضعت ليلى ابنتها التي لم تقوَ على البكاء طيلة الرحلة، وكأنها تحترم خصوصية اللحظة، كأنها لمست اختلاج قلب أمها وما يعتمل في صدرها من خوفٍ يتجاوز الزمن.

شرعت مايا في إعداد طعام العشاء. الصمت الثقيل يخَيِّم على المكان لا يقطعه سوى صوت عقارب ساعة الحائط، نغمة رتيبة تتقاطع مع صوت أمواج البحر المتلاطمة. نغمات كئيبة متتالية أعانها ضوء المصباح الأصفر الصغير المتدلِّي من السقف على إضفاءِ جوٍّ عامٍّ من الرهبة وعدم الراحة على الجميع.

وقف شريف في شرفة الدور الأرضي للڤيلَّا، يتابع أمواج البحر القاتمة التي تضرب الشاطئ القريب بلا هوادة، أمواج متتابعة لا تكلُّ ولا تملُّ وكأنها في مهمة مقدسة للوصول إليه وابتلاعه. استرجع حديث مايا المقتضَب، وربطه بكل أحداث يومه، انقبض قلبه وهو يصارع دقاته المتسارعة مع كل تساؤل جديد يبرز في رأسه، أمواج عاتية من التساؤلات تضرب عقله في عنف. موج طغى صوته على صوت بحر الإسكندرية الهائج حتى كاد أن يصل إلى مسامع ليلى.

ليلى التي جلست على مقعد خشبي قريب من الشرفة

تراقب شريف في شرود، قلبها يصارع عقلها، قلبها الذي هامَ به حُبًّا، لا يهم من يكون، «شريف» الذي ارتبطت به وتزوجته، أم «أحمد» الذي لا تعلم من أمره شيئًا.. لا يهم.. إنها تحبه.. تحبه كما تحب ابنتهما، سلمى التي سيطرت على قلبها وعقلها. عقلها الذي خسر كل معاركه السابقة مع القلب، فتجاوز عن شكوكها طيلة السنوات الماضية، شكوك حول شخصية زوجها الحقيقية، تاريخه، أسرته التي لم تلتقِ مع أحد أفرادها، حذره الشديد، صمته، غرفة مكتبه المحرَّمة، ورحلاته القليلة التي كان دائمًا ما يعود منها منهكًا ليغطَّ في نومٍ عميقٍ لأيام عديدة تكاد تكون متواصلة..

كيف سمحت لقلبها أن يفوز؟ إنها تحبه.. لكن حبها له قد يكلفها حياة ابنتها.. بل ابنتهما..

«رَبَّاه.. ماذا عساي أن أفعل؟»، صرخ عقلها صرخة تردَّد صداها حتى كاد أن ينتزع مايا من شرودها هي الأخرى. مايا التي جاءت من زمن آخر، بل إنها لم تُولد بعد بحساب الزمن الحالي، استرجعت هي الأخرى تفاصيل الأيام القليلة الماضية، منذ أن بدأ سلوك شريف في التغيُّر والخروج عن المألوف، منذ أن أصبحت تصرفاته وتحركاته تهدد وجوده، بل وجود أسرته بأكملها، استرجعت كيف آثرت التدخل بطريقة غير مباشرة أكثر من مرة لحمايته من نفسه.. ولكنها

فشلت.. فشلت في مهمتها الوحيدة.

ضاقت حَدَقتاهَا عندما استرجعت اللحظة التي قررت فيها التدخل بصورة مباشرة، تلك اللحظة حين أخرج شريف سُوَار الزمن من مخبئه.. أخرج السوار وحاول تشغيله دون تطبيق بروتوكولات التأمين الزمني.. اللحظة التي انبعثت فيها الموجات الزمنية والتقطتها أجهزتها المتطورة فأدركت أنه هالكٌ لا مَحالَة. تلك اللحظة التي أحكم فيها المصيدة على نفسه وأصبح هو وأسرته فريسة سهلة لـ «فرسان الزمن».. المقاتلون الأشدَّاء الذين لن يثنيَ عزيمتَهم شيءٌ عن بلوغ غايتهم وتنفيذ مهمتهم المقدسة.. لكنها كذلك هي الأخرى، مقاتل شرس، لن يثنيَها شيءٌ عن مهمتها.. عن هدفها الذي نشأت عليه ولم تدرك سواه..

ولكن هل أخرج شريف السوار الزمني ليقوم بمهمة ثالثة وربما تكون الأخيرة؟ تلك المهمة التي أخفقت هي ومن معها في معرفة سابقيها..

ثلاث مهام غامضة في عملية كبرى أحاطها بالسرِّية..

خطة كبرى، وقفزات ثلاث تختلف عن قفزاته السابقة التي كان يقوم بها بصفته الجديدة.. بصفته التي استثارت «فرسان الزمن» وجعلتهم يطاردونه عبر الزمن.. صفة «المُؤرِّخ».

***

- العشاء جاهز.

قالتها مايا بعد أن أعدَّت الطعام ووضعته على المائدة الخشبية الصغيرة التي تتوسط الردهة، فجلس ثلاثتهم حولها وكلٌّ غارقٌ في شروده. ساد الصمت الثقيل يقطعه الصوتُ المميز لضربات سكاكين الطعام على الأطباق الصينية، لم يشفع للطعام كونه طيب المذاق، فقد تناول شريف وليلى لُقَيْماتٍ صغيرة أشبعتهما، في حين تابعتهما مايا وهي تدرك ما يجول بخاطرهما من أفكار وتساؤلات عديدة تبحث عن إجابات.

التقت أعينهما، فأطال النظر إليها، ثم تَنهَّد في أسى وسألها بالألمانية:

- لماذا أنا؟

تفرَّست مايا ملامحه وقد رأت اليأس والتخبُّط قد كَسَوَا ملامحه، فأجابته:

- أنت شخصيًّا كنت أحدَهم.. أحد أفراد جماعة فرسان الزمن.. ثم انقلبت عليهم.. وهربت.

- أنا؟! أحدهم؟! كيف؟ ولماذا؟!

- «لا أدري.. لكنك بدأت تسلك طريقًا محرَّمًا بالنسبة إليهم.. رحلاتك الزمنية وأفعالك الغامضة منذ عدة سنوات تتعارض وميثاق الجماعة والمستقبل الذي أقسمتم على حمايته». صمتت قليلًا ليلتقط أنفاسه بعد أن لمحت الدماء تنحسر عن وجهه واستحال لونه إلى الأبيض، ثم أردفت: «أحمد.. حتى هروبك في حدِّ ذاته أصبح يهدد الزمن كما نعرفه».

وقعت كلماتها على أذنيه كوَابلٍ من ماءٍ بارد أَخْمَدَ ما تبقى بداخله من فورة غضب تتَّقد تحت ركام اليأس، فتهدَّجت أنفاسه وتسارعت ضربات قلبه وهو يقول في استسلام:

- إذًا أنا حقًّا من غيَّر الزمن.. ولكن لماذا؟ تغيير الزمن قد قتل أمي.. أمي لن تُولد بسببي.. لقد التقيتُ بوالدي، هو لم يتزوجها لأنها لم تُولد من الأصل.. لماذا أفعل ذلك؟ ثم كيف أكون حيًّا الآن وأنا لم ولن أُولَد.

أطرق قليلًا ثم عقد حاجبيه وهو ينظر إلى مايا قائلًا في تعجب:

- أتلك هي «مفارقة الجدّ» الشهيرة في مسألة السفر عبر الزمن؟ رجل سافر عبر الزمن إلى الماضي وقتل جَدَّه قبل أن تُولَد أمُّه.. إذًا كيف وُلد هو في الأصل ليعود بالزمن لاحقًا لقتل جده! دائرة مفرغة أبدية.. مفارقة عصيَّة على الحل.. هي بذاتها ما أمرُّ به الآن، غيَّرت أنا الزمن، فمات جدي قبل

ولادة أمي.. فكيف وُلِدتُ أنا في الأصل لأفعل كل ذلك؟

- «أحمد.. الأمر أكثر تعقيدًا مما ذكرت.. نعم، قد تكون أنت السبب حقًا في الخط الزمني الذي نعيشه الآن.. لكن أمك تحيا بكل خير، بل وحملت بك وولَدتك كما كُتب لها أن تفعل دائمًا». صمتت لحظةً لترى وَقْع كلماتها عليه قبل أن تستطرد وهي تضغط على مخارج ألفاظها: «لكنها تحيا في خط زمني مختلف عما نعيشه الآن.. أنت نفسك لا تنتمي إلى هنا، أنت قادم من المستقبل. مستقبل في خط زمني آخر».

- «ماذا؟!!»، قالها فاغرًا فَاهُ وعيناه تتسعان في ذهول.

- نظرية الأكوان المتعددة بكل بساطة.. وفقًا لميكانيكا الكَمّ، فإنه بالنسبة إلى موقف معين فإن الاحتمالات كافةً متزامنة ومتواجدة في نفس اللحظة، أشبه بمفترَق طُرق، ولكنه مفترق لأفرع زمنية متشعبة.. اختياراتنا وحدها في ذلك الموقف هي ما تحدد أي احتمال أو أي مسار يتم اتخاذه؛ وبالتالي تحدد مجرى الزمن وخطه التالي.

أثار كلامها اهتمامه وقد تبين ما ترنو إليه بنظريتها عن الأكوان المتعددة من وجهة نظر ميكانيكا الكَمّ، والنظرية الكمِّية، فعقد حاجبيه قائلًا في بطء:

- نعم أفهم ذلك.. تجربة «قطة شرودنجر» الشهيرة.. القطة

حية وميتة في نفس اللحظة؛ لأن مبدأ التراكُب الكمِّي (superposition) هو أحد أعمدة النظرية الكمِّية، حيث الاحتمالات كافةً تتراكب وتتواجد في نفس اللحظة من الزمن.. ولكن ما دخل ذلك في مَوْلِد أمي من عدمه؟

مطَّت شفتيها قبل أن تجيبه:

- الخط الزمني الذي أتيتَ منه أنت هو نتاج سلسلة من القرارات والاختيارات التي اتخذها البشر عبر التاريخ.. فإذا تغير أحد تلك القرارات المهمة لسببٍ أو لآخر فإن خطًّا زمنيًّا منفصلًا تمامًا يَنبُت من تلك النقطة.. يتفرع الزمن إلى خطَّيْن مختلفَيْن يشتركان في الماضي ويختلفان في المستقبل.. مثل أفرع الشجرة تمامًا، تشترك في الجِزع وتختلف في النهايات.

- أتعنين أن أمي لم تُولَد في هذا الخط الزمني لأن حدثًا مهمًّا قد تغير قبل مولدها نتج عنه فرع جديد للزمن؟

- بالضبط!

هتف في لهفة:

- فهمت! معركة «يوتلاند» البَحْريَّة هي مفتاح تفرُّع التاريخ.. ألمانيا سحقت الأسطول البريطاني، وهزمت بريطانيا العظمى في الحرب العالمية الأولى فتغير كل شيء

بعد ذلك.. جدي قُتِل.. وأمي لم تُولَد.

أطبق شفتيه، تحركت مقلتاه في محجريهما يمينًا ويسارًا في سرعة وهو يسترجع ما رآه وخَبرَه منذ الصباح، الاختلافات الواضحة بين ثمانينيَّات الخط الزمني الذي وُلد فيه والثمانينيَّات التي يعيشها الآن، ثم التفت إليها وقد ارتسمت علاماتُ الفهم أخيرًا على وجهه للمرَّة الأولى منذ أن استيقظ في هذا الكابوس الذي لا ينتهي:

- ولنفس السبب استغرب نسيم اليهودي عندما سألته عن إسرائيل.. بالتأكيد.. خسرت بريطانيا الحرب، فلم يُصدر آرثر بلفور وعده البغيض، فلا توجد إسرائيل.. وبالتالي لا حروب، ولا سلام كذلك.. الرئيس السادات لا يزال حيًّا بكل تأكيد.. كل الأمور مترابطة الآن كأنها سلسلة متشابكة.

أطرق مُجدَّدًا وعقد حاجبيه وهو يحدِّق في الفراغ، ثم سألها في تعجُّب وقد تذكَّر شيئًا:

- ولكن وجود السادات يعني أن ثورة 1952 قد حدثت بالفعل، بما يعني أن التاريخ لا يزال مترابطًا، كيف ذلك؟! لو أن فرضية «تأثير الفراشة» صحيحة فإن اختلاف الخطوط الزمنية سيكون أعمَق من ذلك بكثير!!

ابتسمت مايا إعجابًا بذكائه وقدرته على ربط الأحداث

بعضها ببعض.. عقل هندسي مُرتَّب حقًّا.. ثم نحّت إعجابها جانبًا وإن حافظت على ابتسامتها وهي تجيبه:

- لست خبيرة إلى هذا الحد في تاريخ الخطوط الزمنية المختلفة، ولكن بعض الأحداث المهمة قد تتكرر لأسباب أخرى. ثورة 1952 تلك التي ذكرتها على سبيل المثال، قد تكرر حدوثها، وتقريبًا بنفس الأشخاص، لكن بعد ذلك بعامين، في منتصف عام 1954، ولكن لأسبابٍ أخرى، فلم تكن مصر تحت الاحتلال الإنجليزي حينئذٍ بعد أن هُزِمَت بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، أو الحرب الكبرى كما يطلقون عليها في هذا الزمن لعدم وجود حرب عالمية ثانية من الأساس.

حدَّق في وجهها في عدم فهم وحركات جسده تحثُّها على الاستمرار، فاستطردت موضحةً:

- لم تسفر معركة «يوتلاند» فقط عن هزيمة بريطانيا وخسارتها لمستعمراتها، ولكنها أيضًا أجّلت سقوط الإمبراطورية العثمانية قرابة أربعين عامًا أخرى.. «معركة يوتلاند» غيَّرت مسار الحرب على الجبهة الشرقية؛ وبخاصة أنها جاءت بعد أشهر قليلة من انتصار العثمانيين في معركة «جاليبولي» الشهيرة. انسحاق البحرية البريطانية واجتياح لندن انتهى كذلك بسيطرة العثمانيين على المستعمرات البريطانية في الشرق، بعد معارك دموية طويلة كلَّفتك جدَّك

على سبيل المثال. باختصار تكررت الثورة المصرية لاحقًا للحصول على الاستقلال ولكن بعد صراعٍ من نوعٍ آخر.

صمتت للحظةٍ، التقطت خلالها أنفاسها وهي تتابع تعبيرات الدهشة والحزن المتقلبة على وجهه، قبل أن تضيف في هدوء:

- بعد ثورة 1954 ونتيجةً لعدم انخراط مصر في صراعات إقليمية لعدم وجود أعداء مباشرين، حققت مصر نهضة صناعية وحضارية ضخمة بوتيرة متسارعة، جعلتها إحدى الدول الخمس الكبرى في العالم في غضون عقدين من الزمن.

واصَل التحديق في وجهها وعقله يعمل على ترجمة سردها التاريخي وربطه بما شهده بنفسه واستمع إليه على موجات الراديو منذ أن استيقظ في ذلك الواقع الموازي، ثم مَطَّ شفتيه وسألها في عدم اقتناع:

- وماذا بشأن المعمار والتكنولوچيا؟ طراز المنازل والأثاث وحتى السيارات، سيارتي على سبيل المثال، بل والأغاني ومطربيها، يتوافق إلى حَدٍّ مذهل مع ما أتذكَّره في طفولتي!

مطَّت شفتيها وهي تلوِّح بكَفَّيْها بمعنى أنها لا تدري، ثم أضافت:

- التطور التكنولوچي والفن والذوق في المعمار والملابس وغيره قد يتقارب بين الخطوط الزمنية ولكنه لن يتطابق بنسبة 100%. أنت فقط لم تلحظ الاختلافات كافة.. العوامل والمتغيرات متعددة، واستنتاج النتائج والمآلات بشكلٍ يقيني هو أمر مستبعَد إن لم يكن مستحيلًا.. قد تتشابه الخطوط الزمنية أو قد تختلف بالكلية.. «تأثير الفراشة» ليس متوالية حسابية خطِّيَّة يمكن استنتاجها.

خَيَّم الصمت مجددًا، وسرح كل منهما في أفكاره. أطرق شريف برأسه مفكرًا في مآلات الأحداث المتشابكة وتأثيرها على بلده وأمه، ثم رفع رأسه إلى مايا يسألها في نوعٍ من الاستسلام:

- وأنتِ يا مايا، من أي خطٍّ زمني جئتِ؟

ارتسمت ابتسامة واهنة على شفتيها، ثم أجابته بلهجة متهكمة يغلب عليها الحزن:

- صدقني من الأفضل ألَّا تعرف.. أسوأ من خطك الزمني بكثير.

لم يلحظا وسط ذلك النقاش العلمي التاريخي أن ليلى قد تركت المائدة في شرود، وجلست في ركنٍ قصيٍّ تتفقد محتويات الحافظة الجلدية، خفق قلبها في عنف عندما رأت

الصور الملطخة بالدماء، وربطتها بما ذكرته مايا في غرفة المكتب منذ عدة ساعات، لقد قَتل زوجها هؤلاء الأبرياء، لم يرحم رجلًا ولا امرأة ولا حتى طفلًا.

انحدرت دموعها الساخنة من جديد، لقد فاقت الحقائق التي أدركت قليلها قدرتَها على التحمل..

ثم شهقت في عنفٍ حتى كادت أن تفقد وعيها، واتسعت عيناها في هلع وهي تحدِّق في إحدى تلك الصور. صورة أسرة صغيرة، صورة تجمع رجلًا في الثلاثينات من عمره وسيدةً في منتصف العشرينات وهما يحملان في سعادة طفلة صغيرة، رضيعة لم تتجاوز العام من عمرها.. طفلة جميلة لوالدين تزين شفاههما ابتسامةُ حانية.. ابتسامة أتلفتها علامة X الحمراء الرهيبة وبقع الدماء القانية.. ابتسامة طالما رأتها من قبل.. رأتها في صور أخرى مماثلة.. بل في نسخة أخرى من نفس ذات الصورة ولكن دون دماء.. الصورة الوحيدة التي رأتها لذلك الرجل وزوجته..

صورة تجمع أبًا وأُمًّا وطفلةً رضيعة..

تلك الطفلة التي كبرت وبلغت منتصف الثلاثينات من عمرها..

طفلة تُدعى ليلى..

ليلى التي كبرت وتزوجت الرجل الذي قتل والديها..

نعم.. إنها هي تلك الطفلة..

«ليلى» البريئة.. زوجة «شريف» القاتل الزمني المتسلسل.. زوجها الذي أيقنت الآن أنه هو من يَتَّمها رضيعة، حين قتل أبويها بعد مولدها مباشرةً..

شهقت في هلع.. ثم صرخت في انهيار..

أطلقت صرخة خلعت القلوب، وارتجَّ بها المنزل النائي الكئيب.

***

000000

قبل الزيارة.. لندن، 5 يونيه 1916

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: 18947

معركة يوتلاند البحرية: ألمانيا تعترف بالهزيمة

بعد أيامٍ من رفض الهزيمة وادِّعاء النصر، أبلغ نائب الأدميرال الألماني «راينهارد شير» القيادة الألمانية العليا، أمس 4 يوليو الجاري، أن أسطوله الملقب بأسطول أعالي البحار قد تلقى هزيمة منكرة في خليج يوتلاند وأنه لن

يتمكن من القيام بالمزيد من المعارك البحرية مستقبلًا في بحر الشمال أو مهاجمة الأراضي البريطانية. فقد قام قائد الأسطول الملكي الباسل الأدميرال «چون روشورث چيليكو» بمناورة ماهرة يوم 1 يونيه باستخدام 96 من السفن البريطانية، حيث صفَّها على شكل حرف V لينجح في تطويق 59 سفينة ألمانية، فحفظ البلاد وأفشل خطة الألمان لضرب مدينة سندرلاند الساحلية.

يذكر أن «چيليكو» كان قد نجح في اعتراض رسائل البحرية الألمانية المُشفَّرة، فأدرك خططهم الماكرة قبل حدوثها، وأسرع يستدعي الأسطول الملكي العظيم الراسي في منطقة «سكابا فلو» البعيدة، قُبالة الساحل الشمالي لاسكتلندا؛ ليشتبك في الوقت المناسب مع البحرية الألمانية. أنهى الأدميرال الماكر «چون چيليكو» معركة الستِّ والثلاثين ساعة المصيرية متفوقًا في عدد القطع البحرية الصالحة للقتال؛ ففرض السيادة المطلقة والسيطرة البريطانية الكاملة على بحر الشمال دون منازع. معركة خليج يوتلاند ستكون علامة فارقة في تاريخ الحرب العظمى، خسارتها كانت تعني تدمير الأسطول الملكي وكشف السواحل البريطانية أمام قوات دول المركز، لكنها أصبحت بداية النهاية لألمانيا وحلفائها ليركع جميعهم خاضعين أمام صاحب الجلالة چورچ الخامس ملك بريطانيا العظمى.

لندن، عامان ونصف بعد المعركة، 14 نوفمبر 1918

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: 19839

يوم النصر: انتهت الحرب الكبرى.. ألمانيا تُوقِّع الهدنة

انتصرت بريطانيا العظمى وحلفاؤها، ورضخت ألمانيا ومن معها. التقى ممثلو ألمانيا، في 11 نوفمبر 1918، مع «فرديناند فوش»، القائد العام لجيوش الحلفاء، في عربة للسكك الحديدية بشمال شرق باريس لتوقيع الهدنة وإنهاء القتال في الحرب الكبرى. يُذكر أن بلغاريا والإمبراطورية العثمانية والنمسا قد وقَّعوا بالفعل اتفاقيات هدنة مماثلة مع دول الحلفاء الشهر الماضي، لتنتهي بذلك أكبر الحروب التي عاشتها البشرية، الحرب التي لقَّبها الكاتب هيربرت ويلز بـ «الحرب التي ستنهي كل الحروب»، وبالفعل انتهت بهزيمة الألمان واستسلامهم بعد حربٍ داميةٍ راح ضحيَّتها ما يُقدر بنحو 30 إلى 40 مليون جندي، بالإضافة إلى ملايين الضحايا من المدنيين. كما عبَّر «ڤلهلم الثاني» قيصر ألمانيا وملك بروسيا المعزول الحدود الهولندية البلچيكية ليعيش في منفاه في هولندا، ولكن بعد مضايقات من حرس الحدود الهولندي.

***

000000

الزيارة..

25 نوفمبر 1915

5:00 صباحًا.. لندن

نهض «مايلز لامبسون» من فراشه مترنحًا مع رنين جرس منزله الأنيق في أحد أرقى أحياء غرب لندن. ارتدى العباءة المنزلية (الرُّوب) في عُجالة اتقاءً لبرد لندن القارس في ذلك الوقت من العام. هبط السلم الداخلي مسرعًا مع قدرٍ من الحرص ليتجنب إحداث جلبة توقظ زوجته وابنته الرضيعة. أحكم طيّات ثيابه وهو يسرع نحو الباب متسائلًا في توجُّس عن سبب زيارة أحدهم في مثل هذا الوقت من صباح بارد، وسط قصف متواصل للندن بواسطة طائرات «زيبلين» الألمانية الجديدة طيلة سبعة أشهر كاملة، وفي خِضمٍّ حربٍ عالميةٍ كبرى تلتهم نيرانها العالم بأسره. هتف لامبسون في حذر:

- مَنْ بالباب؟

ساد الصمت لحظات، قبل أن يأتيه الجواب بصوتٍ هادئٍ عميق:

- صديق قديم من صوفيا.

اتسعت عينا لامبسون عن آخرهما حين عبر الصوت طبلة أذنه وتردد صداه في رأسه، موقظًا خلاياه المتعَبة ليتذكر على الفور صاحبه الغامض. مرقت ذكريات لقائهما الأول والأخير في بلغاريا أمام عينيه كصاعقة أنعشت عقله وأطاحت بالنُّعاس من عينيه. أربعة أعوام كاملة مرت على تلك الحفلة الدبلوماسية، أعوام حالكة مليئة بالأحداث الجليلة، لكنها لم تكن كافية كي ينسى الرجل الغامض ونبوءاته الدقيقة. نبوءات شملت حياة لامبسون الأسرية والمهنية بل ومستقبل العالم بأسْره. أنبأه بزواجه، وميلاد ابنته الأولى، محددًا تاريخ مولدها بدقة مخيفة، والأشد أنه أنبأه باندلاع الحرب الكبرى وأسبابها المعقدة، لقد حدد أعداء الإمبراطورية وحلفاءها قبلها بعامين كاملين. ذكريات متتالية اجتاحت عقله في اللحظة التي أمسك فيها مقبض الباب قبل أن يتوقف به الزمن بغتةً وتتصلَّب يده على المقبض، حين تلاطمت ذكرياته مع تساؤلات أخرى مشروعة، فالأيام أثبتت صدق الرجل ودقته! فلم يكن مُدَّعيًا ولا مجنونًا! ولكن من عساه أن يكون؟ عرّافًا، أم كاهنًا، أم...

هز رأسه لينفض تلك التساؤلات عن عقله، ثم أدار المقبض يفتح الباب في لهفة. ضوء واهن وضباب كثيف جعله بالكاد

يرى وجه زائره ذا الملامح الشرق أوسطية والابتسامة الهادئة، حدَّق فيه وهو يقف في هدوء وثقة أمام الباب مرتديًا معطفًا أسودَ أنيقًا وقبَّعة إنجليزية سوداء تتناسب وتلك الفترة من بدايات القرن العشرين. تفرَّس لامبسون ملامح الرجل، ثم هتف عقله معلنًا التحقق من شخصيته، نعم، إنه هو.. هو ذاته الرجل الغامض من صوفيا، بملامحه الواثقة وعينيه السوداوين الغامضتين، هي نظرته الثاقبة ذاتها التي سبرت غَوْرَه وبثَّت الرهبة في نفسه، اتسعت عينا لامبسون في ذهولٍ وارتعشت شفتاه وهو يغمغم:

- رَبَّاه! إنه أنت بالفعل.. ولكن مَنْ أنت حقًّا؟

واصل شريف القاضي ابتسامته ونظراته الهادئة متجاهلًا سؤال لامبسون، الذي تهدَّجت أنفاسه وهو يتأمل شريف بفيضٍ من المشاعر المتداخلة من ذهول وانبهار ورهبة وتساؤل. لحظات طالت لم ينبس خلالها أيُّهما بكلمة، ثم ما لبث لامبسون أن أفسح لزائره الطريق مشيرًا إليه بيده يدعوه للدخول.

دلف شريف إلى المنزل بخطواتٍ متأنية، ثم خلع قبَّعته ومعطفه الثقيل وناولهما بتعالٍ إلى لامبسون الذي لم يفارقه الذهول بعد. تقدم إلى منتصف الردهة وهو يتفقَّد المنزل غير عابئ بذهول لامبسون. منزل إنجليزي كلاسيكي بذوقه

المميز لتلك الحقبة من القرن العشرين، من حيث الاستخدام الكثيف للأخشاب على الجدران والأرضيات، مع ستائر مخملية دَكْنَاء، وأثاث أنيق مزدحم على الطراز الڤيكتوري، مُطعَّم بأنوار جانبية (أباچورة) ذات تيجان قماشية مزخرفة تتماشى والسجَّاد الشرقي الوثير بلونه الأحمر وزخارفه النباتية المميزة. منزل يفوح من جنباته عبق العراقة الممزوج برائحة الشاي وأنواعه المختلفة. مَطَّ شفتيه في ازدراءٍ ثم لاحت ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يغمغم بنبرة تهكُّم واضحة:

- إذًا هذا هو منزل مايلز لامبسون، الدبلوماسي الإنجليزي الأشهر في تاريخ مصر، تبدو أكثر سذاجةً من لقائنا الأخير. ثم أفلتت منه ضحكة ساخرة قبل أن يضيف بالعربية: «حقًّا تستحق ما سيحدث لك».

اتخذ شريف مجلسه واضعًا ساقًا فوق الأخرى، وأشار بيده إلى لامبسون الذاهل يدعوه إلى الجلوس. تأمله شريف لوهلة ثم أضاف مبتسمًا:

- أهنئك على مولد «ماري كاترين» الجميلة.. 7 أغسطس 1915، تمامًا كما أخبرتك.. وآمل أن أهنئك على مولد ابنك «جراهام» بعد ثلاث سنوات، وبعده بأربع سنوات أخرى أهنئك على «مارجريت ميراندا.. أسرة كبيرة وجميلة حقًّا..

ومديدة العمر كذلك مستر لامبسون، هل تعلم أن «ماري كاترين» الصغيرة الجميلة ستبلغ من العمر 104 أعوام؟

هوى لامبسون على أقرب المقاعد إليه، وقد اتسعت عيناه وفغرَ فَاهُ ذهولًا، وبالكاد غادر صوته حنجرته المرتعشة وهو يقول مغمغًا:

- مَنْ أنت حقًّا؟

- البعض يطلق عليَّ لقب «المُؤرِّخ».. أما بالنسبة إليك، فأنا ملاكك الحارس، ومفتاح أحلامك.. معي يمكنك بلوغ السماء ولمس النجوم.

قال شريف جملته بنبرة واثقة كاسحة قبل أن يدير رأسه يتأمل المنزل الأنيق وأثاثه الفخم، ثم مَطَّ شفتيه وهزَّ رأسه وهو يضيف:

- أرى أنك استفدتَ كثيرًا من نصائحي وتنبؤاتي الاقتصادية التي وضعتها بين يديك منذ أربعة أعوام. ثم أضاف متهكمًا: «لا، لا داعي لأن تشكرني».

نفض لامبسون عن نفسه الذهول وعقد حاجبيه قائلًا في شَكّ:

- كيف يمكنك أن تعرف ما تعرفه؟ هل ترى المستقبل؟

- ربما.. أو ربما أكون أنا شخصيًا من المستقبل.

عاد الذهول يرتسم على وجهه لامبسون ثم نهض مسرعًا إلى مكتبه يحضر ورقة مطوية في حرص، فضَّها وأدار بصره بين شريف وبين الورقة ثم أشار إليها بسَبَّابته قائلًا في عدم تصديق:

- لا أستطيع أن أقول إنك كاذب.. قد تكون مجنونًا.. ولكن لا، لست مجنونًا كذلك. لقد وقع حقًّا كل ما ذكرت منذ أربعة أعوام. كل ما كتبته في تلك الورقة قد تحقق بحذافيره، بتواريخه، وساعته.. تنبؤات شخصية ومالية وحتى حربية.. كيف لك أن تعرف تاريخ ميلاد ابنتي وتواريخ الحرب الكبرى. ما الأمر؟ ما سرُّك بحقِّ الرب؟

حافظ شريف على صمته وضاقت حَدَقتاهُ وهو يتأمل لامبسون، ثم أخرج مجموعة أوراق مطوية من جـيبه، فرَدَها أمام عَينَيْ لامبسون الذاهلتين، قبل أن يقول في حزم وهو يضغط على مخارج كلماته:

- ليس مُهمًّا الآن مَن أكون أو ما هو سرِّي.. لكن الأهم الآن هو مستقبلك أنت.. أنت مستر لامبسون ومستقبل أسرتك.. بل ومستقبل الإمبراطورية بأسرها.

لم يكن لامبسون ضعيفًا أو ساذَجًا في المطلق، بل كان ذا

شخصية قوية واضحة، لكنه لم يستطع الصمود أمام الزائر الغامض ونبرته الواثقة وشخصيته الكاسحة، فاستسلم. استسلم لامبسون وغاص في مقعده وقد أدرك أن لا حيلة له أمام شريف، فاكتفى بالصمت وهو يحدِّق في وجه الزائر في ترقُّب، حتى استطرد الأخير في بطء:

- الأشهر القادمة ستحدد مصير الإمبراطورية بل ومصير العالم كما نعرفه. ولن نقف مكتوفي الأيدي. سنفعل ما يجب على الرجال فعله، سنقاتل حتى الرمق الأخير.

ظهرت علامات القلق على وجه لامبسون، فأشار شريف بسَبَّابته إلى مجموعة الأوراق التي يمسك بها وهو يقول:

- تحتوي الأوراق على معلومات شاملة حول جميع معارك ومناورات قوات دول المركز في الأشهر الستة المقبلة. عليك تسليم هذه المعلومات واحدةً تلوَ الأخرى لقيادات جيش صاحب الجلالة، كل معلومة في وقتها. عليك أن تكتسب ثقتهم الكاملة، يجب أن يثقوا في كل كلمة تتفوَّه بها، بل اجعلهم يثقون في سُعالك إذا لزم الأمر.

صمتَ قليلًا ليتأكد من وقع كلماته على البريطاني، ثم أضاف في ثقة:

- مستر لامبسون.. أنت رجل قوي ذو شخصية طاغية..

اكتسِبْ ثقتهم.

تراجع لامبسون إلى الوراء ثم قال في نبرةٍ جمعت بين التَّوجُّس والغضب:

- لماذا تطلب مني ذلك؟ لست مطمئنًا لأسلوبك.. لن أخون بريطانيا العظمى ولو فرشتَ لي الأرض ذهبًا.

حافظ شريف على صمته وهو يحدِّق في وجه لامبسون، ثم أشاح بوجهه في هدوء وأعاد طيَّ الأوراق ليعيدها إلى جيبه، ارتبك لامبسون وكاد أن يقفز من مقعده ليمسك بيد شريف وأوراقه، لولا أن تمالك أعصابه ثم استطرد متلعثمًا:

- اعذرني.. اشرح لي بهدوء.

قاوم شريف ابتسامة النصر تحاول أن تفرَّ من شفتيه، وثبَّت عينيه في عَينَيْ لامبسون قائلًا في بطء:

- بعد ستة أشهر من الآن ستندلع معركة بَحْرِيَّة كبرى، بل هي الأعظم في تاريخ الحروب البحرية. معركة ستحدد مصير الحرب الكبرى بل ومصير الإمبراطورية العظمى بأسرها. سيقوم الأدميرال «چون چيليكو» قائد الأسطول البريطاني باعتراض رسالة من «أسطول أعالي البحار» الألماني ويظن أنها مُشفَّرة وأنه نجح في كسر الشفرة. وعلى هذا الأساس سيحرك أسطوله بالكامل من «سكابا فلو» في

الشمال إلى خليج «يوتلاند» الدانماركي.. وتلك هي المصيبة.

صمت قليلًا يتأمل تعبيرات اللهفة والترقُّب على وجه لامبسون، ثم تقدم إلى طرف مقعده ووضع كفَّه على ساق لامبسون، مضيقًا وهو يضغط على كلماته:

- ﭼيليكو سيكون ضحية خُدْعَة صاغها الألمان ببراعة.. لا بد وأن تقنعهم وتقنع ﭼيليكو على الأخص بالخُدعة، وأن يبقى أسطوله في الشمال أمام السواحل الاسكتلندية حيث المعركة الحقيقية. احصل على ثقته وثقة القيادة بالمعلومات التي سأمنحك إيَّاها ثم أخبرهم بحقيقة الخديعة.

أطرَق لامبسون مفكرًا ثم عقد حاجبيه قبل أن يتساءل في شك:

- ولماذا لا تعطي تلك المعلومات مباشرة إلى الأدميرال «ﭼيليكو». لماذا أنا؟

تَنهَّد شريف في عمقٍ ثم نهض من مقعده، وقال وهو يعطي مجموعة الأوراق إلى لامبسون الذي هَبَّ من مقعده هو الآخر يختطفها:

- أنا أريدك أنت شخصيًا مستر لامبسون أن تقوم بتلك المهمة الحساسة التي تحدد مستقبل الإمبراطورية بأسرها.. لا أخفيك سِرًّا أن مستقبلك مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمصر، بلدي،

وستكون محور العديد من الأحداث المهمة في تاريخنا.. فرأيت أنه من باب الإنصاف أن تكون أنت مَن يرتبط اسمه عبر التاريخ بمصير الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.. مستر لامبسون، سأجعلك رمزًا تتحاكى به الصحف أبد الدهر.. مكافأة صغيرة تقديرًا لتاريخك الذي لم يأتِ بعد.

فغر لامبسون فَاهُ ذهولًا وتسمَّر في مكانه ممسكًا بمجموعة الأوراق، وعيناه المتسعتان تتابعان شريف وهو يخطو في هدوءٍ ناحية باب المنزل ليلتقط معطفه وقبَّعته، قبل أن يلتفت إلى لامبسون نصفَ التفاتةٍ ويقول في نبرةٍ شابتها السخرية:

- ستجد في الأوراق بعض تنبؤات البورصة والأراضي، هدية بسيطة لماري الصغيرة.

غادر المنزل وتنفس الصُّعَدَاء تاركًا لامبسون يرزح تحت نير التخبُّط، والرهبة، والذهول، والحيرة.. والطمع.

دلف شريف في هدوء إلى سيارة «رولز رويس» فارهة فضيَّة اللون طراز «الشبح الفضي» موديل عام 1915 تصطفُّ أمام المنزل، فجلس في مقعدها الخلفي وأذِن للسائق بالانطلاق مبتعدًا. أرجع رأسه قليلًا إلى الوراء يتَنهَّد في عمق متمنيًا أن تسير خطته كما تمناها وخطط لها، دون الحاجة للعودة بالزمن من جديد لتعديلها.

أبرقت السماء ثم دوّى صوت الرعد هادرًا يتبعه وابلٌ من المطر الشديد، فلاحت ابتسامة خافتة على شفتَيْ شريف عندما لمح ضوءًا أزرق خافتًا يومض من داخل حافظة أوراقه الجلدية، ففضَّ حزامها وأخرج منها جهازًا لوحيًّا سميكًا ذا فتحتين جانبيتين أشبه بفتحات USB أو USB-C. حدَّق في شاشته في اهتمامٍ يراقب فرعًا أبيض صغيرًا ينبت من منتصف رسمة برّاقة أشبه «بندفة الثلج» تحتل الشاشة السوداء، وأسفلها ظهرت جملة واحدة فقط.

«تفرُّع زمني جديد: الخط الزمني 000011 قد نبت من الأصل».

***

000011

بعد الزيارة..

لندن، 5 يونيه 1916

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: 18947

معركة يوتلاند البحرية: ألمانيا تُغرِق الأسطول البريطاني الكبير وتقصف سندرلاند

انتهت المعركة البحرية الكبرى بهزيمة منكَرة لأسطولنا

البحري. تمكَّن أسطول أعالي البحار الألماني، بقيادة الأدميرال «فرانز فون هيبر»، من هزيمة الأسطول الملكي البريطاني وإغراق غالبية سفنه في معركة استمرت لمدة أربعة أيام كاملة في المنطقة الممتدة من «سكابا فلو» قُبالة الساحل الشمالي لاسكتلندا وحتى خليج يوتلاند الدانماركي. حيث نجح الأسطول الألماني في القيام بأكبر خُدْعَة في تاريخ الحروب البحرية، حين فاجأ الأسطول الملكي الراسي أمام سواحل اسكتلندا بالالتفاف حوله، وسط غفلة وغياب تام للمعلومات الاستخباراتية، فأغرق منه الكثير وأحدث في جنوده مقتلة عظيمة، قبل أن يتمكن، عن طريق مناورة خادعة كبرى، من سحب باقي الأسطول البريطاني إلى كمين مُحكم في مياه خليج يوتلاند، فيُطبق عليه من جميع الجهات ويدمره تدميرًا. تكوَّن الأسطول الألماني من 103 قِطَع بحرية، بينما فشل أسطول صاحب الجلالة ملك بريطانيا المكوَّن من 151 قطعة بحرية في الصمود وتدارك المفاجأة، فانهار بغتةً وفقد أكثر من ثُلثَي قطعه الحربية المؤثرة وثلاثة أرباع جنوده. واستغلالًا للنصر الكبير، أمر نائب الأدميرال الألماني «راينهارد شير» بأن تقوم 19 غواصة من طراز «يو بوت» الفتَّاك، يغطيها سربان من طائرات «فوكر ايندبكر» و«زيبلين»، بقصف متواصل لمدينة «سندرلاند» الساحلية؛ مما أسفر عن آلاف القتلى وتحويل

المدينة الجميلة إلى أنقاض غير قابلة للحياة. إنها حقًّا هزيمة مخزية قد تكون بداية النهاية للإمبراطورية البريطانية.

لندن، ثمانية أسابيع بعد المعركة، 4 أغسطس 1916

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: 19006

معركة لندن: القوات الألمانية على مشارف لندن..
ومحاكمة الدبلوماسي الخائن

مرَّ شهران على هزيمة يوتلاند البحرية المريرة وسيطرة أسطول أعالي البحار الألماني على بحر الشمال والقناة الإنجليزية. شهران فرض فيهما الألمان حصارًا شاملًا على الأراضي الإنجليزية وسواحلها، وواصلوا قصفهم الكثيف للمدن البريطانية؛ مما أسفر عن مئات الآلاف من الضحايا ما بين قتيلٍ وجريح. فلما كان السقوط وشيكًا مع استمرار الهزائم المتتالية التي تتلقاها قوات صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفائه على الجبهات كافةً الشرقية منها والغربية، فقد قامت ألمانيا أمس، الرابع من أغسطس، بأكبر عملية إنزال برِّي منذ بدء الحرب الكبرى. حيث قامت بإنزال مزدوج لأكثر من 120 ألف جندي على سواحل مدينتَي «دوفر» و«إبسويتش» الساحليتين لمحاصرة القوات البرية البريطانية المتمركزة حول لندن. تكبَّدت قواتنا الباسلة خسائر هائلة في المعدات والجنود، في

محاولة شُجاعة باسلة للذود عن العاصمة الإمبراطورية.
ورغم المعارك الضارية على مشارف العاصمة، فقد استأنفت المحكمة العسكرية البريطانية محاكمة الدبلوماسي الشاب «مايلز لامبسون» بتهمة التجسُّس لصالح دول المركز ودَسِّ معلومات مغلوطة عن عمد، كان من شأنها محاصرة الأسطول الملكي العظيم في «سكابا فلو» وإغراق غالبية سفنه واستسلام قائده في يوتلاند، المعركة التي ثبت أنها كانت المسمار الأخير في نعش الإمبراطورية التي لا يغيب عنها الشمس.

لندن، الأسبوع التالي، 11 أغسطس 1916

صحيفة «الديلي تيليجراف» البريطانية.. العدد: الأخير

اجتياح لندن: نهاية الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس

واجتاحت القوات الألمانية لندن. وأعلن صاحب الجلالة الملك چورچ الخامس ملك بريطانيا العظمى الاستسلام، والاستعداد التام لتوقيع غير مشروط على أية وثيقة سلام من شأنها حفظ الأرواح والممتلكات. كما خسرت قواتنا معاركها على مختلف الجبهات، فتقدمت القوات الإمبراطورية العثمانية على الجبهة الشرقية وحققت مكاسب كبيرة في فلسطين؛ وكذلك حال القوات البلغارية

والمجرية والنمساوية على الجبهة الغربية. إنها نهاية الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

***

000010

3:27 عصرًا.. سماء المنطقة المُشعَّة

- لقد عبرنا إلى داخل المنطقة المشعَّة.. سيتم فصل أجهزة الملاحة والاتصالات.. سأتولى القيادة في «الوضع الآمِن» حتى نصل إلى وجهتنا.. يُرجى العلم بأنني سأفقد وظائفي الفائقة حتى أعاود الربط مجددًا بالشبكة الفضائية.

اخترق صوت فريدة الهادئ جدار السكون الذي سدَّ آذانهم، إلا من نبضات القلوب المتسارعة والأنفاس المتلاحقة الرتيبة التي سادت الطائرة فور سماع أزيز صواريخ EUF المُهلكة تنطلق نحو أهدافها.

جاء صوت فريدة الهادئ كصدمةِ إنعاشٍ ضرَبَت القلوب والعقول لتبثَّ فيها الروح من جديد. أذهلهم مشهد طائرات V3 الثلاث وقد تحوَّلَت إلى رماد من ذرَّات متطايرة كأنما انتقلت إلى العدم، اتسعت عيونهم وتسمَّرت على شاشات الطائرة وقد اختفت عبارة التحذير، وخرَسَت صافرات الإنذار.

تبادل خالد وسارة نظرات الذهول التي استحالت إلى فرحة عارمة كسرت جدران اليأس والاستسلام، وعبرت إلى الشفاه بابتسامة واسعة.. فرحة عارمة بالنجاة.. النجاة من موت محققَ.. ثم ما لبثت الفرحة أن تلاشت وارتدَّت الوجوه إلى ذهولها الأول.. ذهول شديد يتنافس مع خفقان عنيف ترتجُّ به الصدور وهما يشاهدان رمادًا متناثرًا تتناقله رياح الشتاء العاصفة.. مصيرٌ قاسٍ كاد أن يكون من نصيبهم لولا الصواريخ التي انطلقت لصالحهم.. اشتد الذهول مع توالي مطارق الأسئلة المبهمة على عقولهم، فمن أين انطلقت الصواريخ التي أصابت أهدافها الثلاثة بدقة، وأنقذتهم؟ مَنْ فعلها؟ والأهم، لماذا فعلها؟

التفتت سارة إلى أيمن الذي تَنهَّد في ارتياح وهو يتأمل المشهد المَهِيب. ظنت أنها لمحت ابتسامة رضا ترتسم على شفتيه، ولكن غشَّت بصرها غيومُ الإشعاعات والتلوث التي تخَيِّم على سماء المنطقة المحرَّمة. سماء سوداء مظلمة تتخللها بؤر حمراء نارية لأشعة الشمس المتوارية خلف ركام السحب الكثيفة، أشعة فشلت في تبديد ظُلمة قمرة الطائرة. جو عام كئيب يغشى البصر ويقبض القلوب.. فالتزموا الصمت.

- ماذا حدث بحق الله؟

قالها خالد وهو يدير بصره بين ثلاثتهم حتى انتبه إلى أن يحيى يرقد فاقدًا للوعي خلفه، فعقد حاجبيه موجهًا حديثه إلى أيمن:

- هل ما زال حيًّا؟

تحسس أيمن وريد يحيى العنقي ليطمئن أنه في قيد الحياة، ثم عدَّل وضعيته بما يسمح للدماء بالتدفق إلى رأسه، قبل أن يتَنهَّد في ارتياح ويجيبه:

- نعم لا يزال في قيد الحياة، لكن جسده لم يتحمل.. هو في حاجة شديدة إلى جهاز ARD لتحسين عملية التئام الجروح، ومنع الجهاز المناعي من مهاجمة الألياف المُصنَّعة.. الوقت عامل مهم.

- أكيد.. صحته أولوية قصوى كي نفهم ما يحدث لنا بسببه.

قالها خالد وهو يحاول أن يضغط جهاز الاتصال العظمي المؤمَّن خلف أذنه اليمنى عدة مرات دون جدوى، فهتف ساخطًا:

- الاتصالات مقطوعة.. أريد الاتصال بزوجتي وابنتي.. فريدة!

- عذرًا سيدي! «الوضع الآمِن» لا يَسمَح بإجراء أي اتصالات

خارجية.. نحن معزولون تمامًا عن الشبكة الفضائية الدولية.. سنصل إلى وجهتنا في خلال 26 دقيقة.. برجاء ربط أحْزِمَة المقاعد، الأحوال الجوية في تلك المنطقة غير مستقرة.

- تبًّا!

هتف بها خالد ساخطًا، وأدار رأسه إلى يحيى يتأمله مجددًا في حنق، قبل أن يأخذ نَفَسًا عميقًا ويزفره في ضيق، ثم يعود ليستند برأسه إلى مسند الرأس في مقعده مستسلمًا وهو يتأمل المنطقة المشعَّة والصحراء الممتدة، استرجع حديثه مع يحيى حول التاريخ الموازي، حول استقلال مصر، وثورتها.. شجونه القديمة.. وعاد يشعر بتلك الغُصَّة المريرة في حلقه عندما يتذكَّر تاريخ مصر الحديث، بل تاريخ العالم كله منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن.

كانت الحرب العالمية الثانية على أشُدِّها في أوائل عام 1942وانتهت ألمانيا من دَكٍّ بريطانيا وعاصمتها دكًّا بطائراتها الحديثة فيما عُرف بالـ **Blitz**، الحرب مستعرة في صالح ألمانيا وحلفائها، فالجيوش الألمانية تتقدم على الجبهات كافة، وجيشوها المليونية تزحف نحو موسكو، في حين جرَّت اليابان الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب بعد معركة بيرل هاربور الشهيرة، انتزعتها من عزلتها وأنَفَتها من المشاركة في الحرب الطاحنة التي تدور

رَحَاها في قارة أوروبا المتهالكة، ووصلت طليعة القوات الأمريكية إلى أوروبا، ميزان القوى يتأرجح ولكنه لا يزال في صالح النازيِّين. وفجأةً اختلَّ ميزان القوى، رجحت كفَّة بريطانيا وحدها. دون سابق إنذار، توصلت بريطانيا إلى عددٍ من الأسلحة الرهيبة، قنابل ذرِّيَّة، وأخرى تستخدم الترددات الفائقة، وغيرها من الأسلحة الخيالية التي لم تكن لتتجاوز مجلات الأطفال المصورة. لا يدري أحد، ولم يذكر التاريخ كيف نجحت بريطانيا في التَّوصُّل إلى ذلك التقدم التكنولوچي الفتَّاك في زمنٍ وجيز، فلم يكن التطور الرهيب في المجال العسكري فقط، بل تجاوزه لمجالات الاتصالات، والفلك والفضاء، والحَوْسَبة والتكنولوچيا الرقمية.. طفرة تكنولوچية هائلة ومدمرة، قفزة إلى المستقبل بمحاسنها ومساوئها..

واستخدمت بريطانيا أسلحتها.. وفازت بالحرب.. سحقت دول المحور الثلاث وحلفاءهم..

ثم بسطت هيمنتها على الباقين..

حتى حلفاؤها لم ترحمهم.. استخدمت أسلحة متطورة، وإن كانت أقل فتكًا.. وأخضعتهم..

أصبحت بريطانيا العظمى سيِّدة العالم بلا منازع..

أصبحت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس حرفيًا..

بسطت سيطرتها على الأرض.. مشرقها ومغربها..

ولسببٍ ما، كان لمصر وضع خاص، تقول الشائعات إن الطفرة التكنولوچية الهائلة التي ساعدت الإمبراطورية العظمى كانت على أيدي مجموعة من العلماء المصريين.. مجموعة «ألفا» الأصلية.. ربما يكون ذلك هو السبب في وجود مقرَّات مؤسسات وهيئات تكنولوچيا مهمة هنا، في قلب القاهرة، أو في ضواحيها الغربية.. مجرد شائعات، لكنها شائعات مُحبَّبة لدى العامة، شائعات ألهبت الحماسة بما مثَّلته من مجدٍ غابر وعبقرية نادرة.. وقد تكون تلك الحماسة هي السبب في محاولات الاستقلال التي قامت بها جحافل الشعب المصري بطبقاته المختلفة، محاولات دامية دفع الشعب المصري الشجاع ثمنها دمًا، وأنهَتْها الإمبراطورية البريطانية كما تفعل دائمًا.. بأسلحتها الفتَّاكة.. ضربات متواصلة حتى رضخ الملك ومِن ورائه رعيَّته.. انتصرت بريطانيا، واعتقلت الملك.. وأصبحنا كغيرنا جزءًا منها بصورة رسمية..

تَنهَّد في أسى، ثم قَطَّبَ حاجبيه في غضب.. صبَّ جَامَّ غضبه على يحيى الذي أيقظ تلك الأحاسيس الدفينة بداخله من جديد.. تلك المشاعر الجارفة التي طالما حاول دفنها..

حاول وفشل.. الدماء تغلي في عروقه مع رؤية مشاهد الدمار وتذكُّر كيف تجرَّع أجداده مرارة الهزيمة.. لقد ظن أن يحيى عضوٌ في جماعة «كفاح طيبة».. فقد كان يردد شعاراتهم، الشعارات التي يؤمن بها هو شخصيًّا، الشعارات التي حوَّلها يحيى من مجرد حُلم بالاستقلال إلى حقيقةٍ واقعةٍ يدَّعي أنه عاشها. زفر خالد في عمق، والأفكار تتصارع في داخله، صراع حاد بين شعارات يؤمن بها وواجبٍ وظيفيٍّ يُحتِّمه الواقع الحالي، الواقع الذي يرفضه ويتمنى زواله..

«كفاح طيبة»، الجماعة السرِّية، وزعيمها «الأيوبي» الذي حمل لواء المقاومة من أجل مصر منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. المقاومة التي لم ترضخ.. المقاومة التي ذاع صيتُها في الأنحاء، وسارت بعض الدول المحتَلَّة على نهجها، ونهج عملياته النوعية التي توجِع المحتل، وتضربه في مقتل.. «الأيوبي» الذي نقل الحرب من خانة الاستسلام إلى المقاومة.. فالصمود.. فالتحدي، تحدي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس... ثم النصر، النصر الذي يراه المحُتَل بعيدًا ويراه «الأيوبي» قريبًا.

تهدَّج صدره ولانت مشاعره عند تلك النقطة، فزفر في مرارة. لمح سارة تراقبه مع شبح نظرة رَيبة تعلو وجهها.. تبًّا

لذكائها.. بالتأكيد أدركت ما يفكر فيه.. أشاح بوجهه بعيدًا، وأطرقت هي قبل أن يعلو صوت فريدة معلنةً وصولوهم إلى المنزل الآمِن.

هبطت الطائرة المضادة للجاذبية عموديًا باتجاه منزل صغير في منطقة نائية على شاطئ البحر الأحمر.. منزل متهالك من طابق واحد..

اقترَبَت الطائرة وتباطأت..

ثم انفتحت كَوَّة في سقف المنزل..

كوة سمحت للطائرة المستديرة بالهبوط داخل الردهة الخاوية، والاستقرار على أرضها.. أُغلقت الكوة.. وساد الظلام الدامس.. هدأ هدير المحركات القوية.. ثم دوَّى صوت هسيس لأبخرة تخرج من جوانب المكان تُعقِّم الطائرة، تزامَن مع شفط الهواء الملوث..

واشتعلت الأضواء من مصابيح قديمة الطراز على حوائط الردهة..

انفتح باب الطائرة بعد أن توقف هدير مُحرِّكاتها..

ترجَّل ثلاثتهم من الطائرة في الجانب الشرقي لردهة المنزل الخاوية تمامًا. وقفوا يتبادلون النظرات الحائرة في

ردهة واسعة خالية ذات جدران بالية مصمتة، لا أبواب داخلية ولا نوافذ.. زفر خالد في غضبٍ وهو يرمق سارة بنظرةٍ حادَّةٍ تعني «أهذا هو المنزل الآمِن؟»، بل تعني «هل هو منزل من الأساس؟».. فمطّت شفتيها في امتعاض وأدارت بصرها إلى أيمن الذي عقد حاجبيه في تفكير وهو يتأمل يحيى الراقد داخل الطائرة، ثم جال ببصره في المكان يتأمله بنظراتٍ حملت مزيجًا من الخوف والتَّوَتُّر.. خَيَّم الصمت لوهلةٍ قبل أن يتصاعد صوت والدتها الهادئ المُطمئِن من سمّاعات مخفية في الجدران المصمتة:

- مرحبًا بكِ يا سارة، لو كنت تقفين هنا الآن وحدك من دوني، فهذا يعني أن الأمور توشك على التداعي وأنك في خطر عظيم.

اتسعت عيون الجميع في عدم استيعاب، قبل أن يتابع صوت والدتها:

- لا تنزعجي أو تندهشي، فهذه رسالة مسجلة منذ أن أنشأنا لك هذا المنزل الآمن للاستخدام في حال أوشك عالمنا على الفَنَاء.

عقد خالد حاجبيه ورمق سارة بنظرةٍ مُتشكّكةٍ وهو يستمع إلى تسجيل والدتها التي تابع صوتها:

- لقد تم فصل المنزل عن الشبكة الفضائية بشكلٍ كامل.. لا تتوقعي مساعدة من «فريدة».. والآن يجب التحقُّق من شخصيتك أولًا قبل المُضيّ قُدُمًا.

انفتح جزء في الجدار الشمالي للمنزل وبرز منه، على ارتفاع متر ونصف المتر من الأرض، رَفٌّ معدنيٌّ عريض يرتفع في منتصفه قائم قصير يحمل جهازًا لوحيًّا عتيق الطراز، فتابع الصوت:

- اعذريني يا سارة، ولكن هذا المنزل قد صُمِّم لحمايتك أنت فقط، ومن معكِ.. تابعي خطوات التأكد من شخصيتك وسلامتك على الجهاز البيومتري بالحائط الشمالي للمنزل.

تقدمت سارة في خطواتٍ بطيئةٍ إلى الجهاز تتابعها نظرات أيمن وخالد الذاهلة، قبل أن يضيف الصوت وبنفس النبرة الهادئة:

- وفي حال فشل التحقُّق من شخصيتك، فسيتم التعامل مع الأمر على أنه اختراق أمني شديد الخطورة.. وسيتم القضاء على المنزل ومَنْ بداخله.. سيتم مَحْوه من الوجود حتى يفنَى أثره، وأثر من فيه.

تسمَّرت سارة في مكانها وأدارت بصرها بين خالد وأيمن اللذين علا وجهيهما التَّوَتُّر والخوف. جال خالد ببصره في

المكان بسرعة يبحث عن حلول بديلة، وفشل.. لا أبواب، ولا نوافذ.. إنهم في قلب المنطقة المشعَّة.. لا سبيل للهروب.. فلوَّح بيديه بمعنى «ليس أمامنا حل آخر»، فتَنهَّدت سارة في عمق، وقطعت المسافة التي تفصلها عن الجهاز البيومتري في خطوات ثقيلة مترددة قبل أن تحدِّق في شاشته السوداء. توهَّجت الشاشة تلقائيًّا، ثم ظهر في منتصفها رسالة تعلن عن أولى خطوات التحقق من شخصيتها:

«خطوة التحقق الأولى: ضعي أصابعك تباعًا في التجويف السفلي للتحقق من البصمات».

اتبعت سارة التعليمات المتتابعة الخاصة بوضع أصابعها العشر في التجويف الخاص بقارئ بصمات الأصابع، حتى فرغ الجهاز من التحقق من بصمات أصابعها العشر في وضعياتها المختلفة. وأصدر صوتًا إلكترونيًّا مميزًا مع ظهور رسالة خضراء تؤكد إتمام الخطوة الأولى بنجاح.

أظلمت الشاشة مجددًا للحظات بسيطة، قبل أن تظهر الرسالة الثانية ثم الثالثة، للتحقق من بصمة عينيها وكذلك تفاصيل وجهها من الناحية التشريحية. انصاعت سارة لتعليمات الجهاز حتى أطلق صوته المميز وأعلن نجاح الخطوتين: الثانية والثالثة.

تبادل ثلاثتهم نظرات الاستحسان قبل أن يعلن الجهاز عن

خطوة التحقق الأخيرة، حيث توهَّجت الرسالة البيضاء وهي تتوسط شاشة الجهاز حالكة السواد، فانعقد حاجبا سارة في قلقٍ واضحٍ وتصبَّب العرق من جبينها، والتفتت في حدَّة ناحية خالد الذي جزع لردَّة فعلها فاقترب يقرأ الرسالة:

«خطوة التحقق الأخيرة (خطوة التحقق من سلامتك الشخصية): أدخلي الرقم.. مسموح بمحاولة واحدة فقط».

اتسعت عينا خالد في دهشة، وهتف في نبرةٍ متوترة:

- أي رقم يقصد؟ هل تفهمين المقصود؟

هزَّت سارة رأسها نفيًا، ثم استندت براحتيها على السطح المعدني وأطرقت برأسها مفكرة، فغمغم أيمن في جزع:

- لماذا لم تخبرنا والدتُك بهذا الأمر ونحن على متن الطائرة؟

زفر خالد في ضيق، قائلًا بنبرة حانقة:

- لم يسعفها الوقت، الـV3 رصدتنا أولًا، ثم انقطعت الاتصالات بعد ذلك.

ثم أدار رأسه إلى سارة من جديد، مغمغمًا في توتر:

- الرسالة لم تحدد طبيعة الرقم السرِّي، ولا حتى طوله.

صمت وقد التقت عيناه بعينَيْ سارة الشاردتين، فأضاف بنبرةٍ حاول جعلها مُطَمئِنَة:

- الرسالة تقول «الرقم» بصيغة مُعَرَّفة.. بالتأكيد هو رقم تعرفينه جيدًا.

حافظت على شرودها كأنما لم تجد كلماته طريقًا إلى أذنيها وعقلها. ضاقت حَدَقتاها، واستدارت نحو الشاشة تحدِّق فيها بتركيزٍ شديد.. تَنهَّدت، أخذت نَفَسًا عميقًا، ثم شرعت في إدخال «الرقم» المصيري، الرقم الذي من المفترض أنها تعلمه جيدًا.. تعلم قيمته وطوله.. الرقم الذي يؤكد سلامتها الشخصية، ويؤكد أنها غير مجبرة على القدوم إلى المنزل الآمِن.. محاولة واحدة فقط، فإما النجاة وإما الهلاك لها ولمن معها..

تناهَى إلى مسامعها صوت أيمن الجزِع قادمًا من هوَّة سحيقة، وهو يصرخ في جزع: «انتظري أرجوكِ.. اصبري.. دعينا نفكِّر».

لم تسمع، ولم تشعر، ولم تلتفت..

وأدخلت الرقم السري..

أصدر الجهاز صوتًا مختلفًا.. وانطفأت المصابيح..

انطلق صوت صافرات الإنذار يدوِّي في المكان..

وارتجَّت الجدران.. تطاير الغبار في كل مكان.. ومادَت الأرض تحت أقدامهم.. فتوقفت القلوب عن الخفقان.

***

000010

25 نوفمبر 2019

11:30 ليلًا.. مدينة إليزابيث الثانية.. غرب القاهرة

أعلن صوتٌ أنثويٌّ آليٌّ هادئ وصول عربة «الترام» الأنبوبي السريع إلى محطته الأخيرة في مدينة «الملكة إليزابيث الثانية» غرب القاهرة. تباطأت عربة الترام الوحيدة وخفَّضت من سرعتها، التي تبلغ سرعة الصوت، بصورة انسيابية قبل أن تتوقف تمامًا وتعدل من وضع عجلاتها المغناطيسية المفلطحة، لتصبح في وضعٍ أفقيٍّ يسمح لها بإغلاق المجال المغناطيسي تمامًا، والتَّوقف عن التحليق على مسافة سنتيمترات قليلة من سطح الأرض، قبل أن تهبط بهدوءٍ لتلامس الأرض المعدنية.

أصدرت مقاعد عربة الترام أزيزًا خافتًا وهي تعدل من وضعيتها المريحة الشبيهة بمقاعد (Lazy Boy) لتأخذ

وضعيَّة المقعد الطبيعي، فتسمح للمسافرين بالنهوض ومغادرة العربة الصغيرة، والتي يطلق عليها العامة لقب «كبسولة»؛ نظرًا لصِغَر حجمها وقلة عدد مقاعدها التي لا تزيد على ثمانيةٍ وعشرين مقعدًا، موزعة على أربعة صفوف طوليَّة.

نهض ذلك الشاب النحيل المتجهِّم من مقعده وهو يتأمل الشاشات الداخلية العملاقة، التي تحلُّ محلَّ النوافذ، والتي دائمًا ما تعرض مناظر طبيعية خلابة تخدِّر العقول وتجعلها تتقبَّل ذلك الوضع البائس الذي يعيشه معظم أصحابها. غادر الشاب عربة الترام الصغيرة التي استقرت داخل أنبوب عملاق شبه مفرَّغ من الهواء يربط المحطات بعضها ببعض(4)، وسار في خُطًى ثقيلةٍ ونظراتٍ واجمة داخل محطة الترام. علَت وجهَهُ تعبيراتٌ بائسة وهو يتأمل تلك المجسمات الهولوجرامية المنتشرة والتي تعلن عن منتجات مختلفة، بعضها كان في الماضي يثير ضحكاته المستهزئة وسخريته اللاذعة.

تَنهَّد الشاب النحيل ضعيف الجسم ذو الملامح الدقيقة في أسى وهو يصعد السلم حتى بلغ الشارع شبه الخالي. سار بنفس الخُطَى البطيئة البائسة وهو يتأمل بغير اكتراثٍ القاذورات المنتشرة على جانبَي الشارع، المليء بِبِرَك مياه

تفوح منها رائحة العطن بينما تعكس، في تناقض ساخر، أضواء متلألئة لإعلانات مُتوهِّجة تطفو وتدور أعلى ناطحات سحاب عملاقة، تقبع على بُعد كيلومترات قليلة من تلك البقعة الفقيرة.

تقدم النحيل في الطرقات في اتجاه منزله القابع على أطراف تلك المنطقة الفقيرة من مدينة هي الأشهر في ذلك الزمن. واصَل السير ولم يُلقِ بالًا لذلك المتسوِّل الثَّمِل رَثِّ الثياب، والذي يجلس على جانب الطريق يستند بظهره إلى حائط قذر غائبًا عن الوعي، وقد تناثرت إلى جواره زجاجات من البيرة رديئة الصنع. مشهد معتاد في واقعٍ بائسٍ قاسٍ، ازدادت قسوته مع ما يمر به ذلك الشاب منذ فترة ليست بالقصيرة، بعد أن تدهور به الحال من عُليَة القوم إلى أوباشهم في غضونِ سنواتِ ثلاثٍ أو أقل.

وما هي إلا أمتار قليلة، حتى لمح بطرف عينه ذلك المتسوِّل الثَّمِل رَثَّ الثياب وقد استفاق من غيبوبته بغتة، وهبَّ واقفًا يسير خلفه في تؤدة.

اختلج قلب الشاب النحيل حين طرق القلق أبواب قلبه وعقله، فأسرع الخطى قليلًا علَّه يبلغ منزله. واصَل المتسوِّل خطواته البطيئة للحظات، ثم أسرع خُطَاه هو الآخر. خفق قلب الشاب بصورةٍ أعنف، وازدادت سرعة خطواته، فزاد

المتسول من إيقاعه مجددًا.

التفت النحيل إلى المتسوِّل وقد بدأ الخوف يسري في أوصاله والمسافة التي تفصلهما تنكمش تدريجيًّا. أسرع خطاه من جديد فردَّ عليه المتسول بمثلها في إصرار، فشرع يعدو مكررًا الالتفات إلى الخلف يقيس المسافة بينهما..

وقع خطوات الثَّمِل تزداد إصرارًا.. وتقترب..

نبضاته تتسارع وقلبه يخفق بعنف ويكاد يقفز خارجًا..

يتفادى التعثُّر في القُمامة المنتشرة وقد اضطرَبَت قدماه..

ثم يتماسك ويواصل العَدْو..

بات منزله قريبًا، عليه أن ينعطف يمينًا في ذلك الزُّقَاق القادم ليصل إلى منزله.. حانت منه التفاتةٌ سريعةٌ أخيرة إلى الخلف فإذا بالمتسوِّل قد توقف عن ملاحقته واكتفى بمراقبته عن بُعد..

تنفس الصُّعَدَاء وهو ينعطف داخل الشارع الضيق حيث منزله..

ثم شهق في عنفٍ حين اصطدم برجلٍ آخر طويل القامة قوي البنية، ذي لحية كثَّة ينتشر فيها الشيب، وثياب ثقيلة من الصوف وقد غطى رأسه بقطعة قماش من نفس لون

الصوف، فحجبت الظلال وجهه صارم القسمات، وأخفت سنوات عمره التي قارَبَت أو تخطَّت السبعين.

سقط الشاب النحيل أرضًا وهو يحدِّق في الرجل في هلع، وقد قذفت الظلال المخيفة المزيد من الرعب في قلبه الضعيف.

لحظات مرت كالدهر على النحيل، حتى مد الرجل «الصوفي» يده في طيَّات ثيابه، فرفع الهزيل يده في حركةٍ لا إرادية يحمي وجهه وهو يصرخ مستعطفًا الرجل الصارم.

تجاهله الرجل تمامًا، ثم أخرج من طيَّات ثيابه ظَرْفًا صغيرًا ليمد به يده إلى المذعور يناوله إيَّاه.

اتسعت عينا الشاب في ذهولٍ وتيبَّست مفاصله للحظاتٍ طالت، قبل أن يمد يده في خوف وتردد يأخذ الظرف، وقد تسمَّرت عيناه تحدِّقان في الرجل كَثِّ اللِّحيَة.

لحظات أدار فيها الشاب عينيه بين الرجل والظرف في ذهولٍ وخوف، قبل أن يفتحه في حذر، وينظر بداخله. اتسعت عيناه في دهشة وهو يحدِّق في محتوى الظرف، قُصاصَة صغيرة من صحيفة ورقية قديمة مهترئة. سحبها يقرأ محتواها وعيناه تتسعان عن آخرهما، شُلَّ عقله تمامًا في عدم استيعاب وعيناه تجوبان أطراف القُصاصَة في

ذهول.

حاول أن ينفض عنه الذهول فرفع عينيه المتسائلتين الذاهلتين نحو الرجل الغامض، فإذا بالرجل قد بلغ نهاية الشارع الضيق وانعطف مبتعدًا عن الأنظار. ظلت عيناه تحدِّقان في الشارع الخالي للحظاتٍ فكر خلالها في أن ينهض ليلحق بالرجل، لكن قُواه الخائرة وقلبه المضطرب قد رفضا الاستجابة لرغبته، فظل راقدًا على الأرض القذرة المبللة يلهث ويحدِّق بذهولٍ في القصاصة القديمة، وفي الظرف الذي خُطَّت عليه كلمة واحدة فقط..

اسم صاحب الظرف.. الاسم الذي ترتعد منه قامات عظمى في هذا الزمن.. اسم «الأيوبي»..

***

000010

4:13 عصرًا.. المنزل الآمِن

كتمت أنفاسها، وأدخلت الرقم السري في الخطوة الأخيرة للتحقق من شخصيتها حسب بروتوكول تأمين المنزل الآمن. أصدر جهاز التأمين اللوحي أزيزًا متصلًا عاليًا، وانطفأت شاشته، ومعها مصابيح الجدران الجانبية بردهة المنزل التي تتوسطه طائرة Z17 الدائرية ذاتية القيادة. خفقت

قلوبهم في عنفٍ يتنافس مع قوة ارتجاج الجدران واهتزاز أرضية المنزل الصلبة. انتشر الغبار يملأ الرئات، فتعالى صوت السُّعال ليطغَى على صوت القلوب الخافقة التي كادت أن تتوقف من فرط الهلع..

- أهلًا بكِ يا سارة في منزلكِ الآمِن.

دوَّى صوت والدة سارة المسجل في أرجاء المنزل، متزامنًا مع توقف أزيز الجهاز اللوحي العتيق وظهور رسالة خضراء على شاشته تفيد بنجاح عملية التحقُّق من شخصية وسلامة سارة. عادت الأضواء تسطع من جديدٍ كاشفةً عن انحسار جزء من أرضية المنزل في جهته الغربية، ليكشف عن نفق سرِّي طويل مائل يتجه إلى باطن الأرض.

اتسعت العيون ذهولًا، وفغر الجميع أفواههم، تصلبت القلوب في موضعها، وتسمَّرت الأعين طويلًا تحدِّق في النفق السري، ثم التقت العيون في صمتٍ ذاهل، قَطَعه أيمن حين خرَّ على ركبتيه يلهث في صوتٍ مسموع. تنفس خالد الصُّعَدَاء والتفت إلى سارة ينظر إليها مبتسمًا، فرفعت حاجبيها في سرعةٍ وأطلقت زفرةً حارَّة قبل أن ترتسم ابتسامة متوترة على شفتيها. ظلوا على وضعهم بضعَ لحظاتٍ حتى دوى صوت والدة سارة المسجل من جديد وهي تقول:

- يؤدي النفق إلى قلب المنزل الآمن، إلى مخبأ مؤمن ضد الكوارث الطبيعية والأسلحة غير التقليدية.. ستجدين بداخله أجهزة اتصال مؤمنة. اتبعي التعليمات لنتحدث معًا.. إن كنت في قيد الحياة.

خفق قلب سارة عند تلك النقطة في حين تابع الصوت:

- ستجدين كذلك أطعمة وأدوية تكفي عدة أشهر، إلى جانب أسلحة نوعية تناسب العديد من العمليات.. تذكَّري أن أمنك وسلامتك هما الأولوية القصوى.

عقد خالد حاجبيه وهو يرمق سارة بنظرة مُتشكِّكة، في حين ظل أيمن جاثيًا على رُكبتيه يرمقها بدهشة هو الآخر، فتابع صوت والدتها الهادئ قائلًا:

- المنزل مفصول تمامًا عن الشبكة الفضائية كما سبق وذكرت، لكنه مجهز بنسخة قديمة من «فريدة». نسخة لم يتم تحديثها من فترة ليست بالقصيرة، ولكنها قد تساعدك في إنجاز بعض المهام... والآن اخلعي ومن معك أجهزة الاتصال الخاصة بكم، وضعوها في صندوق الرَّصاص أسفل الجهاز اللوحي.. ثم تقدمي بأمن وسلام إلى قلب منزلك الآمن يا سارة.

تبادل ثلاثتهم النظرات ثم استجابوا، فخلعوا أجهزة

الاتصال العَظْمِي أسفل الأذن؛ وكذلك ساعات اليد الرقمية والمتصل بها جهاز التعريف البيولوچي، ووضعوها بعناية في الصندوق المعدني المصنوع من الرصاص. أغلقته سارة في حرصٍ قبل أن يبتلعه تجويف في الحائط يتوارى بداخله الصندوق والجهاز اللوحي. عاون خالد أيمن في إخراج يحيى فاقدَ الوعي من الطائرة، وحملاه معًا إلى داخل النفق الطويل.

تقدم ثلاثتهم في النفق بخُطًى بطيئة يحملون يحيى، تعالت أصوات اللُّهاث تحت وطأة جسده الثقيل، تأملت العيون النفق الحجري الذي يبدو كسراديب القرون الوسطى، بينما تنير جوانبه مصابيح صفراء عتيقة مُغلَّفة بغطاءٍ بلاستيكيٍّ قويّ داخل شبكة معدنية كمصابيح المصانع في منتصف القرن العشرين. وعندما انتصف النفق، تناهى إلى مسامعهم صوت إغلاق مدخل النفق من خلفهم، فأجفلوا، ثم تبيَّنوا أنه لا سبيل آخر سوى التقدم إلى الأمام، فمطَّ خالد شفتيه وواصل التقدم إلى الداخل. تعالى صوت لهاث أيمن العنيف، طالبهما بالتَّوقُّف بضعَ لحظاتٍ والتقاط الأنفاس وهو يتأمَّل جسد يحيى البدين، فاستجابا.

سيطر الشرود على نظرات سارة، تلاطمت الأفكار المضطربة في عقلها، فأغرقتها وسحبتها بعيدًا عن محيطها.

لدهشتها، فهي لم تتردد للحظةٍ واحدة قبل إدخال الرقم السرِّي المبهَم الذي طالبها به الجهاز العتيق، الرقم الذي توقَّفَ عليه مصيرهم جميعًا، الرقم الذي لم تتكبَّد أمُّها عناء تذكيرها به، سواء في المكالمة الهاتفية أو حتى في الرسائل الصوتية المسجلة، وكأنها كانت واثقة من أن سارة ستدركه، سيلمع في عقلها دون تردد.. أكان ذلك ثقةً في ذاكرتها، أم يقينًا بمشاعر محفورة بداخلها.. فورَ ظهور رسالة الجهاز اللوحي، أبرق عقلها بومضاتٍ سريعةٍ من ذكرياتٍ عتيقة، مشاهد قديمة، لقطات متفرقة متتابعة ومتداخلة، أحاديث مع والدتها في شبابها، أحداث عديدة، بعضها أنعش روحها وبعضها قبض قلبها.. ذكريات متداخلة ومشاعر متناقضة، لم تدرك منها شيئًا.. ولكن كلها تصبُّ باتجاهٍ واحد.. تجاه رقم.. رقم سيطر على عقلها وبرز أمام عينيها في وضوح، لم ترَ سواه، بل لم تشعر أنها في حاجةٍ إلى إدراكِ رقمٍ سواه.. فلم تتردد.. استعملته، ونجحت.. ولكن بقيَت الذكريات العتيقة طافيةً على سطح ذاكرتها، سابحةً كقطع أحجية «بَازِلْ» مبعثرة. عقدت حاجبيها بشدة في محاولةٍ لتجميع تلك القطع المتناثرة.

- سارة....

...

- يا سارة!!!

انتزعتها صيحةُ خالد من شرودها، فأجفلت والتفتت إليه بعينين واسعتين، ثم تلعثمت معتذرة، قبل أن يحثَّها خالد على مواصلة السير. تقدم ثلاثتهم ومعهم حِملهم الرابع الثقيل فاقد الوعي، حتى وصلوا إلى نهاية النفق الطويل المائل بمنحنياته الحادَّة التي أخذتهم إلى عمق سبعة طوابق تحت الأرض، ومسافة 350 متر غربًا.

توقفوا أمام بابٍ فولاذيٍّ سميك، فُتِحَ على مصراعيه تلقائيًا كاشفًا عن بهوٍ فسيحٍ للغاية. انطلقت غازات التعقيم، وانقشعت تدريجيًا لتكشف عن البهو وإضاءته غير المباشرة المريحة للعين. التقطت أنوفهم رائحة المكان الخانقة، رائحة تدل على بقاء المكان مغلقًا لسنوات طويلة. تبددت الرائحة تدريجيًا مع عودة أجهزة التكييف المركزية إلى العمل بكامل طاقتها، تنقِّي الهواء، وتبثُّ فيه دفقات من الأكسـجـين المرشح.

توقفوا يتأملون البهو الفسيح الذي تصل مساحته إلى ضعف مساحة ملعب كرة السلة، تتوسط شاشة ضخمة أحد جدرانه، وبجوارها ترتصُّ عدة أجهزة كمبيوتر لوحيَّة تتنوع في طرازها بين قديمٍ وحديث، فيما تناثرت بعض المقاعد المريحة والطاولات متعددة الاستخدامات في أرجاء البهو

الذي تحفُّه أبواب عديدة ضيقة. في حين برز ممرَّان متوسطا الطول في جانب البهو الشمالي، أحدهما يؤدي إلى غرفة واسعة تحوي ترسانة أسلحة متكاملة، فيما أخذهم الآخر إلى غرفةٍ فسيحةٍ أشبه بغرف المستشفيات، يتوسطها جهاز أسطواني الشكل أبيض اللون، جهاز ARD الذي أخبرتهم به والدتها.

جهاز التعافِي المتسارِع، والمعروف اختصارًا بـ ARD، الذي ما إن وضعوا فيه يحيى، وانتهى أيمن من ضبطه ثم وصَّل أنابيب التغذية المناسبة إلى أوردة يحيى وأحكم وضع قناع التنفس على أنفه، حتى توهَّج الجهاز بأضواء برَّاقة متتابعة بعد أن أحكم بابه الإغلاق. ثم ارتفع صوت هسيس غازات التعقيم وتنشيط الخلايا، لتغطي جسد يحيى شبه العاري الممدَّد في سلامٍ وسط سُحب تُخضِع خلاياه لعملية متقدمة من التعافي المتسارع، في حين أشار عداد التَّوقيت إلى 90 دقيقة، شرعت تتناقص تدريجيًّا.

ألقى ثلاثتُهم بأجسادهم المنهَكة على المقاعد المحيطة بالجهاز، وتبادلوا النظرات الخاوية، قبل أن يغلق كل منهم عينيه، ويسبح في أفكاره ومخاوفه في انتظار الخطوة القادمة..

خطوة تجاه مستقبل يجهلونه..

مستقبل يتطلَّب إجاباتٍ عن أسئلةٍ تتعلق بالماضي..

ماضٍ من أفرُع زمنيَّة مُتشعِّبة..

أفرع شكَّلت مُعضِلة زمنية، وجب عليهم حلُّها.

***

000011

11:30 مساءً.. العجمي..

شهقت ليلى بصوت مسموع واتسعت عيناها في ذعر، وهي تحدِّق في صورة والِدَيها الملطخة بالدماء.. دِمائهما التي أراقها زوجها.. الرجل الذي أحبته هو من يَتَّمها، هو من حطَّم طفولتها.. نشأت وحيدةً حزينةً لا لذنبٍ اقترفته، بل لخطايا حبيبها، تعطُّشه للدماء وشهوته للقتل أهلكت أهلها وفتكت بطفولتها.. أزهق رَوحَيْهما واتخذها سَبيَّة.. أتزوَّجها شفقةً أم إمعانًا في الانتقام؟ توقف عقلها عن التفكير أو ربط الزمن والأحداث منطقيًا.. فلا شيء منطقي منذ الصباح، منذ أن أدركت الجانب المظلم منه، منذ أن رأته يُريق الدماء بلا تردد أو خوف، لا يهمُّ السبب.. أكان يدافع عنها وعن ابنته أم عن نفسه؟ لا بُدَّ وأنه فَعَل بوالديها مثلما فعل بأعدائه، ذبحهما بوجهٍ صارمٍ باردٍ لا يعرف الرحمة.. فصرخت.. صرخَت صرخةً حملت كل ما في قلبها من ألم ولوعة..

انهمرت دموعها بغزارة.. انهمرت من أجل أن تطفئ نيرانًا مستعرة تلتهم روحها..

فأخفقت، واختلطت دموعها بلهيب الأسى بداخلها فاستحالت حِمَمًا منصهرة تحفُر وجهها..

صَرخَت من جديد..

ثم تعالت صرخاتُها في «كريشندو» مرعب ألقى الرَّوْعَ في قلب شريف، فانتفض من مجلسه مهرولًا إليها:

- ليلى!! ماذا حدث؟

قابلته بعينين شاردتين تفيضان بالدموع. دارت عيناها في مَحْجَرَيْهما عاجزةً عن إبصار أي شيء سوى شريف القاتل ودماء والديها تغطي يديه.. أمسك شريف بكتفيها يهزُّها ويسألها في جزع:

- ماذا بكِ؟ أخبريني!

التفتت إليه، التقت أعينهما، ثم دفعته بكلتا يديها في صدره، فتعثر في المنضدة وسقط أرضًا أمامها. انزلقت الصورة من يدها واستقرت على صدره، رَمَق الصورة وقد فَطِن إلى أنه اقترف إثمًا في حقٍّ عزيزٍ لديها. لقد أدركت ماضيه الذي يحاول معرفته والهروب منه، صرخات الأسى

ونظرات الهلع في عينيها تلخِّص كل شيء، فرفع حاجبيه واتَّسعت عيناهُ قائلًا في توسُّل:

- أنا لا أذكر شيئًا يا ليلي.. ولكن من المستحيل أن أتسبَّب في أذى للكِ! أنا.....

لم تسمع كلمة مما يقول، فقاطعته صارخة:

- أنت قتلت والديَّ! ذبحتهما بلا رحمة!

تزامنت صرخاتها مع صوت الرعد ينفجر في سماء الإسكندرية، ليلاحق ومضات البرق وصاعقاته المتتالية العديدة التي تشق السماء. لم تعبأ ليلى بصوت الرعد الرهيب، أفقدتها الصدمة حواسَّها، وأحكمت السيطرة على عقلها وجوارحها، فسحبت مسدس مايا من فوق المنضدة أمامها، وصوَّبته إلى شريف بيدٍ ترتعش، ونظرةٍ خاويةٍ لا تتجاوز سيول دموعها المنهمرة، والتي تنافس في كثافتها الأمطار التي بدأت في الهطول، ثم صرخت في جنون:

- قَتلتَهُما.. ولكن لن أسمح لك أن تقتل ابنتي!

قاطعتَهما مايا وقد لمحت الجهاز اللوحي السميك في الحافظة الجلدية يومض ومضات حمراء سريعة للغاية، ويُصدر أزيزًا حادًّا متصاعدًا:

- ليس لدينا وقت.. الخط الزمني ينهار.. لدينا دقائق معدودة!

أدارت نظرَها بينهما، لم تُحدث كلماتها أي تأثير يُذكر، النظرات الخاوية تملأ عَينَيْ ليلى والمسدس يرتجف في يدها، وشريف مُلقًى أرضًا ونظرات الجزع والتَّوسل تملأ عينيه ندمًا على أمورٍ لا يدركها، فأردَفت في حزم:

- «يجب أن نترك هذا الخط الزمني الآن.. سنقفز إلى خط زمني آخر.. إذا انهار هذا الخط الزمني ونحن بداخله فسنزول من الوجود!» ثم أكَّدتها بالإنجليزية: «We will cease to exist!».

لم تنتظر مايا منهما ردًّا وكأن ما يحدث بينهما شيءٌ لا يعنيها، فقط تعنيها مَهمَّتها التي أقسمت عليها، المهمة التي توشك على الفشل الآن. فإذا انهار الخط الزمني وهم بداخله سيزولون جميعهم من الوجود بلا استثناء، ستخسر مهمتها، ستُفنَى، وتُفنَى معها مهمتها. عقدت حاجبيها وأخرجت الأساور الزمنية التي انتزعتها من فرسان الزمن الصَّرعَى منذ ساعات، الأساور التي غمستها في دمائهم. ثم شرعت توصل السُّوَار تلوَ الآخر بالجهاز اللوحي السميك مستخدمةً السلك الأسود المتقدم (المُحوِّل الكمِّي)؛ لتعيد برمجة السوار وتحدد وجهة القفزة الزمنية المقبلة. عقدت حاجبيها في

تركيزٍ وقالت وكأنما تحدث نفسها:

- سأضبط الأساور الزمنية لتنقلنا إلى خطٍّ زمنيٍّ آخر.. لن يستطيع فرسان الزمن تتبُّعنا، فدماء فرسانهم على الأساور تطمس هُويَّتنا.. بل سيعتقد فرسان الزمن أننا قد لاقينا مصير الفَناء في هذا الخط الزمني المنهار. ثم أضافت في حزم: «استعدَّا!»

واصلت ضبط إعدادات الأساور الزمنية في عجلةٍ وتركيزٍ شديد. تسارعت وتيرة ومضات الجهاز اللوحي الحمراء وارتفاع حدَّة وعُلُوِّ أزيزه المزعج، مع ظهور رسالة حمراء ثابتة تحتلُّ الجزء الأعلى من الشاشة:

«انهيار زمني شامل.. بدأ التفاعل المتسلسل النهائي.. الخط الزمني 000011 يزول من الوجود».

اشتدت الومضات الحمراء وتسارعت وتيرتُها.. أرعشت الكهرباء المصابيح المتدلية بومضاتٍ متقطعة.. تعالى صوت انهمار المطر يطرق سقف البيت.. الزمن يكاد أن ينهار ويُطبِق عليهم جميعًا.. ولكن يبدو أن هذا كله ليس كافيًا، ليس كافيًا لإنقاذ ليلى من الانهيار وانتزاعها من صدمتها ونجدتها من فيض المشاعر المدمرة التي تفور بداخلها.. وليس كافيًا كذلك لتخليص شريف من مستنقعات الندم والحسرة التي تسحبه إلى أعماقها.. أعينهما معًا، أحدهما لا يرى سوى

الآخر.. فنهض شريف في بطءٍ وخطا نحوها، نحو جسدها المرتجف، تقدم غير عابئ بفوَّهة المسدس المصوَّبة إلى صدره، بل كان كل ما يشغله هو نظرات الألم التي تكسو وجهها، وروحها التي أوشكت على الانهيار.. اقترب أكثر، فصرخت:

- لا تقترب مني!

ارتجَّت النوافذ، ثم انفتحت في عنف تحت وطأة رياح عاتية.. تعالى صوت الرعد مع صاعقاتِ برقٍ متتاليةٍ عديدة تضرب كل بقعة من البحر والشاطئ.. الغيوم تتكاثف والأمطار تهطل بغزارة.. الرياح تلفح وجوههم بحبَّات الرمال الصغيرة المؤلمة..

قَطَّبَت مايا جبينها وأسرعت تضع سُوارًا زمنيًّا في يد سلمى الرضيعة وآخر في يدها، ثم شرعت تُنهي إعدادات سوار زمني آخر، وهتفت في توتر وقد صمَّ أزيزُ الجهاز المزعج آذانهم:

- الخط الزمني على وشك الانهيار.. ليس لدينا المزيد من الوقت!

تجاهلها شريف تمامًا وواصل تقدُّمه نحو ليلى، وضع يديه على ذراعيها في رفق، قائلًا ببطء:

- ليلى.. أنا أدرك تمامًا ما تشعرين به.. لكن هذا ليس أنا. صمت للحظةٍ ونظر في عينيها متابعًا في حنان: «أيًّا كان ما حدث، فالشخص الذي يقف أمامك الآن ليس هو من فعله.. قد لا أتذكّر حقًّا ما فعلته أو من آذيت.. بل قد لا أتذكر لحظة لقائنا الأول أو حتى لحظة زواجنا.. ولكن الشيء الوحيد الذي أشعر به وأعلمه علم اليقين، هو أنني أُحبُّك!»

وجدت كلماته صدًى في قلبها، فخفق في عنف معطيًا عقلها الفرصة كي يتمهل. لمح شريف في عينيها بارقة أمل، أحس بعقلها يحاول الإمساك بزمام الأمور من جديد، فضغط على ذراعَيها في حنان، فخَفتت رجفتها، وتباطأت حركة عينيها الزائغتين. فرفع صوته ليغطي على صوت الأعاصير العاتية وأردَف بنبرةٍ دافئةٍ صادقة:

- ليلى، من الواضح أنني قد تغيرت، أو على الأقل حاولت أن أتغير.. ويبدو أنه ولهذا السبب تحديدًا قد وقع كل ما مررنا به منذ الصباح.. والأمر الأكيد كذلك هو أنني قد تغيرت من أجلك أنتِ.. ومن أجلِ ابنتنا سلمى.

فهدأت..

هدأت ليلى رغم أن الزمن يوشك أن يُطبِق عليهم، فالرياح تشتد والثلوج تتكاثف والبرق يخطف الأبصار، ولكن كلماته الصادقة ألقت طوق النجاة إلى روحها الحائرة.. فهمّت أن

تخفض مسدسها..

لولا أن مادت بهم الأرض بغتة..

اهتزَّت الأرض تحت أقدامهم بعنف..

ودوَّى صوت الرعد كانفجار ألف قنبلة..

ففقدت ليلى توازنها، وانطلقت من مسدسها طلقة استقرت في صدر شريف مباشرةً..

وتوقف الزمن من حولها..

بل إنه ينهار في الواقع، لكنه توقف بالنسبة إليها..

خشعت الأصوات كلها، صوت الرياح وصوت الرعد، بل صوت تهشُّم محتويات البيت التي تطايرت حولها..

سكون تام.. مثل سكون الفضاء على مقربة من انفجارٍ شمسي..

فشهقت ليلى، وصرخت:

- لاااا.. لا يا شريف!

زحفت تجاهه، والدماء تسيل من صدره بغزارة، فنظر في عينيها مُطمئِنًا إيَّاها، نظرة تأمرها بألَّا تخاف أو تحزن.. فصرخت مجددًا وأدارت عينيها الملتاعتين إلى مايا

تستجديها:

- انجديه.. أرجوكِ!

أرجعت بصرها إلى زوجها الممدَّد أمامها، وسارعت تضع كَفَّيْها على الثقب الذي تفور منه الدماء في جزعٍ تحاول وقف النَّزْف. اقترَبَت منها مايا وسحبت يدها اليُمنى وألبستها إحدى أساور الزمن، قائلةً في حزم:

- انتهى الأمر.. لا يوجد ما نستطيع فعله.. ابتعدي عنه، ثم اضغطي زِرَّيْ «سُوار الزمن» في نفس اللحظة.. والآن... صمتت للحظةٍ ثم تابعت في صدق: «لأجل سلمى!»

- لا.. لن أتركه.. أنا من قتلته.. ساعديه!

حاولت مايا جذبها بعيدًا.. وفشلت.. الرياح تضرب بقوة والزجاج يتطاير حولهم.. الأرض تميد بهم.. الكون يتهاوى من حولهم..

خطفت ليلى الجهاز اللَّوْحيّ السميك من فوق المنضدة، ومدت به يدها إلى مايا وقد التفَّ السلك الأسود حول ساعدها. وهتفت في توسُّل والدموع تواصل انهمارها:

- أنقذيه! أنقذيه! أتوسل إليكِ!

تجاهلتها مايا تمامًا، الوقت ليس في صالحها أو صالح

مهمتها.. زفرت في ضيق، وحملت سلمى الرضيعة، غطّتها بسُترتها الجلدية لتقيَها الشظايا المتطايرة، ثم استخدمت كلتا يديها لتفعيل السوارين الزمنيين معًا، سوارها وسوار سلمى، ضغطت الأزرار قبل أن تقول:

- الأمر بيدك الآن.. إما أن تلحقي بنا أو تزولي من الوجود.

ثم دوّى صوت انفجار مكتوم صَاحبَه بريقٌ شديدٌ يغشى الأبصار.. ثم اختفت مايا وسلمى.. اختفتا، وخلّفتا وراءَهما هواءً ساخنًا ملتهبًا، واحتراقًا في الأرضية، وقَطْعًا دائريًّا حادًّا في الأثاث المحيط.. ورعبًا وهلعًا في عَينَيْ ليلى، التي صرخت في لوعة:

- سلمى!! سلمى ضاعت يا شريف!

سعل شريف دمًا من فمه، وهو يجاهد الوَهَن ليقول بصوت خفيض:

- الحقي بها.

زاغت عيناها وقد عجز عقلها عن التفكير، شُلّت أطرافها، فواصلت الصراخ باسمه وهي ترى الدماء تفور من فمه والحياة تفارق عينيه. جمع قُواه وأمسك بيدها وجاهد ليُثبّت نظراته التائهة في عينيها، قائلًا في وَهَن:

- أنا آسف يا ليلى!

قالها ثم استجمع ما تبقى من قواه وضغط زِرَّيْ سُوار الزمن الذي يحيط بمعصمها، فصرخت عندما أدركت فعلته، لن تتركه وحيدًا يلفظ أنفاسه الأخيرة، هي من قتلته، اسودّت الدنيا من حولها، أطبقت قبضتها على الجهاز اللوحي الممسكة به في عنف تُنفِّس فيه طاقتها وصرخاتها، ثم انهارت أعصابها وقدرتها على التحمُّل تمامًا، نهضت وتراجعت عدة خطوات إلى الوراء، فتعثرت وسقطت بعيدًا عنه مغشيًّا عليها.

وَمضَ سوارها ومضات بيضاء سريعة متتالية، ثم سطع ضوء أبيض قوي انتشر ببطء حول معصمها، فمِرفَقها فبَاقي جسدها، ثم تعاظم الضوء وازدادت شددته حتى غشي بريقه عَينَيْ شريف، ثم دوّى الانفجار المكتوم.. واختفت ليلى.. اختفت كما اختفت ابنته منذ لحظات.. لكنها لحقت بها، أو هكذا يأمل.. لقد أنقذها.. أنقذها من خَطٍّ زمنيٍّ يتهاوى.

بدأ وعيه يتسرب بعيدًا والدماء تواصل نَزْفَها، وقد أدرك أنه هالكٌ لا محالة، إما بالموت البطيء الحالي أو بالزمن الذي يتهاوى من حوله، أيهما يلحقه أولًا.

فأغلق عينيه..

نطق الشهادتين..

ورقد مستسلمًا ينتظر مَلَك الموت يقبض رُوحَه..

اشتدت الأعاصير، وتعالت الأمواج، وانهارت الأحجار، وأوشكت الدنيا أن تُطبق عليه..

ثم انتصرت غريزته، بارقة أمل واهنة لمعت في ثنايا عقله..

ففتح عينيه في بطء وحرك يده اليُمنى في وَهَنٍ نحو المنضدة الصغيرة إلى جواره، المنضدة التي كان قد لمح فوقها حافظة أسراره الجلدية وصندوق الرَّصاص الذي يحوي سُوارَه الزمني. سحب المفرش الصغير حتى سقط إلى جواره الصندوق المعدني والحافظة الجلدية التي تطايرت محتوياتها المشئومة.

بذل كل ما تبقَّى من قواه ليلتقطَ الصندوق ويُخرج منه السُّوار، ثم جاهد الوَهَن والرياح حتى تمكَّن من وضع السوار حول معصمه..

صواعق البرق تشقُّ السماء..

المياه تغطي كل شيء..

المياه تتجمد..

المنزل ينهار..

الثلوج تزحف، وفرائصه ترتعد..

قُوَاه تخور..

السواد يزحف على عينيه..

وعيه يعجز عن الصمود..

روحه قابَ قَوْسينِ أو أدنى من الصعود إلى بارئها..

....

...

..

.

..

...

....

ثم ضغط الزِّرَّيْن معًا، وأشعل السوار..

بريقٌ زاحف.. فانفجار مكتوم..

ثم اختفى كل شيء..

سكنت الأصوات..

ساد ظلامٌ دامس..

ظلامٌ أوّليٌّ بِكْر..

اختفت آلامه.. بل اختفى الشعور بأطرافه..

لقد ذاب في الظلام.. توحَّدا معًا.. حتى صارا نسيجًا متجانسًا..

توقف الزمن..

لا يدري، ولن يدري كَمْ من الوقت مرَّ عليه..

قد تكون ثواني أو دقائق أو سنين أو قرونًا..

لقد توقف الزمن بالكلية بالنسبة إليه..

الزمن يساوي «صفر»..

ثم عاد يشعر بأطرافه..

شعور الألم يغزو عقله من جديد..

ومضات ضوء سريعة متتالية..

ومضات ارتفعت وتيرتها حتى صارت ضوءًا ساطعًا سرمديًّا..

ثم صوت هادر يدوي في أذنيه.. ثم سكون.. ثم انفجار..

ثم ألم..

ثم ظلام...

***

باقٍ من الزَّمَن ثلاثُ ثوانٍ

00:00:03

000000

25 نوفمبر 1915 (17 ساعة قبل الكارثة)

7:00 صباحًا.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

طرق «إدريس» كبير الخدم النوبي باب غرفة مكتب إسماعيل بك الخازندار بالطابق الأرضي من فيلّته الواقعة في قلب «واحة هليوبوليس». لم يتلقَّ إجابةً كما كان يتوقع، فانتظر بضعَ ثوانٍ أخرى قبل أن يعاود الطرق مجددًا ويفتح الباب في هدوء. دلف إلى غرفة المكتب الأنيقة ليرى إسماعيل وقد جلس خلف مكتبه الفرنسي منهمكًا في قراءة بعض الكتب وخط مُسوَّدات لمعادلات رياضية معقدة. وقف إدريس صامتًا للحظاتٍ وهو ينظر إلى سيده الذي سرح في عالمه الخاص حتى إنه نسي، كعادته، أن يرتشف من فنجانَيْ قهوة باردين أعدهما له الخدم منذ استيقاظه وقبل ذهابه إلى عمله بمدرسة المعلمين العليا. اعتاد إدريس رؤية سيده في تلك الحالة بين الواقع والخيال، غارقًا في أوراق علمية ورموز وشفرات رياضية متشابكة، لا يرطب جفافها سوى أنغام سيمفونيات بيتهوفن وموتسارت التي يعشقها

إسماعيل، وهي تُبث من ذلك الجرامافون الثمين الموضوع في أحد أركان الغرفة.

تنحنح إدريس في حرج، فرفع إسماعيل رأسه ينظر إليه في تساؤل بعينين شاردتين وذهن غارق في معادلات وأرقام، فأجابه إدريس بصوتٍ خفيض، بلهجته النوبية المميزة:

- في واحد بيه عايز سعادتك.. بيقول صديق من برلين.. منتظر في الصالون.

- برلين؟!

قالها إسماعيل بعد أن رفع حاجبيه في دهشة، ثم نهض من خلف مكتبه متوجسًا. مرَّر يده يطمئنُّ على شعره الأسود اللامع المصفَّف بعناية، ثم عدَّل هندامه، وتأكد من وضعية ربطة عنقه الحريرية الزرقاء، وأغلق أزرار بذلته الكحلية الباريسية الأنيقة، قبل أن يتقدم إدريس نحو غرفة الصالون في أحد أركان الردهة.

دلف إلى غرفة الصالون ذات الأثاث الفرنسي المزخرف، ليجد ذلك الزائر وقد وقف أمام النافذة يتأمل حديقة الـڤيلّا الصغيرة التي بلَّل الندى حشائشها. وما إن تناهى إلى مسامعه صوت باب الغرفة يُفتح ومعه خطوات إسماعيل،

حتى التفت الزائر وعلى وجهه ابتسامةٌ وَدُودةٌ أخفتها تلك القبَّعة الأوروبية التي يعتمرها. ضاقت عينا إسماعيل وهو يرمق الزائر بنظرة مُتفحِّصة حتى خلع الأخير قبعته، فاتسعت عينا إسماعيل في دهشة، ما لبث أن طمسها تأدبًا بابتسامة مصطنعة حاول أن يجعلها مُرحِّبة قبل أن يقول بالألمانية:

- أنت صديق عالم الرياضيات «ديـفـيد هيلبرت» إن لم أكن مخطئًا.. لقد التقينا في مؤتمر برلين في مايو الماضي.. ذلك المؤتمر الذي عرض فيه ألبرت أينشتاين إحدى نظرياته، أليس كذلك؟

- بالضبط.. هو كذلك!

قالها الرجل بألمانية مماثلة ثم خلع قُبَّعته لتظهر ملامحه الشرق أوسطية الواضحة وسِنُّه التي تُقارب الخمسين. تفرَّس إسماعيل في ملامحه قبل أن تضيق عيناه ويقول في نبرةٍ امتزج فيها الشكُّ بالدهشة:

- تبدو أكبر سنًّا على نحو ملحوظ!

حافظ الزائر على صمته، قبل أن يقطع إدريس ذلك الصمت حين سعل في حرج، فالتفت إليه إسماعيل بأعينٍ متسعة، ثم ما لبث أن سأل ضيفه إن كان يرغب في احتساء فنجان من

القهوة، فأجابه الزائر بالإيجاب. تركهما إدريس وأغلق الباب من ورائه. وعاد التَّوَتُّر يسيطر على المكان حين اتخذ الزائر مقعدًا، دون استئذان، ووضع ساقًا فوق الأخرى وهو يقول بنبرةٍ هادئة:

- هل ما زلت تعمل على «متوالية برلين»، تلك المتوالية العددية التي طرحتَها على ديـڤـيد هيلبرت؟

اتسعت عينا إسماعيل في دهشةٍ وظل واقفًا يحدِّق في زائره الغامض. أشار إليه الزائر بالجلوس، فاستجاب إسماعيل بصورة آليَّة قبل أن يجيب في شَكٍّ وقد أصابه التلعثم من جديد:

- ننن.. نعم، ما زلت أعمل عليها. فلا يزال ينقصُها قطعة واحدة أخيرة. آآآمل أن أتوصل إليها قريبًا.

مطَّ الزائر شفتيه وهز رأسه نافيًا وهو يقول:

- «مع الأسف لن تتمكن من التَّوصُّل إليها.. لن يسعفك الوقت». لاحت على شفتيه ابتسامة هادئة يخفف بها توتر إسماعيل، ثم استطرد قائلًا: «لكنني سأساعدك». صمت قليلًا ثم تابع في هدوء: «ستحصل على ما ينقصك اليوم.. ستحصل على مجموعة معادلات تم ابتكارها في المستقبل قد تساعدك على التَّوصُّل إلى القطعة الناقصة».

بلغ ذهول إسماعيل وتوتره مبلغه، وجفَّ حلقه، وتلعثمت الكلمات على لسانه كما اعتاد منذ الصِّغَر، فهو لا يتحمل الضغوط والمواقف المعقدة صغُرت أم كبُرت. طفولة لا يتذكَّر منها سوى أحلام وكوابيس مرهقة أثَّرت على شخصيته رغم ما وفرته له أسرته فاحشة الثراء من موارد كفلت له رغد العيش، سواء خلال إقامته في ألمانيا منذ سنوات طفولته الأولى أو عقب عودته إلى مصر صحبة أسرته منذ ثلاثة أعوام. حاول إسماعيل السيطرة على نفسه وفشل، فهتف في توتر:

- أأأأ.. أأنا لا أفهم شيئًا. ماذا تريد بالضبط؟

تَنهَّد الزائر في أسى، وأغمض عينيه للحظةٍ أن قبل أن ينظر إلى إسماعيل ويجيبه بنبرة، يكاد يقسم الأخير أنه لمس فيها شيئًا من العطف:

- إسماعيل بك.. اليوم سيكون يومًا مختلفًا بالنسبة إليك. سوف تواجه أحداثًا عظيمة تتعارض مع المنطق. فقط ثِقْ في حَدْسِك قبل كل شيء.. وضع كامل ثقتك بي.

فغر إسماعيل فَاهُ ذهولًا وتهدَّجت أنفاسه وخفق قلبه في عنف، حتى إنه لم يشعر بإدريس وقد أحضر القهوة وغادر الغرفة متوترًا بعد أن لمح تلك النظرات في عَينَيْ سيده. تابع الزائر حديثه قائلًا:

- في وقتٍ لاحقٍ اليوم سيأتي لك رسول من المستقبل محمَّلًا برسالة. رسالة تحتوي على ما ينقصك من المعادلات لاستكمال متواليتك الحسابية. كما سيحمل لك الرسول ذاته رسالة أخرى، رسالة تضم أوراقًا لم ترَ مثيلًا لها ولمحتواها من قبل. زيارة الرسول ستتعارض وأبسط قواعد المنطق، لكنها ستجعلك توقن بأهمية وصحة ما أقول.. ستجعلك تؤمن.. أرجو أن تتحلى بالشجاعة.. كُنْ قويًّا يا إسماعيل.

فرغ الزائر من جملته ثم وقف في هدوء. ظل إسماعيل مُحدِّقًا في المقعد الفارغ بأعينٍ زائغةٍ متوترة، قبل أن يرفع ناظريه إلى الزائر الغامض ويسأله في ذهول:

- رسول من المستقبل!! ماذا تعني؟! ماذا تريد حقًّا؟

- ثلاثة تواريخ.. وثلاثة مواقع...

- ماذا؟!

- اسمعني جيدًا يا إسماعيل.. متواليتُك الحسابية ومعادلاتها الهندسية ستحلُّ أُحْجِيَّة زمنيَّة معقدة وعصيَّة على الحل.. أحجية يتوقف عليها مصيرنا جميعًا.. أحجية تتكون من ثلاثة تواريخ وثلاثة مواقع.. لنَقُل إنها ثلاث نقاط زمنية محورية يتوقف عليها مصير الزمن.. حِلَّ الأُحجيةَ وَجِد نقاط الالتقاء الثلاث.. حدِّد مواقعها وتواريخ تواجدها..

أنا أثق في عبقريتك الفذَّة تمام الثقة.. چينات قوية أصيلة حقًّا.

لم يفهم إسماعيل حرفًا مما قال الرجل، فهزَّ رأسه قبل أن يسأل الأخير في دهشةٍ بلسانٍ متلعثم:

- مممـــ.. ما هي تلك الأحجية؟ وما هي تلك التَّواريخ والمواقع؟ إإشرح لي أرجوك! أنا لا أفهم شيئًا!

تَنهَّد الزائر في عمقٍ قبل أن يقول في بطءٍ ضاغطًا على مخارج ألفاظه:

- «عند حلول منتصف الليل سينتهي العالم كما تعرفه.. سيندثرا»، مَطَّ شفتيه ثم تابع: «فَنَاء تام تبدأ موجته الأخيرة في تاريخٍ ما في موقعٍ ما.. موقع التقاء نفقين للانتقال الزمني.. لكل نفق بوابة زمنية تتكون إحداثياتها من موقع وتاريخ». ضغط على مخارج ألفاظه وهو يقول: «حِلَّ تلك الأحجية كي نوقف اندثارًا شاملًا قد بدأ بالفعل». ثم صمت مثبتًا عينيه في عَينَيْ إسماعيل الزائغة، قبل أن يضيف بنفس النبرة: «قد تكون أنت يا إسماعيل الأمل الوحيد.. فقط نمتلك محاولةً واحدةً أخيرة.. أنت بطلُها».

تدلَّى فكُّ إسماعيل السُّفلي ذهولًا، وتهدَّجت أنفاسه وتصبَّب العرق من جبينه. شيءٌ ما في كلمات ذلك الزائر وأسلوبه

منعا إسماعيل من اتهامه بالجنون، لمسا شيئًا ما بداخله. بؤرة ما في ذاكرته أو في أعمق أعماق روحه قد ومضت، فرضخ عقله.. شعور مبهم عجيب ملأ كيانه، وجعله يثق في ذلك الزائر الغامض ويزن كلماته.

مرت لحظات طويلة من الصمت احترمها الزائر، قبل أن يرمقه إسماعيل بنظرةٍ زال منها الذهول وهو يسأله:

- ماذا تريد مني أن أفعل تحديدًا؟

ابتسم الزائر بزاوية فمه قبل أن يقول:

- حِلّ الأُحجية.. حدد التَّواريخ الثلاثة ومواقعها.. مع الأسف سيكون أمامك أقلُّ من ثلاث ساعات فقط لتكمل متواليتك الحسابية وتستخدمها لحل تلك الأحجية وتنقذنا جميعًا. صمت قليلًا ثم تَنهَّد في عمقٍ قبل أن يتابع: «ثلاث ساعات ستفقد بعدها حياتك».

تأمل في أسى الدماء وهي تنحسر عن وجه إسماعيل فاستحال لونه إلى لونٍ أقرب إلى الثلج. رَبَّت الزائر على كتف إسماعيل في شفقة وأطرق قليلًا ثم تَنهَّد قبل أن يضيف:

- «حياتك التي ستفقدها بيدي!»، ثم استدرك: «ولكن لا تَبتئِس، فلن أمسَّ أسرتَك بسوء».

أنهى جملته ثم اعتمر قبّعته الأوروبية وفتح باب غرفة الصالون، تاركًا إسماعيل عاجزًا ذاهلًا يرزح تحت وطأة شعور ثقيل بالاستسلام لمصير محتوم.. انتابته مشاعر مختلطة عديدة.. لكن ليس من بينها الخوف.

استجمع إسماعيل شَتات نفسه وهُرع يلحق بالزائر الغامض، الذي كان يخطو إلى الشارع عبر بوابة حديقة الـڤـيلّا الخارجية. فاستوقفه إسماعيل حين هتف:

- مَنْ أنت؟

التفت إليه الزائر نصف التفاتة وهو يجيبه:

- كانوا يطلقون عليّ لقب «المُؤرِّخ» لرحلاتي التاريخية العديدة». شرد ذهنه للحظةٍ ثم استطرد: «ولكن يبدو أن هذه هي رحلتي قبل الأخيرة!»

قالها ثم صعد إلى تلك العربة التي يجرُّها حصان، «الحنطور»، والتي كانت تنتظره. استقرَّ «شريف القاضي» بداخلها ثم أمر سائقها أن ينطلق بها مبتعدًا.

وخلف ستائر غرفة النوم الرئيسة في الدور العلوي من الـڤـيلّا، وقفت «أمينة» زوجة إسماعيل تختلس النظر وقد خفق قلبُها في خوف وهي تراقب ذلك الزائر الغامض، نذير الشؤم، وهو ينطلق مبتعدًا تاركًا زوجها في تلك الحالة بين

اليأس.. والجنون.

***

000010

6:35 مساءً.. المخبأ الآمن

أصدر جهاز ARD أزيزًا متقطعًا معلنًا نهاية جلسة الاستشفاء وتنشيط خلايا جسد يحيى الراقد بداخله منذ ساعة ونصف الساعة استقرت خلالها وظائفه الحيوية، واستعادت خلاياه المنهكَة والمستبدلَة الكثير من نشاطها. اخترق الصوت أُذنَيْ أيمن، فأجفل واعتدل في مقعده مفزوعًا بعد أن انتزعه الأزيز من سُباتٍ مضطربٍ مليءٍ بالكوابيس المقبِضة.

نهض مترنحًا إلى الجهاز الذي خبا توهَّجه المتقطع واستقر على ضوء أزرق خافتٍ، يمتزج في سلاسةٍ مع ضوء الحجرة الأبيض الهادئ. ضغط زِرَّ فتح غطاء كابينة الجهاز مُحكمة الغلق، فدوَّى صوت معادلة الضغط الجوي بين داخل الكابينة وخارجها. هرَبَت بقايا الغازات المنعشة للخلايا إلى محيط الحجرة الواسع، وانقشعت ليظهر من خلالها جسد يحيى البدين وصدره يعلو ويهبط في وتيرةٍ بطيئة، ورتيبة.

نزع عنه أيمن قناع التنفس والأنابيب الوريدية بعد أن

حقنه بمادةٍ يستعيد بها وعيه تدريجيًا، ثم انفصل الجزء السفلي من الكابينة الراقد فوقه يحيى، وتحرك بصورة أفقية عن طريق ذراع آليَّة قوية ذات أربعة محاور لحرية الحركة، فنقل الجسد البدين إلى سريرٍ طبيٍّ مجاور ومنفصل.

اطمأن أيمن على حال يحيى واستقرار وظائفه الحيوية وبداية استعادته لوعيه، ثم جال ببصره في الحجرة الفسيحة بحثًا عن خالد وسارة، اللذين كانا يجلسان بجانبه قبل أن يغادرا الغرفة تباعًا عندما غلبه النُّعَاس من شدة الإجهاد الجسدي والذهني. لم يكن يعلم أن خالد لم يغمَض له جفن منذ أن استقرَّ جميعهم على المقاعد المواجهة لجهاز ARD، فكانت خلايا عقله تنصهر كمُعالِج بيانات في حاسوب عتيق يجاهد لتحليل بيانات متضخمة، تسارعت التساؤلات، وتصاعد لهيبُها في أرجاء عقله دون رحمة:

فمَنْ هو يحيى ذلك البدين غريب الأطوار؟ ولماذا يوجد من يسعى لقتله؟

بل من هي تلك الجماعة التي تمكَّنت من سحب تأمين المستشفى العسكري بإحدى أشد الثكنات العسكرية تأمينًا، وبعد ذلك قاموا بتحريك طائرات V3 عالية التسليح والتي ليس من المعتاد أن تتحرك في مهامَّ ذاتِ طبيعةٍ داخليَّة؟ ما مدى نفوذهم؟

ثم هل يمكن لمجموعة كتلك التحرُّك عبر خطوط زمنية مختلفة للتخلص من يحيى؟

عند تلك النقطة صرخ عقله في استنكار: «ما هذا الجنون؟ ما هذا إلا محض هُرَاء، لا توجد خطوط زمنية ولا سفر عبر الزمن..توقف الآن عن هذا العبث أو ستفقد عقلك أنت الآخر!».

قَطَّبَ خالد جبينه في شدةٍ وهو يتأمل جسد يحيى الراقد وسط غمام من الغازات في ذلك الجهاز المتقدم، وكان التَّوقيت لا يزال يشير إلى 57 دقيقة متبقية، بينما يغطُّ أيمن في نومٍ عميقٍ تعالى معه صوت شخيره الذي ينمُّ عن إنهاكٍ جسديٍّ حادّ. غادر الحجرة بعد أن ألقى نظرة مُتشكّكة على سارة التي كانت تغمض عينيها لتسبح في عالمٍ آخر من التساؤلات. لم يكن يدرك أن سارة لم يداعب النوم جفنيها قط هي الأخرى، بل ظلت تائهةً في غابةٍ من علامات الاستفهام الشاهقة حول والدتها، وتدخُّلاتها، ومنزلها الآمن، ولماذا من الأساس تقيم أمها مخبأً حربيًّا كهذا مُقَاوِمًا لأعتى أنواع الأسلحة ومجهزًا لإقامة مُطوّلة؟

ولماذا صُمِّمَ نظام تأمين المخبأ من أجل سارة وحدها دون غيرها؟ بل دون والدتها شخصيًّا؟

أهذا له علاقة بماضيهما؟ أم كانت على علمٍ بما سيحدث

لها؟ كيف؟ ولماذا؟

ماذا كانت تعني بأن النهاية وشيكة؟ أيَّة نهاية تقصد؟

أتلك النهاية ترتبط بظهور يحيى؟

ثم قبل كل ذلك، مَنْ هو يحيى؟ ماذا وراءه؟

لماذا يصرُّ على أنها زوجته؟ بل ستصبح زوجته، وأُمَّ وَلَديْه في مستقبلها هي وماضيه هو؟

أستكون زوجته في المستقبل، أم أنها حقًّا زوجته في واقعٍ مُوازٍ؟

أسَارَّةُ الحالية تختلف عن سارة، أو رانيا كما يسميها، في واقعه الموازي أم هما نفس الجسد؟

شخصان مختلفان يحملان الـجينات والصفات ذاتها؟ أم جسد واحد في زمنين مختلفين؟

ما هذا الجنون؟

ارتبكت أفكارها في تناقضٍ عنيف، ففتحت عينيها وزفرت في حنقٍ واضح مع عجزها عن إدراك ما يحيط بها، لم يعُد لأي شيء معنى منذ أن ظهر يحيى في حياتها، مظهره وطريقة تفكيره وكلماته الغريبة حولها وحول أسرة هادئة في حاضر لم يأتِ بعد. نبوءات غريبة لكنها استعذبتها

إن أردنا الحقيقة، أم أنها فقط استعذبت أسلوب سردها وغموضها.. أم..... أم أنها وجدتها رابطًا لشيء ما غامضٍ بداخلها، شيء لا تدري كُنْهَه لكنه موجود في أعماقها الدفينة.. «كفَى جنونًا أنتِ الأخرى»، صرخ عقلها وكأنما يرد على صيحات عقل خالد في حقلِ أفكارٍ ملتهبِ آخر.

ليت الأمر يقف عند يحيى وما جرَّها إليه دون قصد، فما زاد الطين بِلَّةً، هي والدتها، التي كشفت عن جانبٍ كانت سارة تجهله عنها طوال عمرها الذي اقترب من ربع القرن، جانب النفوذ القوي.. والحاسم.. فرغم حالتها الصحية المتدهورة فقد أتت بأفعال يعجز عنها الأصحّاء. تدخلت بصورةٍ غير متوقعة في وقتِ ظنَّت أن حياتها على المحَكّ. لم تكن تدرك أن والدتها تمتلك كل تلك القدرات والنفوذ الذي وصل إلى درجة إعادة تفعيل حسابها في «فريدة»، النظام الأكثر تأمينًا في تاريخ الأنظمة الرقمية، وكل ذلك في ظل وضعها الصحي الحالي! توقفت عند تلك النقطة واسترجعت مكالمة والدتها في الصباح، ورفضها القاطع لإجراء عمليات نقل الأعضاء واستبدال الخلايا والألياف الميتة، بل وإصرارها الشديد على استرجاع عيِّنة الحَمْض النووي قبل تحليلها. عقدت حاجبيها بشدة حين تذكَّرت أن نتيجة اختبار العينة من المفترض أن تكون قد ظهرت عصر اليوم، فرفعت يدها بصورةٍ تلقائيةٍ نحو جهاز الاتصال خلف أذنها اليُمنى لتُجري اتصالًا فوريًّا

بالمعامل المركزية، ولكنها ارتدَّت خائبة، فزفرت في حنقٍ حين أدركت أنها قد خلعت الجهاز طواعيةً وتركته هناك في صندوق العزل المعدني، فهزت رأسها في ضيقٍ ونهضت تغادر الغرفة بخُطًى عصبية واضحة.

خرجت سارة إلى بهو المخبأ الفسيح، وجالت ببصرها تتفقَّده مجددًا، بهو فسيح بجدران حجرية وإضاءات جانبية خافتة، يعجُّ بالأجهزة والشاشات وأجهزة الكمبيوتر اللوحيَّة، التي تتركز أغلبها في أحد جوانبه المقابلة لمدخل البهو المؤدي إلى النفق، بينما تحفُّه من الجوانب أبواب غرف نوم مغلقة بمقابض كلاسيكيَة، مَطَّت شفتيها عندما تأملت غرف النوم الضيقة بأسِرَّتِها ذات الطابقين ومشتملاتها الأساسية إلى جانب حمام صغير يعمل بتقنية الشفط كما في الطائرات، غرف تكفي دستتين أو يزيد من اللاجئين. لمحت بابين متوسطَي الحجم من الفولاذ يقعان في ركنين متقابلين على الحائط نفسه الذي تشغله الشاشة الضخمة، اقترَبت من أحدهما وتحسَّسته بيدها، ثم عقدت حاجبيها في اهتمامٍ عندما لاحظت عدم وجود مقبض، فأمعنت النظر بحثًا عن وسيلةٍ ما تفتحه بها، مقبض أو زِرّ مخفي أو قُفْل إلكتروني، بلا جدوى، ثم جاءها صوتُ خالد من خلفها:

- «لا تحاولي.. لا يوجد قفل أو حتى مقبض». ثم أضاف

متهكمًا: «سر جديد.. مثل باقي الأسرار التي تظهر الواحد تلو الآخر».

التفتت إليه وهي تمطّ شفتيها في حرج، هي تدرك أن رأسه يعجُّ بتساؤلاتٍ أشد حدّةٍ من تلك التي تتصارع بداخلها، تدرك أنها شخصيًا تمثل لغزًا يستعصي على الحل بالنسبة إليه، فأطرقت برأسها في انتظار سؤاله التالي، السؤال الذي تنتظره منذ غرفة المستشفى. لم يُخيِّب ظنّها وعاجلها بالسؤال:

- «مَن أنتِ يا سارة؟» تأمل وجهها الذي خلا من التعبيرات، فأضاف بنبرةٍ حائرةٍ اختلطت بمسحةِ حزنٍ وهو يخطو تجاهها: «أنت زميلتي وصديقة مقربة لي ولأسرتي منذ ثلاث سنوات، لماذا تخفين عني كل هذا؟ أشعر كأنني لا أعرفك.. لا، هو ليس شعورًا، بل هو واقع، أنا لا أعرف شيئًا عنكِ البَتّة.. هل أنتِ حقًّا سارة زميلتي، أم «رانيا» زوجة ذلك المجنون الغامض؟!»، صمت يتأملها وقد لمح عينها تترقرق بالدموع، هزَّ رأسه في أسى ثم تابع: «أشعر بأنني سأُجَنّ!»

حاولت أن ترد عليه، فقاطعها وهو يشيح بيده في المكان، وقد بدأ الغضب يتسلل إلى نبراته:

- «ما هذا المكان؟ لماذا شيّدت والدتُك شيئًا كهذا؟»، فقد السيطرة على أعصابه كليًّا، فأمسك بمعصمها في قوة،

وتعالت نبرته الغاضبة وهو يصرخ: «أُمُّك القعيدة التي لا تحرك إصبعًا واحدة، بل وتتحدث من خلال جهاز يتصل بمُخِّها، كيف لها أن تفعل كل هذا؟!» صمت حين بلغ الغضب منه مبلغه، ثم عقد حاجبيه وتابع في صرامةٍ شديدة: «اسمعيني جيدًا.. مهما كانت حقيقتُك أنت وأمك، فلن تدفع ابنتي وزوجتي ثمن شيء لا ذنب لهما فيه.. هل أنا واضح؟!»

اخترقت كلماته قلبها قبل أذنيها، هي كذلك كانت تَعدُّه صديقًا لها، بل أخًا؛ ولذلك قد يكون هو الوحيد الذي يعلم بأمر والدتها طريحةَ الفراش منذ سنواتٍ طويلة، والدتها التي تعرضت لإصابات خطيرة أفقدتها القدرة على الحركة والكلام.. شلل تام.. ولولا تقدم تكنولوجيا «واجهة الدماغ الحاسوبية» أو BCI، لما تمكَّنت حتى من التَّواصل مع ابنتها.

سنوات طويلة ظلت فيها والدتها طريحةَ الفراش، لا تقوَى على الحركة أو حتى تحريك الشفاه، أصبحت تستخدم شرائح مزروعة في مخِّها للتحكم في أذرع آليَّة بمنزلها المجهز لتلبية احتياجاتها الأساسية، أصبحت تلك الشرائح وسيلة تواصُلها مع ابنتها ومع العالم الخارجي، شرائح تتصل بفصوص المخ ومراكزه المختلفة لتترجم أفكارها إلى كلمات، من خلال تكنولوچيا شديدة التعقيد، تكنولوچيا قادرة على تنقية وفصل الأفكار والذكريات المجردة عن الأوامر

الصريحة للأذرع الآليَّة أو كلمات الحوار والتَّواصل.

طفولة قاسية عاشتها سارة جعلتها تزهد في مُتَع الحياة، وانصبَّ تركيزها على التعليم والتفوق فيه، انصبَّ على تطوير مهاراتها العقلية والبدنية تنفيذًا لرغبات والدتها والبرنامج الصارم الذي أعدَّته من أجلها.

فقدت سارة فترة مراهقتها، فقدت شغف البنات في تلك المرحلة الحرجة التي تشكل مستقبلهن، ولكن في المقابل فقد تخصصت وتفوقت، بل وبرعت، في مجال «البرمجة الدماغية»، ذلك المجال الجديد متعدد التخصُّصات، والذي يتضمن دراسة خوارزميَّات الذكاء الاصطناعي إلى جانب دراسة العقل البشري وطرق التَّواصل معه وإعادة برمجته، مجال شديد التعقيد يهدف إلى تطوير الحواسب الكمِّية لتُماثِل قدرات العقل البشري الفائق. نبغت في مجالها حتى أصبحت أصغر أعضاء مجموعة «ألفا» سنًّا، وأعلاهم كفاءة، لقد أعدت خوارزميات شديدة التعقيد والتقدم أسهمت في تطوير «فريدة» وتحقيقِ قفزاتٍ هائلة في قدراتها الحاسوبية.. ثم أمرتها أمُّها بالتَّوقف.. أمرتها بترك كل شيء والالتحاق بقطاع الأمن الداخلي، ترك مجموعة «ألفا»، حلم الأحلام بالنسبة إلى الشباب وكبار السن على حَدٍّ سواء، لتصبح ضابطًا بجهاز الأمن الداخلي تحقق في قضايا الأمن

السياسي للإمبراطورية التي لا يغيب عنها الشمس. ورغم الاستياء، والشجار، والحوارات الساخنة المُطوَّلة، رضخت سارة لرغبة والدتها، استجابت لها كما فعلت دائمًا وستفعل مستقبلًا.

- أنا آسف يا سارة.

قاطَع خالد ذكرياتها الأليمة بنبرته التي حملت الكثير من الندم وإن لم تخلُ من العصبية، فالتفتت إليه بعينين شاردتين، ثم زفرت في أسى وهي تقول:

- «أنا أتفهَّمك يا خالد، وأقدِّر مشاعرك.. لا أعلم إن كنت ستصدقني أم لا إن أخبرتك أنني مثلك تمامًا، هناك أشياء كثيرة لا أفهمها، لا عن نفسي، ولا عن أمي». صمتت للحظة، ثم أضافت بنبرةٍ صادقة: «يجب أن تعلم أنني لم ولن أتسبب في أي أذى لك أو لأسرتك الصغيرة.. لقد فُرض علينا هذا الوضع الذي يفوق قدراتنا على الفهم والإدراك.. الحل الوحيد هو أن نواجهه معًا، أن نهدأ ونتدبَّر الأمر ونخطط جيدًا لخطواتنا المستقبلية».

أومأ برأسه موافقًا ثم زفر في ضيقٍ والتزم الصمت. خَيَّم الصمت عليهما للحظات، استجمع كُلٌّ منهما فيها أعصابه قبل أن يبتسم خالد وهو يقول مُلطفًا الأجواء:

- بالتأكيد تشعرين بالجوع مثلي؟ يوجد مطبخ لحُسن الحظ.. طبعًا الطعام عبارة عن أطعمة جافَّة ومُعلَّبات محفوظة، لكنه يفي بالغرض.

ابتسمت هي الأخرى، وأومأت برأسها إيجابًا. تعاونا معًا لإعداد الطعام، طعام جاف أشبه بطعام روَّاد الفضاء في محطاتهم الفضائية. استعملا بعض الأجهزة المتقدمة التي تعيد للطعام الجاف الكثير من صفاته الطبيعية فيصير كالأغذية الطازَجة. أعدَّا طعامًا شهيًّا وفقًا للمتاح، ووضعاه على إحدى موائد الطعام المستديرة في بهو المخبأ. جلسا في هدوء ينتظران أيمن بعد أن دعاه خالد للانضمام إليهما، فور أن رنا إلى مسامعه أزيز جهاز الاستشفاء يعلن نهاية الجلسة. مرت دقائق قليلة حتى انضم إليهما أيمن والإجهاد قد بلغ منه مبلغه، فسأله خالد في اهتمام:

- كيف هو الآن؟ هل استفاق؟

مطَّ أيمن شفتيه، وأجاب في هدوء:

- يستفيق حاليًّا.. حالته استقرت.. جهاز ARD سيساعده كثيرًا، جلستان أو ثلاث وسيعود كما كان أو أفضل.

- عظيم.. في انتظاره.

علَّق خالد وهو يهزُّ رأسه في اقتضاب، ثم شرع ثلاثتهم

في تناول الطعام في جوٍّ غلَّفه صمتٌ ثقيل، صمت لم يحاول أحدهم قطعه حتى على سبيل المجاملة، كُلٌّ اكتفى بعالمه الخاص. لمحت سارة يحيى قادمًا يترنَّح، فارتسمت ابتسامة مُرحِّبة على وجهها قبل أن تتسع عيناها في دهشةٍ وتستحيل ابتسامتها إلى تعبيرات متوترة. لاحظ خالد وأيمن نظراتها فالتفتا إلى باب الغرفة الطبية خلفهما، راقبا يحيى وهو يتقدم نحوهما مُترنِّحًا، فاتسعت عينا خالد في دهشة، ثم عقد حاجبيه وهبَّ من مقعده في سرعة، في حين اتسعت عينا أيمن في ذعر وهو يرى يحيى، بعباءة المستشفى شبه العارية، يتقدم نحوه مستندًا بإحدى يديه إلى الحائط، بينما تمسك الأخرى بمسدسٍ يصوِّبه إليه مباشرة.

هرول خالد في اتجاهه هاتفًا:

- ماذا تفعل يا يحيى؟

تجاهله يحيى تمامًا، وواصَل تصويب مسدسه ناحية أيمن المذعور، وقال بنبرةٍ صارمةٍ غلبها الإعياء: «هذا خائن.. هو من أبلغ عنَّا لحظة الهروب.. لقد رأيته بأُمِّ عَينَيْ وقد أشعل جهازًا ما قبل أن تهاجمنا تلك الطائرات».

تسمَّر خالد في وقفته بضع لحظات، ثم هتف في يحيى مستنكرًا:

- ماذا؟

تجاهله يحيى مجددًا وواصل تقدمه نحو أيمن، الذي حاول النهوض من مقعده فخانته قدماه، ارتعش المسدس في يد يحيى وهو يهتف في وجه الطبيب المذعور بغضب هادر:

- أين ولداي؟ تكلَّم قبل أن أحوِّلك إلى مصفاة.

تذكَّرت سارة أنها قد لمحت بالفعل شيئًا مريبًا قبل إطلاق صواريخ EUF، كيف نسيت ذلك؟ لا بد أن تَسارُع الأحداث قد طمس المشهد في ذاكرتها. عقدت حاجبيها في شدَّةٍ ونهضت في سرعةٍ ناحية أيمن الذي ازدادت عيناه اتساعًا في هلع. وقف خالد مشدوهًا يدير نظره بين ثلاثتهم في ذهول، ثم حدَّق في سارة وهي تفتش ثياب الطبيب في سرعةٍ، قبل أن تُخرج من جيب معطفه الطبي جهازًا صغير الحجم أشبه بالهواتف المحمولة القديمة، رفعته أمام عينيه وهي تصرخ بغضب هادر:

- جهاز تتبُّع؟!!

- يا بْن الـ....

لم يسمع أيمن باقي السِّباب الغاضب الذي وجَّهه إليه خالد، فقد أطبق الظلام يغشى عينيه عندما تلقَّى لكمةً هائلةً من قبضة الأخير الغاضب أفقدته الوعي من فوره.

لهث خالد في غضب وهو يحدِّق في جسد أيمن الراقد بلا حراك على الأرض الحجرية، ثم رفع عينيه إلى يحيى وسارة يتأمل نظراتهما، وقد خَيَّمت عليهم جميعًا مشاعر متصاعدة من القلق والخوف من وضعٍ يزداد تعقيدًا لحظةٍ بعد الأخرى.

***

000000

25 نوفمبر 1915 (15 ساعة قبل الكارثة)

9:00 صباحًا.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

ساعة ونصف الساعة قضاها إسماعيل وحيدًا في غرفة مكتبه عقب مغادرة شريف القاضي، «المُؤرِّخ»، بعد أن فجَّر الأخير في وجهه عدة قنابل موقوتة.. بل قنابل زمنية بحكم ما هذَى به ذلك الزائر الغامض حول فَنَاء العالم واندثاره، وأُحْجِيَّة زمنيَّة هو - إسماعيل- وحده القادر على حلها باستخدام متوالية عددية لم ينتهِ من ابتكارها بعد.. متوالية حسابية معقدة وعده «المؤرخ» بمساعدته في الانتهاء منها باستخدام معادلات أعدها علماء من المستقبل! ما هذا الهُرَاء؟!

لكنه التقى الرجل من قبل، لقاء قصير خاطف جمعهما، لكنه

كان كافيًا ليقع تأثير الرجل الكاسح في عقل إسماعيل، لقاء قصير في برلين تعرف من خلاله على معلومات الرجل وآرائه العلمية الغريبة.. غريبة لثوريتها ومنطقها القوي المبني على نظره مستقبلية نافذة.. لقد التقى الرجل في مايو الماضي، لكنه ظهر بعدها بستة أشهر وكأن العمر قد تقدم به لعقدين من الزمن.

«المؤرخ»، ذلك الرجل المَهِيب الذي أخبر إسماعيل لتَوِّه بأنه سيقوم بقتله لاحقًا.. سيقتله اليوم.. بل أخبره بذلك وهو يُبدي علامات تأثر خالصة.. مشاعر عطف وشفقة صادقة لا تلاعب فيها، لمست عقل إسماعيل قبل قلبه.. رَبَّاه! كيف هذا؟

ولكن، كيف لا يشعر بالخوف؟ كيف ترك الرجل يغادر بتلك الصورة؟ كيف لم يتهمه بالجنون أو يصرخ فيه ويرد التهديد بمثله حتى لو كان خارج حدود قدراته واستطاعته؟ كيف استسلم؟ بل لماذا لم يهرب؟ لماذا يقبع في غرفة مكتبه يلجأ إلى أوراق بيضاء يخطُّ عليها دوائر وأشكالًا يطفح بها عقله الباطن؟

لماذا رفض التحدُّث مع زوجته القلقة؟ لماذا لم يلجأ إليها، إلى حضنها الذي يُشعره بدفء يفتقده؟ لماذا لم يستجِب إلى توسُّلاتها بأن يقصَّ عليها ما حدث، أن يخبرها بما في صدره؟

بل لماذا لم يأمرها بأن تغادر؟ بأن تهرب هي والصغيرة؟

أرغبةً منه في أن تبقى إلى جواره حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ أم هي ثقة منه في ذلك الرجل الذي وعد بعدم المساس بأسرته؟ أهو بهذه السذاجة أم أن للأمر جذورًا أعمقَ في روحه تتعدى خطورتها ذلك التهديد، بل الوعد الصادق بالقتل؟!

أمسك رأسه بكلتا يديه، وكاد أن يصرخ.. يصرخ ليطرد تلك الخواطر المتداخلة المرعبة التي يعجُّ بها عقله.. خواطر متداخلة وذكريات لا يفهمها ولا يدري كُنْهَها تضرب رأسه بلا هوادة.. ذكريات كانت تزوره في أحلامه، بل في كوابيسه التي قضَّت مضاجعه منذ صباه، وشكّلت شخصيته تلك، الانطوائية الضعيفة المترددة رغم ذكائه الحاد وطيبته غير المحدودة.

تسمَّرت عيناه فجأةً على إحدى الأوراق التي كان يخط عليها أشكالًا متداخلة بلا معنى.. رفع إحدى تلك الأوراق أمام عينيه وحدّق مليًا في أحد الأشكال الهندسية التي خطها..

شكل هندسي ثلاثي الأبعاد ضرب ثنايا عقله بصاعقة برق أنارت بؤرًا أخرى قصيّة في عقله، بؤرًا دفينة في غياهب النسيان.

هبَّ من مقعده وهرول إلى خارج الـفـيلّا وسط نداء متلهف قَلِق وجَزِع من زوجته وكبير خدمه.

نادى على «صدقي» سائقه الخاص، الذي سارع وأحضر السيارة، فاستقلَّها إسماعيل وأمره بالتَّوجُّه إلى قصر والدته في جاردن سيتي..

قصر «زينب هانم الخازندار»..

***

انطلقت السيارة السوداء تقطع الشوارع التي تربط «واحة هليوبوليس» بالقاهرة الخديوية، سيارة فارهة طراز «جريف أوند شتيفت» النمساوية الثمينة، شبيهة لتلك السيارة التي قُتل فيها الأرشِيدُوق «فرانز فرديناند» وريث عرش النمسا في سراييڤو في الحادثة التي أطلقت شرارة الحرب العالمية الأولى قبلها بعام كامل. كان عدد السيارات الخاصة في القاهرة في تلك الفترة لا يتعدى الخمسمائة سيارة على أقصى تقدير، وكانت سيارته الفارهة إحداها. سيارة لم يكن ليحلم باقتناء ما دونها ولو ادَّخر راتبه من مدرسة المعلمين العليا لسنوات طويلة، لولا عائلته الإقطاعية فاحشة الثراء، فلقد أهدته والدته «زينب هانم الخازندار» تلك السيارة عندما تزوج وقرر العودة والاستقرار في مصر بعد ثلاثة عقودٍ قضاها في ألمانيا، منذ أن كان عمره لا يتجاوز خمسة الأعوام.

أربعون دقيقة استغرقتها السيارة لتبلغ وجهتها النهائية، أربعون دقيقة لم ينبس خلالها إسماعيل ببنتِ شفةٍ وظل محدِّقًا في تلك الورقة والشكل الهندسي الذي يحتلُّ منتصفها. دقائق طويلة ظل خلالها عقله شاردًا، لم يكن يشغله ما حدث في الصباح، بل ما حدث منذ ثلاثة عقود، أبواب مؤصدة في أطراف ذاكرته تُفتح ثم لا تلبث أن تُصفع في وجهه، ذكريات تطفو على سطح عقله ثم تذوب وتتبدد قبل أن يدرك أبعادها ومعناها.

بلغت السيارة بوابة قصر «الخازندار باشا» في شارع « الوالدة باشا» بقلب جاردن سيتي على مقربةٍ من قصر «الدوبارة»، مَقرِّ «هنري مكماهون» المندوب السامي البريطاني في تلك الفترة. انتظر «صدقي» لحظاتٍ قبل أن يفتح أحد الخدَم بوابة القصر العظيمة، فعبرها حتى بلغ باب القصر الداخلي.

غادر إسماعيل السيارة مسرعًا، جال ببصره سريعًا في أرجاء القصر يبحث عن أُمِّه، «زينب هانم»، تلك العجوز الأنيقة التي تخطَّت الستين من عمرها بسنواتٍ قليلة، الوريثة الوحيدة لمحمود باشا الخازندار، الذي ترك لها إرثًا لا يُحصى، إرث بلغ أضعافًا مضاعفة لما ورثته عن زوجها وابن عمِّها الراحل، «علي باشا الخازندار»، والد إسماعيل، المحامي

الفَذّ والوطني المخلص الذي تُوفِّي بعد أن بلغ إسماعيل عامه السادس، تُوفِّي بمرضِ «ذات الرئة» بعد عامين فقط من استقرار الأسرة في ولاية «باڤـاريا» الألمانية.

كانت تجلس في الحديقة الخلفية كعادتها تحتسي القهوة وتُطالع الصحف، وإلى جوارها جدَّتُه العجوز القعيدة، التي تخطت الثمانين، والتي استقرت على مقعدها المتحرك وقد مال رأسها على صدرها وتعالى صوت غطيطها.

اتسعت عينا زينب هانم وهي ترى إسماعيل يهرول ناحيتها عاري الرأس مشعث الشعر، على غير عادته من حيث الحرص الشديد على هندامه ونظافته إلى حد الوسوسة. فهتفت في قلق:

- ماذا بك يا إسماعيل؟ ماذا جرى؟

تجاهلها إسماعيل وفرد أمامها الورقة وأشار بسَبَّابته إلى الشكل الهندسي، قائلًا:

- «إإإ...» حاول التحدُّث بالعربية، وفشل، فتابع بالألمانية: «ما هذا؟»

حدَّقت زينب في الورقة للحظات، فخفق قلبها. رفعت عينيها إلى إسماعيل وهزَّت رأسها نافيةً، وقد ارتعشت شفتاها وهي تجيبه بألمانية مماثلة:

- لا أعلم.. ما هذا؟

جزَّ إسماعيل على أسنانه وفتح فَاهُ محاولًا الحديث لكنه تلعثم فأطبقه مُجددًا، جزَّ على أسنانه مرةً أخرى ثم هتف في انفعال متلعثم:

- لا.. أنتِ تعلمين كل شيء.. كل شيء منذ البداية.

تهدَّجت أنفاسه وتسارعت ثم قبض على ذراعَيْ والدته العجوز في قوة، وتابع وقد علا صوته وازدادت نبرته عصبية:

- «أنتِ تعلمين.. ولكن لماذا يا أمي؟ لماذا تركتِنِي أعاني منذ صِغَري؟ لماذا هربتِ بي؟ لماذا نشأتُ هناك في ألمانيا؟» ثم تصاعد غضبه واشتدت قبضته وهو يصرخ: «لماذا؟ لماذا لم تخبريني من أنا؟»

أغلقت والدته العجوز عينيها في ألمٍ وقد اشتدَّت قبضته على ذراعيها، فاتسعت عيناه هلعًا وأُسقط في يده، وأطلق ذراعيها، ثم خرَّ جاثيًا على ركبتيه ندمًا وقد سالت الدموع على خدَّيْه. أمسك برأسه وهو يصرخ في انهيار:

- الكوابيس تقتلني.. ذكريات وشخصيات لا أعلمها تطاردني.. لا أستطيع تحمُّل ذلك بعد الآن.. سوف أُجنُّ.

أنهى جملته ثم ارتمى في حضن والدته وأجهش في بكاءٍ

حار. ضمَّته زينب إلى صدرها في لوعة، وهي تسأله في جزع:

- ماذا أصابك يا إسماعيل؟ أخبِرْني بالله عليك!

رفع عينيه الحمراوين إليها ثم قال لها في توسُّل:

- «بل أخبريني أنت! أخبريني مَن أنا؟ مَن أكون؟»، ثم صمت لوهلةٍ ثبَّت خلالها عينيه في عينيها قبل أن يتابع في انكسار: «بل أخبريني من أين أنا؟»

أطرقت زينب وأغمضت عينيها لتمنع طوفانًا هائلًا من الدموع على وشك جرف ما تبقَّى من صلابتها، ثم زفرت في عمقٍ وفتحت عينيها تتأمل وجه صغيرها، وهي تتحسس خدَّيْه براحتيها في حنان. تَنهَّدت ثم أومأت برأسها إيجابًا قبل أن تقول في استسلام:

- سأخبرك بكل شيء إذا كان هذا ما تريده.

قالتها ثم صعدت إلى غرفتها وطلبت من خادمتها حمل ذلك الصندوق الخشبي المغلق متوسط الحجم إلى الحديقة حيث إسماعيل. وضعت الخادمة الصندوق حيث أمرتها سيدتُها، ثم انصرفت من فورها بعد أن أمرت زينب هانم جميع الخدَم بالانصراف من الحديقة ومحيطها والبقاء في مقر الخدم. انصرف الخدم وهم يضربون كفًّا بكفٍّ

حسرةً على حال إسماعيل، الشاب الهادئ الخَجُول الذي لم يشاهدوه يفقد أعصابه هكذا من قبل.

حدَّقت زينب في وجه ابنها مليًّا، وهي تتأمل نظراته المترقبة وصدره المتهدِّج. همَّت أن تفتح الصندوق، ثم تراجعت للحظةٍ ونظرت في عينيه مجددًا وهي تقول:

- «هل أنت متأكد أنك تريد أن تعرف؟»، أمسكت يده وضغطتها في حنانٍ وتابعت: «لا يوجد سبيل للعودة يا إسماعيل».

لم تتلقَّ إجابة، فقط نظرة ترقُّب وإصرار..

ففتحت الصندوق..

حدَّق إسماعيل في محتوياته واتسعت عيناه عن آخرهما في ذهول..

وخفق قلبه في عنف..

خفق حين توهَّج عقله وومض ببريقٍ ساطعٍ أضاء ذاكرته..

بأكملها..

***

000010

7:00 مساءً.. المخبأ الآمن

حدَّق ثلاثتهم في جسد أيمن فاقد الوعي، فيما سارع خالد بانتزاع المسدس من يد يحيى في حرص، في الواقع إنه مسدسه الذي تركه إلى جواره في الغرفة الطبية، فاستحال غضبُه الهادر من خيانة أيمن إلى ذهولٍ نتيجة تسارُع وتيرة المفاجآت والأحداث المتتالية التي جعلته ينسى سلاحه، فانهار جالسًا على أحد المقاعد القريبة، تتنازعه الأفكار المضطربة، فزاغت عيناه لا يدري بمَن يثق ويأمَن في هذا الكابوس الأبدي. التقط يحيى أنفاسه ودار ببصره بين خالد التائه في مقعده، وسارة التي شرعت تتفحَّص بتمعُّن جهاز التتبُّع الذي عثرت عليه في حوزة أيمن حتى اختفت تعبيرات وجهها المتوترة، وتَنهَّدت في عمقٍ قبل أن تقول بنبرةٍ مُطَمْئِنة:

- هو حقًّا جهاز تتبُّع لكنه قصير المدى. ربما يكون قد استخدمه في سماء المستشفى، لكن مداه وقوته لا يسمحان له بالعمل في نطاق المنطقة المشعَّة.. نحن هنا بأمان، لا داعي للقلق.

رفع خالد عينيه إليها يرمقها بنظرةٍ خاوية، فيما جمع يحيى شتات نفسه، وألقى بنفسه هو الآخر على أحد المقاعد القريبة وصدره يعلو ويهبط بأنفاس لاهثة. عدَّل من وضع

ردائه ليداري سوءته قدر الإمكان وهو يجول بنظره في بهو المخبأ الحجري يتأمله في ذهول، ثم رفع عينيه الذاهلة إلى سارة متسائلًا:

- ما هذا الكهف؟!! أين نحن؟ وماذا حدث؟

حدَّقت سارة في وجهه طويلًا قبل أن تفرَّ منها ابتسامة لا إرادية زيَّنت شفتيها، ثم هزت رأسها في استسلامٍ وشرعت تقصُّ عليه الأحداث المتتالية بتفاصيلها كافة. راقبت تقلُّب نظراته بين الذهول الهائل والدهشة المستنكرة، ثم تحوُّلها إلى الاهتمام والتركيز الشديدين. انتظر يحيى حتى انتهت من قصتها، ثم عقد حاجبيه في شدةٍ قبل أن يسألها باهتمام:

- إلى مَنْ تنتمي الطائرات التي هاجمتنا؟

- القوات الجويَّة الملكيَّة بالتأكيد! بل هي الجهة الوحيدة على وجه الأرض التي تمتلك طائرات V3، الطائرات الأكثر تطورًا في السلاح الجوي بأكمله.

أجابته سارة في حذر، فعاجَلها بسؤالٍ آخر دون أن ينتظر باقي الإجابة:

- وماذا بشأن الصواريخ التي أصابت الطائرات، صواريخ الترددات الفائقة تلك، مَن أطلقها؟! مَن يمتلك مثيلًا لها؟ الإرهابيون؟

اعتدل خالد في جلسته وتبادل نظرات دهشة مع سارة التي أجابت في بطء:

- لا! القوات البريطانية فقط.. نظرًا لتقنيتها العالية فلا يمكن لأي جهة أخرى تصنيعها، أو حتى سرقتها، وإلا كانت فضيحة مُدوِّية.

داعب يحيى ذقنه وأطرق برأسه مفكرًا في تركيزٍ شديد، ثم أصدر همهماتٍ خافتةً وقد ضاقت حَدَقتاهُ وهو يتدبَّر كلمات سارة الأخيرة، فقطع خالد حبل أفكاره هاتفًا في نفاد صبر:

- ما الذي تهدف إليه بالضبط؟! نعم، كلهم مرتبطون بالقوات الملكية.. الأمر لا يحتاج إلى ذكائك الخارق. فقد سحبوا تأمين المستشفى ثم حاولوا التخلص من الجميع، وعندما فشلوا حاولوا مرة أخرى في السماء، فهربنا منهم مجددًا.. نحن الآن مطلوبون من أقوى جيوش الأرض بسببك يا يحيى.. هذا هو الموضوع باختصار.

رفع يحيى حاجبيه في دهشةٍ ودار بعينيه بينهما قائلًا في استنكار:

- لا قطعًا.. الموضوع ليس على هذا النحو قطعًا.. أهذا كل ما توصلتما إليه؟!

أدار خالد رأسه بعيدًا وأشاح بيده في حنق، في حين قالت سارة في بطء:

- يحيى، لم نتمتع بالوقت الكافي للتفكير في الأمر وتحليله.. الأحداث والمفاجآت كانت سريعة ومتلاحقة.. ماذا تريد أن تقول تحديدًا؟

مطَّ يحيى شفتيه وتابع وقد لاحظ نظرات الترقُّب في أعينهم:

- «القوات البريطانية ليست هي التي تريد التخلُّص منَّا.. القوات البريطانية هي مجرد أداة يحركها طرفان متصارعان، وليس طرفٌ واحدٌ.. وأحد الطرفين في صفِّنا!»، صمت لحظة، التقط فيها أنفاسه وتأمل وقع كلماته الأخيرة عليهما. ابتسم في ظَفَرٍ عندما لمح نظرات الاهتمام تعلو وجههما، فسحب نَفَسًا عميقًا وأضاف وهو يؤكد كلماتِه: «الطرف الأول سحب الحراسة من المستشفى، وأرسل الطائرات خلفنا.. أما الآخر فأطلق الصواريخ.. الطرفان يتحكمان بطريقةٍ أو بأخرى في القوات على الأرض.. سواء بطريقة مباشرة عن طريق قيادات متواطئة أو عن طريق اختراق فريدة (hacking).....»

- مستحيل!

هتفت بها سارة تقاطعه، فالتفت إليها مندهشًا، مطَّت شفتيها وسعلت في حرج ثم أضافت:

- من المستحيل اختراق «فريدة».. تقنية تأمين «فريدة» شديدة التعقيد، طبقات متعددة من درجات الحماية المختلفة والخوارزميات ذاتية التطور، كما أن صلاحيات المستخدمين المعقدة في سلسلة القيادة تمنع الاختراق وتنفيذ المهام القتالية شديدة الحساسية مثل صواريخ EUF وطائرات V3.. بمعنى أنه وعلى فرض حدوث اختراق إلكتروني، وهذا مستحيل، فلا بد وأن يتم على سلسلة القيادة بأكملها.. وهذا هو رابع المستحيلات يا يحيى.

زفر يحيى في ضيقٍ وأطرق برأسه مفكرًا من جديد، حين هتف خالد بغتة:

- ألفا يا سارة.. مجموعة «ألفا» تستطيع تعديل الصلاحيات مثلما فعلتِ أنتِ، أليس كذلك؟ أحد أعضاء مجموعة ألفا هو من تتبَّع طائرتنا وأرسل خلفنا طائرات V3، وهو من حظر حسابك أول مرة، وهو من عدَّل صلاحيات سلسلة القيادة للتحكُّم في الطائرات.

حدَّقت سارة في وجهه، ثم غمغمت:

- «ليس بهذه السهولة يا خالد، لكنه ليس مستحيلًا كذلك

لأكون صادقة.. هو أمر شديد الصعوبة ولكنه ليس في استحالة اختراق «فريدة» من الخارج». لوَّحت بيديها وهي تضيف: «وقبل أن تسأل، «ألفا» هي مجموعة فائقة السرِّية، بمعنى أنه لا أحد يعرف عدد أو أسماء أعضائها حتى أعضاء المجموعة أنفسهم.. لم نتقابل وجهًا لوجه مطلقًا، الاجتماعات كافةً تتم في الواقع الافتراضي لإخفاء الوجه والهُويَّة والموقع الجغرافي بل وتغيير الصوت كذلك.. آسفة! طريق آخر مسدود».

أطرق جميعهم في أسى، وساد الصمت للحظاتٍ طالت، قطعها يحيى مغمغمًا: «دعونا نرتب أفكارنا بطريقة علمية ومنطقية. هناك عدد من الأسئلة يجب الإجابة عليها أولًا كي نحدد تحركاتنا المقبلة. أولًا: مَن يطاردنا ومَن يحمينا؟ ثانيًا: لماذا يريدون التخلص مني بهذا الإصرار؛ لدرجة مطاردتي عبر خطوط زمنية متوازية؟ وثالثًا....».

قاطعه خالد هاتفًا في حنق:

- لا يزال يهذي بتخاريفه حول الزمن الموازي إلى آخر هذا الهراء.. توقف عن هذا الخبال حتى نقرر ما يجب علينا فعله.

تجاهله يحيى وأردف بحماسٍ وقد لمعت عيناه:

- بغَضِّ النظر، لدينا أربعة خطوط قوية لتتبُّعها.

زفر خالد في ضيق، في حين لمعت عينا سارة هي الأخرى وابتسمت وهي تومئ برأسها علامة الفهم، فقد أدركت إلى أين هداه تفكيره المنطقي، فأشارت له أن يكمل، فتقدم يحيى بجسده ليجلس على طرف المقعد وأردف وقد زاد حماسه:

- الخيط الأول: مجنون الثمانينيّات الذي أخبرتنا به فريدة، «نسيم سمعان»، إن كان في قيد الحياة. الخيط الثاني: نمط الموجات والتردُّدات المشابهة لحالتي، ذكرت فريدة وجود أربع حالات أخرى غير حالتي وحالة نسيم، تلك الحالات تُعدُّ كنزَ معلوماتٍ يجب الكشف عنه.

صمت حين لمح تبدُّل نظرات خالد من الحنق والضيق إلى الاهتمام المتشكِّك، ففرت منه ابتسامة فخر رغمًا عنه كعادته حين يزهو بنفسه وعقله المنطقي، ثم التفت إلى سارة قائلًا في ثقةٍ وهو يشير بيده إلى أرجاء المخبأ الفسيح:

- الخيط الثالث: والدتُك يا سارة. فحديثها عن النهاية الوشيكة، وكذلك تشييدها لهذا الصرح المنيع يؤكدان أنها تعلم أمرًا ما شديد الأهمية.. والدتك هي القطعة الأهم في «البَازِلْ».. أما الخيط الأخير، فهذا أسهلها في رأيي. وأشار بسَبَّابته إلى أيمن الذي لا يزال فاقدًا للوعي تحت أرجلهم.

عقد خالد حاجبيه، وهبّ واقفًا يرفع جسد أيمن النحيل

ويلقيه في عنف على أحد المقاعد المقابلة، ثم أمسك بكوبٍ من الماء وقذف محتوياته في وجهه باستحقارٍ قبل أن يلطمه على خدَّيْه عدة مرات حتى استفاق مجفلًا، وعادت علامات الذعر ترتسم على ملامحه من جديد. صرخ خالد في وجهه في صرامة:

- ما حكايتُك؟ ومَن أرسلك خلفنا؟ لماذا تريدون قتلنا؟

سعل أيمن وصرخ في رعب:

- أنا لا أريد قتل أحد.. أنا لا أعلم شيئًا.

انتفخت أوداج خالد من الغضب، فصفعه في قوةٍ ألقته عن مقعده ليفترش الأرض تحت قدميه، فجذبه خالد من معطفه في قسوةٍ وأردف بنبرةٍ أكثر صرامة:

- أنا لا أكرر السؤال مرتين، وليس لديَّ شيء سواك اليوم.. مَنْ أعطاك جهاز التتبُّع؟ ولماذا؟

اختلجت شفتا أيمن ونظرات الرعب والهلع تتطاير من عينيه، فرفع خالد قبضته وهمَّ أن يعاقبه بلكمة تهشم أسنانه، لولا أن رفع الأول يديه أمام وجهه يحميه في حركة تلقائية هاتفًا في ذعر: «سأقول لك.. سأقول كل شيء».

أنزل خالد قبضته وترك معطف الطبيب المذعور، ثم أشار

إليه بيده في صرامةٍ يأمره بالكلام. لهث أيمن في عنفٍ قبل أن يبتلع ريقه محاولًا جمع شتات نفسه، فخرج صوته متحشرجًا وهو يهتف:

- نبوءة!

- ماذا؟!

هتف بها خالد في نفادِ صبرٍ وقد تطاير الشرر من عينيه، فأردف أيمن في سرعةٍ على قدر ما سمح به صدره المتهدِّج:

- الموضوع بأكمله قد بدأ بنبوءة.. قبل قرابة أربعة أسابيع، تلقيت ظرفًا مغلقًا يحتوي على قُصاصة من الورق مقطوعة من صحيفة قديمة تعود إلى أيام السلطنة.. صحيفة تُسمى «اللطائف المصوَّرة»، وتعود إلى العام 1915!

صمت لحظةً التقط فيها أنفاسه وهو يتأمل نظرات الترقب تعلو الوجوه، فأردف في بطءٍ في محاولةٍ لضبط أنفاسه المتسارعة: «قصاصة تحتوي على إعلان هزلي أو شيء من هذا القَبيل، إعلان تحققتُ من صحته عبر إجراء بحث بسيط بواسطة فريدة. إعلان تم نشره بالفعل منذ أكثر من مائة عام في «اللطائف المصورة». والغريب أن الإعلان كان موجهًا إليَّ أنا تحديدًا دون ملايين الأطباء حول العالم خلال القرن الماضي. إعلان يحتوي على رقمي الخاص في سجِلِّ الأطباء

الملكي!!».

ألجمت كلماته ألسنتهم، فأخرج من جيبه ما يشبه محفظة نقود جلدية واستخرج منها قصاصة مهترئة من صحيفة قديمة، تحتوي على كاريكاتير هزليّ لرجلٍ بدين يرقد على سرير في نصف حجمه. رفع أيمن عينيه يرمقهم في سرعة قبل أن ترتدّ عيناه إلى القصاصة مرة أخرى. ازدرد ريقه مجددًا، ثم شرع يقرأ الكلمات القليلة التي تذيِّل الإعلان في بطء وهو يضغط على حروف كلماته:

- دعوة خاصة جدًّا.. يسرُّ جمعية الأطباء الملكية أن تدعو EG200937754 لحضور حفلها الماسي.. موعد الحفل قد اقترب.. باقٍ من الزمن 104 فقط.. انتظر المسافر الأخير، واعتنِ به والزم جواره.. انتظر المهندس مصري.

***

000000

25 نوفمبر 1915 (9 ساعات قبل الكارثة)

3:00 عصرًا.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

- وصلنا إلى آخر الخط يا حضرة!

قالها ذلك الكمسري العجوز المُدثَّر بمعطف صوفي ثقيل،

ويعتمر طربوشًا أحمرَ طويلًا، بينما تتدلى من رقبته صافرة معدنية طويلة فشل صوتها الحاد في انتزاع ذلك الراكب الشاحب من شروده. كرر كمسري ترام هليوبوليس جملته ورفع صوته وهو يهزُّ كتف إسماعيل في رفق، فالتفت إليه الأخير محدِّقًا في وجهه بعينين زائغتين تتواريان خلف نظارة طبية مستديرة، تلطَّخ زجاجها بأثر بصمات أصابع مُعرقَة. رمق الكمسري إسماعيل بشيءٍ من الريبة وهو يخبره بوصول الترام إلى محطته النهائية في واحة هليوبوليس، ويطالبه إما بمغادرة الترام أو شراء تذكرة أخرى للعودة من حيث جاء.

تجاهله إسماعيل وغادر الترام متوجهًا في خُطًى ثقيلة واجمة إلى فـيلَّته في قلب الواحة الراقية. بلغ إسماعيل منزله بعد عدةِ ساعاتٍ قضاها هائمًا على وجهه في شوارع القاهرة بعد أن أمر سائقه «صدقي» بأن يعود أدراجه بالسيارة وأن يتركه وحيدًا. أربع ساعات تورَّمت فيها قدماه وغُفر حذاؤه بأتربةٍ اختلطت برَوَث خيول عربات الحنطور المنتشرة في شوارع القاهرة. ساعات طويلة تاه ذهنه شاردًا في نهرٍ متلاطم من الذكريات التي أنعشتها والدته عندما فتحت ذلك الصندوق. صندوق عتيق يحتوي على مُتعلَّقاته الشخصية في سنوات طفولته الأولى، متعلقات نسفت ذلك الحاجز الشاهق في ذاكرته الذي كان يفصل بين الواقع

والخيال، بين الحقيقة وأضغاثِ أحلامٍ تداهمه منذ صِغَره. متعلقات وجد بينها ذلك الشكل الهندسي ثلاثي الأبعاد الذي كان دائمًا ما يخطه بلا وعي على الورق، شكل هندسي لقطعة بلاستيكية صغيرة انتزعته من عالم الخبال الذي هامَ فيه منذ طفولته وعبرت به برزخ العقل والاتزان، قطعة خفيفة الوزن انتزعها من الصندوق ووضعها في جيبه، ليتحسَّسها كلما وقع في نفسه الشك في حقيقته وأصله.

- إسماعيل! أين كنت؟ ماذا بك يا حبيبي؟ أخبرني أرجوك!.

هتفت أمينة بجملتها في جزعٍ وهي تُهرع إليه لتحتضنه في قوة قبل أن تدير عينيها في هلعٍ تتفحَّص وجهه الشاحب وثيابه المتربة. جرت طفلته ناحيته هاتفةً: أبي!، ثم قفزت تتعلق برقبته. لاحت على شفتيه ابتسامة حانية خافتة قبل أن يمرر يده على شعرها ويقبِّل وجنتيها ثم يُنزلها دون أن ينبسَ ببنتِ شفة. أشارت أمينة إلى «نعيمة» المربية كي تأخذ الصغيرة، ثم التفتت إلى زوجها تكرر رجاءها بأن يُطمئنها عليه وأن يخبرها ما كان من أمر يومه.

تجاهلها وتجاهل صيحات اللهفة والجزع من إدريس وباقي الخدم، ودلف وحيدًا إلى غرفة مكتبه، ثم ألقى بجسده على مقعده الجلدي الوثير بأحد أركان الغرفة. هُرعت إليه أمينة وأغلقت الباب. جَثَث على رُكبتيها أمامه وهي تُربِّت على

ساقه في حنان، قبل أن تمسك بيده وتطبع عليها قبلاتٍ حانيةً دافئة.

رمقها إسماعيل بنظرةٍ خاوية وهمَّ أن يفتح فمه يحدثها لولا أن تراجع وأشاح بوجهه بعيدًا. لاحظت أمينة تردده فوضعت راحتيها على خدَّيْه ثم داعبت بأناملها خصلات شعره الثائرة، فالتفت إليها مجددًا يسألها:

- أنت كنتِ على علم بالأمر كله منذ البداية.. كنتِ تدركين حقيقتي.

خفق قلبها واتسعت عيناها وهي تقول في هلع:

- ماذا تقصد يا إسماعيل؟ عَمَّ تتحدث؟.

تهدَّج صدره غضبًا والتهبت أعصابه، لكنه حاول الحفاظ على نبرته الهادئة الخاوية، وهو يقول: «لم يكن لقاؤنا الأول مجرد صدفة، أليس كذلك؟».

تسارعت نبضات قلبها مجددًا حتى كادت تبلغ مسامعه، فأطرقت للحظة، ثم تلعثمت وهي تجيبه:

- إسماعيل! ماذا بك؟

استشاط غضبًا وهبَّ من مقعده ودفعها بعيدًا ثم أمسك بساعديها يهزُّها في عنف وهو يهتف:

- «كفاكِ كذبًا وخداعًا.. لقد سئمتُ تلك الحياة..»، ثم عقد حاجبيه في غضب وصرخ في وجهها في اهتياج وقد تطاير الزَّبَد من شدقيه: «أجيبيني! هل كان لقاؤنا الأول مُدبَّرًا؟!!».

- نعم!! نعم!!.

صرخت أمينة بالإجابة ثم أجهشت بالبكاء. فدفعها إسماعيل وفرد قامته يرمقها بنظرةٍ مُطوَّلة امتزجت فيها مشاعر الغضب بالاستسلام، استسلام رجل انهارت الدنيا من حوله في ساعات معدودة، دنيا على وشك الاندثار والفَنَاء.. تداعت ذكريات لقائهما الأول والأحداث التالية تطرق عقله بمطارق عملاقه توقظه أو تحطمه، سيل جارف من الذكريات والمشاعر لا يتوقف....

ثم تعالَى الصراخ..

صراخ وصيحات رعب هائلة تأتي من ردهة الـڤـيلَّا..

فهبّت أمينة وهُرعت تلحق بإسماعيل الذي انتفض وهرول يفتح باب غرفة المكتب ويثبُ خارجها، قبل أن تتسمّر قدماه ويهوي قلبه بين قدميه وهو يحدِّق في ذلك المشهد المرعب أمامه.

شهقت أمينة في جزعٍ وقد قفزت عيناها من محجريهما، قبل أن تتمالك أعصابها وتعقد حاجبيها في صرامةٍ، وهي

تتقدم بخطواتٍ بطيئةٍ حذرةٍ ناحية باب الـفـيلّا..

ارتفع صراخ الصغيرة وبكاؤها وهي ترفص بقدميها في الهواء في محاولة للإفلات..

تعالت شهقات الخدم وهم يحدِّقون في ذلك الرجل الذي يقف في مدخل الردهة يحمل الصغيرة..

رجل نحيل تقطر الدماء من جسده وتعلو وجهه علامات الاضطراب والألم. ترنَّح الرجل وهو يمسك الطفلة الصغيرة بإحدى يديه وبالأخرى يحمل مسدسًا متقدمًا يصوبه ناحية الجميع، وهو يصرخ في جنون:

- ابنتي.. هذه هي ابنتي.. سآخذُها معي!

ارتعش المسدس في يده، ثم التفت إلى الصغيرة التي تقلَّص وجهها البريء من الرعب والهلع، وواصل هتافه المجنون:

- لا تخافي يا صغيرتي لن أتركك مجددًا.. لن أتركك!

جالت عينا أمينة في المكان تبحث عن سلاح تستخدمه لتخليص الصغيرة، في حين هتف إسماعيل في جزع: «اتركها وسأعطيك كل ما تطلب.. أتوسَّل إليك!».

توتر الجميع وبدا على الرجل أنه لم يستمع إلى ما قاله

إسماعيل الجَزِع، فأعاد الرجل تصويب مسدسه ناحيةَ الأخير بيدٍ ترتجف وقد تمكّن منه الجنون والإعياء الشديد، ودارت عيناه في محجريهما وكأنه على وشك الإغماء قبل أن يستجمع قواه ويرد على إسماعيل في وهن:

- لن أترك ابنتي مجددًا.. إنها ابنتي.. ما....

وقبل أن يستكمل جملته فارت الدماء من فمه، وارتعشت يداه فأفلت المسدس من يده، فاستغلّت أمينة الفرصة ووثبت نحوه تلكمه لكمةً شديدةً في فكّه وتستخلص الصغيرة من يده ثم تحتضنها في قوة.

خفقت القلوب وتواصلت الشهقات حين سقط الرجل أرضًا وانتفض جسده وارتعش، ثم تسابقت قدماه في رجفات متتالية متسارعة، والدماء تفور من فمه وتواصل هروبها من ثقبٍ غائرٍ في بطنه.

اتسعت عينا إسماعيل ذهولًا وأُسقِط في يده وهو يرى ذلك الرجل يُحتضَر من تلقاء نفسه، فهُرع إليه إسماعيل بصورة لا إرادية. فأمسك الرجل المُحتضَر بتلابيبه وهمَّ أن يصرخ باسم ابنته لولا أن هدأت رجفته وسكن جسده قبل أن تفارقه الروح.. خفق قلب إسماعيل في عنفٍ وهو يحدِّق في الرجل الصريع في ذهولٍ وعجزٍ تامٍّ عن الفهم والتصرف..

وقف إسماعيل يحدِّق في دماء الرجل التي لطَّخت يديه وثيابه..

لحظات طويلة مرت تبادل فيها أهل الدار نظرات الذهول والخوف، في حين احتضنت أمينة صغيرتها تهدِّئ من رَوْعها وتُطمئنها..

تهدَّج صدر إسماعيل في شدة، ثم التفت يحدِّق بأعين لم تفقد ذهولها في الرجل الصريع وقد تناثرت إلى جواره مجموعة من الأوراق..

صور فوتوغرافية وأوراق بلاستيكية عجيبة لطخَّتها دماؤه.

أتلك هي الأوراق التي وعده «المؤرخ» بها؟

وعده بأن تأتيه مع رسول..

رسول من المستقبل..

رسول قضى نحبه بين يديه..

***

000010

7:13 مساءً.. المخبأ الآمن

نفض خالد عنه الذهول واختطف القُصاصَة المهترئة من يد أيمن، حدّق فيها مليًّا، وقلَّبها بين يديه عدة مرات يتفحَّصها، ثم هز رأسه في عدم فهم وناولها إلى سارة التي لم يغادر الذهول عينيها بعد. تناولتها سارة بيدٍ ترتجف من غرابة المفاجأة، فحصتها، وزاغت عيناها وهي تجوب أركان القصاصة في سرعة، ثم تسمَّرتا أعلاها حين قرأت التاريخ بصوتٍ مسموع: «29 نوفمبر 1915». قَطَّبَت جبينها وهي تحدِّق في القصاصة قبل أن تهتف في ارتباك:

- فريدة.. اعرضي صحيفة اللطائف المصورة ليوم 29 نوفمبر 1915.

جاءها الجواب على هيئة صمت مُطبِق، فتذكَّرت أنها نزعت عنها الأجهزة الإلكترونية كافةً قبل الهبوط إلى المخبأ، كما أنها لم تَقُم بتشغيل أيٍّ من الأجهزة المنتشرة حولها في الأسفل، والتي يبدو عليها القِدَم، على أي حال. همَّت بتشغيل الأجهزة لولا أن تذكرت أن نسخة «فريدة» المتوافرة هنا هي نسخة قديمة ولا تتصل بشبكة المعلومات الفضائية، فأطرقت وزفرت في ضيقٍ شديد.

مد يحيى يده إليها، فناولته القصاصة، تفحَّصها، ومَطَّ شفتيه في امتعاضٍ عندما تأمل الصورة الكاريكاتيرية للرجل البدين، الذي تترهل شحومه وتفيض من جوانب سرير

طبي معدني يئنُّ ويتلوى من تحته، «المهندس مصري» كما سماه الإعلان في إشارةٍ واضحة إليه هو، «يحيى المصري» المهندس البدين! وبغَضِّ النظر عن الموقف المتأزِّم، فقد شعر يحيى بالحرج من بدانته وهيئته أمام سارة، الفتاة التي ستصبح في يوم من الأيام زوجته. أزعجه كذلك كيف أيقن الجميع أنه هو الشخصُ المعنِيُّ بالإعلان فور رؤية الرسم الهزلي، فاستحال الحرج إلى غضبٍ لقيام أحدهم بتصويره بتلك البدانة المفرطة، على غير الحقيقة، أو هكذا يعتقد. سيطرت عليه تلك المشاعر للحظات، لكنه سرعان ما هزَّ رأسه في عنفٍ ينفض عنه تلك الخواطر السخيفة، ويشحذ تفكيره في أمور أكثر أهمية وإلحاحًا، على الأقل في الوقت الراهن.

كان يحيى أول من فارقه الذهول، إما بسبب مشاعر الحرج والغضب التي اجتاحته أو لشعوره بالراحة كون القصاصة القديمة قد أثبتت للجميع أنه مُحقّ، وأنه لم يفقد عقله، لقد جاء حقًّا من زمنٍ آخر. إثبات لا يقبل الشك، نظريته عن الأزمنة المتفرعة والواقع الموازي قد تكون حقيقة واقعة، فأدار عينيه بين الجميع قائلًا:

- «هذه القصاصة تثبت صحة نظريتي.. واقعٌ موازٍ وأزمنة متفرعة. هل تصدقونني الآن؟»، صمت لوهلةٍ ثم أضاف ضاغطًا على مخارج ألفاظه: «أنا لست من زمنكم. أنا من

واقعٍ ثانٍ، واقع توجد به أسرتي».

ساد الصمت لحظاتٍ قبل أن تقول سارة في جدية:

- «لا يا يحيى.. حتى وبفرض صحتها، تلك القصاصة لا تثبت صحة نظريتك.. بل تطرح نظرية أخرى». عقد يحيى حاجبيه ونظر إليها متسائلًا فتابعت: «أنت تعتقد أنك سافرت عبر أزمنة موازية أو متفرعة.. نظرية التشعُّب الدائم للزمن، أو الأكوان المتعددة، الـ Multiverse.. لكن هذ الإعلان القديم قد تنبَّأ بأمورٍ مستقبلية، كرقم بطاقة الهُويَّة الطبية الخاصة بأيمن، وتنبَّأ بقدومك كمهندس مصري بدين...»، سعلَت في حرج ثم أردفَت: «آسفة.. «مسافر» يظهر بعد 104.. 104 سنة على ما يبدو، أي عام 2019.. لا يوجد سوى تفسيرٍ من اثنين، إما عراف تنبأ بالمستقبل بمنتهى الدقة، أو...»، أطرقت برأسها، وصمتت للحظةٍ تعلقت خلالها بها العيون، ثم قالت في بطء: «أو شخص سافر فعليًا من الحاضر إلى الماضي ونشر الإعلان.. نظرية السفر عبر مجرى الزمن ذاته وليس السفر عبر أزمنة موازية».

خَيَّم الصمت لحظات، قطعها خالد صارخًا:

- «مجانين.. لقد أصبحتِ مجنونة مثله يا سارة.. بل والأدهَى أنك تُزايدين عليه!»، ثم التفت إلى أيمن وجذبه من ياقة معطفه صارخًا في وجهه بغضب هادر: «لا أريد المزيد

من كلام المجانين هذا.. قُلِ الحقيقة أو سأكسِّر عظام جسدك الواحدة تلو الأخرى حتى تنطق بالحقيقة كاملة».

لم يلقَ صراخ خالد الهادر الوَقْع الذي توقعه على أيمن، بل على العكس، استحال رعب أيمن إلى غضبٍ وغيظٍ من خالد وأسلوبه العنيف، وإصراره على تجاهل الحقائق فقط لعجزه عن استيعابها. شجعه تَقَبُّل سارة ويحيى لقصته، تمنى أن يكونا قد استشعرا صدقه. ضاق صدره حرجًا بخالد وإهاناته المتكررة، فانتزع معطفه من يده في عنف ثم صرخ حتى تطاير الزَّبَدُ من فمه واختلجت شفتاه وقد ترقرقت عيناه بالدموع:

- كفَى! لن أسمح لك بالمزيد من التجاوز.

تضاعف انفعاله واختنق صوته بالدموع وهو يواصل صراخه:

- أنا لست كاذبًا.. لقد أنقذتكم.. لو كان في نيَّتي الشر لكنتُ انسحبت من المستشفى مع الباقين وتركت يحيى لمصيره.

قالها وانفجرت دموع القهر في عينيه. جزَّ يحيى على أسنانه وهو يرى الدموع تنهمر على وجه أيمن المحتقن تكوي كبرياءه المحطمة. دائمًا ما كره رؤية مشاهد سحق الكبرياء وامتهان كرامة المستضعفين، وكثيرًا ما استعاذ

بالله من غَلبَة الدَّيْن وقَهْر الرجال. زلزلت دموع أيمن قلبه، فاعتصر شفتيه حسرةً على حال الرجل وهَمَّ أن يصرخ في وجه خالد ينهره، إلا أن سبقته سارة حين هتفت في خالد مستنكرةً:

- كفَى يا خالد!

قالتها ثم هُرعت مسرعةً إلى أيمن تعاونه على النهوض. رَبَّتت على كتفه في عطف، وهي تحدج خالد بنظراتِ استهجانٍ غاضبة. أطرق خالد برأسه واعتصر شفتيه في ندم. لقد تأثر بدموع أيمن، رغم أنه اعتاد تلك المواقف. تأثر رغم فشل دموع سابقيه، ممَّن أشرف على استجوابهم، في تحريك مشاعر العطف بداخله. أدرك أنه تجاوز الحدود هذه المرة، فقَدَ السيطرة على أعصابه، الغضب أعمى بصيرته، غضب الجهل سيطر عليه ومنعه من تقييم الوضع بصورة منطقية. عقله الرافض لأيَّة تفسيرات غير واقعيَّة قد استسلم لمشاعر القنوط والسخط، فنفث كَبْتَهُ في وجه الطبيب المستضعَف. بالتأكيد لم يُضمر ذلك الطبيب الهزيل شرًا وإلا لفقد حياته في الطائرة معهم، فصرخ عقله مُوبِّخًا «تبًا لك! ماذا دهاك يا خالد؟». زفر في ضيق، ثم أشاح بوجهه ونهض مبتعدًا.

مرت دقائق الصمت الثقيل حتى استجمع أيمن كبرياءه

المفتَّتة، ثم نظر إلى يحيى وسارة بعينين ازرقَّت إحداهما إثر لكمة خالد السابقة، وقال وهو يتحسَّس خدَّه المتورِّم:

- فلتسمعوا القصة كاملة!

قصَّ عليهم بالتفصيل كيف تشكَّك في القصاصة المهترئة في أول الأمر ظنًّا منه أنها مُزْحة سمجة من أحد أصدقائه، فحاول التحقق من صحتها بشتى الطرق حتى اطَّلع بنفسه على نسخة أرشيفية من ذلك العدد من الصحيفة. أنصتوا إليه وهو يذكر كيف مرت عليه أيام عديدة تتصارع الأفكار في عقله بين تصديق صحيفة عتيقة ذكرت رقمه التعريفي المتفرد بشكل دقيق قبلها بمائة عام أو يزيد، وبين المنطق الرافض لكل تلك السخافات. احتدم الصراع بداخله بين المنطق والخرافة حتى ظهر يحيى منذ أسبوعين، حيث ظهر في ظروف غير مألوفة وأُحيط ظهوره بألغاز مُحيِّرة، فنما الشك في عقله من جديد.

واصل حديثه وهو يُشيح بيده معربًا عن الارتباك الشديد الذي أصابه حيال كل ما يتعلق بيحيى وظهوره المفاجئ، بدءًا من ملابسه التي عجز عن تصنيف موضتها، حديثة أم قديمة. ومرورًا بطبيعة إصاباته وموقع حدوثها في قلب صحراء شرق القاهرة القاحلة، وانتهاءً بحَمْضِه النَّووِي الغامض، حمض نووي غير مسجَّل في القاعدة المركزية،

حمض نووي لا يربطه بوالدين أو أبناء.. يحيى بالنسبة إليه شخص ظهر من العدم.

التقط أيمن أنفاسه للحظاتٍ تأملته سارة خلالها، وهي تدير بصرها بين الفَيْنةِ والأخرى ترمق خالد ويحيى اللذين يتابعان حديثه باهتمام واضح. تابع سرده، فذكر رسالةً غامضةً أتته صباح اليوم، رسالة تبدو من نفس مصدر الرسالة الأولى، لكنها تختلف، فلم تكن قُصاصة من صحيفة هذه المرة، بل إنذار صريح، إنذار تحت عنوان: «سِرِّي للغاية». إنذار أو نبوءة بحادثة محتملة ستحدث في منتصف اليوم، حادثة قد تغير مجرى الزمن بلا رجعة، هكذا قيل في الرسالة بكل وضوح: «حادثة قد تغير مجرى الزمن بلا رجعة.. أنقذ المسافر ومن معه.. أنقذهم بأي ثمن».

تأمل علامات الذهول تكسو ملامحهم، فتَنهَّد في عمقٍ وأشار بسَبَّابته إلى جهاز التتبُّع على الطاولة أمامه، ثم تابع موضحًا أن الرسالة كانت مرفقة بهذا الجهاز الصغير، أخبرهم أنه لم يكن يدرك طبيعة الجهاز أو وظيفته حتى اللحظة التي أخرجته فيها سارة من جيبه. حتى عندما طلب منه المُرسِل تشغيل الجهاز حينما يستشعر الخطر استجاب له دون مناقشة، فالمرسل يعلم جيدًا ما يأمر به، الأحداث أثبتت صدق نبوءاته ودقتها. صمت للحظة، وأخرج من جيبه ورقة

صغيرة كانت ملصقة على سطح الجهاز حين تسلَّمه. حدَّق إليهم بعينين ثابتتين ثم قرأ محتواها بنبرةٍ بطيئةٍ متأنية:

- في هذا الجهاز خلاصُكم.. استخدمه عند الخطر في السماء.

قالها، ثم زفر بشدةٍ وهو يتأمل عيونهم الزائغة، فمطَّ شفتيه قبل أن يقول في هدوء:

- «ظهور الطائرات المقاتلة في السماء كان أمرًا بتشغيل الجهاز.. وقد كان.. فحدد المُرسِل موقعنا، واستخدم صواريخه لينقذنا». صمت للحظةٍ يتأمل الوجوه ثم أضاف: «وقبل أن يسألني أحدُكم، أنا لم ألتقِ مع هذا المرسِل الغامض مطلقًا.. كما أنني لا أعلم غايته.. لكنه أنقذنا جميعًا على كل حال.. وهذا هو المهم».

تداخل صوت نبضات القلوب المتباطئة مع الصفير الخافت المتقطع لأنفاس عقولهم الشاردة. أصوات رتيبة شغلت لحظاتِ صمتٍ ثقيلٍ خَيَّم عليهم لم يحرك خلاله أحدُهم ساكنًا. تعلقت عيونهم الواجمة بفراغٍ افتراضيٍّ ابتلع بداخله أملهم ومحاولاتهم المستميتة لاستيعاب موقف يزداد غموضًا، فكلما ظنوا أنهم أدركوا مُنتَهاهُ ازداد اتساعًا.

- نسيم سمعان إذًا.

أنهى خالد لحظات الصمت بصوته الحازم، انتزعهم انتزاعًا من فراغ يتمدد ليلتهمهم ويلتهم آمالهم على حَدٍّ سواء. التفت إليه يحيى حتى التقت الأعين، ثم أومأ الأخير برأسه موافقًا أَنْ حان الدور لاستجواب مسافر آخر، مسافر حضر إلى الحفل مبكرًا، حضر منذ 35 عامًا كاملة.

قَطَّبَت سارة جبينها ومطَّت شفتيها متعجبةً وهي ترمق خالد الذي ثبَّت ناظريه على يحيى كأنما يسأله المشورة، فالتفت إليها خالد، وأردف مُتهكِّمًا وهو يشير إلى يحيى:

- اعتبريها فرصةً أخيرة، إما أن أقتنع بنظريته أو تقتنعوا بأسلوبي.

- كيف نسافر إلى القاهرة؟ باستخدام Z17 المرصودة؟! كما أن «فريدة» قد فصلت الأجهزة الملاحية الآلية الخاصة بالطائرة بشكل كامل. من المستحيل تَخَطِّي المنطقة المشعَّة من دون «فريدة» أو أجهزة الملاحة الآليَّة.

هتفت سارة في استنكار، فهي تعي أنه لن يستطيع استخدام الطائرة دون أجهزتها الملاحية أو باستخدام «فريدة» بنسختها الحالية المحدودة غير المتصلة بالشبكة الفضائية. الأمر يختلف عن رحلتهم الأولى حين فصلت «فريدة» ذاتها وأجهزة الملاحة بعد أن تم تحديد الوجهة وبينما كانت الطائرة في مسارها المحدد مسبقًا، نبهته أنه إذا

استخدم الطائرة في وضعها الحالي فكأنه يُبحِر بقارب صيد بدائي في أعالي محيط مضطرب وسط عاصفة هوجاء. فابتسم مُطمئِنًا إيَّاها وهو يقول بنبرةٍ مرحةٍ شابها بعضُ السخرية:

- كان يجب عليكِ أن تتفقَّدي هذا المخبأ أولًا.

أشار إليها أن تتبعه إلى أحد البابين الغامضين في أقصى أركان الردهة، فرفعت عينَيْها في دهشة، وتبعته وتبعهم يحيى مترنحًا. وصل خالد إلى الباب الذي لم تتفقَّده سارة من قبل، وضغط زِرًّا صغيرًا بأحد جوانبه فانفتح الباب كاشفًا عن مرأب ضخم ذي جدران حجرية صمَّاء، تنيره مصابيح تتوهَّج بنورٍ أصفر أشبه بمصابيح المناجم. اصطفَّت ست سيارات مموَّهة ذات دفع رباعي بأحد أطراف المرأب الحجري، بينما استقرت في منتصفه تمامًا سيارة ضخمة رباعية الدفع حالكة السواد، ذات عجلاتٍ تُماثل في حجمها عجلات سيارات النقل. فغَر يحيى فَاهُ مشدوهًا وغمغم في انبهار:

- كهف باتمان!

رمقته سارة بنظرة ساخرة غير عابئةٍ بدُعابةٍ لم تفهمها، واقترَبَت من السيارة السوداء تتحسَّسها في إعجاب، قبل أن تهتف في حماس شديد:

- «S13 موديل 2008، دُرَّة تاج الصناعة الحربية البريطانية.. سيارة مُدرَّعة قوية فائقة القدرة على التمويه والاختفاء والمناورة.. وهذه السيارة تحديدًا لها وضع خاص». غمزت لخالد الذي أدرك ما تعنيه فابتسم وهو يومئ برأسه موافقًا، فاستطردت في نبرةٍ ساخرة: «اختفت من المصنع في 2008 دون أدنى أثر.. لغز كبير وقتها، أخطر قضية اختراق عسكري في تاريخ الإمبراطورية الحديث. قضية استعصت على كل مَنْ تولَّاها...» توقفت للحظةٍ وأشارت بسبَّابتها إلى السيارة العملاقة وهي تضيف في تهكُّم: «وأخيرًا تم حلُّ اللُّغز.. مخبأ سارة الآمن!»

ابتسم خالد وهو يضيف بنبرةٍ واثقة:

- «كنتِ لا تزالين صغيرةً يا سارة. السيارة اختفت من المصنع قبل تثبيت أجهزة الربط مع الشبكة الفضائية؛ بمعنى أنها غير قابلة للرصد أو التتبُّع». ثم التفت إلى يحيى وتابع في حماس: «يا يحيى، S13 بالنسبة إليَّ هي أقوى وأفضل من الطائرة التي أتت بنا إلى هنا. نفس القدرة على التخفِّي، لكنها مزوَّدة بأسلحة مقاتلة على عكس طائرة Z17 المخصصة لنقل الأفراد فقط».

أشعلت كلمات خالد الأخيرة بؤرة أمل في عقلها، فأطرقت سارة برأسها، ودارت عيناها في سرعة تقيِّم الوضع الحالي

في ضوءِ تلك المُستجدَّات، ثم التفتت إلى خالد قائلةً في جدية:

- «الطريق آمن داخل المنطقة المشعَّة وحتى مدخل شرق القاهرة. ثم يمكن الاعتماد على آليَّة الإخفاء بالألياف البصرية لتفادي كاميرات وطائرات المراقبة العادية». توقفت في محاولة لرسم خط سير آمن يتفادى الرصد بالأجهزة الأكثر تعقيدًا، ثم عقدت حاجبيها وهي تقول بنبرةٍ شابَها التَّوَتُّر: «لكن من الصعب تجنُّب الكاميرات الحرارية إلا بالاعتماد على النقاط العمياء المحدودة.. موقف معقد ودقيق، لكن سأحاول من خلال....»

قاطعها خالد في صرامة:

- «سارة، سأسافر وحدي». تَنهَّد وهو ينظر إليها ثم تابع في هدوء: «يحيى يحتاج إلى التَّواجد هنا تحت إشراف د. أيمن، وبالتأكيد وجودك معهما حتمي لأسباب واضحة».

هزَّت رأسها في استنكار، هي تدرك مدى خطورة مثل تلك الرحلة، سواء داخل المنطقة المشعة أو خارجها وبخاصةٍ أنهم يقاتلون في الظلام، دون وسائل اتصال، ودون حتى معرفة أعدائهم أو حلفائهم.. بمَن يثقون؟! لا أحد.. الجميع سواء، الجميع أعداء حتى يثبُت العكس. هي تعلم أنه من الصعب الاختفاء داخل القاهرة، بل من المستحيل على أي

هارب من العدالة، أو على من تبحث عنه قوات الأمن، أن يتجول في شوارع القاهرة دون أن تلتقطه الكاميرات الذكية المتصلة بفريدة. القاهرة تغطيها أسرابٌ من طائرات المراقبة الصغيرة ذاتية القيادة، والمعروفة باسم Drones، بالإضافة إلى شبكة قوية من الكاميرات العادية والحرارية القادرة على كشف أهدافها وتحديدها وتحديد هُويَّتها بدقَّة عالية.

مطَّت سارة شفتيها وهي تقلِّب الأمر على الأوجه كافة، هي تدرك أن السيارة S13 قد توفر حماية كافية لبلوغ بعض المناطق المؤمَّنة، ولكنها ليست حماية كلية، الكاميرات الحرارية قادرة على كشف الـ S13 حتى في وضع الإخفاء، ومن دون «فريدة» فليس أمامهم سوى حلٍّ واحد؛ تتبُّع النقاط العمياء المحدودة للهروب من تلك المنظومة شديدة التعقيد، ولكن هل يستطيع خالد القيام بذلك منفردًا؟ أيقنت أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل أن يفعلها وحده، فهتفت في حزم:

- السفر وحدك في منتهى الخطورة يا خالد.. كما يجب أن نكون على تواصُل دائم، فمصيرُنا واحد.

ابتسم مُطمئِنًا، ثم أجابها بنبرته الساخرة مجددًا:

- ألم أقُلْها لكِ من قبل، كان يجب أن تتفقَّدي هذا المخبأ أولًا.

رَفعتْ حاجبيها في دهشة، فأشار إليها باتِّباعه إلى الداخل من جديد، حيث ضغط زرًّا آخر فانفتحت خزانة صغيرة في الحائط، تحوي بداخلها عدة أجهزة اتصالات قديمة الطِّراز أشبه بالهواتف المحمولة الأولى في تسعينيَّات القرن العشرين في واقع يحيى الذي لم تدركه بعد. اختطفت سارة أحد الهواتف، وتأملته قبل أن تهتف بدهشة هائلة:

- «هاتف محمول طراز 1974.. يعمل على شبكة Cosmos الفضائية القديمة.. الشبكة خارج نطاق الخدمة منذ قرابة 30 أو 40 عامًا». هزت رأسها غيرَ مصدقةٍ ما تراه، انتزعت هاتفًا آخر من خزانة الكنوز الإلكترونية، فعادت حماستها الأولى وهي تُقلبهما بين يديها، ثم هتفت: «كل هاتف مدوّن عليه رقمه.. اتصالاتنا مُؤمَّنة تمامًا، الشبكة مهجورة، فلا يمكن تتبُّع الهواتف أو التنصُّت على المكالمات».

غمز لها خالد بعينه، وابتسم وهو ينظر إليها قائلًا في وُدّ:

- «لا تقلقي، سنكون على اتصال دائم. وباستخدام S13 سأصل إلى القاهرة في حدود ثلاث ساعات فقط». ثم أطرق برأسه مفكرًا وهو يضيف: «لكن يجب أولًا تحديد مكان نسيم، إن كان في قيد الحياة».

- لا يزال حيًّا.. نسيم مدير ملهى ليلي معروف، ملهى

«كاريبينيو»، على أطراف المنطقة الآمنة في شرق القاهرة.

قالها أيمن في خجل، فالتفت إليه خالد متعجبًا، فرفع الأول كَفَّيْه في حرج وهو يقول:

- كنت دائم السهر في ملهاه الليليّ خلال السنوات الماضية.

رمقه خالد بنظرةٍ ساخرةٍ قبل أن يدوِّن خلفه عنوان نسيم وملهاه الليلي «كاريبينيو». ثم تَنهَّد في عمق، وأخذ أحد الهواتف من الخزانة، ودوَّن رقمه وناوله إلى سارة التي فعلت بالمثل، ثم التقط جهازًا أُسطوانيًّا صغيرًا عليه ملصق يوضح استخدامه كمفتاحٍ مُشفَّرٍ لمدخل المرأب الخارجي.

نظر خالد إلى سارة مليًّا وقد التقت أعينهما لدرجة أشعلت الغيرة في قلب يحيى، لولا أن أطفأها خالد سريعًا حين أدار بصره بينهما وهو يقول:

- «يحيى، أعترف أنك ذكي، بل قد تكون الوحيد القادر على حل هذا اللغز». ثم التفت إلى سارة: «اعتنِي بنفسك وبهما يا سارة، وسنكون على اتصال».

دلف إلى السيارة S13 حالكة السواد والتي فُتِحَ باباها الأماميان إلى أعلى كنَسْرٍ ضخمٍ يستعد للانقضاض على فريسته، فابتلعته بداخلها وأطبقت جناحيها قبل أن تتوهَّج مصابيحها الأمامية بوهجٍ أبيض ساطع، ثم تحركت في بطء.

انفتح باب المرأب الداخلي، واختلط هسيس غازات التعقيم ذات الضغط العالي مع طنين مُرشِّحات المواد المشعَّة المتقدمة، التي تحمي المخبأ الحجري من الملوِّثات بأنواعها. عبرت السيارة الباب، الذي عاد وأُغلِق من خلفها، ثم انطلقت تقطع النفق الحجري المائل، الممتد لمسافة 1,5 كم تحت سطح الأرض، حتى بلغت نهايته، فبدأت تقنية الألياف البصرية المتطورة بنقل الصور المتقابلة لتعطي الانطباع بشفافية السيارة وامتزاجها في بيئتها المحيطة، فتخفيها عن أجهزة الرَّصْد والأعين المُتلصِّصة.

بلغت السيارة بوابة المرأب الأخيرة، البوابة الفولاذية التي تفصل النفق عن السطح الخارجي، السطح الذي يقع وسط رمال المنطقة المشعَّة على أطراف مدينة الغردقة القديمة. استجابت البوابة المؤمَّنة فوريًّا للمفتاح الأسطواني الذي يحمله خالد، فعبرها بسيارته في سرعةٍ قبل أن تُغلق خلفه وتتركه وحيدًا في صحراء مُشعَّة قاحلة.

انطلقت السيارة بعزم قائدها إلى هدفها، إلى القاهرة، حيث قطعة أخرى في اللغز الزمني المتشابك. تعالى صوت صرير العجل المقوَّى وهو يحفر طريقه في أرض الصحراء الشرقية، فتطايرت الرمال مُكوِّنةً غمامةً صفراء تحت سماء ليلٍ حالك السواد، تُلَطِّخه سُحب أعلى، متراكمة، دَكْنَاء

تحجب النجوم، وتتساقط منها أمطار حَمْضيَّة ملوَّثة.

تابع أيمن السيارة السوداء وهي تنطلق مغادرةً المرأب في طريقها إلى طرف خيط آخر للنجاة. تنفس الصُّعَدَاء، هدأت ضربات قلبه المتسارعة، واستقرت أنفاسه بعد لحظات توتر أتت على طاقته وكبريائه. رمق سارة ويحيى بنظرةٍ خاطفة، فسرى الخدَر في أطرافه بعد أن غزا قلبه شعورٌ عميقٌ بالراحة، لقد لمسا صدقه، وتفاعلا معه، بل ودافعا عنه أمام خالد القاسي الصارم. شعر بالراحة بعد أن عانى كثيرًا طيلة الأسابيع الأربعة الأخيرة التي كانت أغرب فترات حياته على الإطلاق، لقد انقلبت فيها حياته رأسًا على عقب.

تَنهَّد وهو يسترجع ما قصَّه عليهم، قصته الغامضة..

أو جزءًا يسيرًا منها لو أردنا الدقة..

لقد أخبرهم بالفعل بالحقيقة، لكنها ليست كل الحقيقة..

فلم يخبرهم أنه يعلم مَنْ صاحب الرسائل..

بل إنه التقى معه مرات عديدة..

صحيح أنها كانت لقاءات غامضة لم يَرَ فيها وجهه، إلا أنه أطاعه..

أطاعه ونفذ أوامره بحذافيرها.. بمواقيتها.. وزمنها..

لم يخبرهم أنه يعلم تمام العلم كيفية نشر ذلك الإعلان المستقبلي منذ قرنٍ مضى..

بل إنه يعلم من سَلَّم النص للصحيفة يدًا بيد، ودفع ثمنه بسخاء..

فقد كان هناك، في عام 1915..

نعم، هو بذاته صاحب الإعلان..

هو دكتور «أيمن النشَّار»..

حامل رقم الهُويَّة الطبية الملكية EG200937754، صاحب الدعوة ومُرسِلُها..

***

000001

6 نوفمبر 2015

11:55 قبل منتصف الليل.. شاطئ العجمي

في إحدى البقاع النائية من شاطئ العجمي غرب الإسكندرية، وقفت سيارة إسعاف كاملة التجهيز فوق الرمال.. يحيط بها أربعة أشخاص بمعاطف طبيَّة بيضاء في صمتٍ يتطلعون إلى رجلٍ طويل القامة، جامد الملامح، ذي

شعر ناعم قصير ومنتصب فضي اللون، ينتظرون أوامره. ألقى الرجل نظرةً خاطفةً على ساعة يده، ثم أومأ برأسه إلى أفراد الطاقم الطبي الذين سحبوا نَفَسًا عميقًا قبل أن تتوهَّج أمامهم بقعةٌ من الرمال بضوءٍ ساطعٍ يغشى الأبصار، قبل أن يصدر من داخله صوت انفجار مكتوم.

خفُت الضوء، مُخلِّفًا وراءه جسدًا لرجل قارَب الخمسين من عمره، فاقدًا للوعي والدماء تنزف من ثقبٍ في صدره. سارَع المُسْعِفُون إلى الجسد المُسجَّى أمامهم يحملونه إلى داخل السيارة ثم شرعوا في إسعافه.

تجاهل الرجل جامد الملامح ما يحدث وخطا بضعَ خطواتٍ بعيدًا عن السيارة ونظر في ساعته مجددًا، ثم استلَّ من سُترته مسدسًا مزوَّدًا بكاتمٍ للصوت.. وانتظر.. انتظر حتى توهَّجت الرمال وقرقعت، ليظهر من العدم أربعة مقاتلين في زِيٍّ أسود مَهِيب يزينه شعار «ندفة الثلج» السداسي أزرق اللون.. ثلاثة مقاتلين من جماعة «فرسان الزمن» وقائدهم «رالف»..

وقبل أن يتمالك المقاتلون أنفسهم من جَرَّاء الرحلة الزمنية.. صوَّب الرجل مُسدَّسه وأطلق أربعَ طلقاتٍ سريعةٍ متعاقبةٍ فجَّرت أدمغتهم، وأردتهم قتلَى تُخَضب دماؤهم رمال الشاطئ.

أعاد المسدس إلى سُترته، ووقف يتأمل الجثث الأربع الغارقة في دمائها دون أن تختلجَ عضلةٌ واحدةٌ من عضلات وجهه، ثم شرع ينزع عنهم أساور الزمن خاصَّتهم ويضعها بحرصٍ داخل صندوق متوسط الحجم من الرصاص. تَنهَّد الرجل في هدوء، وحمل الصندوق ومعه أسلحة المقاتلين المتقدمة عائدًا إلى سيارة الإسعاف؛ ليطمئنَّ إلى أن طاقم المسعفين قد أدى مهمته وأنقذ المسافر الزمني مؤقتًا..

المسافرُ الفارُّ من خطٍّ زمنيٍّ قد انهار..

وضع الصارم حمله في السيارة بحرصٍ قبل أن تبتعد السيارة في تُؤدةٍ حفاظًا على صيدها الثمين..

حفاظًا على شريف عزيز القاضي..

***

000000

ديسمبر 1912.. (ثلاث سنوات قبل الكارثة)

باڤاريا.. الإمبراطورية الألمانية..

قارَبَت الساعة على منتصف الليل حين دلف إسماعيل، الشابُّ الأنيق ذو الأعوام الأربعة والثلاثين، إلى غرفة والدته، زينب هانم الخازندار، في قصرها المَنِيف في ضواحي

مدينة ميونيخ الألمانية. رمقته والدته بنظرةِ إعجابٍ حانيةٍ وهي تتأمل وسامته في حُلَّة السهرة السوداء تلك، التي يزيِّنها «بابيون» أسود قصير لامع يتباين مع قميصٍ أبيض وصديريٍّ مُنشَّى ناصع البياض.

لم تخلد زينب إلى النوم حتى تلك الساعة المتأخرة في انتظار ولدها الوحيد، الذي انحنى وقبَّل يدها في احترام، فأذِنت له بالجلوس. تبادلا بعض الأحاديث السياسية حول الوضع المتأزِّم في أوروبا وحرب البلقان، وتلك الإشاعات التي يتناقلها الأثرياء خلال الحفل الذي عاد منه لتَوِّه، حول حرب كبرى قادمة لا محالة في ظل زيادة التَّوَتُّر بين مختلف القوى الأوروبية بالإضافة إلى الإمبراطورية العثمانية.

أعاد الإلحاح عليها من أجل العودة النهائية إلى مصر والاستقرار بها، مُكرِّرًا استنكاره وسؤاله عن سبب مغادرتهم مصر في المقام الأول والاستقرار في تلك المنطقة الألمانية النائية. فأعادت إجابتها المعهودة حول أعمال والده التي اقتضت حينها الانتقال والاستقرار في ألمانيا، بالإضافة إلى عدم تحمُّلها الإقامة في مصر بعد الاحتلال البريطاني في 1882. أعادت تذكيره بأن الفترة التي أعقبت وفاة والده كانت صعبة ومضطربة، فارتأت ضرورة البقاء لبعض الوقت للإشراف على أعماله، ثم فضَّلت الاستقرار في ألمانيا والنأي

بها وبولدها عن حياة القاهرة الصاخبة وأزماتها السياسية المتلاحقة التي غُرزت فيها عائلتها بعد الاحتلال، واستأنست بوجود أرملة جدّه الراحل التي رفضت العودة إلى مصر مُفضِّلةً البقاء إلى جوارهما. داعبته حين ذكَّرته بأن ولعه الشديد بالعلم بشكل عام والرياضيات بشكل خاص، قد أكَّد صواب قرارها بالبقاء في ألمانيا ليتعلَّم في جامعاتها ويجاور علماءها؛ ليُشبع جوعه الشديد وهوسه الشرِس بالعلم والأرقام.

فاتَحتَهُ مُجدَّدًا في مسألة الزواج، وأنه قد آن الأوان كي يتزوج، فلا يجب عليه أن يكرِّس كامل حياته للعلم والرياضيات وأرقامها المركَّبة ومعادلاتها المعقدة. لقد فشلت مرارًا وتكرارًا في حثِّه على الزواج وتنحية الرياضيات جانبًا لبعض الوقت، فالعلم لا نهايةَ له تمامًا كسلاسل الأرقام التي يدرسها.

كانت تتوقع أن تُخفق مجددًا في إقناعه بالزواج حتى بعدما ربطت بين العودة والاستقرار في القاهرة وبين زواجه؛ وبخاصة أنها تجاوزت الستين وأصبحت أيامها في الدنيا معدودة، مع تكرار تلك الجمل المحفوظة كافةً حول رغبتها في حملِ حفيدٍ لها قبل أن تُوارَى الثَّرَى.

محاولات متكررة فاشلة لإقناعه بالزواج على مدى

سنوات طويلة، آثر إسماعيل خلالها التركيز في عمله وعلمه وابتكاراته الرياضية. فكانت زينب هانم على قناعة تامَّة بفشل محاولتها الجديدة أسوةً بسابقاتها، إلا أنه، ولدهشتها، استجاب لها هذه المرة. لم يَستجِب فقط، بل صارحها في خجل بأنه يهيم حبًّا بفتاةٍ ذاتِ أصولٍ مصريَّة، التقاها مصادفةً منذ عدة أشهر في أحد المؤتمرات العلمية في ميونخ. تلعثم كعادته مع شعوره بالتَّوَتُّر حين أخبرها بأنه كان يرغب في إخبارها بالأمر منذ فترة ولكنه كان يخشى رفضها.

تعجَّبت من ظنِّه أنها من الممكن أن ترفض مسألة زواجه التي طالما ألحَّت عليها. نقل إليها توتره، لكنها سيطرت على مشاعرها حين أدركت أن أمرًا ثقيلًا يجثُم على صدره، فطمأنته وشجعته على أن يتابع ولا يخشى رفضها لاستحالة أن ترفض له طلبًا طالما فيه سعادته، ومن قبلها سلامته.

زفر حينها في عمقٍ ليطرد عنه الهواجس والمخاوف وقرر أن يستسلم لها ويقصّ عليها الأمر برُمَّته. شرح لها كيف أن تلك المرأة، والتي تُدعى أمينة، هي فتاة يتيمة من أصول مصرية تنقَّلت خلال فترة مراهقتها بين الأناضول والبلقان، قبل أن تفقد كامل أسرتها خلال الحروب الطاحنة التي لم تتوقف في تلك المنطقة، فانتقلت بعدها إلى ألمانيا للعمل بجامعاتها قبل أن يستقر بها الحال في مدينة ميونخ.

لم تلمس زينب بعدُ سبب خشيته رفضها الزواج من تلك الفتاة، فرغم إيلاء عائلتها العريقة اهتمامًا مبالغًا فيه بما يخص مسألة عراقة النسب في الزواج والمصاهرة، فإنها شخصيًا تتمتع بأفكار أكثر تقدُّمية بخلاف باقي العائلة؛ ولذلك فإنها قطعًا لن ترفض مسألة زواجه من تلك الفتاة لمجرد كونها يتيمةً تعيش في المهجَر.

وكعادتها معه منذ الصِّغَر لم تعلق ولم تقاطع، بل شجَّعته بنظراتها الحانية المتفهِّمة على أن يتابع حديثه دون خشية ردَّة فعلها. وبعد تردد، استطرد يخبرها، وهو يتحاشى النظر في عينيها، أن أمينة قد فقدت زوجها كذلك خلال تلك الحروب، قُتل غدرًا فتركها وحيدةً ومعها طفلتها الجميلة التي لم تبلغ العامين بعد.

خفق قلب والدته في عنفٍ لكنها حافظت على هدوء تعبيرات وجهها ولم تعلق. أمسك إسماعيل بيدها فلمست ضربات قلبه المتسارعة، بل أحسَّت بلهيب مشاعره حين نظر في عينيها، شعرت بكل ما يعتمل في صدره وهو يتابع بشفاهٍ ترتعش من فرط اللهفة:

- لقد تعلَّقتُ بتلك الفتاة وابنتها بشدة يا أمي.. بل تعلقت بالطفلة أكثر من أمها، فأصبحت لا أعلم أأحبُّ الصغيرة لحبي لأمها، أم أحبُّ «أمنية» لعشقي للصغيرة.

لم تعهد منه زينب ذلك الشغف من قبل في أي أمر يتجاوز الرياضيات ومعادلاتها، فتَنهَّدت وعاجَلته بابتسامة حانية دافئة، وتحسَّست وجنتيه في حنان، قبل أن تعرب عن تَفهُّمها الكامل لمشاعره، وأنها تبارك اختياره لثقتها التامَّة في رجاحة عقله ونقاء سريرته. ثم طلبت منه لقاء أمينة وطفلتها، ووعدته بأنها ستكون أُمًّا لها وجدَّةً لطفلتها.. وقد كان.

كانت زينب تدرك أن إسماعيل قد مرَّ بأحداثٍ جليلةٍ في سنوات عمره الأولى أثرت على صلابة شخصيته وثقته بنفسه وبمن حوله..

كانت تدرك أنه إذا ما تعلق بشخص فقد وثق به..

كانت على قناعةٍ تامَّةٍ بأن زواجه من فتاةٍ يتيمةٍ هو بالقطع أفضل له من زواجه من فتاة تنحدر من عائلة عريقة، قد تطرح أسئلة لن تجد لها إجابات..

أسئلة تنبش في ماضٍ سعت هي جاهدة، طيلة عقود ثلاثة، أن تخفيَه..

أن تمحو أثره من ذاكرة المُقرَّبين ومن سواهم..

ثلاثة عقود قضتها في منفًى اختياريٍّ لحماية إسماعيل والحفاظ على سلامته.. ولكن، وكما أن لكل أمر بدايةً فإن له حتمًا نهاية.. وقد حانت نهاية المنفى الاختياري.. ولاحت

بداية العودة إلى أرض الوطن.. إلى مصر.

***

000010

8:00 مساءً.. المخبأ الآمن

راقب يحيى خالد وهو ينطلق مغادرًا المخبأ المحصَّن في سيارة مُدرَّعة مَهِيبة، ذكَّرته بسيارات شخصية باتمان الكارتونيَّة، بلونها الأسود الحالك وجسدها المقوَّى بصفائح متينة متداخلة. سرح بخياله وهو يقارن بين سيارة بطله الأسطوري التي طالما انبهر بها، وبين سيارة S13 التي تبدو أكبر حجمًا وأكثر تطوُّرًا على ما يبدو. انزوت شفتاه جانبًا ناحية إحدى وجنتيه المكتنزتين لترسم ابتسامةً ساخرةً عندما مرقت خاطرةٌ سخيفةٌ أخرى على عقله، أن ماذا لو شاهد المخرج العالمي كريستوفر نولان تلك السيارة المستقبلية بتقنياتها الفائقة، ألم يكن ليغيِّر تصميم Batmobile في ثلاثيَّته الأسطوريَّة.

تأملت سارة في دهشةٍ تلك الابتسامة الساخرة الواسعة التي تعلو وجهه بينما تحدِّق عيناه في الفراغ. ورغمًا عنها، فرَّت ابتسامة مرحة على شفتيها وهي تراقبه وقد سرح بخياله محلقًا في عوالم الفانتازيا المفضلة لديه، والتي، ويا

للمفارقة، يعيشها حاليًا. لمحها يحيى، فانهار كهف باتمان عليه وعلى مَنْ صمَّمه، وانقشعت غيوم الفانتازيا الوردية ليهوي مجددًا ويرتطم بأرض الواقع الحجرية. أطرق برأسه في حرجٍ قبل أن يقول متوسلًا:

- أريد سيجارة!

اتسعت عينا سارة في دهشةٍ للحظة، ثم انفجرت في قهقهةٍ عالية، قبل أن تنتقل عدوى الضحك إلى أيمن وهو يتأمل يحيى في ثوب المستشفى عاري الظهر الذي بالكاد يغطي جسده البدين. احمرَّ وجه يحيى خجلًا، ثم غضبًا، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكًا هو الآخر حتى تشنَّجت عضلات بطنه، فتهاوى على أقرب مقعد يلهث ويمسك بطنه، في محاولةٍ فاشلةٍ لكبح جماح عدوى ضحك منفلتة.

ارتجَّ المكان بموجاتٍ متلاحقةٍ من الضحك. قهقه ثلاثتهم في عنف، أطلقوا العنان لضحكات عالية مزلزلة تنفيسًا لتوتر وقلق وخطر لم ينقطع منذ أن استفاق يحيى من غيبوبته. هدأ الضحك تدريجيًا، واستحال إلى ابتسامات وَدُودَة متبادلة. سيطر أيمن على شفتيه وقال في نبرة حاول أن يسبغ عليها شيئًا من الجديَّة:

- «التبغ بأنواعه كافةً قد مُنع منذ أكثر من عشرين سنة»، صمت لوهلةٍ ثم أضاف: «لكن يمكن أن تجده عند نسيم».

قالها وانفجر ثلاثتُهم في موجةٍ جديدة من الضحك المتواصل..

تقطعت الضحكات وتباعدت حتى ساد الصمت من جديد. تعجَّب يحيى من انفجارهم جميعًا في موجاتٍ شديدة من الضحك دون سبب حقيقي، بل لسببٍ سخيف في واقع الأمر. تساءل إن كان هذا هو حس الدعابة لديهم هنا فعلًا أم أن الأمر لا يعدو كونه تصريفًا لضغطٍ عصبي متزايد، سيعاني مصريُّو هذا الزمن كثيرًا إن التقوا ومصريِّي واقعه الأصلي، سيشعرون بالدونية بكل تأكيد. يبدو أن خطَّه الزمني يتفوق على الخط الحالي في الحس الفكاهي بلا أدنى شك، هم يتمتعون بالتكنولوچيا المتقدمة وواقعه يتمتع بخفَّة الظل، أو هكذا يأمل .

توقفت خواطره الهزلية للحظات، استعاد فيها التَّوَتُّر والقلق على مصير أسرته وحاول السيطرة على زمام عقله من جديد. فالخطر يحدِّق بأسرته وهو غارق في خواطر تافهة خرقاء. تبًّا! لا مفرَّ من العودة إلى زمنه وواقعه، إلى أسرته علَّه ينقذهم من خطرٍ قد حاق بهم. فالتفت إلى سارة قائلًا بعصبية:

- يجب الاتصال بوالدتك. هي الخيط الأهم. لا بُدَّ من وجود تفسير لكل هذا.

تَنهَّدت في أسى قائلة: «كم أتمنى ذلك يا يحيى، لكن مع الأسف شبكة الاتصالات المتاحة هنا معزولة تمامًا عن شبكة الاتصالات الرئيسة».

انخرطا معًا في حوارٍ فنيٍّ مفصَّل بقدر ما تسمح به خبراتهم الفنية في مجال الاتصالات، حوار كشف ليحيى الكثير عن تكنولوچيا الاتصالات المستخدمة في هذا الخط الزمني. شرحت له سارة كيف أنه ومنذ بدأ عصر الاتصالات اللاسلكية للمدنيين في النصف الثاني من ستينيَّات القرن العشرين، وانتشار استخدام الهواتف النقَّالة، اعتمدت الاتصالات على شبكة «Cosmos» الفضائية، وهي شبكة مُكوَّنة من 57 محطة فضائية تطوف حول الأرض بلا انقطاع؛ لتوفر تغطية شاملة للجزء المعمور من الكوكب.

ظلت «كوزموس» شبكة الاتصالات الرئيسة لما يقرب من عشرين عامًا، حتى تم إطلاق «فريدة» للعامَّة، واعتماد أحد مُكوِّناتها رسميًا شبكةً وحيدةً للاتصالات المدنية في منتصف عام 1984. بعد ذلك، تحولت «كوزموس» إلى شبكةٍ لأبحاث الاتصالات الفضائية لعدة سنوات لاحقة، حتى خرجت من الخدمة رسميًا في بداية التسعينيَّات. وعلى مدار السنوات التالية، أُهمِلت الشبكة تمامًا حتى فُقِدَ الاتصال بالعديد من محطاتها الفضائية التي لا تزال تطوف حول الأرض في

مداراتها، كما أُغلقَت محطاتها الأرضية كافة، ثم تحولت مكاتبها إلى أطلال مُهملَة تقف شاهدةً على تكنولوچيا غابرة. وفي حماس، رفعت سارة أحد الهواتف النقَّالة التي أخذتها من الخزينة، وهزَّته أمام وجه يحيى قائلةً في مرح:

- هذه هي هواتف كوزموس يا يحيى.. ليست متطورة، لكنها آمنة بكل تأكيد.

أشاح أيمن بيده في المكان، وغمغم في صوتٍ خفيضٍ خشيةَ أن يقطع حوارهما وتسلسل أفكارهما: «يبدو أن من أنشأ هذا المكان يتحكم بصورةٍ أو بأخرى بالشبكة المفقودة!».

أومأ يحيى برأسه موافقًا، في حين رَفعث سارة كتفيها بمعنى «ربما»، ثم استطردت موضحةً أن فريدة بدأت كنظام أمني عسكري مُكوَّن من 7 محطات فضائية في نهاية الستينيّات. ومع تطور نظريات فيزياء الكَمّ، وما تلاها من طفرة نوعية في مجال الحَوْسَبة الكمِّية، توسع نظام فريدة بشكل مُطَّرِد من حيث الوظائف والاستخدامات وعدد المحطات الفضائية المكوِّنة للنظام. توقفت للحظةٍ ثم ابتسمت وهي تضيف في هدوء:

- فريدة مكونة من 214 محطة فضائية مختلفة الأحجام والقدرات، لنقل وتحليل وتخزين البيانات بأنواعها.. أجهزة

كمبيوتر عملاقة متصلة، تعمل كوحدة واحدة فائقة القدرة.

اتسعت عينا يحيى في دهشةٍ وهو يتخيل حجم معالجات البيانات العملاقة التي ذكرتها سارة. ثم ما لبثت عيناه أن اختفت منهما الدهشة وحلَّ محلَّها وميض الانبهار، فلمعت عيناه كعادته عندما يتعلق الأمر بحوار تقني. دائمًا ما عَدَّ التكنولوچيا هي عشقه الأول، بل تأتي في الترتيب قبل كل شيء، إذا كان عليه الاختيار بين مجرد التعرُّف على تقنية جديدة وبين أي شيءٍ حياتيٍّ آخر لاختار التكنولوچيا دون أدنى تفكير. عجز عن حصر المرات التي خذل فيها زوجته وولديه بسبب أمر يتعلق بالعمل أو التكنولوچيا. كانت التكنولوچيا دائمًا أولًا، وأسرته ثانيًا.. أو هكذا كان يظن. هزَّ رأسه من جديد ينفض عنه خواطره، ثم سألها في اهتمامٍ وهو يشير بيده إلى السماء:

- لماذا كل التكنولوچيا في زمنكم فضائية يا سارة؟ «كوزموس» ومن بعدها «فريدة». اتصالات وبنوك بيانات ومعلومات وخوادم.. لماذا كل هذا التعقيد؟ ألم يكُن من الأسهل إقامة الشبكات ومراكز المعلومات والخوادم هنا على الأرض؟ الصيانة ستكون بالتأكيد أكثر سهولةً، أليس كذلك؟

شردت سارة بعينيها للحظاتٍ تفكر في كيفية شرح الأمر ليحيى بطريقة مبسطة، ثم تَنهَّدت وقالت في هدوء:

- من الممكن أن تكون النظريات العلمية مختلفة في مراحل تطوُّرها بين عالميْنَا، ولكن سأحاول تبسيط الأمر قدر الإمكان.. فبفرض أن نظريتك الخاصة بتشعُّب الزمن صحيحة وأن عالمينا قد افترقا في الأربعينيّات، إذًا فأنت بالتأكيد تعرف من هو «آلان تورنج» عالم الحوسبة البريطاني الشهير؟

- بالتأكيد، «آلان تورنج» الأبُ الروحيّ للحاسوب كما نعرفه.

انتقلا إلى نقاشٍ علميٍّ حول آلان تورنج، ومساهماته العلمية التي تُعدُّ حجر الأساس للنَّمْذَجَة ومحاكاة الخوارزميّات. فآلة تورنج الأصلية أو Turing Machine، والتي طرحها تورنج في منتصف الثلاثينيات قبل تفرع زمنيهما، هي أساس الحوسبة الرقمية الكلاسيكية، أما آلته الأخرى الكمِّية، QTM، فتُعد أساس الحواسب الكمِّية الحديثة. استعرض يحيى معلوماته البسيطة حول الفرق بين الآلتين وكذلك بين الحوسبة الكلاسيكية والكمِّية، فالأولى تعتمد على النظام الثنائي (Binary)، بحيث يكون الرمز صفرًا أو واحدًا. أما الحوسبة الكمِّية فتعتمد على خاصية التراكب الكمِّي (Superposition)، بحيث يمكن للرمز أن يكون صفرًا أو واحدًا، أو صفرًا وواحدًا في نفس اللحظة؛ ولذلك فإن الحاسوب الكمِّي يقوم بعدة عمليات

حسابية في نفس اللحظة، في حين أن الحاسوب الكلاسيكي يقوم بعملية حسابية واحدة في المرة الواحدة. ومن ثَمَّ؛ فإن قدرات الحاسوب الكمِّي وسرعته تتعدى بأضعاف مضاعفة سرعة الحاسوب الرقمي الكلاسيكي، إلا في بعض العمليات الحسابية التي قد يكون فيها الحاسوب الكلاسيكي أسرع، ثم اختتم يحيى استرساله قائلًا:

- «باختصار الكمبيوتر الكمِّي هو «سوبرمان» في حين أن الكمبيوتر العادي هو «كلارك كِنْت» يسبح في حقلٍ من الكرِيبتُونَيِت.. ولكن ما دخل هذا بالفضاء؟».

لم تعلق سارة على التشبيه واكتفت بابتسامة مجاملة هادئة، ثم عقَّبت:

- رائع، هو ذلك بالضبط يا يحيى. فريدة مُكوَّنة من معالجات كمِّية، درجة الحرارة المُثلَى لوظائفها هي صفر كلفن؛ أي سالب 273 درجة مئوية، والذي يُطلق عليه «الصفر المُطلَق». وبالنظر إلى حجم فريدة الفعلي بالإضافة إلى اعتبارات خاصة بضمان توافر الشبكة بشكل دائم وتعزيز جودة الاتصال (accessibility and connectivity) وكذلك لاعتبارات أمنية أهم، فالأفضل وجودها في الفضاء.

- الصفر المطلق هو درجة الحرارة المُثلَى بالفعل، لكن في زمني هناك أجهزة كمبيوتر كمِّية تعمل في درجات حرارة

أعلى قليلًا من الصفر المطلق لصعوبته.. صحيح الكفاءة قد تختلف، لكن الظروف المناخية في الفضاء ليست مضمونة كذلك طيلة الوقت.. ما زلت أصرُّ على أن وجود «فريدة» في أقمار صناعية أو محطات فضائية تُعدُّ فكرة غير عملية من وجهة نظري. صمت يحيى للحظةٍ ثم هزَّ كتفيه وأردف: «ما علينا، ليست قضيتي.. ما قدرةُ فريدة الفعلية؟»

رغمًا عنها، فرَّت من سارة ابتسامة تهكُّم وهي تجيبه:

- فريدة مكونة من بضع مئات من معالجات البيانات الكمِّية المتصلة، تتوزع على المحطات الفضائية الطوَّافة وغيرها.. أضعف معالج كمِّي في الشبكة، قدرته قرابة ألف كيوبت.

فغر يحيى فَاهُ ذهولًا، تصلَّبت أليافه العصبية، وتجمدت خلاياه، فتوقف عقله عن العمل وعجز عن مجرد تخيُّل القدرة الكلية لفريدة إذا كان أضعف مُعالِجاتها يبلغ ألف كيوبت (Qubit)؛ أي أكثر من عشرين ضعفَ أقوى المعالجات الكمِّية في زمنه، هو يتذكَّر أن إحدى الشركات كانت قد أعلنت التَّوصُّل إلى معالج كمِّي بقدرة 50 كيوبت تقريبًا. فصرخ يحيى في ذهول:

- «مستحيل! إذا كان ألف كيوبت هو أضعف المعالجات، فما بال أقواها؟! نحن نتحدث هنا عن تريليونات التريليونات من عمليات النقطة العائمة الحسابية (FLOPS) في الثانية

الواحدة». دارت عيناه في محجرَيْهما وعقله يحاول احتساب قدرة معالجات فريدة الكلية، فعجز واستسلم، فاستطرد في ذهول: «ربَّاه!! لا أستطيع حساب قدرة «فريدة» الكلية.. هذا مستحيل!»

- نظام «فريدة» هو كل شيء يا يحيى. أمن وصحة وتعليم وأبحاث واتصالات ومساعد شخصي. كل شيء يمكنك أن تتخيله، ولكل مواطن في الإمبراطورية. صمتت للحظةٍ ثم أضافت وهي تشير بسَبَّابتها إلى أعلى: «نحن جميعنا هناك.. فوق».

هزَّ يحيى رأسه في عنفٍ محاولًا انتزاع نفسه من ذهولٍ شلَّ تفكيره حرفيًا:

- عمومًا قدرة معالجة البيانات التي ذكرْتِها هي حلم أي مهندس.. التطبيقات التي يمكن تنفيذها بكمبيوتر بهذه القدرة لا نهائية.

تدخل أيمن في الحوار قائلًا:

- التطوُّر العلمي الرهيب في مجال الطب هو بسبب فريدة.. الألياف المُصنَّعة وجزيئات النَّانُو المستخدمة في جسمك يا يحيى هي نتيجة أبحاث وعمليات نَمْذجَة قامت بها فريدة.. وجودك في قيد الحياة نفسه هو بسبب فريدة فقط.

- استغفر الله العظيم يا دكتور.

قالها يحيى في استهجان، ثم عقد حاجبيه بشدةٍ حين تضارَبَت الأفكار والأسئلة المتلاحقة في عقله، فالتفت إلى سارة وسألها مستنكرًا:

- وماذا بشأن التفرُّد (Singularity).. ألا تخشون بلوغ التفرد؟

- ماذا تقصد؟

- التفرد التكنولوجي، وهو أن كمبيوتر فائق الذكاء يتخطى ذكاء البشر، ويبدأ في تطوير نفسه ذاتيًا.. وبما أن البشر أبطأ في التفكير فالنتيجة النهائية ستكون تفوقًا مطلقًا وسيطرة على البشرية بصورة كلية.. فيصبح البشر عبيد الآلة.

قالها يحيى في جدّية بالغة، فأفلتت من سارة ضحكةٌ عاليةٌ قبل أن تقول:

- أهذا هو الخيال العلمي في زمنك يا يحيى؟ البشر عبيد للآلات؟! اطمئن، نظام فريدة قد تخطى ذكاء البشر فعليًا منذ سنوات مضت.

- !!!!

- هذه بالضبط كانت إحدى وظائف مجموعة «ألفا» ..

تطوير فريدة وتعزيز نظامها الأمني لمنع أي سلوكيات عدائية من الداخل.. بالإضافة إلى وضع طبقات حماية متعددة تمنعها من بلوغ مرحلة الوعي بالذات. نحن نعي تمامًا خطورة مسألة إدراك الوعي.. لا تقلق، حتى الخيال العلمي مأخوذ في الحسبان. كما أن نواة فريدة، أو برنامجها الرئيس محميٌّ تمامًا.. مُشفَّر بشكل تام.. مجموعة «ألفا» ذاتها غير قادرة على الوصول إلى النواة أو فك رموزها حتى وإن أرادت.

حدَّق يحيى في وجهها طويلًا، ثم سألها باهتمام:

- ولماذا فريدة؟ لماذا اسم عربي رغم أن بريطانيا هي كل شيء؟!

- الهيئة أو الشركة التي طورت فريدة هي هيئة مصرية. وصاحبها أو مديرها الأبدي هو مصري أبًا عن جَدّ.

ابتسمت عندما لمحت نظرات الدهشة تتسع في عينيه. في حين اتَّكأ أيمن في جلسته، وانتفخ صدره وهو يهتف بنبرةٍ يملؤها الفخر:

- مختار كامل. أشهر وأهم شخص في التاريخ الحديث بأكمله.

شعور مختلط من الدهشة والفخر اجتاح يحيى، فصمت

وعاد بظهره للوراء، وسرح بخياله للحظاتٍ علَت فيها ابتسامة زَهْو على وجهه، فمصر هي مصر بالنسبة إليه أيًا كان الخط الزمني. ثم اعتدل في جلسته، وسأل سارة في اهتمامٍ شديد:

- سؤال أخير، معذرةً. ما اللغةُ البرمجيةُ المستخدمة في فريدة؟

أخذت سارة تجيب أسئلته المتلاحقة في هذا الشأن، واستفاضت في الإجابة رغم أن دورها الرئيس في مجموعة «ألفا» كان إعداد الخوارزميَّات من مُنطلَق نظري، والاكتفاء بتطوير كود برمجي مبدئي، في عملية يُطلق عليها اسم Prototyping، في حين يعمل آخرون على تحويل الخوارزمية إلى كود برمجيّ نهائيّ، فيما يعرفه يحيى باسم Production Quality Code.

استخلص يحيى من شرحها أن إحدى لغات البرمجة المستخدمة في فريدة؛ وبخاصة تلك التي تتواصل مع نواة النظام، هي أقرب لمفهوم Object Oriented Programming في عالمه، والتي تتعامل مع مُكوِّنات البرنامج ككائناتٍ منفصلةٍ ذات خصائص ومهام، يسهل ضبطها وإعادة استخدامها مجددًا في مختلف الخوارزميات والبرامج الفرعية. ولكن ما جذب اهتمامه هو أن تلك

المُكوِّنات المنفصلة قد تم تطويرها في الأصل باستخدام لغة أخرى مندثرة استخدمتها المجموعة الأولى التي أعدت النواة الرئيسة لفريدة، ثم تم التعامل لاحقًا مع تلك النواة كصندوقٍ أسود لا يمكن الولوج إليه أو تعديله.

- تقريبًا أساسيَّات البرمجة واحدة بين عالمَيْنا.

قالها يحيى في اهتمام عاقدًا حاجبَيْه، فهزت سارة كتفيها، ثم زفرت في تعب بعد ذلك النقاش الفني الطويل المجهد. وساد الصمت لدقائق استراح فيها ثلاثتُهم قليلًا، قبل أن يقطع يحيى الصمت قائلًا:

- حسنًا، أريد أن أصلِّي.

فغر أيمن فَاهُ في دهشة، وتعجبت سارة وهي تحدِّق في وجه يحيى، الذي مال إلى الأمام بشدة وهتف مستنكرًا:

- ماذا؟! هل منعوا الصلاة كذلك؟!

أجابته سارة في سرعة: «لا بالطبع.. ليست ممنوعة، ولكنها غير معتادة».

صمتت للحظةٍ تتفرَّس فيها وجه يحيى المنزعج قبل أن تقول في اهتمام:

- أتصلي يا يحيى؟

- بالطبع! الحمد لله، فلا تستقيم الحياة أصلًا من دون الصلاة!

تناقَش ثلاثتُهم في أمور الدين، والاختلاف الواضح في نواحي الالتزام والتمسك بالشعائر بين واقعهما الموازي وذلك الذي جاء منه يحيى. تبيّن أن البريطانيين قد منعوا تدريس الدين في المدارس منذ أن استتبّ لهم الأمر، وتمكّنوا من إخماد ثورات الاستقلال المتتالية. ضيّقوا الخناق على المصريين فيما يتعلق بممارسة شعائر دينهم، وإن لم يمنعوها بالكلية. انطلق يحيى يقصّ عليهم الحال في واقعه الذي يفتقده، تحدّث بحماسته المعهودة عن رمضان، وأجوائه الروحانية، عن صلاة التراويح وصوت الأئمة العذب يصدح مُرتِّلًا القرآن.

حرك حديثه بعض الشجن في النفوس، ثم دلّته سارة على إحدى الغرف التي سيجد بها ملابس تناسبه، وماءً يتوضأ به. تركهما يحيى وقد أغمضا أعينهما في استرخاء، وسرح كل منهما بخياله يسترجع حديث يحيى الروحاني.

غلبها النوم قليلًا حتى لمحت يحيى يخرج من الغرفة في ملابس سوداء أنيقة ذات طابَعٍ عسكريٍّ تلائم المكان، تأملته بشيء من الإعجاب مع مسحة عاطفيّة وجدت طريقًا إلى قلبها، فابتسمت ثم سألته في صوتٍ غلبه النُّعَاس:

- إذا كان الزمن قد تفرَّع كما ذكرت يا يحيى، إذًا فزوجتك هي شخص آخر غيري. جسد مختلف في خط زمني مختلف لكن لنفس الشخصية، إذا كنت تعي ما أقصد؟

ابتسم وهو يتأملها بعينين عاشقتين، ثم تَنهَّد في حنان، قبل أن يقول بنبرةٍ واثقة: «لا.. هو أنتِ.. أنتِ بذاتك ستكونين زوجتي يومًا ما.. جسد واحد لشخص واحد».

ابتسمت في شيءٍ من الراحة، ثم أغمضت عينيها وتاهت في تلك الحالة بين النوم واليقظة الأقرب إلى الحُلْم، وقد تناهَى إلى مسامعها صوته العذب وهو يستقبل القِبْلَةَ يقيمُ الصلاةَ ويرتِّل القرآنَ كما لم تسمعه من قبل:

- «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

***

000010

5 يناير 1940

12:30 بعد منتصف الليل.. مصر الجديدة

هطل المطر غزيرًا في تلك الليلة قارسة البرودة، فغطى شوارع حَيّ «مصر الجديدة» الخالية، بطبقةٍ رفيعةٍ من المياه

التي تسبح فوقها أوراق شجر جافة، تساقطت من أشجارها وعلقت أسفلها منذ بداية فصل الخريف السابق. دوّى صوت الرعد عاليًا بعد أن أضاء البرق سماء الحي الهادئ، فغطى على صوت زَخّات المطر وقطراته السميكة، وهي تضرب النوافذ الخشبية الخضراء المميزة لتلك البنايات السكنية الراقية المطلّة على شارع «السباق» الشهير، على أطراف ضاحية شرق القاهرة التي كانت تُعرف في بدايتها باسم «واحة هليوبوليس».

غَطّ المهندس «محمد كامل» في نومٍ عميقٍ إلى جوار زوجته، في إحدى تلك البنايات ذات الشرفات الواسعة المزخرفة على الطراز الأوروبي. تعالى صوت أنفاسه بصفيرها الحاد الناجم عن صدر متحشرج ملتهب بفعل التدخين وسنوات العمر التي قارَبَت على الخمسين. لم تعبأ زوجته بصفير زوجها وقد اعتادت عليه، فغطّت هي الأخرى في نومٍ عميقٍ لا ينغصُّه سوى بعض الأحلام المتقطعة التي تعكس رغبتها في أُمومةٍ حُرمت منها.

ثم ومض ضوءٌ أبيضُ ساطعٌ بغتةً عبر خَصَاص النوافذ وأضاء جنبات الشقة الرَّحبة. ضوء مبهر تلاه دويٌّ انفجار مكتوم وشظايا تناثرت فارتطمت بباب الشرفة الخشبي. انتفضت الزوجة من نومها وهي تُبسمِل وتُحوقِل، وتهزُّ

زوجها في فزع، فانتفض واستيقظ مفزوعًا وهبّ من سريره واقفًا. تقدم في بطءٍ يلتمس طريقه عبر الردهة الواسعة، مهتديًا بوميضٍ متقطعٍ خافتٍ يعبر خصاص الشرفة الأمامية حيث الانفجار وشظاياه. اضطرب قلبه في تزامُن مع تلك الومضات الخافتة المتقطعة التي لا يدري كُنْهَها.

أرض الردهة الخشبية تئنُّ تحت ثقل خطواته البطيئة الخائفة والتي تتناسب وتلك الهواجس المتنامية، التي أخذت تتلاطم في عقله حول ماهيَّة ذلك الانفجار وشظاياه، هواجس تتمحور حول فرضية أن ألمانيا قد بدأت في قصف مصر وعاصمتها القاهرة؛ ردًّا على إعلان بريطانيا العظمى الحرب عليها منذ ثلاثة أشهر ضمن حرب عالمية ثانية ستعصف بالعالم أجمع.

تقدم في حذر وامرأته تلتصق بظهره في خوفٍ وذلك الوميض المتقطع يلقي بظلالٍ لحظيَّة خاطفة فتسري قُشَعْريرة باردة في أجساد مرتعشة. بلغ الشرفة، وشرع يفتح بابها في بطءٍ وهو يختلس النظر، ويمسح ببصره الشرفة ومحيطها. أبَى باب الشرفة في البداية أن يُفتح عن آخره وقد أعاقته قطع حجرية صغيرة تغطي أرض الشرفة. دفع الباب في قوة، فانصاع له، فشهقت الزوجة بصوتٍ مسموعٍ في حين اتسعت عيناه جزعًا وهو يرى بلاط الشرفة وقد

تحطم وتناثرت قطعه الصغيرة تفترش الأرضية.

تسارعت ضربات قلبه حين لمح في جانب الشرفة الأيسر أسطوانةً معدنيةً متوسطة الحجم أشبه بدانات المدافع وإن كانت أصغر حجمًا. اتسعت عيناه هلعًا وهو يحدِّق في تلك الأسطوانة المعدنية وذلك الضوء الأبيض المتقطع، الذي يومض به مصباح دقيق صغير الحجم يتوسط طرفها العلوي.

ظلا يحدِّقان في الأسطوانة وقد شُلَّ عقلاهما ففقدا التحكم كليًا في أطرافهما الباردة.

مرت لحظات قبل أن تنتفض الزوجة وترتجف وتسقط مَغشيًا عليها، فور أن أصدرت الأسطوانة صوتَ تكَّةٍ معدنية خافتة حين دار نصفها العلوي عكس عقارب الساعة ثم ارتفع لأعلى، قبل أن ينبعث من داخلها دخان أبيض كثيف يصاحبه صوتُ هسيسٍ حادٍّ أودَى بما تبقَّى من وعيها.

أجفل المهندس «محمد كامل» وقد تاه بصره وتردد بين زوجةٍ أُغشي عليها وأسطوانةٍ غريبة تُفتح في بطء لتكشف عن أسرارها.

تجاهل زوجته الملقاة أرضًا، وتقدم في بطءٍ وفضولٍ نحو الأسطوانة التي انفصل نصفها العلوي كاشفًا عن حُزْمَة

سميكةٍ من الأوراق. أوراق تحوي رسوماتٍ وأرقامًا ومعادلاتٍ خفق لها قلبه.. تعلَّقت عيناه بالورقة الأولى وما خُطَّ عليها..

كلمة ورقم.. «رسالة (1)»..

تهدَّجت أنفاسه وتلاحقت في تناوُبٍ مع ضرباتِ قلبٍ تتسارع.. أحشاء تضطرب وقلب يخفق، لكن ليس بدافع الخوف.. بل بدافع الفضول والنشوة.. والطمع..

ثم تعلَّقت عيناه بأحد محتويات تلك الأسطوانة.. لم تكُنْ رسومًا ومعادلاتٍ كغيرها.. بل كانت رسالة ذات طبيعة مختلفة.. طبيعة إنسانية..

فلمعت عيناه وارتسمت على شفتيه ابتسامةُ جشعٍ واسعة..

لقد أدرك طبيعة الأوراق وهدفها..

وأعلن خضوعَه التام غير المشروط لمُرسِلها..

***

000000

5 ديسمبر 1882

6:15 فجرًا.. القاهرة

أشرقت شمس الشتاء الواهنة تبدِّد ظلمة تلك البقعة

القريبة من صحراء العباسية. رمال منبسطة وكثبان رملية شبه ناعمة تزيِّنها حوافر غائرة لقطيع من الأغنام، امتزجت أصواتُه وتداخلت فيها مأمأة الخرفان وثُغاء الماعز. أغنام هزيلة تصاحبها سيدة عجوز قمحيَّة اللون ذات وجه مجعَّد ووشم أخضر مميز. عجوز غجرية من قاطني منطقة حوش الغَجَر، تسير في خُطَى بطيئةٍ وهي تهشُّ على غنمها بعصًا طويلة تمسكها بيدٍ نحيفةٍ مجعَّدة، تختفي داخل أكمام سوداء مُطرَّزة بتلك الرسومات المميزة للزِّيّ الغجري في ذلك الزمن البعيد.

واصلت مشيتها البطيئة وهي تراقب أغنامها، حتى لمحت بريقًا خاطفًا نتج عن انعكاس ضوء الشمس على سطح معدني أملس. أمعنت النظر فلاحظت بجانب انعكاس الأشعة الواهنة، وميضًا خافتًا متقطعًا يصدُر من ذلك الجسم المعدني.

أسرعت الخُطَى نحو مصدر البريق ثم اتسعت عيناها وهي تحدِّق في كرة معدنية مصمتة لامعة لم تَرَ مثيلًا لها من قبل. دققت النظر ثم أجفلت وشهقت في خوفٍ وهي تحدِّق في ذلك المصباح الصغير وضوئه المتقطع. لحظات طويلة مرت حتى سيطرت على خوفها واقترَبَت من الكرة المعدنية وأمسكتها بيدها، فومضت الكرة المعدنية بضوءٍ أحمر في

اللحظة ذاتها التي انطلق من فتحةٍ صغيرةٍ بمنتصفها دَبُّوس رفيع اخترق يد الغجرية العجوز وسحب منها قطرات بسيطة من الدماء، قبل أن يعود إلى داخل الكرة من جديد.

صرخت الغجريَّة في ألمٍ وأفلتت الكرة المعدنية من يدها، فتدحرجت أرضًا.

أمسكت العجوز بكفِّها الذي يقطر دمًا، وهي تحدِّق في رعبٍ في تلك الكرة التي تغير لونها من الأحمر إلى الأصفر ثم إلى الأزرق في تتابُع سريع ومتكرر، قبل أن تعود سيرتها الأولى، ويخرج منها ضوء أبيض يتشكَّل على هيئة مجسم هولوجرامي دقيق للغجريَّة.

أجفلت الغجرية وسقطت على ظهرها وهي تحدِّق في رعبٍ في المجسَّم الهولوجرامي لجسدٍ عارٍ يشبهها تمامًا ولكن في شبابها، فصرخت في هلع:

- سلامٌ قولًا من رَبٍّ رحيم.. سلامٌ قولًا من رَبٍّ رحيم...

هدأت صرخاتها حين فقدت الوعي لدقائق طالت ثم استفاقت وحدَّقت في نسختها الشبحية الشابَّة، التي تنظر إليها وعلى وجهها ابتسامة واسعة.

لم تدرِ كَمٍ من الدقائق مرت وهي تحدِّق في «الغجرية الشبح» في رعبٍ وتستمع إلى تعليماتها الدقيقة، وترد عليها

بإيماءات استسلام ورضوخ وطاعة كاملة.

وما إن أنهت الغجرية الهولوجرامية رسالتها إلى نسختها الحيَّة العجوز، حتى اختفت وعاد الضوء أدراجه إلى داخل الكرة المعدنية.

لحظات أخرى ثم انفجرت الكرة من الداخل مُصدرةً صوتًا مكتومًا قبل أن تتحول إلى ذرَّات متناثرة، تحملها الرياح بعيدًا، مُخلِّفةً وراءها غجريَّةً عجوزًا خائفة ومستسلمة وخاضعة.

***

000000

5 نوفمبر 1867

7:30 صباحًا.. الدلتا

امتطى «محمود الخازندار باشا» صهوةَ جَوَادِه العربي الأصيل وهو يتفقَّد إقطاعيته الشاسعة بوسط الدلتا. أرض خضراء على مرمى البصر في أكثر أراضي الدلتا خصوبة. خمسة وعشرون ألف فدان من خيرة أراضي القطر المصري قد ورثها الباشا عن والده. والده الذي أخلص في خدمة حاكم مصر القوي «محمد علي»، فأنعم عليه بإقطاعية كبرى

تكفيه وذُريَّته من بعده.

انتصب ظهر الباشا وارتفعت هامته في خُيلاء وهو يمتطي جواده ويجوب أراضيه الخصبة مترامية الأطراف، والتي ازدادت اتساعًا بعد أن ضمَّ إليها أراضي إضافية تقاربها في المساحة والخصوبة، ثروة عظيمة جمعتها عائلته لقربها وإخلاصها لحكام مصر المتعاقبين.

لم يلحظ أثناء خُيلائِه بثروته ونفوذه ذلك الجسم الأسطواني المعدني اللامع الذي يُصدر وميضًا متقطعًا ويقبع في صمتٍ على بُعد أمتار. أمتار قليلة ما إن قطعها الجواد الأبيض حتى أصدرت الأسطوانة تكَّةً خافتةً وانفصل جزؤها العلوي، فتبعه صوت هسيس خافت يصاحب ذلك الدخان الأبيض الكثيف. أجفل الجواد وصهل وهو يرفع قائمتيه الأماميتين في جزع، فألقى بصاحبه أرضًا حتى غاص هو وخُيلاؤه في طين الأرض السوداء.

ارتسمت علامات الهلع والخوف على وجه الباشا وخنع كبرياؤه وهو يحدِّق في تلك الأسطوانة المعدنية، التي تحمل له رسالة سيستجيب لها صاغرًا..

رسالة ستغير حياته وحياة أحفاده إلى الأبد..

رسالة زمنيَّة..

***

000010

11:05 ليلًا.. أطراف شرق القاهرة

قطعت الـS13، السيارة الحربية البريطانية القوية، طريق القاهرة الغردقة القديم المتهدم في زمنٍ قياسيٍّ لا يتعدى ثلاث الساعات، نهبته نهبًا حتى بلغت الأطراف الشرقية لمدينة القاهرة. طريق طويل قاسٍ يربط المخبأ الآمن في قلب المنطقة المشعَّة بأطراف حي هليوبوليس القديم، طريق وَعْر اجتازته سيارة قوية وعزيمة لا تلين، عزيمة تخطَّت عقبات منطقة مشعَّة وطريق مهجور، تقطعه تشقُّقات غائرة وانهيارات أرضية عميقة وتحفُّ جوانبه كثبان رملية وعرة.

منذ أن غادر خالد المخبأ، عقد العزم على عدم العودة دون الحصول على إجابات شافية على تساؤلاته كافة، إجابات تَهدِي قلبه قبل عقله. ما زال عقله يرفض تفسيراتهم الخيالية حول السفر عبر الزمن، أو تفرع الزمن وما إلى ذلك من هُرَاء ونظريات سخيفة يرفضها العقل.. لكن قلبه يصدق.. شيء ما بداخله يصرخ فيه أَنْ صدِّقهم أيها الأبله، فالأمر واضح، والدلائل بيِّنة.

نبتت في عقله خاطرة صغيرة روتها حكايات يحيى عن

زمنه وواقعه، فنَمَت.. نَمَت حتى سيطرت على عقله بالكامل.. إن كان يحيى مُحقًّا بشأن وجود عالم آخر تتمتع فيه مصر باستقلالها وإرادتها الحرة، أليس هو وأسرته أوْلَى بذلك الزمن من غيره.. ألا يجدر به الهروب بأسرته إلى واقعٍ يتمتعون فيه بحقوقهم كاملة.. أو.. أو يسعى إلى إقامة هذا الواقع هنا، الآن، في عالمه.. «مستحيل» صرخ عقله ساخطًا، فأجابه القلب بأنه لا يوجد مستحيل.. هو من النوع الذي لا يستسلم أبدًا حتى يحقق غايته، غايته التي حددها الآن.

مرت عليه الساعات الثلاث ما بين التركيز في اجتياز وعورة الطريق الصعب، وبين مقارعة خواطره وهواجسه، الحُجَّة بالحُجَّة، والغَلَبة للقلب.. ورغم ما يعتمل في قلبه وعقله من صراعات، فقد أبهرته السيارة S13، دُرَّة تاج الصناعة البريطانية كما نعتتها سارة. سيارة ذات هيكل خارجي محصّن بأقوى أنواع الدروع الصلبة ذات الوزن الخفيف، دروع وصفائح شديدة المتانة، متداخلة ومرنة في بعض أجزائها، متانة توفر حماية قصوى لجسمها الخارجي وعجلاتها القوية المرنة، ومرونة تسمح بمناورات أجزائها المتحركة. أجزاء معدنية متحركة قصيرة، توجه فوَّهات مدافع صواريخ تكتيكية متعددة الاستخدامات، مدافع غائرة في جسم معدني مُعتِم يمتصُّ موجات الرادارات المختلفة، جسم مغلف بألياف بصرية ناقلة للصور المتقابلة يخفيها عن

الأعين.

تأمل بإعجاب شديد السيارة من الداخل، ومساحة الرؤية التي تتيحها. على الرغم من عدم وجود نوافذ على جانبيها أو حتى زجاج أمامي وخلفي أسوة بباقي السيارات كما نعرفها، فقد نقلت الألياف البصرية صورة محيط السيارة الخارجي إلى داخلها بدقة عالية، بما أتاح له رؤية 360° لكامل محيط السيارة وسمائها، كأنما يرتدي نظّارة واقع افتراضي (VR)، رؤية كاملة واضحة دون زجاج شفّاف. أما قمرة القيادة، إن صح التعبير، فتزدحم بأجهزة رصد وتحليل فائقة القدرة، قادرة على رصد الأهداف والأخطار وتحليلها والإنذار بها مبكرًا. شاشات متلاصقة تتوهّج بأرقام ورسومات هندسية تحلل محيط السيارة على مدى عدة كيلومترات في الاتجاهات كافة. أجهزة رصد مزوّدة بخاصيّة الرؤية الليلية تسمح له بكشف الطريق وجوانبه، دون الحاجة إلى كشّافات ضوئيّة تعلن عن وجود السيارة الشبح.

سيارة شبح بالمعنى الحرفيّ للكلمة، سيارة ترصد المحيط وتُحلِّله بينما تختفي تمامًا عن الأعين المتلصِّصة وأنظمة الرصد المتطورة.. إلا عندما يتعلق الأمر بطائرات المراقبة ذات الكاميرات الحرارية.. محاولات هندسية عديدة تمت لتبريد جسم السيارة من الخارج قدر المستطاع دون جدوى..

طائرات المراقبة الحرارية سترصدها في الحال.. طائرات مُسيَّرة ذاتيًا تنتشر في سماء القاهرة لتفرض سطوةً أمنيَّةً غير قابلة للاختراق.

على الرغم من انتمائه إلى أشد الأجهزة الأمنية نفوذًا فإن حادث إخلاء المستشفى من التأمين، وتعرُّضه لكمين مُحكم كاد يودي بحياته وبحياة من معه، يثير العديد من علامات الاستفهام حول بمَنْ عليه أن يثق ويأمَن.. الأمر دقيق ويتطلب أقصى درجات الحَيْطة والحذَر.. يتطلب البقاء خارج دائرة الرصد والتتبُّع.. عليه أن يبقى شبحًا حتى يصل إلى جذور الأمر ويدرك أبعاده.

تحدٍّ صعب، شبه مستحيل، يهدد سلامته ونجاح مَهمَّته من الأساس.. تحدٍّ قد يودي بحياة رجلٍ عاديّ أو مغامرٍ تقليدي.. لكنه يختلف.. إنه ضابط أمني مقاتل من طراز رفيع، ليس لصفاته الشخصية الصارمة فحسب، بل بسبب خبرة كبيرة اكتسبها أثناء فترة خدمته الاستثنائية وصراعه المستمر مع تنظيم «كفاح طيبة» المسلح المناوئ للاحتلال، وزعيمه «الأيوبي»، داهية الحرب وصاحب أساليب التخفِّي والاقتحام المبتكرة. صراع أشبه بلعبة شِطْرَنْج بين طرفين لا ينقصهما الدهاء، صراع طويل ممتد أورثه خبرةً بطرق «الأيوبي» وأساليبه الماهرة في تخطّي نُظُم المراقبة والرصد

البريطانية.. خبرة استغلال أوجه القصور في المنظومة الأمنية.. خبرة حان وقت استغلالها.

منذ عبوره مدخل القاهرة الشرقي، شحذ خالد تفكيره، واستجمع خبرته، ليتخذ مساراتٍ متعرِّجةَ شديدة التعقيد يتتبَّع خلالها مناطق المراقبة العمياء.. مناطق تقع خارج نطاق المراقبة الحرارية، إما نتيجة طائرات معطوبة أو مخترقة و«مُهَكَّرة»، أو ممرَّات ضيقة تقع بين نطاقَيْ مراقبة حرارية غير متقاطعين.

مرت دقائق عصيبة حتى بلغت S13 وجهتها.. تخطى وسائل الرصد المعقدة، حتى وصل إلى مرأبٍ مهجورٍ تحت الأرض.. أنقذته الخبرة، بل أنقذه من أفنَى عمره في محارَبَتهم.

أوقف خالد السيارة في مرأبٍ مهجورٍ في إحدى البنايات المهدمة في المنطقة التي كانت تُعرف قديمًا باسم «واحة هليوبوليس» أو مصر الجديدة. فحص خالد بتأنٍّ أجهزة الرصد والتحليل في السيارة، حتى اطمأن لخلوِّ محيطها من وسائل الرصد الحراري وغيرها. تنفَّس الصُّعَدَاء ثم أمسك بالهاتف النقَّال المتصل بشبكة «كوزموس» المهجورة، وطلب أول الأرقام التي دوَّنها قبل مغادرته. مرت لحظات قليلة، شعر بها كالدهر، حتى بلغ مسامَعه صوتُ رنين الهاتف من

الطرف الآخر، صوت قديم لا يَذكره لكنه يشير إلى أن الشبكة لا زالت تعمل وأنه على اتصال بسارة ويحيى في المخبأ الآمن.

رنتان أو ثلاث ثم جاءه صوت سارة تهتف في لهفةٍ شابَها النُّعاس:

- خالد.. هل وصلت؟

أجابها في هدوء:

- نعم.. الملهى الليلي على بُعد مائة متر.. سأستجوب نسيم ثم أعاود الاتصال بكم.

تَنهَّدت سارة في ارتياح، وهمَّت بأن تُعقِّب، لولا أن اختطف يحيى الهاتف من يدها، متحدثًا إلى خالد في لهفة:

- «اسأله كيف وصل إلى هنا؟ هل حاول العودة أم لا؟»، صمت للحظةٍ ثم أضاف في جدِّية: «اسأله عن تاريخ خطِّه الزمني.. بالتفصيل.. معرفة نقطة التفرُّع الزمني قد تكشف الكثير».

عقد خالد حاجبيه في صرامة، ثم أجابه باقتضاب:

- بالتأكيد.. انتظرا مكالمتي.

أغلق الخط، وضغط عدة أزرار بارزة في لوحة القيادة.

عادت S13 إلى طبيعتها المرئية، فترجّل عنها بعد أن نزع سُترته الجلدية السوداء الكاشفة لهُويّته الأمنية، واكتفى بقميصٍ رَماديٍّ أعطاه مظهرًا أقل رسمية. حاول إخفاء السيارة قدر المستطاع، فلولا حاجته المُلحّة إلى توفير الطاقة لأبقى عليها في وضعها غير المرئي.

خطوات سريعة حَذِرة تفادى بها خالد كاميرات المراقبة المنتشرة، وقطع بها الأمتار المائة التي تفصله عن ملهى نسيم الليلي على أطراف الأطلال القديمة.. تأمل باشمئزازٍ الطرق المهدمة التي أزكمت أنفه برائحةِ البَوْل العَطِن، وآذت عينيه أكوام القاذورات المكدّسة التي يستند إليها مدمنان فقدا الوعي.. طرقات مهدمة وعرة زادتها الأمطار وَحْلًا سبحت فوقه إعلانات المجسّمات الهولوجرامية المنفِّرة، التي تعلوها أرقام هواتف لفتياتٍ تتحرك في غُنْجٍ يعرضن البِغَاء.

ثم لاح الملهى بلافتته المُتوهِّجة، ملهى «كاريبينيو» (Caribeño)؛ أي الرجل الكاريبي باللغة الإسبانية.. توهَّجت اللافتة الكاريبية بلونٍ أرجوانيٍّ فاقع، وعلى طرفها الأيسر برزت منحوتة خشبية مزخرفة لقناع وجه يمثل السكان الأصليين لجُزُر البحر الكاريبي، قناع زُينت وجنتاه بالخطوط الأفقية الملونة المميزة لأقنعة الحرب القديمة في تلك البقعة من العالم. لافتة عريضة يقف تحتها

رجال غلاظ ضخام الجثة يحرسون مدخلًا ضيقًا، ويسدون بوابة سوداء معتمة.. ملهى من ملاهي تحت الأرض بمفهومه الغربي المعروف.. جدران سوداء قاتمة، وأخرى تتوهَّج بكلمات فسفورية.. زبائن غريبو الأطوار في ملابس عجيبة يرتادون ملهًى تُتاح فيه الموبقات بأنواعها.. تبغ ومخدرات وخمور ودعارة وغيرها مما تشتهيه أنفس تائهة..

تأمل خالد المكان من بعيدٍ في اشمئزاز، وواصل تقدُّمَه حتى بلغ بوابة الجحيم، فاستوقفه أحد الزبانيَّة ضِخَام الجثة صُلْع الرؤوس متسائلًا في غلظة:

- معك دعوة؟

- لا!

قالها خالد في تحدٍّ وقد تمكَّن منه الطابع الشُّرَطيّ، وسيطرت عليه الرغبة في إنفاذ القانون على أشخاصٍ وجدوا طريقهم خارجه، فعقد حاجبيه في غضبٍ وهو ينظر في عَينَي الحارس، الذي رد نظرة التحدِّي بمثلها، وأضاف في لا مبالاة:

- إذًا لن تدخل.. الحفلة خاصة.

حاول خالد جاهدًا تمالُك أعصابه، وهو يُقيِّم الوضع مدركًا أنه ليس في صالحه افتعال مشكلة تستدعي تدخل وحدات

أمنية. فتَنهَّد في غضب، ثم حدج الرجل بنظرةٍ صارمةٍ وهو يقول:

- أخبر نسيم أن الأمر مهم.. قُل له زميل قديم من مصحة «روبرت ماكميلان"!

حدجه الرجل بنظرةٍ طويلةٍ متفحّصة، وضاقت عيناه قبل أن يقول:

- لا.. مستر نسيم لا يلتقي أحدًا دون موعد مسبق.

استشاط خالد غضبًا وظل مُحدِّقًا في وجه الرجل بنظرةِ تحدٍّ صارخة، فاستلَّ الأخير مسدسه في عدوانيَّة، ولوح به باستهتار في وجه خالد وهو يقول في صرامة:

- أليس ما أقوله واضحًا؟

لمعت عينا خالد في غضب، ثم أمسك باليد الحاملة للمسدس وأدارها في حِرَفيَّة قبل أن يضرب براحته مِرْفَق الرجل من الخلف، فدوى في الآذان صوت تكسير عظامه المخيف. تأوَّه الرجل في ألمٍ شديد، وهوى المسدس من يده قبل أن يعاجَله خالد بلكمةٍ أخرسته. تكالب عليه باقي الزبانية الغلاظ، فطرح أحدهم أرضًا، وحطَّم فكَّ آخر، قبل أن يتلقَّى عدةَ لكماتٍ متفرقة، ففقدَ على إثرها توازنه وسقط أرضًا تحت رحمة رجال لم تذُق طعمها يومًا. جثم فوقه

أضخم الرجال حجمًا، يثبته بركبتيه ويكيل إليه لكماتٍ متتاليةً موجعة.

- كفَى!

دوَّى صوت صارم مبحوح في أحد مكبرات الصوت أعلى المدخل، فتوقف الرجل الضخم، وتصلَّبت يُمناه في الهواء قبل أن تهوي على وجه خالد الدامي تحطمه، ثم زفر في ضيقٍ بعد أن تناهى إلى مسامعه أمرٌ آخر بأن يُحضروا الزائر الغريب إلى الداخل.

انصاع الحراس إلى أوامر شيطانهم الأكبر، أعانوا خالد الذي أصابه الإعياء على الوقوف، وصحبه اثنان منهم إلى الداخل.

صمَّت الموسيقى الإلكترونية الصاخبة آذانَ خالد، وألهبت ومضات الضوء الساطعة السريعة عينيه، فأغشت بصره في جوٍّ عامٍّ من العتمة والدخان الذي يقطعه وميضٌ متتالٍ قاسٍ يكشف عن وجوهٍ كالحة وأسنانٍ نَخِرة، لزبائن تسبح في عالمٍ آخَر تفوح منه روائح الأعشاب المخدرة.

لمح آخرين ممدَّدين على أرائك خاصة يهربون من واقع الحياة البائسة إلى واقع افتراضي ملموس توفره لهم نظارات الرؤية الافتراضية عالية الجودة، وثياب جلدية مُزوَّدة

بمجسّات حسيّة تغطي كامل الجسد وتنقل إليه ملذّات الواقع الافتراضي المُخدِّر.

كاد أن يتقيّأ من الرائحة الخانقة والومضات المثيرة للغثيان حتى بلغ بابًا زجاجيًا مغلقًا. انفرج الباب كاشفًا عن وكر الشيطان ذاته.. غرفة حمراء قانية، بزخارف سوداء، ورسومات متداخلة تنمُّ عن ذوقٍ مثيرٍ للاشمئزاز.. ثم برز نسيم سمعان..

رجل في نهاية الستينات من عمره، يرتدي معطفًا وثيرًا من الفرو جعله أشبهَ بدُبٍّ أسود نحيل. ظهر مُنحنٍ وصدر تزينه قلادات ذهبية ضخمة، وجه مجعد، وشعر خفيف مصبوغ بلون أرجواني يتماشى مع حلق صغير يتدلى من أذنه اليمني.. مظهر كريه لرجل بغيض يدير وكرًا خارج عن القانون.

أشار نسيم إلى الحارسين بأن يتركا خالد ويغادرا، فاستجابا بعد لحظاتٍ من التردد أنهاها العجوز بنظرةٍ صارمة. ومن خلف نظارة سوداء صغيرة تخفي عينين زرقاوين وملامح عبرانية واضحة، حدج العجوز خالد بنظرة طويلة متأمله، تفحّص بها ملامحه وقسماته، ثم قال بالإنجليزية وفي هدوءٍ لا يتناسب مع حال خالد المُزرِي والدماء تسيل من جانب شفتيه:

- تفضَّل مستر خالد!

رفع خالد حاجبيه في دهشة، وتسمَّرت عيناه يتفحَّص وجه نسيم بكثيرٍ من الريبة، قبل أن تضيق حَدَقتاهُ وهو يسأله بإنجليزيةٍ مماثلةٍ وبكلماتٍ بطيئة مُتشكّكة:

- هل تعرفني؟

لم يُجِبهُ نسيم، واكتفى بابتسامةٍ ساخرةٍ صغيرةٍ ألقت في قلب خالد المزيد من التَّوَتُّر الذي وجد طريقه إلى نبراته وهو يضيف:

- هل تقابلنا من قبل؟

واصل نسيم نظراته الغامضة يتأمل فيها وجه خالد، الذي اختلجت عضلاته بمزيجٍ من التَّوَتُّر والرهبة، ثم قال بصوته العميق المبحوح:

- «ليس بالضبط..»، صمت لحظةً ثبَّت خلالها عينيه في عَينَيْ خالد المتوترة، ثم أضاف بنفس اللهجة الغامضة: «ولكن هناك مَنْ أخبرني بمجيئك». ثم أشار بيده إلى باب غرفة جانبية وتابع: «البارون شخصيًا.

اتسعت عينا خالد في ذهول، واختلج قلبه، عندما دلف إلى الغرفة رجلٌ قويٌّ جامدُ الملامح ذو شعر فِضِّي قصير شائك،

ومن خلفه برز ذلك الرجل العجوز، ذو الشارب الكَثّ، الذي تجاوز الثمانين من عمره وإن احتفظ بانتصاب جزعه وقوة ملامحه..

«البارون» ذاته..

ابتسم البارون، قائلًا بصوته العميق:

- «أحسنت بالمجيء إلى هنا يا خالد، فلقد أعددتُ لك مفاجأة»، صمت للحظةٍ راقب خلالها ملامح خالد الحائرة الذاهلة، ثم استدرك في بطء: «أو لنَقُل هدية صغيرة.. مكافأة مقدمًا لمهمة عاجلة».

أنهى البارون جملته ثم تقدم نحو خالد في هدوء، كاشفًا عن سيدة دقيقة الملامح تنكمش في مقعدها وتعلو وجهها علاماتُ الخوفِ والترقُّب بينما تحتضن رضيعتها النائمة في استسلام..

هوى قلب خالد بين قدميه، وخفق قلبه في عنف، وهو يحدِّق في آخر من كان يتوقع رؤيته..

زوجته وابنته الرضيعة..

***

000010

11:30 مساءً.. المخبأ الآمن

أغلق يحيى الهاتف بعد المكالمة المقتضبة مع خالد فور وصول الأخير إلى محيط ملهى نسيم الليلي، «كاريبينيو»؛ سعيًا وراء الإمساك بأحد أطراف حَلّ اللغز الزمني العالق به يحيى، وإدراك أبعاده وتحديد أخطاره المحدِّقة بهم، والأهم محاولة تبيُّن مَن يقف وراء الكواليس ومن بيده خيوط اللعبة. لم يكن يدرك أن ذلك الطرف قد فتح بوابة جديدة، قد تؤثر على ماضيهم ومستقبلهم على حَدٍّ سواء.

تَنهَّد يحيى وشرد بذهنه للحظاتٍ طالت، حاولت سارة قطعها بصوتها الناعس وهي تفرُك عينيها، بعد أن غطَّت في نومٍ عميقٍ طيلة ثلاث ساعات كاملة:

- ألم تَنَمْ بعد؟

قالتها وهي تتأمل جلسته أمام شاشة الكمبيوتر الرئيسة والمحاطة بالحواسب اللوحية قديمة الطراز. دارت بنظرها بين الأجهزة تستطلع أسطر «الأكواد» البيضاء المتراصَّة فوق شاشات الحواسب السوداء، ثم عقدت حاجبيها وقد شعرت بالاستياء لعبثه في أجهزة يجهلها دون انتظار وجودها بصفتها الفنية على الأقل. نفضت عنها ذلك الشعور الطفولي ثم أردفت في اهتمام:

- هل توصلت إلى شيءٍ جديد؟

حافظ على شروده، فهتفت في تذمُّر:

- يحيى!!

أجفل، ثم نظر إليها واجمًا وهو يهز رأسه محاولًا نفض بعض الخواطر التي عاثت في عقله فسادًا خلال الساعات الماضية، تنثر بذور الحيرة والارتياب في ثنايا عقله الخصبة. طالت نظرته الواجمة قبل أن يُجيبها:

- لا لم أنَمْ.. من الواضح أن جهاز الاستشفاء هذا قد منحني طاقة لا بأس بها.

نقلت إجابته بذور الارتياب إلى صدرها، فضاقت حَدَقتاها وهي تتفرَّس ملامحه في شَكٍّ، ثم أشارت بيدها إلى الشاشات المحيطة به لتعيد عليه السؤال:

- من الواضح أنك لم تضيِّع وقتك.. هل توصلت لجديد؟

- أكيد.. أقصد ربما.

قالها متلعثمًا، ثم أخذ نَفَسًا عميقًا للسيطرة على هواجسه المتنامية، قبل أن يجيبها في نبرةٍ جادَّةٍ حاول جاهدًا جعلها هادئة:

- كان لا بد من تتبُّع خيط جديد. أومأت برأسها موافقةً،

فاستطرد قائلًا في بطء: «القفزات الزمنية التي اكتشفتها «فريدة» هي خيط مهم يجب كشف أسراره، بالإضافة إلى الخيطِ الأهمِّ طبعًا وهو والدتك». لوّح بيده في أرجاء المكان الحجري ثم تابع: «فلا بد من التّواصل معها لمعرفة سر هذا المكان.. وفي الحالتين نحتاج إلى فريدة».

خفق قلبها عندما ذكر والدتها. بالفعل يجب أن تتصل بها ليس فقط للاطمئنان على حالها وسط الوضع المظلم الحالي وأخطاره المبهمة.. ولكن كذلك لمعرفة سر هذا المخبأ الآمن الغريب، كهف حجري مجهّز ومؤمّن ضد أخطار نووية، بل وزمنية على ما يبدو. كهف قد يحمل سِرُّه إجاباتٍ شافيةً عن تساؤلات حائرة.. تساؤلات تتعدى الورطة الزمنية الحالية.. تساؤلات حول طبيعة والدتها نفسها، وحقيقتها، حول ماضيها الغامض وحالتها الصحية المتدهورة. تسارعت ضرباتُ قلبها حين تذكّرت حالة والدتها الصحية ونتيجة تحليل الحَمْض النووي الخاص بها، والذي يترتَّب عليه العثور على مُتبرِّع أعضاء وخلايا تتوافق وجسد أمها الراقدة بلا حركة، أو صوت.. تحليل يتوقف عليه إجراء عملية مصيرية تُنهي حالة الشلل التام الذي تعاني منه منذ عقدين من الزمن، قضتهما تحت رحمة تكنولوچيا تعطب أو تتطوّر حسب الظروف. أعوام طويلة قضتها أمها معذبة، ورافضة رفضًا غيرَ مفهومٍ أو مُبرَّرٍ لأي تدخل طبي يتضمن ذلك النوع من

التحاليل المعملية..

- الخيوط كلها تعتمد على الاتصال بفريدة واستخدام شبكتها المعلوماتية الكاملة.

قطعت جملته الأخيرة خواطرها حول والدتها وعمليتها المصيرية، فرفعت رأسها تنظر إليه في شرودٍ ما لبث أن انقشع عن عقلها حين تمعنَّت في جملته الأخيرة، فقالت بلهجةٍ قاطعة:

- مستحيل! الاتصال بفريدة مستحيل.. بروتوكولات تبادل البيانات شديدة التعقيد والتأمين.

راقب وجهها وملامحه واختلاجاته، كان قد لاحظ أن ثمَّة خواطر شخصيَّة داهمتها، خواطر قد تتعلق بوالدتها. عقلها سرح في شواغله الخاصة، شواغل قد تتعدى في أهميتها الوضع المتأزِّم الراهن. هي زوجته ويعلمها، سواء كانت «سارة» أم «رانيا»، فشفرتُها واحدة، شفرة قلبها التي لا يفطن إلى معانيها سواه. تمنَّى أن يحتضنها ويُطمئِنها، تمنى أن يصير درعها الواقي كما يجب أن يكون. تمنَّى ألَّا يُضاعف شواغلها بأمور يجب أن يتولاها بمفرده، كرجل أولًا، ثم كرَبِّ أسرةٍ ثانيًا. أسرة في علم الغيب بالنسبة إليها، لكنها كل شيء بالنسبة إليه.. أطرق قليلًا محاولًا ترتيب أفكاره وكلماته حتى لا يُضاعف شواغلها، وحتى يحافظ على مظهره أمامها كرجلٍ

منقذ، كحَلٍّ للأزمة وليس سببٍ لها. فأخذ نَفَسًا عميقًا ثم قال في هدوء:

- بعد حديثنا عن لغة وأسلوب برمجة «فريدة»، وبدافع الفضول، حاولت تشغيل الأجهزة والتعرُّف أكثر على مكونات «فريدة» البرمجيَّة من خلال النسخة الـ «Offline» المتوافرة.. أقصد النسخة غير المتصلة بالشبكة الفضائية. صمت قليلًا، ومَطَّ شفتيه ثم أردف: «لكن لفت انتباهي أن الملفات المُكوِّنة لنظام «فريدة» غير مُشفَّرة، بل مكتوبة برموز «ASCII» العادية مثل ملفَّات النصوص البسيطة في زمني».

تأمل نظرات الحَيْرَة في عينيها لاستخدامه مصطلحاتٍ تبدو غريبةً عن واقعها، فتلعثم في حرجٍ ثم شرع يشرح الأمر بصورة أكثر تفصيلًا. شرح لها أن نظام ترميز Ascii، هو نظام ترميز بدأ في الستينيَّات في عصره، ويُعدُّ وسيلةً أوَّلية لحفظ الأحرف الإنجليزية وعلامات الترقيم في ملفات الكمبيوتر، عن طريق تحويل كل حرف إلى سلسلة مُكوَّنة من 8 بت تُخزن في ذاكرة الكمبيوتر الرقمي. ضرب المثل بحرف «z» في اللغة الإنجليزية، والذي يرمز له 01111010 في النظام الثنائي (Binary)، أو 7A كما في النظام السداسي عشري (hexadecimal). أوضح لها كذلك أن طُرُق الترميز

قد تطورت على مدار العقود التالية في زمنه، وظهرت أنظمة ترميز أكثر تعقيدًا لاستيعاب المزيد من علامات الترقيم وأحرف اللغات المختلفة كالعربية واليابانية وغيرها، بصورةٍ أضحَى معها «Ascii» نظامَ ترميزٍ عفا عليه الزمن، غير مواكب للتطور، واقتصر استخدامه على بعض برامج تحرير النصوص البسيطة والملفات التي لا تستخدم سوى الأبجدية الإنجليزية، ومن ضمن تلك الملفات البسيطة بعض ملفات الكود البرمجي.

أومأت سارة برأسها علامةَ الفهم، وأشارت إليه بيدها بهدوءٍ ليكمل حديثه، فاستطرد مشيرًا إلى أنه كان يتوقع أن يتكون نظام «فريدة» من ملفات برمجية عالية التشفير، بدلًا من ملفات محفوظة بنظام ترميز Ascii البدائي. استنتج من ذلك أن نظام الترميز سالف الذِّكْر غير معروف في هذا الزمن، ومن ثَمَّ عَدَّه مُطوِّرو «فريدة» وسيلةً آمنةً لحفظ الملفات على ما يبدو. انتابته، كعادته، رعشة حماسة خاطفة بدَّدت هواجسه للحظاتٍ قليلة عندما أخبرها أنه نجح بعد عدة محاولات بسيطة في أن يستنبط أسلوب الترميز سالف الذكر؛ لبساطته الشديدة وسابق معرفته به، كما قام بإعداد برنامج صغير يتوافق مع نظام تشغيل «فريدة» ليحول ملفاتها البَرْمجيَّة إلى كلماتٍ إنجليزيَّة مقروءة.

- أين المشكلة إذًا؟

سألته في بطء، وقد انحسر الهدوء المفتعل عن نبراتها مُفسحًا المجال لتوتر يزحف في تأنٍّ ليحلَّ محلَّه. ثبَّت عينيه في عينيها وقد لاحظ تضاعف مشاعر التَّوَتُّر والارتياب بداخلها حين أدركت إلى أين تتجه استنتاجاته. فزفر في عمقٍ قائلًا:

- بعد تحويل الملفات البرمجية لملفات مقروءة، كان من السهل فهم مُكوِّنات نظام «فريدة» بصورةٍ أفضل. الكود يتشابه لحد التطابق مع إحدى لغات البرمجة الأوَّلية القوية في زمني، لغة C.. الاختلاف الوحيد أن الملفات في «فريدة» يتم تنفيذها مباشرةً من خلال نظام التشغيل (Operating System)، دون الحاجة إلى خطوة رئيسة معروفة لدينا باسم «Compilation»، وهي الخطوة المسئولة عن....

هزَّت رأسها في عنف، ثم هتفت مقاطعةً إيَّاه وقد أتى التَّوَتُّر على ما تبقَّى من صبرها:

- ماذا تريد أن تقول يا يحيى؟ لا أريد الاستماع لمزيد من التفاصيل الفنية الآن.

أطرق للحظاتٍ في محاولة لانتقاء كلماته بدقَّةٍ قبل أن يقول:

- باختصار، «فريدة» تم تطويرها بلغةٍ برمجيَّة وأسلوبٍ برمجي من عالمي أنا.

كانت تتوقع بصورةٍ أو بأخرى ما كان يرمي إليه منذ البداية، فلم تُفاجئها كلماته وقد رتَّب عقلُها ردًا منطقيًّا بصورة تلقائية، فهتفت في ضجر:

- ليس بالضرورة. فلغات البرمجة أساسها واحد، والتشابه بينها وارد جدًّا.

زَمَّ يحيى شفتيه في امتعاضٍ وأطرق مفكرًا.

ألقى نظرةً خاطفةً مُتشكّكةً ومترددة على أيمن. اطمأن كون أيمن ما زال يغطُّ في نومه العميق، ثم فتح فمه وهمَّ أن يخبرها بهواجسه كافةً وكل ما اكتشفه دفعةً واحدة، إلا أنه تراجع.. تراجع خوفًا من زيادة الأمور تعقيدًا، خوفًا من تحويل الدفة إلى بُعدٍ جديد أكثر إرباكًا وظلامًا.. فأطبق شفتيه في اللحظة الأخيرة وآثر الصمت.

لمحت سارة تقلُّبات وجهه. أحست برغبته في إخبارها بأمر ما، أمر ربما يكون أكثر خطورة من مجرد تشابُه أو حتى تطابُق في لغة برمجة. ضاقت حَدَقتاها وهي تقول في حدَّة:

- أكمل يا يحيى.

همَّ أن يخبرها بكل شيء، ثم تراجع من جديد. جزَّ على أسنانه وقد لمح نفادَ صبرِها، فزفر في حرارةٍ وهو يُجيبها ويشير بيديه للأجهزة المحيطة:

- نظام التشغيل المستخدم على الأجهزة كافةً من أجل تشغيل ملفات «فريدة»، هو بذاته شيء يدعو للدهشة.. اختراع غريب.. اختراع «عابر للزمن» كتوصيف دقيق.. كأنه قد صُمِّم خصِّيصًا لربط مُعالِجات البيانات من أزمنة مختلفة.. معالجات بيانات رقمية من زمني بمعالجات بيانات كمِّية متطورة من زمنكِ أنتِ. صمت قليلًا لينتقي كلماته قبل أن يستطرد موضحًا: «بمعنى، أنه يستخدم، وبصورة مباشرة، كودًا برمجيًا مكتوبًا بلغة رقمية أوَّلية من زمني، كودًا مُعَدًّا في الأصل للعمل على معالجات بيانات ثنائية في أجهزة كمبيوتر كلاسيكية، ويحوله إلى كود برمجي كمِّي يعمل على معالجات كمِّية في أجهزة كمبيوتر فائقة القدرة من زمنكِ أنتِ.. وفي خطوةٍ واحدةٍ فقط».

عقدت حاجبيها في شدة، ثم سألته بكثير من الريبة:

- أشكُّ أنني قادرة على فهم ما ترمي إليه بالضبط!

أطرق قليلًا قبل أن يضيف بلهجةٍ قاطعة:

- «سارة! نظام تشغيل «فريدة» تم تطويره بأسلوب يربط

عالمَيْنا بعضهما بالبعض». صمت للحظةٍ ونظر في عينيها مباشرةً، ثم قال في بطء وهو يؤكد على مخارج ألفاظه: «الشخص الذي طوّر «نظام التشغيل» هو شخص مُطّلع على التكنولوچيا في زمني وزمنك.. أي شخص قد سافر بالفعل بين أزمنة وعوالم متوازية».

***

خَيّم الصمت على المكان حتى نهضت سارة من مقعدها وأخذت تقطع ردهة المخبأ جيئةً وذهابًا. تابعها يحيى بنظره في ترقُّب، تابعها بتوجُّس وهي تدور في دوائر مفرغة في جنبات القاعة الفسيحة، شاردة النظرات، يتفجر عقلها بعشرات الاحتمالات المتقاطعة التي فشل أغلبها في الصمود أمام أبسط قواعد المنطق.

تعجّبت سارة من محاولاتها المستمرة لتقييم استنتاجات يحيى وفقًا لقواعد العقل والمنطق التقليدي، رغم أن الأمر برُمّته قد تجاوز حدود المنطق، بل تجاوز حدود الفيزياء الكلاسيكية كما تعرفها.

ولكنّ هاجسًا ما بداخلها يصرخ بأن الأمر لم يقف عند هذا الحد.. فالأمر تتعدى خطورته مسألة «نظام تشغيل» أُحادي الطبقة، متعدد المهام والمعالجات، أو حتى «نظام تشغيل» يربط بين معالجات حاسوبية من أزمنة متفرعة..

ثمَّة أمر آخر يخفيه يحيى.. يخفيه متعمِّدًا.. أمر أشد عمقًا وتعقيدًا..

فطرتها ترفض جملة يحيى الأخيرة.. بل عقلها نفسه يرفض تفسيره القاطع.. فعلى عكس ما اعتادت عليه منه في الشُّوَيْعات الماضية من رجاحة العقل ومنطقية الاستنتاجات، جاء تفسيره الأخير ساذَجًا وسطحيًا إلى حدٍّ كبير.. أو أنه فقط تفسير ناقص، يفتقر إلى عنصر إضافي.

على الرغم من وجاهة التفسير للوهلة الأولى.. فنظام تشغيل «عابر للزمن» أعدّه بكل تأكيد رجل «عابر للأزمنة» كذلك.. لكنه تفسير لا يصمد أمام تفكيرٍ منطقيٍّ متأنٍّ.. فمن وجهة نظر فنية بحتة، فالأجدر بذلك الرجل «عابر الأزمنة» أن يبرمج «فريدة» ويعد ملفاتها من الأصل لتتماشى مع التقنية المتقدمة بهذا المجرى الزمني، بدلًا من إعداد نظام تشغيل يربط عالمين!!

إلا إذا..

إلا إذا كانت «فريدة» سابقة على «نظام التشغيل»..

«فريدة» ذاتها هي العابرة للأزمنة..

نظام ذكي تم إعداده وبرمجته كليًا في زمن مختلف

بتكنولوچـيا رقمية معينة، وانتقل بصورةٍ ما إلى زمنٍ آخر يتمتع بتكنولوچـيا مختلفة.. تكنولوچـيا أجهزة وعتاد (hardware) كمِّي أكثر تطورًا..

أجهزة تتطلب نظام تشغيل يترجم الكود البرمجي الرقمي الكلاسيكي، كما وصفه يحيى، إلى كود برمجي يُنَفَّذ على أجهزة تعمل بالتكنولوچـيا الكمِّية فائقة القدرة.

لمعت عيناها عند تلك النقطة، فغمغمت في شرود:

- «فريدة هي العابرة للأزمنة.. وليس مهندس نظام التشغيل». ثم التفتت إلى يحيى وتابعت: «نظام التشغيل قد تم تطويره في هذا الزمن ليتوافق مع الكود البرمجي الأصلي لفريدة والذي تم تطويره في زمن آخر». صمتت لوهلةٍ قبل أن تستدرك: «طبعًا في حال كانت استنتاجاتك صحيحة».

خفق قلب يحيى فهي في الطريق الصحيح لاستنتاج أمر سيقلب الأمور رأسًا على عقب..

فزمنُها وزمن يحيى أكثر تشابكًا مما كانا يتوقعان..

الأمر تخطَّى مسألة خطين زمنيين تفرعا في أربعينيَّات القرن العشرين..

فبطريقةٍ أو بأخرى، التقى الزمنان لاحقًا..

التقيا بعد عدة عقودٍ من انفصالهما الأول..

لم يلتقيا بالصورة الفيزيائية التي انفصلا بها..

لكنهما التقيا عبر نظامٍ ذكيّ.. نظام عابر للأزمنة..

التقيا من خلال «فريدة»..

«فريدة» عصب الزمن الحالي وعقل إمبراطوريته المهيمنة، تبيَّن أنها دخيلة على زمنٍ بأسره.. زمن قد تكون هي سبب وجوده في المقام الأول!!

ضرَبَت تلك الأفكار المترابطة المتسلسلة عقليهما معًا، فأطرقا في صمت.. ثم رمقته سارة بنظرةٍ متوترةٍ متسائلة، فأجابها بإيماءةٍ بطيئةٍ من رأسه بمعنى «نعم.. هو كذلك».

همَّا أن يواصلا حديثهما لولا أن بدأ أيمن يتململ في مقعده ويستيقظ من نومه، فتبادلا نظراتٍ ذات معنى، وتوقفا عن الحديث.

وحين استيقظ، استفسر أيمن عن خالد ورحلته إلى القاهرة، فأخبره يحيى بالمكالمة المقتضبة وما تم خلالها. انتبهت سارة إلى أن قرابة نصف ساعة قد مرَّت على مكالمة خالد الأخيرة، فحاولت الاتصال به مرةً أخرى إلا أنه لم يرد على هاتفه. أشار أيمن إلى احتمالية عدم انتهاء خالد من

استجواب «نسيم» بعد، موضحًا دهاء الرجل وشخصيته اللئيمة؛ وكذلك طبيعة ملهاه الليلي، بؤرة فساد شرق القاهرة ومستنقع الموبقات بأنواعها.

نهض أيمن يعِدُّ لثلاثتهم طعامًا خفيفًا وأكوابًا من الشاي الساخن يستأنسون به حتى يعاود خالد الاتصال، ويخبرهم بما كان من أمر «نسيم سمعان» المسافر الزمني الأقدم.

راقبه يحيى وهو يبتعد، ثم نظر إلى سارة قائلًا في جدِّية وهو يشير بسَبَّابته إلى السماء:

- «بالعودة إلى الموضوع الرئيس، فمن أجل تتبُّع خيط القفزات الزمنية، كان لا بد من استكمال عمليات البحث وتحليل نمط الموجات الناتجة عن انفجارات الانتقال الزمني، والتي بدأتِها أنتِ مع فريدة.. ولذلك كان إعادة الاتصال بشبكة «فريدة» الفضائية هو أمر حتمي لا بديل عنه». توترت ملامح سارة وهي تحدِّق في يحيى الذي تابع: «وبالفعل، نجحت في ربط الأجهزة هنا بشبكة «فريدة» الفضائية عن طريق بروتوكول اتصال مُؤمَّن. فلقد قمت بإعداد شبكة افتراضية مُشفَّرة نطلق عليها في زمني اسم «VPN»؛ لإخفاء موقعنا الذي نتصل منه بشبكة «فريدة» الفضائية».

لم يلحظ عينيها اللتين اتسعتا من الدهشة، فواصل حديثه قائلًا:

- «ببساطة نقوم بإرسال أمر أو طلب (Request) مشفر إلى «فريدة» عبر الشبكة الافتراضية المؤمَّنة، فتستقبله هي وتنفذ الأمر وتجري عملياتها الحسابية على أجهزتها الفضائية المتطورة، ثم تعود إلينا من جديد بالرد مُشفرًا كذلك دون الكشف عن مكان تواجدنا». مَطَّ شفتيه ثم قال: «قد تكون عملية مُعقَّدة وبطيئة نوعًا ما، لكنها تفي بالغرض في ظل الظروف الراهنة».

تحوَّلت دهشتُها إلى ذهول، وتسارعت ضربات قلبها، وهي تحدِّق في عَينَيْ يحيى، الذي واصل حديثه وقد بدأ الحماس يتسرب إلى نبراته:

- «لا تقلقي.. الموضوع آمِن تمامًا.. لا تنسي أنني في الأساس مهندس أمن رقمي رفيع المستوى». مَطَّ شفتيه في خُيلاء ثم قال: «فخر العرب الحقيقي».

راقب ذهولها المتصاعد، وهو يضيف بحماس أبطأه توجُّسٌ متنامٍ من ردَّة فعلها:

- على كل حال، لقد قمت بالفعل بإرسال عدة طلبات مُشفَّرة لتحليل نمط الموجات المصاحبة للانتقال الزمني.. لقد غيرت بعض الإعدادات الخاصة بخوارزمية البحث ونطاقها واتجاهها، كما زودت حساسية الرصد عن طريق تغيير قيمة

الـ Thresholds الخاصة بالطول الموجيّ وسرعة تعاقُب ووتيرة التردُّدات و....

قاطعته قائلةً في ذهول، وقد بُحَّ صوتُها من هول الصدمة، فخرج ضعيفًا بالكاد بلغ أذنيه:

- ماذا تقول؟ كيف فعلتَ ذلك؟ هذا مستحيل!

ابتلعت ريقها في صعوبة، وأضافت وقد زاغت عيناها من فرط الذهول:

- «كيف عرفت بروتوكولات تبادل البيانات؟ والأهم كيف عرفت أسماء دالَّات وخوارزميَّات النواة و....»، قطعت جملتها، واستمرت عيناها الزائغتان تطوفان في محجريهما بلا هوادة، قبل أن يرتفع صوتها بغتةً وهي تهتف: «كيف اخترقت طبقات الحماية؟! كيف اخترقت النواة؟!!»

انحسرت الدماء عن وجهه وهو يراقب تعبيراتها الذاهلة.. انكمش في مقعده نتيجةَ ارتفاعِ صوتها المفاجئ.. أزيزٌ يتعالى في رأسه، خلاياه تتسابق لفهم ردَّة فعلها.. ثم صرخ عقله: «رَبَّاه!! لم تكن قد فطنت لحقيقة الأمر بعد». لهذا السبب تحديدًا لم يُرِد أن يخبرها بالحقيقة كاملةً في بادئ الأمر.. لا يريدها أن تخشاه.. بالكاد حصل على ثقتها.. لا مفرَّ الآن، فجثا قلبه نادمًا يصرخ: «آسف يا رانيا!»

سكت يحيى، احتبست الكلمات في حلقه حتى جذبته سارة من يديه صارخةً في وجهه بأن يخبرها. فهز رأسه ندمًا، ومَطَّ شفتيه في حسرة، قبل أن يقول في صوتٍ خفيض:

- ألم تدركي ذلك بعد؟! «فريدة» هي مشروع حياتي.. أنا صاحب «فريدة» يا سارة.. أنا من ابتكر «فريدة». ابتكرتُها في زمني وعالمي.

***

000001

10 فبراير 2006

9:30 مساءً.. مصر الجديدة

ارتجّت شوارع مصر الجديدة شبه الخالية بصرخاتٍ قويةٍ عالية تأتي من البيوت والمقاهي المنتشرة حول ميدان الإسماعيلية، أحد أوائل ميادين «مصر الجديدة» أو «واحة هليوبوليس» كما كان يُطلق عليها منذ قرنٍ مضى. صيحات استهجان شديدة انطلقت من حناجر المصريين كبيرهم وصغيرهم، حين أهدر لاعب منتخب مصر لكرة القدم أحمد حسن ركلة جزاء مهمّة في الدقيقة السابعة من الوقت الإضافي الأول في مباراة نهائي كأس أمم إفريقيا، والتي

تُقام في استاد القاهرة الدولي بين منتخب مصر ومنتخب كوت ديـڤـوار القوي. ركلة جزاء مصيرية كانت كفيلة بإنهاء المباراة مبكرًا وإهداء الكأس إلى مصر، بعد غياب ثماني سنوات كاملة، ودون الحاجة إلى أن يظل المصريون ملتهبي الأعصاب طيلة الدقائق المتبقية، بمعاناتها وصيحاتها حتى وصلت المباراة إلى ضربات الترجيح المفجِّرة للأعصاب.

وفي إحدى المقاهي الأنيقة المطلة على الميدان، أمسك المهندس الشاب يحيى المصري رأسه بكلتا يديه بعد أن قفز من مقعده صارخًا في غضب والكرةُ ترتدُّ من القائم مبتعدةً عن أقدام لاعبينا. عبس بوجهه وهو يحدِّق في الشاشات حوله مُطلقًا سَبابًا متتاليًا، حتى إنه لم ينتبه إلى الرجل الوَقُور الواقف خلفه والذي رَبَّت على كتفه في هدوء وناداه باسمه.

التفت يحيى خلفه ينظر إلى الرجل الوقور قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما، وتسكن الضوضاء، وتخفت الأنوار، وتختفي الشاشات بلاعبيها، بل ويتبخر الكون بأسره من حوله بغتة. تجاوزت عيناه الرجل الوقور ذا الشارب الكَثّ، وخفق قلبه في انبهار وهو يحدِّق في تلك الفتاة الشابة المصاحبة لذلك الوقور الذي تخطي الستين من العمر. فتاة باهرة الجمال في منتصف العشرينات من عمرها، رقيقة

الملامح، رياضية القَوَام ذات شعر أسود فاحم معقوص على شكل «ذيل حصان»، أضفى عليها جديةً وأناقةً بالغةً في الوقت ذاته.

أطرقت الفتاة في خجلٍ بينما ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الرجل الوقور، سرعان ما اختفت وتحولت ملامحه إلى الجدِّية وهو يقول في هدوء:

- مهندس يحيى المصري.. أعرِّفك بابنتي المهندسة رانيا سليم.. مهندسة ذكاء اصطناعي.

ظلَّت عينا يحيى ثابتتين تحدِّقان في وجه رانيا بانبهارٍ للحظاتٍ طالت، قبل أن يهز رأسه ويسعل في حرج، ويشير بيديه إلى ضيفيه ليجلسا حول الطاولة التي اختارها في هذا الركن البعيد خصيصًا للقاء العجوز وابنته بعيدًا عن الضوضاء نوعًا ما. فشل يحيى في إقناع العجوز بتأجيل موعد اللقاء حتى تنتهي المباراة، ورضخ في النهاية مجبرًا نظرًا لأهمية اللقاء بالنسبة إلى مستقبله، فاختار هذه المقهى الأنيقة حتى يعقد اللقاء ويتمكن كذلك من متابعة ما تيسر من المباراة، إعمالًا بمبدأ «ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلُّه».

- من فضلك تقبَّل اعتذاري، لكن هذا هو الوقت الوحيد الذي يناسبني.

قالها الرجل الوقور وهو يشير إلى المباراة في الشاشات، قبل أن يتخذ مقعده حول الطاولة، ويتابع دون انتظار ردٍّ من يحيى:

- كما تحدثنا عبر الهاتف، أنا قرأت ورقتك البحثية الخاصة بالأنظمة الأمنية الموزعة. ورغم أنها جزء من رسالة ماجستير فإن بها نظرةً مستقبليةً جديرة بالاحترام. وأتفق معك تمامًا في أن السنوات القليلة القادمة ستكون للأنظمة الموزعة وأنظمة الويب.

حاول يحيى السيطرة على عينيه التي تحاول أن تسترقَ نظراتٍ خاطفةً تتأمل فيها الفتاة. جاهد ليثبِّت عينيه على الرجل الوقور، وضاقت عيناه في تركيز مصطنع في محاولة يائسة للاستماع إلى محدثه بقدر أعلى من التركيز، بينما كان تفكيره لا يزال مُنصبًّا على الفتاة. شعر الرجل بافتقار يحيى إلى التركيز، ومنع ابتسامة كادت أن تجد طريقها إلى شفتيه حين لاحظ استمرار يحيى في ضَمِّ معطفه وضبط هندامه وشفط بطنه ليُخفيَ «كَرِشًا» يسارع في النمو، لكنه سيطر على شفتيه ورفع صوته وازدادت نبرته جديةً وهو يضيف:

- أحب أن أضيف أن العالم، قريبًا جدًّا، سيشهد تطورًا متسارعًا لما يُسمى بالحوسبة السحابية (Cloud Computing)، من خلال برامج مستقلة متناهية الصِّغَر

(Micro-services) تعمل بصورة تكاملية على خوادم عملاقة في إطار ما يُعرف بالبنية الخَدَميَّة أو SOA، اختصار Service Oriented Architecture. تطور ضخم؛ وبالتالي يُعدُّ أرضًا خصبة لأنظمة الأمن السَّيْبرَانيّ؛ سواء من ناحية تقنيات التطوير أو تطبيقات الاستخدام. أشار إلى رانيا وهو يضيف: «هذا بالإضافة إلى تطور معالجات البيانات بصورة أُسِّيَّة في السنوات الحالية؛ وبالتالي نحن في بداية عصر جديد وتطور غير مسبوق في الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته».

صمت للحظةٍ ليرى فيها تأثير كلماته على يحيى، ثم أضاف في نبرةٍ حازمة:

- يجب أن نكون من الروّاد في مجال أنظمة الأمن الرقمي الذكيَّة.. ليس فقط في مصر، ولكن على مستوى العالم.

اختفت تعبيرات التِّيه والانتباه المصطنَع عن وجه يحيى واستحالت إلى اهتمام شديد، فرغم إعجابه بالفتاة وتشتُّت ذهنه منذ لحظاتٍ قليلة، فإن كلمات الوقور الأخيرة قد استحوذت على قلبه وتفكيره وتركيزه بالكامل. فإذا حضرت التكنولوچيا وحديثها تضاءل إلى جوارها باقي الحواس والرغبات، التكنولوچيا هي منتهى سعادته وذروة عشقه. فعقد حاجبيه موجهًا حديثه إلى الوقور في نبرةٍ غلبها

الانبهار:

- «حضرتك شديد الاطِّلاع في مجال التكنولوچـية الرقمية ومستقبلها يا سليم بيه، على الرغم من....».

قطع يحيى جملته في حرج، فأكملها سليم قائلًا في تهكم:

- على الرغم من كِبَر سِنِّي؟ لا تقلق، فعقلي ما زال يعمل، والتكنولوچـيا هي عشقي الأول ويمكن الأخير، مثلك تمامًا.. «من شابه أباه فما ظلم». والدي كان كذلك أيضًا.

أطرق يحيى في حرجٍ ثم تلعثم وهو يقول:

- «أنا لم أقصد قطعًا، لكن....»، صمت للحظةٍ ثم تابع في حرج: «حسنًا، بماذا تأمر حضرتك؟»

ابتسم سليم وأدار نظره بين يحيى وابنته رانيا، ليقول في نبرةٍ جادةٍ حازمة:

- نؤسس شركة، من تمويلي أنا وإدارتك أنت.. شركة لأنظمة الأمن الرقمي الذكية.. يمكن أن نطلق عليها اسمًا له علاقة بالأمن، درع مثلًا.. درع السماء.. «Sky Shield» لربط مفهوم الأمن بالحوسبة السحابية، ما رأيُك؟

فغر يحيى فَاهُ في دهشة، وتسارعت ضربات قلبه، فرغم أن سليم كان قد ألمح في مكالمتهما السابقة إلى عزمه تمويل

مشروعه وابتكاره وتأسيس شركة لأنظمة الأمن الرقمي، فإن أسلوب الرجل العملي وشخصيته الكاسحة لم تعطِ يحيى الفرصةَ للتفكير، حتى إنه لم ينتظر موافقة يحيى واستطرد:

- مليونًا دولار تمويل مبدئي.. لكن بشرطٍ واحد!

- أيُّ شرطٍ حضرتك؟

- الشركة ستكون باسمك أنت ورانيا ابنتي.. القرارات الفنية تكون بالتَّوافُق بينكما.. هي تقوم بتطوير مُكوِّن الذكاء الاصطناعي وخوارزمياته وأنت الباقي.. موافق؟

- بالطبع!

هتف يحيى بجملته الأخيرة في لهفةٍ وسعادةٍ غامرة. تهلَّلت أساريرُه وهو يدير بصره بين سليم وابنته، رانيا، التي ستصبح يومًا ما شريكتَه وزوجتَه وأُمَّ ولديه. سبح في بحرٍ صافٍ هادئ لا نهاية له من أحلام اليقظة السعيدة التي كان بعضها رومانسيًا وأغلبها فني تكنولوجـي، حتى إنه لم يُلقِ بالًا بصيحات الفرح التي انطلقت من حناجر زبائن المقهى عندما سجل محمد أبوتريكة ركلة الجزاء الأخيرة لتفوز مصر بالبطولة الإفريقية الأهم، الخامسة في تاريخها الكروي، والأولى في سلسلة من الانتصارات والبطولات المتتالية التي حققها أعظم جيل لكرة القدم المصرية عبرَ تاريخها.

***

000010

24 ديسمبر 2019

00:10 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن

ألقى يحيى قنبلته.. قنبلة تفجَّرت في كيان سارة وأودت بقلبه وعقله هو.. لقد حاول جاهدًا طيلةَ حوارِهما الأخير أن يتفادى الإشارة إلى حقيقة ما اكتشفه في الساعات القليلة الماضية.. إلى حقيقة «فريدة».. بل إلى حقيقته هو.

«فريدة» نظام الذكاء فائق القدرة الذي يمثل عصب الإمبراطورية البريطانية، الإمبراطورية الأقوى في تاريخ أزمنةٍ متفرعةٍ وواقعٍ موازٍ.. إمبراطورية دانت لها السيطرة على غالبية الجزء المعمور من الكرة الأرضية.. إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس حرفيًّا.. تلك الـ «فريدة» هي صنيعته.. هو من اخترعها وهندسها وبرمجها وأطلقها للمرَّة الأولى عام 2016.. لكنه عام 2016 في زمنه هو، في واقعه الذي توجد به أسرته المفقودة.. أو المقتولة إذا لم يعُد في الزمن لينقذهم.

«فريدة» التي أعدَّها وأطلقها في زمنه تحت اسم «Clypeus»؛ أي «الدرع» باللاتينية، النظام الأمني الذكي

والمتجدد، حامي حمَى مراكز وبنوك البيانات والمعلومات بالغة الضخامة. ذلك النظام الرقمي المتماسك، الذي كان قابَ قوسين أو أدنى من أن يصبح أول نظام أمني ذاتي التطور في التاريخ، هو مَنْ صنعه وأبدعه. هو من أعدَّ بروتوكولاته الأساسية، بروتوكولات التأمين وتبادل البيانات، هو من أعدَّ إطاره العام الرئيس ونواته الأساسية.

«النواة»، ذلك الصندوق الأسود، والقلب المُؤمَّن، ذلك الحصن الرقمي المنيع، هو من خطَّطها وبَرْمَجها، هو من جعلها أداةَ إبداعٍ وتطويرٍ لنظام قوي متكامل. «نواة» ذات إطار عام أعدَّه ببراعةٍ ليسمح بإدخال تحديثات لاحقة وإضافات لا محدودة. إطار يسمح بإعداد وإضافة دالَّات ووظائف جديدة توسِّع من إمكانات النظام وقدراته، إطار يمكِّن المهندسين من إضافة وظائف لم تخطر حتى بباله هو شخصيًّا حين أعدَّ النسخة الأوَّلية من «كليبيوس». تلك «النواة» التي سمحت لمهندسي هذا الواقع الجديد أو الخط الزمني المتقدم باستخدام كودها، ودالَّاتها، ووظائفها، لبناء وظائف ذكاء اصطناعي جديدة وفائقة في شتى مناحي الحياة في هذا الزمن، وظائف واستخدامات إضافية تتعدى الهدف الأصلي من اختراعه الأول.. لكنه هو الأصل.. هو أصل «فريدة».. صنيعته.. ومصدر فخر..

وبالرغم من سعادته وفخره الشديدين حين تبيَّن أن «فريدة» هي النسخة المتطورة من «كليبيوس»، وأنه هو بذاته أساس هذا النظام الذي بلغ حدَّ «التفرُّد التكنولوچـي» (Technological Singularity)، فقد كان يخشى ردَّة فعل سارة. كان يخشى أن تتبدل نظرتها إليه. كان يخشى أن تهابه وترتاب منه، بدلًا من أن تتعلق به، وتركَن إليه. لم يكن يدري أتَقْبَل بحقيقة كونه صاحب «فريدة»، ومبدعها، فتشعر ناحيته بالانبهار الذي يأمله؟ أم تخشاه وتحسبه أساسَ وضعٍ مُربكٍ مُتأزِّم يتخطى قدراتهم جميعًا على الفهم والإدراك؟ أستنظر إليه كمُنقذٍ بارع موهوب؟ أم كمصدر لشـرٍّ غامضٍ لا يدركون هدفه وأبعاده؟

اكتشاف مذهل بدأ بملاحظة نظام الترميز الأبجدي القديم، ثم لغة البرمجة الأوَّلية القوية. ملاحظة بسيطة انتهت بفهم نظام «فريدة» ومُكوِّناته وبروتوكولاته. ملاحظة انتهت بإدراك أن «فريدة» هي ابنته الشرعية وخلاصة تعب وجهد امتدَّ عبر عشرين عامًا كاملة بتكنولوچـيا بدائية مقارنةً بتقنيات هذا الزمن الهائلة. جهد هائل كلَّله أحدُهم بتتويج ابنته ملكة الأنظمة الذكية بلا منازع.. سيادة مطلقة، الـ Supremacy كما يجب أن تكون.. تلميذ تفوق على أستاذه..

ولكن من هو هذا التلميذ؟

مَن هو الشخص الذي نسخ الكود البرمجي الأصلي لـ «كليبيوس»، الـ Source Code الرئيس، نسخه ونقله إلى زمنٍ آخر؟

مَن تبنَّاه وطوَّره وأطلقه ليستحوذ على زمنٍ بأسره؟

اجتاحت عقلَه خواطر مخيفة، خواطر مظلمة رهيبة استقاها من أفلام الخيال العلمي التي أدمنها.. شخصيته الشَّغُوفَة بكل ما هو تِقَنيّ وغريب أجَّجت ولعه بالأفلام الهوليوودية حول الزمن والتلاعب به منذ الصِّغَر.. ولع كان مصدر إلهام وتسلية، حتى ثلاثين ساعة مضت، فأصبح في تلك اللحظة مصدر قلق وتوتر وظلام.. بل وخوف.. خوف من ذاته، من نفسه التي ظن أنه يعلمها.. نفسه التي دائمًا ما يفخر بشغفها وذكائها وإصرارها، ويتصالح تمامًا مع عيوبها وإخفاقاتها.. لكن ليس بعد الآن، ليس في تلك اللحظة تحديدًا.

فماذا لو كان هو شخصيًّا من يقف خلف كل تلك الأمور منذ البداية؟

ماذا لو لم تكن رحلته الزمنية الحالية هي الأخيرة؟

ماذا لو كانت مجرد بداية لرحلاتٍ أخرى تجتازُ الأزمنة المتوازية والمتفرعة؟

ماذا لو كان هو من عاد بالزمن إلى الماضي وطوَّر «فريدة» بهذه الصورة؟

ماذا لو كان هو أصل الشرور؟

ولكن من قال إن «فريدة» هي «الشر» ابتداءً؟

ولكن إن كانت هي الشر المطلق، فلماذا طوَّرها بهذه الصورة؟

ماذا يريد أن يُثبت؟ سيادة (Supremacy)؟ تفرُّد (Singularity)؟

ويثبت لمَنْ؟ ولماذا؟

أيمكن أن تمثل رحلاته الزمنية المزعومة حلقاتٍ رئيسةً في سلسلةٍ من الشر المطلق؟

سلسلة ذات هدف بغيض.. هدف قد يُخسِّره آخرته ودنياه..

أيكون فَقْدُه لأسرته قد حوّله من رجل مُتديِّن إلى رجلٍ أَشِر، رجل يسعى إلى الانتقام من العالم، بل من الكون بأسره كما في أفلام هوليوود؟

مستحيل!! ليس هو.. حتى لو فقدَ أسرته لا قدَّر الله.. فلن يفقد إيمانه بخالق الكون..

هذا أمر محسوم بداخله..

ولكن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء...

- أعوذ بك يا الله من شَرِّ نفسي.

غمغم بها بصوتٍ مسموع.. هَبَّ واقفًا وقد احمرَّ وجهه من فرط الخوف.. الخوف من نفسه وعلى نفسه.. الخوف من مستقبل قد يأتي على إيمانه وآخرته.

دفن وجهه في كفَّيْهِ وكاد أن يبكي خوفًا. حماسته الدائمة تحولت في لحظةٍ واحدةٍ إلى خوفٍ جارفٍ ورعب.. رعب من فقدان ما لا يمكن تداركه.. أن يفقد آخرته نتيجة صدمة أذابت كتلة إيمانه الصلبة.. استعاذ بالله مجددًا.. وَجَل قلبه وانتفض، فرفع رأسه إلى أعلى هاتفًا:

- يا رب.. يا رب!

وبعد أن كان يخشى تأثير اكتشافه على سارة، أو «رانيا» زوجته المستقبلية، انقلب الأمر وضرب قلبه هو.. أوْدَى بعقله هو.. انقلب حالةٍ من فخرٍ وحماسٍ إلى خوفٍ وذهول.. أذلك هو الاضطراب ثُنائي القُطب أو Bipolar Disorder كما سمع أصدقاءَه الأطباء يصفونه، ساخرين من حالته المزاجـيَّة المتقلبة.. أتفاقمت المصائب بإصابته باضطراب

نفسي جديد، أم أن عقله قد انهار فعلًا تحت وطأة ضغوط لم يعهدها من قبل.. رَبَّاه! ماذا يحدث له؟

زفر في حرارةٍ وأدار رأسه إلى سارة. حدَّق فيها في ذهول. عيون خاوية شاردة تتعلق بالفراغ. سارة التي نسيها أو تناساها وهو يغرق في أعماق خواطره المخيفة. تناسى أنه من الواجب عليه أن يحتويها، أن يخفف من وَقْع صدمتها، أن يمتصَّ هول اكتشافه الرهيب. لكن عقله تصلَّب عند فكرة واحدة، فكرة أن يكون هو سبب الشرور ومنبعها، شرور ستودي بسارة التي أمامه وتتسبب في أذاها يومًا ما. لم يكن يدري أهو منغلق على ذاته في تلك اللحظة، أناني، يخشى على نفسه ومصيره.. أم أن كل تلك الهواجس هي خوف خالص على أسرته، صافرات إنذار عالية توقظه وتدفعه لتفادِي مصيرٍ مظلمٍ لهم جميعًا، لها ولولديهما معًا، مصطفى وآدم.

اتسعت عينا سارة في ذهول، حدَّقت فيه بأعينٍ ذاهلة. لم تَدْرِ هي الأخرى أذاهلة من اكتشافه الذي أطلقه في وجهها منذ لحظات، أم من ردَّة فعله غير المفهومة.. علامات الذهول والخوف في عينيه لا توحي بأنه هو من فجَّر قنبلة «فريدة».. انقلب الأمر، فبدلًا من أن تكون هي الذاهلة أصبحت هي القلقة المتوترة.

أتعلقت به؟

أتعلقت برجلٍ غريبٍ في أقل من 24 ساعة فقط لأنه يدَّعي أنها ستصبح زوجته يومًا ما؟

أم أن ردَّة فعله فتحت أبوابًا أخرى من القلق والتَّوَتُّر؟

ليس القلق بشأنه..

بل القلق منه..

تضارَبَت الأفكار في عقلها هي الأخرى. لم تفِقْ بعد من صدمتها الأولى حين اكتشفت أن «فريدة» نظام عابر للأزمنة. نظام تم إعداده في زمنٍ آخر، ثم وصل إليها عبرَ فجوةٍ زمنيَّةٍ غامضة. «فريدة» جاءت واستقرت ونَمَت وتطورت في زمنها الحالي، الزمن الذي لم تدرك سواه.

«فريدة» حُلْم الأحلام، ومنتهى الآمال، المشروع الذي أخلصت له وعملت به لسنوات عديدة، هو نظام أتى من زمنٍ آخر.. بل قد صنعه مسافر زمني يقف أمامها وبين يديها.. مسافر زمني يدَّعي أنها ستكون زوجتَه المستقبلية..

أصادقٌ هو أم مجنون؟

أصنع «فريدة» حقًّا؟ أم أنه يكذب بشأنها؟

لكنه اخترقها بالفعل.. اخترق «فريدة».. اخترق دروعها

الواقية، ووصل إلى نواتها.. إلى «النواة»، إلى قلب النظام المقدس.. نواته المحرَّمة على مجموعة «ألفا» ذاتها..

«النواة» التي يُشاع أن من هَنْدَسها وأعدَّها وبَرْمجَها هم العلماء الأوائل..

علماء قادهم ذلك الرجل القوي..

رائد النهضة والتكنولوچـيا الفائقة..

الرجل الذي أكمل مشوار والده المهندس «محمد كامل» في خدمة الإمبراطورية وتشييد مجدها التقني..

«مختار كامل»..

أيقونة الحضارة ورمزها..

الرجل الذي يُنسَب إليه الفضل في التطوُّر التِّقَنيّ الهائل في هذا العالم.. أو هذا الزمن المتفرع..

الرجل الذي عرفته في صِغَرها، ليس كصانع المجد والنهضة والحضارة فحسب..

بل عرفته لاعتنائه الشديد بها وبوالدتها..

رجل تعرفه أكثر من معرفتها بأي شخص آخر في هذا العالم وما يوازيه..

أحقًّا مختار هو صانع «فريدة»؟ أم أن يحيى هو من جاء بها من عالمه إلى ماضيها؟

مَنْ هو الأبُ الشرعيُّ لفريدة؟

أهو «يحيى المصري» زوجها المستقبلي؟

أم «مختار كامل» جدُّها بالتبنِّي؟!

***

باقٍ من الزمن ثانيتان

00:00:02

000001

13 ديسمبر 2015

8:30 صباحًا.. الإسماعيلية

جلس شريف يتناول إفطاره في شرفةِ غرفةٍ متوسطة الحجم، في ذلك المنزل الريفي بإحدى مزارع الفاكهة على أطراف مدينة الإسماعيلية، والذي قضى به خمسة أسابيع كاملة منذ أن أنقذه ذلك الرجل على شاطئٍ ناءٍ بالعجمي غرب الإسكندرية. تحسَّس صدره حيث الضِّمَّادات السميكة التي تغطي موضع إصابته. تحسس موضع الإصابة الغائرة فعاود من جديد استرجاع تفاصيل كل لحظة من ذلك اليوم المشئوم. لا يزال شعورُ الأسى والندم يطغيان على شعوره بالألم، كلما استرجع تلك الطلقة التي انطلقت من مسدس «ليلى» زوجته وأُمِّ ابنته في ذلك الفرع الزمني المنهار.. أسرة كاملة سقطت من ذاكرته دون أن يدري كيف تكوَّنت، وكيف تاهت ذكرياتها المشتركة.. بل كيف أصبح هو بين ليلةٍ وضُحاها «شريف القاضي» ذلك المقاتل الزمني الذي لا يعرف الرحمة.. عشرون عامًا اقتُطعت من عمره دون أن يدري كيف

عاشها، أو حتى يدرك حجم وطبيعة الخطايا التي ارتُكبت خلالها..

عقدان مُحِيَا من عمره وذاكرته، بعد أن خلَّفا وراءهما ذنوبًا تستوجب التَّوبة والندم.. عدا أمر واحد فقط..

ابنته، سلمى..

كان يومه الأخير في ذلك الزمن المندثر عصيبًا.. يوم عاشه جاهلًا وحيدًا هائمًا على وجهه في محاولةٍ بائسةٍ للتعرُّف إلى شخصيته المُستحدَثة الغامضة التي أصبح عليها.. شخصية شريف عزيز القاضي.. يوم عصيب في ثمانينيَّات زمن يختلف كليًّا عن زمنه وواقعه الذي وُلِدَ فيه ونشأ في شوارعه.. يختلف عن زمن وُلِدَتْ فيه أمه وحَملت به ووَلدته.. كم يشتاق إليها، كم يتمنى أن يمسك يدها ويقبل رأسها..! بل يتوق إلى الارتماء في أحضانها.. ثم يبكي، ويبكي، ويبكي حتى تتطهَّر روحه وتعود إلى أصلها الذي فُطرت عليه..

أن يعود «أحمد رؤوف سالم» من جديد..

- صباح الخير يا شريف.. كيف حالُك اليوم؟

- صباح الخير يا عادل.. بخير حال.

قالها شريف ثم دعا زائره إلى الجلوس. عادل، ذلك الرجل

جامد الملامح ذو الشعر الفضي. الرجل الذي أنقذه وأسعفه وآواه طيلة الأسابيع الخمسة الماضية. اطمأنَّ الأخير إلى أن شريف قد تناول أدوية الصباح الروتينية التي تساعده على استعادة حالته الصحية الطبيعية، والتعافي من آثار إصابة كادت أن تودي بحياته.

رمق شريف بنظرةٍ حائرةٍ مُساعِدةَ عادل تلك، التي تقف خلفه.. شابّة في منتصف العشرينات من عمرها، صهباء، ذات وجه أبيض مُشرَّب بحُمْرة نمش كثيف يتناغم مع شعرها شديد الحمرة.. وجه جميل يثير في نفسه هاجسًا ما.. بؤرة ما في ذاكرته تبرق كلما تأمل ملامحها.. مشاعر مختلطة تجمع بين الأُلفة وعدم الارتياح تتلاطم بداخله، وتفيض بنبضاتِ قلبٍ مضطربةٍ كلما سبح في عينيها الخضراوين.

يَئِس شريف من دعوتها إلى الجلوس، فطيلة الأسابيع التي قضاها في تلك المزرعة لم تنبس الصهباء ببنتِ شفة. دائمًا ما تقف وراء عادل تراقب حديثهما وتنتظر أوامر سيدها الصارم.

تَنهَّد شريف رغمًا عنه لينفض عن ذهنه تلك الخواطر التي تداهمه صباح كل يوم خلال لقائه اليومي مع عادل ومساعدته الصَّهْبَاء.

تبادل الرجلان حديثًا وديًّا معتادًا حول مختلف الأمور

الحياتية والسياسية الخاصة بهذا الفرع الزمني، حتى تأكد شريف من أنه قد عاد مجددًا إلى زمنه الأصلي، ذلك الذي وُلِد فيه واستمتع فيه بسنوات طفولته، وعاصَر فترات مفصلية في تاريخه الحديث، خلال سنوات عمره الثلاثين الأولى التي يتذكَّرها على الأقل.

عرَّف عادل نفسه سابقًا على أنه الذراع اليُمنى للبارون، زعيم جماعة «الأصليين»، تلك الجماعة الزمنية التي انخرطت في حربٍ زمنيَّةٍ حامية الوطيس مع تنظيم «فرسان الزمن» الذي حاول قتله من قبل. أخبره كيف عمل «الأصليون» جاهدين من أجل حمايته وحماية أسرته، حتى إنهم أرسلوا «مايا»، خيرة مقاتليهم، لهدف واحد فقط؛ وهو حماية أفراد أسرة شريف القاضي.

حاول شريف مرارًا وتكرارًا الوقوف على مصير ابنته «سلمَى» التي هربَت بها «مايا» تلك قبل انهيار الخط الزمني؛ وكذلك السؤال عن الزمن الذي انتهت به «ليلى» زوجته. ولكن كالعادة، كانت إجابة عادل ثابتة ومقتضبة. كان دائم التأكيد أن الانهيار الزمني، الذي شهده شريف، قد أثَّر على مقدرتهم في تتبُّع المسافرين الثلاثة، بسبب اضطراب نسيج الزَّمَكَان واستخدام ثلاثتهم لتكنولوجيا «السوار الزمني» التي لا تستخدمها جماعة «الأصليين».

كان شريف يدرك أن عادل يكذب على الأرجح، وخير دليل هو تمكُّن الأخير من تحديد موقع شريف في نسيج الزمكان المضطرب هذا، بل وإنقاذه رغم أن ظروف انتقاله الزمني مشابهة ومتطابقة لظروف انتقال أسرته، بالإضافة إلى استخدامه تقنية «السوار الزمني» ذاتها.. يكاد يُقسم على كَذِب عادل ومكره، لكنه قرر التريُّث، قرر أن ينتظر ويصبر كي تتكشَّف أهداف عادل وذلك «البارون» الغامض وجماعته السرية.

ارتسمت على وجه عادل ابتسامته المصطنعة المعتادة وهو يسأل شريف في هدوء: «ألم تتذكَّر بعد أي شيء بخصوص رحلاتك الزمنية الأخيرة؟ لقد قمت برحلتين زمنيتين خلال أسبوعك الأخير في ذلك الفرع الزمني المندثر.. رحلتين قد تؤثران بشكلٍ أو بآخر على مجرى الزمن وسلامة أسرتك بأكملها، وسلمَى على وجه الخصوص.. هل استرجعتَ أي ذكرى ذات صلة؟».

هزَّ شريف رأسه نافيًا، ذلك السؤال شبه اليومي، والإجابة ذاتها.. النفي.. ولكن، هل يدري ذلك الرجل المصطنع أن تكرار سؤاله يثير في نفس شريف التساؤلات والشك! لماذا يريد معرفة أمر تلك الرحلتين المزعومتين؟ وما مجرى الزمن الذي سيتأثر برحلتيه الأخيرتين؟ ما الأهمية القصوى لتلك

المعلومة التي دفعت عادل وجماعته إلى تتبُّع شريف وإنقاذه عبر الخطوط الزمنية؟

تَنهَّد عادل في استسلامٍ ثم استأذن وأشار إلى رفيقته الصهباء بالمغادرة، قبل أن يرن هاتفه المحمول فجأةً، فيعتدل في وقفته ويخطو عدَّةَ خطواتٍ مبتعدًا ليجيب على محدثه. في اللحظة ذاتها، استغلت الصهباء انشغال عادل بمكالمته التليفونية، والتي يبدو وأن صاحبها هو «البارون» ذاته، فمالت على أُذن شريف هامسةً بجملة مقتضبة خفق لها قلبه توترًا. قالت جملتها ثم انصرفت من فورها تتبع سيدها الصارم.

اتسعت عينا شريف في دهشةٍ وهو يسترجع ما قالته الصهباء قبل انصرافها:

- توقَّف عن تناول الأقراص الزرقاء!

***

000010

00:15 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن

- لقد انتهيث من تحليل القفزات الزمنيَّة المُحتمَلة.

دوَّى صوت «فريدة» الهادئ في المكان. عاد صوتها

المُحبَّب العذب إلى الآذان من جديد، بعد أن نجح يحيى في ربط أجهزة المخبأ الآمن بشبكة فريدة الفضائية عبر شبكة افتراضية مُشفَّرة، الشبكة التي أعدَّها بعد أن أدرك أنه الأبُ الشرعيُّ والأصلي لفريدة. «فريدة» التي تعدُّ التحديث الكمِّي الفائق لنظامه الأمني السابق «كليبيوس».

قطع صوتها الرخيم صراع الخواطر المضطربة، يحيى الذي حوصر عقله في ثنائية الخير والشر: أهو بشخصه مصدرٌ للشر؟ أم سببٌ في الحل؟ أتمثل «فريدة» الشر المطلق أم طوق النجاة؟ أهي السبب أم النتيجة؟ أما سارة فقد انسحق عقلها بين شقَّيْ رَحًى ثنائيةٍ أخرى، ثنائية تتعلق بهُويَّة الأب الشرعي والمصمم الأصلي لفريدة؟ أهو زوجها المستقبلي، والمسافر الزمني، رئيس شركة «درع السماء»، «يحيى المصري»؟ أم جدُّها بالتبنِّي، ورمز النهضة والثورة التقنية في زمنها، رئيس الهيئة القومية لأنظمة الذكاء الاصطناعي «NA2IS»، «مختار كامل»؟

عاد أيمن مسرعًا إلى البهو بعد أن تناهى إلى مسامعه صوت «فريدة» وصداه يتردد في أرجاء المخبأ الحجري الفسيح. كان عقله كذلك يرتجُّ بخواطر وذكريات متضاربة، خواطر ذات طابَع آخر، ذات طابع يقينيّ على عكس خواطرهما وهواجسهما الظنِّيَّة. خواطر حول دوره في

هذا الصراع الزمني الممتد عبر قرن من الزمن. حرب زمنية حامية الوطيس، حرب ذات طابَع ثنائي هي الأخرى، «فرسان الزمن» ضد «الأصليين»، قوتان زمنيتان متصارعتان لكل منهما أسلحته الخاصة، ووسائله، وتقنيَّاته، شعار «ندفة الثلج» ضد شعار «النقطة السوداء»، قوة تؤمن بزمن متفرع وتسعى إلى الحفاظ عليه ضد أخرى تؤمن بالعودة إلى نقطة البداية، إلى الأصل، إلى نقطة الصفر. هو دون غيره في هذا المكان على درايةٍ بطبيعةِ الصراع، مُلِمٌّ بالكثير من تفاصيله ولكن ليس بكامل أبعاده.

- هل عادت فريدة؟ .

قالها أيمن في لهفةٍ بعد أن نفضَ عن ذهنه خواطره الزمنية، تقدم ناحيتهما مسرعًا يمسك بصينية معدنية تحمل ثلاثة أكواب من الشاي الساخن وبعض الأطعمة الخفيفة. التفتا إليه في وجوم، قبل أن تقرر سارة أن تكون أول المتكلمين؛ لتعطي يحيى الفرصةَ للخروج سالمًا من مستنقع هواجسه التي لا تدري عن كُنْهِها شيئًا ولكنها تتشكَّك في أسبابها. قطعت الوجوم حين أومأت برأسها إيجابًا ردًّا على أيمن، قبل أن توجه كلامها إلى «فريدة» عبر ميكروفون عتيق يستقر على سطح المكتب أسفل الشاشة العملاقة، قائلةً في حزم:

- هاتِ ما لديك يا فريدة.

تأخر رد «فريدة» للحظاتٍ لم تَعْتدْها سارة، تأخر الرد بسبب الطبقات البرمجية المعقدة والمتسلسلة التي أعدَّها يحيى لترجمة الأوامر وتشفيرها، ثم الاتصال بشبكة «فريدة» الفضائية واستقبال الرد بصورة آمنة عبر شبكة افتراضية مُشفَّرة، «VPN» كما نسميها في عصرنا الحالي. الشبكة التي أعدَّها خصِّيصًا للمحافظة على سرِّية موقعهم، وإخفاء هُويَّتهم والإبقاء عليها مُجهَّلة. عبقرية يحيى، وسابق معرفته بالنواة الأوَّلية لـ «فريدة»، النواة التي ورثتها عن سَلَفِها الزمني، ابنه البِكْر، «كليبيوس»، سمحا له بأن يصمم طبقة برمجية ذكية تقوم بتصنيف السؤال الموجَّه إلى «فريدة»، وعلى أساس هذا التصنيف يتم إنشاء حسابٍ جديدٍ وهمي مُجهَّل، «anonymous»، يمتلك الصلاحيات اللازمة لإعطاء أنواع الأوامر كافةً وتوجيه أنواع الأسئلة كافةً ضمن هذا التصنيف لفريدة، التي ستنصاع صاغرةً لذلك الأمر ودون معرفة الهوية الحقيقية لصاحبه؛ وكذلك دون إثارة شبهات مراقبي النظام بأنواعهم: اليدوية والآليَّة، وقطع دابر من يحاول تتبُّع الاتصال بين الشبكة الفضائية والكهف الحجري.

تصميم عبقري من مهندس بارع في وقتٍ قياسي، تصميم كان يُسبغ عليه في الماضي كل مظاهر الفخر والخُيلاء كما هي طبيعته، وكما اعتاد، حتى عدة دقائق مضت، حتى داهمته تلك الهواجس المظلمة حول مصير أسرته ومستقبله

وماضي «فريدة».

تَنهَّد يحيى في عمق، واستعاذ بالله محاولًا طرد تلك الهواجس الشيطانية التي سيطرت على تفكيره، ثم التفت في ترقُّب يتأمل الشاشة العملاقة. طالت لحظات ترقبهم حتى بدأت البيانات والمعلومات والرسوم تصطفُّ على الشاشة بصورة عملية برجماتية، غير مُنمَّقة أو مزخرفة، دِقَّة صور رديئة تعيد إلى ذهنه صورة شاشات الحواسب الشخصية الأولى في النصف الثاني من السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين في زمنه البعيد. ثم جاء صوت «فريدة» الآليُّ عبر السمَّاعات المنتشرة في أرجاء البهو الحجري، تعلق وتشرح البيانات والمعلومات المعروضة أمامهم، تتحدث في هدوءٍ لا يعكس قيمة المعلومات المهمة والمفاجآت المذهلة التي توشك على كشفها.

بدأت فريدة عرضها بملخَّص لاكتشافاتها السابقة، تلك التي عرضتها في غرفة يحيى بالمستشفى العسكري منذ ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة:

- عند إجراء المسح الأوَّلي لأنماط التردُّدات والموجات المشابهة لحالة السادس من ديسمبر 2019، حالة «يحيى المصري»، تم رصد عدَّة حالات أخرى بدأت في الربع الأخير من عام 1882 بصورة تقريبية، وحتى حالة نسيم سمعان

في نوفمبر 1984.

أعطت مقدمة «فريدة» الفرصة لثلاثتهم لنفض الخواطر والهواجس المتضاربة عن عقولهم، والتركيز فيما هو قادمٌ من استنتاجات ومُخَرجات أكثر إثارةً للاهتمام، حيث تابعت «فريدة»:

- بعد تغيير عناصر البحث والتحليل، وتوسيع نطاقها على طرفَي القياس، تم اكتشاف عدد كبير آخر من الحالات التي تتصف بتردُّدات وموجات شبيهة بالحالات السابقة.. بل إن زيادة حساسية الرصد وفصل الموجات قد ساعدت في اكتشاف حالات متقاربة ومتداخلة، أهمها في 25 نوفمبر 1984 والتي تداخلت مع موجات حالة «نسيم سمعان» قبلها بثلاثة أسابيع تقريبًا.

تبادل يحيى وسارة نظرات الدهشة قبل أن تتابع تواريخ القفزات الزمنية على الشاشة الكبيرة بلونٍ أبيض واضح، فيما تميّزت القفزات الحديثة بخَطٍّ مائل Italic. صمتت «فريدة» قليلًا لتعطي الفرصة لأيٍّ كان ممّن يطالع بياناتها بقراءة التَّواريخ المتوالية، والتي تَلوّن القليل منها بلونٍ أحمر فاقع. لاحظ يحيى وجود أرقام طويلة تقارب الثلاثمائة رقم، أشبه بالشفرة، بجوار معظم تواريخ القفزات الزمنية، بينما توترت سارة حين لمحت اختفاء سلاسل الأرقام الطويلة

تلك أمام ثلاثة تواريخ تحديدًا واستبدال الرقم «صفر» بها تجاوره علامة استفهام مُغلَّظة.

تقدم أيمن خطوةً إلى الأمام يحدِّق في تواريخ القفزات الزمنية، باحثًا عن أحد التَّواريخ التي يعلم يقينًا مَنْ سافر فيها ومَنْ عاد. اختلج قلبه وتدفقت الدماء إلى وجه أيمن الذي تخضَّب بحُمرةٍ واضحةٍ تتماشى وإحدى تلك القفزات الحمراء التي ألهبت قلبه، حين تابعت «فريدة» بنبرةٍ هادئةٍ وكأنما تُخرج له لسانها:

- ترتَّب على هذا الكشف إجراء تحليلات طيفية أكثر عمقًا واتساعًا، بالإضافة إلى مسح كامل للعديد من الوثائق التاريخية والكتب والمذكرات الشخصية اليدوية والصور المتوافرة في قواعد بيانات الشبكة الفضائية. ثم تم دمج النتائج كافةً وترتيبها منطقيًا؛ مما أدى إلى تفسيرِ عددٍ من الظواهر والملابسات الغامضة، بعضها تاريخي وأغلبها حديث، تلك الوقائع والألغاز التي استعصت على الحل طيلة القرن الماضي.

صمتت وقد استحوذت على كامل تركيزهم وترقبهم، ثم أردفت بنفس الوتيرة:

- وفي النهاية، وبعد إجراء العدد الكافي من الاختبارات الإحصائيَّة واختبارات الفرضيَّات. أستطيع أن أؤكد، وبنسبة

90%، صحة فرضية «الانتقال الزمني. وأؤكد كذلك، وبنسبة 85%، صحة فرضيَّة الأزمنة المُوازِية أو المُتشعِّبة.

***

لوهلةٍ، تهلَّلت أسارير يحيى رغمًا عنه فرحًا بتأكيد صحة تفسيره الأوَّلي، فأدار رأسه في فخرٍ إلى سارة، التي لاحظت التفاتته لكنها تجاهلتها بالكلية.. أرادت أن تختلي بقلبها.. تصاعدت ضربات قلبها هي الأخرى، فرغم أنها كانت أقرب إلى تصديق تفسيراته المجنونة، وتبنَّتها في بعض الأحيان، فإن طبيعتها الأمنية كانت تفرض عليها التريُّث وإعطاء الشكِّ فرصته في إثبات خطأ يحيى. كان قلبها يحدثها بصدقه، وعقلها يدعم الشكَّ ورفض فرضيَّته غير الواقعيَّة. لكن «فريدة» كان لها رأيٌ آخر.. انتصرت «فريدة» لسارة، انتصرت لحَدْسِها، بل لقلبها، لقد تعلقت سارة به رغم قَصَر الوقت واضطراب الظروف، ولكن من قال إن القلب يتبع القواعد الفيزيائية الكلاسيكيَّة، لقد أثبت قلبها أنه يخضع لقواعد أخرى، سَمِّها قواعد فيزياء كمِّية أو شاعرية رومانسية أو قوانين عابرة للزمن أو أيًّا كان.. لكنها تعلقت به.. تعلقت بالمسافر الزمني المجنون، وتمنَّت صدقه.. قطعت «فريدة» الطريق أمام عقلها المُتشكِّك، أخضعته لسطوة القلب وقوانينه.. «فريدة» الخارقة أيَّدت يحيى...

- أهذا كل شيء؟!

قطع هتاف يحيى المُحبِط أفراحَ قلبها المتمرد بانتصاره على عقلها المتأرجح. قال يحيى جملته في ذهولٍ وإحباطٍ واضح، فبعد أن تبدَّدت مشاعره السريعة بالفخر من إثبات صحة فرضيته، وصدق حديثه، برزت تساؤلاته الأساسية التي تبحث عن إجابات يقينية واضحة، تلك التساؤلات التي قادته إلى إعادة البحث وتحليل المعطيات من الأساس. تساؤلات تتلخَّص في «لماذا يحدث كل ذلك؟ ومَنْ وراءه؟ والأهم، ما دوره هو؟ ودور «فريدة»، صنيعته؟».

التفت إليه أيمن بعد أن التقطت أُذُناهُ نبرة الإحباط الواضحة في صوته. تنفس الصُّعَدَاء. كان يخشى أن تُفصح «فريدة» عن المزيد، كان يخشى أن تكشف أمره، كان يخشى أن يُضطر إلى كشفِ أمورٍ يرفض الإفصاح عنها الآن، الأمر يتعلق بمصير ابنته..

نعم ابنته الصغيرة الجميلة التي لم يتعدَّ عمرها العامين حين اختفت أو اختُطفت..

طفلة بريئة رقيقة حانية قذفتها الظروف في وسطِ حربٍ زمنيَّةٍ شعواء..

حرب لا يدرك أحدٌ نهايتَها أو نقطة بدايتها..

لقد أخذ وعدًا قاطعًا باسترجاع ابنته بعد أن يقوم بدوره..

وُعِدَ بأن تعود إلى أحضانه بعد أن فقدت أمَّها..

أو على الأقل يعلم أين هي..

أو متى هي؟

***

خفق قلبُ أيمن في عنف عندما هوى صوت «فريدة» المتأخر يقطع آماله في تأجيلِ صدامٍ وشيك. جاء صوتها المتقطِّع، بفعل سرعة الشبكة وطبقات يحيى البرمجيَّة، يجثُم على صدره من جديد، فتهدَّجت أنفاسه وهو يسمعها تقول:

- لا.. بالتأكيد هذا ليس كل شيء.. هذا نَزْرٌ يسير.

عقدت سارة حاجبيها، وأنصت يحيى في اهتمام، في حين ابتعد أيمن مُطرِقًا في انتظار ما تجود به «فريدة»، التي تابعت:

- تحليل أنماط الموجات والتردُّدات الجديد أوضحَ وجود نوعين من أنماط الترددات.. نمطان، أحدهما عكس الآخر، كالانعكاس في المرآة.

اتسعت عينا يحيى في دهشةٍ وهو يتابع الشاشة التي

انقسمت إلى نصفين رأسيين، تراصَّت فيهما التَّوَاريخ في صفوفٍ متتالية. ضاقت حدَقَتا سارة عندما لاحظت وجود تاريخ ظهور «يحيى» في الجانب الأيسر من الشاشة، حدَّقت مليًا في الشاشة تتابع الصفوف المتلاحقة في محاولةٍ لربط تواريخ الجانبين بنمط معين، أو أحداث معينة.. جزَّت على أسنانها وهزَّت رأسها في امتعاض حتى واصلت «فريدة» شرحها:

- حَادِثَتا ظهور «يحيى المصري» و«نسيم سمعان»، بالإضافة إلى عدة حوادث أخرى مُسجَّلة، إحداها في نهاية القرن التاسع عشر، ساعدت في فكِّ شفرة الأنماط والترددات المضادة.. ببساطة، الجانب الأيسر يوضح القفزات التي تمت إلى داخل عالمنا وخَطِّنا الزمني.. فلنُطلق عليها «الزائرون».. أما الجانب الأيمن فيمثل «المغادرون»، ويحتوي على القفزات الزمنية إلى خارج خطنا الزمني، إلى واقعٍ موازٍ آخر».

صمتت للحظةٍ، ثم أضافت:

- باختصار، يمكن اعتبار خَطِّنا الزمني كميناء «زمني» لرحلات الترانزيت، مطار به صالة «وصول» وأخرى «مُغادرَة».. الجانب الأيسر للقادمين، والأيمن للمُغادِرين. مسافرون من الأفرع الزمنية كافةً يعبرون عالمنا كمحطة

مؤقتة قبل الوصول إلى وجهتهم النهائيَّة.. بعضهم أكمل رحلته، وبعضهم علَق هنا بلا رجعة.

***

خَيَّم صمتٌ مَهِيبٌ على المكان، اتسعت العيون في ذهول، أو عيون يحيى وسارة على الأقل، مفاجأة جديدة لا يدركون أهي خطوة إلى الأمام في طريق الحل أم خطوة إلى الخلف تزيد الأمور تعقيدًا.. لا، هي خطوة إلى الأمام، أيُّ معلومةٍ جديدة تُعدُّ خطوة إلى الأمام بكل تأكيد.. لكن إلى الأمام في أي اتجاه؟ في اتجاه عودة يحيى إلى زمنه؟ أم عودة سارة إلى حياتها الطبيعية؟ أم لمعرفة مَن يحاول قتل يحيى أو قتلهم جميعًا؟

هي بالقطع خطوة إلى الأمام..

قطعة جديدة في أُحْجيَّة زمنيَّة غامضة..

لكنها خطوة إلى الخلف بالنسبة إلى أيمن؛ فزيادة معرفتهم تعني زيادة العراقيل واتساع دائرة المواجهة..

هو فقط يريد ابنتَه، فليذهب يحيى وسارة إلى الجحيم..

بل فليذهب عالمه كله إلى الجحيم إذا كان سيلتقي ابنته مُجدَّدًا..

ابنته التي سُلبَت منه منذ ثلاثة أعوام..

تُراها بلغت الخامسة الآن..

كَمْ يفتقدها، كم يفتقد نظراتها البريئة، كم يفتقد تأثيرها الإيجابي عليه..!

لقد غيَّرته، جعلته أفضل، هدأت جنوحه ونزواته ونفسُه المضطربة..

لكنه فقدها، فارتدَّ، ارتد إلى أسوأ مما كان عليه..

والدتها هي السبب، هي من أضاعتها، هي مَنْ تسبَّبت في فقدانها..

لماذا لم تقبل بالأمر الواقع، بالمصير المحتوم، لماذا التحدي..

تبًّا لها ولمبادئها المهترئة البالية..

مغامراتها وتهوُّرها وصلابتها كلفتهما كل شيء..

كلفتها حياتها، وكلفته ابنته..

ابنته الضائعة في مجرى الزمن..

لكنه سيجدُها حتمًا..

سيجدها مهما كان الثمن.

عقد أيمن حاجبيه في حزم، ثم رمق يحيى وسارة خلسةً ليطمئنَّ إلى انشغالهما عنه، قبل أن يواصل تراجعه إلى الخلف في هدوءٍ حَذِر. تحسس محتويات جيب معطفه الأيسر، تَنهَّد في ارتياح، ثم أخرج من الآخَر محفظته الجلدية يتفقَّد محتوياتها. ومن أحد جيوبها الداخلية، سحب في حَذرٍ شديدٍ قطعةً معدنيَّةً صغيرةً مفلطحة أشبه بدبُّوس الشعر عند النساء. دبوس معدني من البلاتين يستقر أعلاه إطار بلاتيني يحيط بِكُرَة صغيرة سوداء معتمة. أدار تُرْسين دقيقين أعلى الدائرة البلاتينية، ثم أدخل طرف الدبوس بحذرٍ أشد في أعلى كتْزَته الصوفية وبعمقٍ ليخترق طرفه المدبَّب، في حركةٍ سريعة، الطبقة السطحية من جلده فتسري قطرات قليلة من دمائه في العمود الدقيق. عبس بوجهه من الألم ثم عدَّل وضعية معطفه الطبِّي الأبيض ليخفي الدبوس عن الأعين، قبل أن يزفر في حرارةٍ استعدادًا لما هو قادم.



خُيِّل لسارة أنها لمحت بعضًا من تحرُّكات أيمن المريبة تلك، إلا أنها نفضت عنها تلك الخيالات بعد أن أمسك يحيى ميكروفون «فريدة» العتيق، يعاجلها بسؤالٍ كان يلِحُّ عليها هي الأخرى:

- لماذا تَعدِّين هذا الزمن محطة ترانزيت؟ كيف نجزم بأن المسافرين إلى هذا الزمن هم بذاتهم من غادروه لاحقًا؟ أو العكس؟ بمعنى، كيف نربط بين قفزة زمنية محددة وشخص بعينه؟

تبادلت سارة ويحيى نظراتٍ ذات معنى، في حين غلب

أيمنَ التَّوَتُّر، فأشاح بوجهه بعيدًا متظاهرًا بتناول أحد أكواب الشاي الفاتر. حبس ثلاثتهم الأنفاس في انتظار رد «فريدة» المتأخر، حرك يحيى قدمه في عصبيةٍ وقد أوشك صبره على النفاد، حتى إنه فكر جدِّيًا في تخفيف طبقات التمويه والتشفير التي فرضها على «فريدة»؛ حتى يُسرِّع عملية التَّواصل، حتى يحصل على الإجابات بصورة فورية. كاد أن يخاطر بكل شيء فقط حتى لا يكتوي بنار الانتظار. قلَّة صبره المعتادة ولهفته الحالية لا تمنحانِهِ رفاهية الانتظار لثوانٍ قليلة حتى يأتي الرد، بضع عشراتٍ من الثواني لا تتخطى الدقيقة أو الدقيقة والنصف على أقصى تقدير، لكنها تمرُّ عليه كدهرٍ كامل. هو يريد كل شيء بصورة فورية، آنيَّة. تراجع عن أفكاره المتهوِّرة حين جاءه رد «فريدة» المفصل:

- السر يكمن في نمط الترددات والموجات الناجمة عن القفزات الزمنية، كما استخلصنا منها اتجاه القفزة، يمكننا كذلك استخلاص عدد آخر من المعلومات المهمة.

صمتت حين عادت الشاشة الكبيرة إلى لونها الأسود، ثم ظهرت عليها دوائر كبيرة متعددة الأحجام والألوان، دوائر بعضُها داخل بعض، أشبه بالموجات الدائرية الناجمة عن قذفِ حجرٍ صغيرٍ في مياهٍ راكدة. تغيَّر سُمك الدوائر وألوانها في تتابع سريع، بأنماط مختلفة. انفصل عدد من الدوائر في

حُزمَة واحدة، وظهر بجوارها جملة «اتجاه القفزة»، بينما انفصلت الغالبية العظمى من الدوائر مُشَكِّلَةً حُزْمَةً أخرى أكبر حجمًا، عُرِّفت بجملة «البصمة الزمنية». تابعت «فريدة» شرحها قائلةً:

- يمكن تقسيم أنماط الموجات إلى حُزْمتَين رئيستين وأخرى فرعية. الحُزْمَة الرئيسة الأولى تمثل «اتجاه القفزة» إلى داخل عالمنا أو العكس كما سبق وأوضحت، بالإضافة إلى الإحداثيّات المكانية للإقلاع والهبوط على سطح الكرة الأرضية والمكوَّنة من طول وعرض وارتفاع. أما الحُزْمَة الثانية، الحُزْمَة الأضخم، فأطلقت عليها وصف «البصمة الزمنية» أو «Temporal Fingerprint». ويمكن استخلاصها من نمط الترددات الموجيّة المصاحبة للانفجار. وتتكوَّن من رقم واحد يصل طوله إلى قرابة 309 أرقام؛ أي 1024 بت تقريبًا. ولكل مسافر رقم مميز يحتوي على معلومات مهمة حول الشخص وقفزته.

تقطع صوت «فريدة» للحظة، فتبادل يحيى وسارة نظراتِ ارتباكٍ واضحة تعكس قدرًا ما من التخبُّط وعدم استيعاب أمر «البصمة الزمنية» وطريقة حسابها، فجاء صوت «فريدة» من جديد تستطرد:

- بطريقة علمية، فإن «البصمة الزمنية» ما هي إلا رقم

مُتفرِّد يتم احتسابه في مكعَّب عظيم متعدد الأبعاد والمحاور، Hypercube، أحد المحاور يمثل الطول/التردد الموجيّ، بينما يتكون آخر من دالَّة أُسِّيَّة نسبيَّة لمقدار التغير، و....

كانت «فريدة» تواصل شرح الجانب العلمي وراء استخلاص البصمة الزمنية من حُزمَة الموجات الكبرى المصاحبة للانفجارات الزمنية، قبل أن ينقطع صوتها لبرهةٍ من الوقت بفعل ضعف الاتصال.

اتسعت عينا يحيى وهو يحدِّق في الشاشة السوداء والأرقام الثلاثمائة لإحدى القفزات الزمنية قد ارتَصَّت أمامه على الشاشة بجوار حُزمَة الموجات الضخمة، فغمغم في انبهار:

- «يا الله.. إنه ذلك الرقم الطويل بجانب تواريخ القفزات الزمنية!»، عقد حاجبية مفكرًا، ثم غمغم مُضيفًا: «لكن ما أهميته؟ كيف يمكن الاستفادة منه؟»

راقب أيمن علامات الانبهار التي تعلو وجه يحيى؛ فضاعَفت إحساسه بالتَّوَتُّر، هو بالتأكيد لم يكن على علم بأمر «البصمة الزمنية» أو ما تمثله، لكنه أدرك أن استنتاجات «فريدة» ستنتهي بكشفِ أمرِه إن عاجلًا أو آجلًا. أطرق قليلًا يدرس خطوته القادمة، لكنَّ هاتفًا ما بداخله يناشده الصبر،

شيء ما بداخله يشعر أن «فريدة» قد تكشف له عن موقع ابنته. هو مستعدٌّ للمخاطرة بحياته وكشف أمره على أمل إدراك أي معلومة حول ابنته.

لسببٍ ما شعرت سارة بالراحة عندما توقف شرح «فريدة» العلمي للحظات. بل تَنهَّدت في ارتياح، فلم تكن في حالة ذهنية تسمح لها بالإنصات والتركيز في تفسير علمي حول كيفية حساب تلك «البصمة الزمنية» المزعومة، ورقمها المتفرِّد الهائل، فقد كان تفكيرها ينصبُّ في رقمٍ آخر.. رقم أقل حجمًا بكثير.. رقم ظهر أمام بعض تواريخ القفزات الزمنية المميزة.. أمام ثلاثة تواريخ تحديدًا.. رقم دائمًا ما يتردد في ذاكرتها.. ذكرياتها تتمحور بصورةٍ أو بأخرى حول ذلك الرقم..

الرقم «صفر»..

الصفر، ذاك الرقم الذي يحمل في طيّاتِه القوة والضعف في آنٍ واحد..

صفر على اليمين قوة عشرية ضاربة، وآخر على اليسار دون أدنى قيمة..

«الصفر المطلق» هو سِرُّ قوة «فريدة» ذاتها وقوة معالجاتها الكمِّية الفائقة..

لكن ما علاقتها هي بالرقم صفر.. لماذا تشعر ناحيته بألْفةٍ ما..!

لماذا عندما قرأتهُ على الشاشة السوداء بدا وكأنها سمعته بصوت أمِّها في صباها..!

طالما استعملت الصفر في دراستها كأساس علم الحوسبة، لكنها المرة الأولى الذي يثير بداخلها كل تلك الذكريات والخواطر، أو الهواجس..

لو أردنا الدقة، فإنها المرة الثانية التي تشعر برابطٍ ما مع الرقم «صفر»..

المرة الأولى كانت منذ ساعاتٍ قليلة.. عندما كانت تقف أمام ذلك الجهاز العتيق في مدخل المخبأ الآمن.. لدهشتها فإنها لم تتردد مرتين عندما طلب منها الجهاز إدخال «الرقم السِّرِّي».. لقد برز الرقم أمام عينيها بوضوح، ظهر من وسط غمام الذكريات..

انتزعه الموقف المتأزِّم من ثنايا عقلها المظلمة ووضعه أمام عينيها..

صرخة والدتها الأزليّة وهي تتلفَّظ الرقم هو الصوت الوحيد الذي بلغ عقلها الواعي في تلك اللحظة..

نعم، إن الرقم السرِّي الذي ترتَّبت عليه حياتها ومصيرها كله كان الرقم «صفر».

***

000000

25 نوفمبر 1915 (5 ساعات ونصف قبل الكارثة)

6:30 مساءً.. ڤيلّا إسماعيل الخازندار..

- سنترك حراسةً دائمةً أمام الڤيلّا.

قالها في صرامةٍ اليوزباشي «فرنشيسكو لوسكياڤو»، معاون مكتب الخدمة السرية (البوليس السياسي)، موجهًا حديثه إلى إسماعيل الذي اكتفى بالجلوس واجمًا في أحد مقاعد غرفة الصالون بڤِيلَّتِه المنكوبة. كانت الڤيلّا تعجُّ برجالٍ من البوليس المصري التقليدي ومكتب الخدمة السرية، قاموا قرابة ثلاث الساعات بمعاينة آثار الحادثة، واستجواب الشهود.

أومأ إسماعيل برأسه مُتفهِّمًا بينما لم تفارقه تعبيرات الاستسلام والوجوم. تجاهل لوسكياڤو نظرات إسماعيل الزائغة وتابع بنفس الصرامة:

- هناك اهتمام خاص من قِبَل «هارڤي باشا» شخصيًّا

بالحادثة.. نتوقع تجاوبًا تامًّا من جانبكم يا إسماعيل بك، لسلامتكم الشخصية أولًا بكل تأكيد.

ورغم استسلام إسماعيل الكامل واضطراب عقله وروحه منذ الصباح، فقد أثار دهشته اهتمام «چورچ هارڤي باشا» حكمدار القاهرة شخصيًّا بالحادثة، بل وقدوم لوسكياڤو، اليد اليمنى لچورچ فيليبيديس، رئيس مكتب الخدمة السرِّية، بنفسه إلى الڤيلَّا لمعاينة الحادثة واستجواب الشهود. أسماء رفيعة في جهاز الشرطة المصري، نقلت الحادثة من خانة الحادثة الجنائية إلى أخرى ذات أبعادٍ سياسيةٍ تهدد النظام العام للدولة. فهتف إسماعيل في دهشةٍ رغمًا عنه:

- لماذا؟!

مطَّ لوسكياڤو شفتيه، وحافظ على صرامته وهو يرمق إسماعيل بنظرةٍ مُطوَّلة ثم تَنهَّد قبل أن يجيبه قائلًا:

- «الأمر يتعدى جرائم القتل العادية يا بك». ثم أشار بسَبَّابته عبر زجاج النافذة إلى الحديقة الخارجية للڤيلَّا وتابَع: «آثار الانفجار الدائري في حديقتكم ليست الأولى من نوعها.. لقد رصدنا انفجارين مماثلين هذا الصباح.. ضوء أبيض ساطع صاحَب انفجارين غامضين، خلَّفا وراءهما قَطْعًا دائريًّا حادًّا في الأشجار المحيطة.. شهادات الشهود مختلفة

ومتضاربة.. لا يوجد جُناة ولا دوافع ولا أدلة». ثم صمت قليلًا وهو يحدِّق في عَينَيْ إسماعيل قبل أن يشير بيده تجاه ردهة الـڤيلّا ويستطرد في صرامة: «لا أدلَّة سوى تلك الجثة.. ولا دوافعَ سوى محاولة اختطاف ابنتك يا إسماعيل بك».

اتسعت عينا إسماعيل ذهولًا، وظل يحدِّق في وجه لوسكياڤو، في حين شرع عقله يربط الخيوط بعضها بعضًا، يربط زيارة «المؤرِّخ» وكلامه عن رسول المستقبل، وغيرها من الأمور والذكريات الشخصيَّة التي بدأت تتضح شيئًا فشيئًا.

- إسماعيل بك!

هتف به لوسكياڤو في صرامةٍ لينتزع إسماعيل من شروده، فأدار الأخير رأسه ببطءٍ في حين ظلَّ عقله شاردًا يُمَنطِق الأحداث ويربطها غير عابئٍ بالضابط الصارم الواقف أمامه. ظن الضابط الإنجليزي ذو الأصول الإيطالية أن إسماعيل قد شرد عقله جزعًا ورعبًا من حادثة تتخطى قدرته على الاحتمال، فتَنهَّد متفهمًا ثم أضاف بالصرامة ذاتها:

- كما أخبرتُك سنترك حراسة دائمة أمام الـڤيلّا.. ولا أحتاج أن أُذكِّرك بضرورة البقاء في الداخل حتى نتبيَّن الأمر ونحدد أبعاده كافة.. حفاظًا على سلامتكم وعلى أمن البلاد.

قالها ثم ترك إسماعيل وحيدًا بعد أن أمر بعض رجاله بنقل جثة القتيل إلى مدرسة الطب؛ ليقوم أطباء العلوم الطبية الشرعية بتشريحها وتحديد سبب الوفاة. ألقى لوسكياڤو نظرةَ أخيرةً مُتشكّكة على الـڤيلّا قبل أن يغادرها ومعه رجاله، وبعد أن أعطى أوامر صارمة لأربعة من عساكر الدَّرَك المصريين بالمكوث أمام الـڤيلّا يحرسون بوابتها ويراقبون سكانها.

***

000010

00:40 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن

بعد انقطاعٍ دامَ لثوانٍ معدودة، عاد صوت «فريدة» من جديدٍ يواصل شرح اكتشافاتها حول القفزات الزمنية. حاولت سارة الإنصات مجددًا وتأجيل هواجسها بشأن رقم «صفر» الغامض، حاولت التركيز في شرح «فريدة» علَّها تصل إلى تفسيرٍ يبدد هواجسها أو على الأقل يرفع الركام عن ذكرياتها المنسيَّة. فرفعت عينيها تحدِّق في الشاشة، وتتأمل في تركيزٍ مُصطنَع البيانات والرسومات رديئة الدقة المرافقة لشرح «فريدة»، التي أضافت:

- «مع الأسف، لم أستطع فكّ رموز حُزْمَة البصمة الزمنية

أو ما ترمز إليه حتى الآن وفقًا للخوارزميات المتاحة.. أعتقد أنها شفرة «كمِّية» معقدة تحتاج إلى المزيد من الوقت وقدرة معالجة بيانات قوية يتعذَّر توفيرها بأكملها في الوقت الحالي». صمتت للحظة، ثم أضافت: «أما الحُزْمَة الثالثة من الموجات، فمن المرجح أنها تمثل مسار الانتقال الزمني.. أي الإحداثيَّات الزمنيَّة، رقم يحدد «خط زمن» المغادرة وتاريخه، وآخَر يحدد «خط زمن» الوصول وتاريخه».

ضاقت عينا يحيى وهو يُمعن التفكير فيما اهتدت إليه «فريدة». همَّ أن يسألها حول تلك الإحداثيات إلا أنها أردفت بما جعله يهبُّ من جلسته واقفًا في لهفة، ويُهرع إلى الميكروفون العتيق يصرخ فيها موافقًا على عرضها، حيث فاجأته «فريدة» قائلةً:

- بتحليل الإحداثيات وربطها بالقفزات الزمنية وعدة معلومات أخرى، استطعت أن أخطَّ خريطة أوَّلية غير دقيقة لأفرع الزمن المتشعبة، في صورةٍ أقرب إلى «أفرُع الشجر» أو «نُدْفَة الثلج»، بحيث تكون نقطة التقاء الأفرع هي النقطة التي يتشعَّب فيها الزمن.. تاريخ تقريبي لحدثٍ ما عظيم أدى إلى تحوُّل مجرى الزمن وانشقاقه، وهي التَّوَاريخ المكتوبة باللون الأحمر.. هل تريد عرض الخريطة الزمنية وطباعتها رغم عدم دقتها؟

اختلطت أصوات ضربات قلوب ثلاثتهم، وتعالى صوت أنفاسهم اللاهثة في انتظار استجابة «فريدة» وعرض الخريطة الزمنية أو طباعتها. تناهى إلى مسامع يحيى صوتٌ أشبه بصوت طابعات الكمبيوتر في زمنه، فالتفت إلى مصدر الصوت، وهُرع في لهفةٍ ناحية تلك الطابعة العملاقة التي تماثل في حجمها مكتبًا صغيرًا. رفع حاجبيه في دهشة وهو يمسك بين يديه الورقة التي خرجت من الطابعة؛ فلم تكن ورقة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كان يمسك بورقة بلاستيكية شفافة، سميكة نوعًا، لكنها مرنة في الوقت ذاته. تزين ركنَها الأيمن شريحةٌ معدنيةٌ أشبه بشرائح الهواتف المحمولة في واقعه البعيد، وبجوارها أربعة مربعات صغيرة دَكْنَاء ومتلاصقة فيما يشبه خلايا الطاقة الشمسية. أما جزؤها السفلي فتستقر على طرفه دائرة صغيرة ذات لون أزرق باهت.

قلَّب الورقة البلاستيكية الفارغة بين يديه في دهشة، وأدار نظره بينها وبين سارة في تساؤل ولهفة، فابتسمت سارة ابتسامةً باهتةً وهي تشير بسَبَّابتها إلى أسفل الورقة حيث الدائرة الزرقاء الباهتة، قائلةً في هدوء:

- هذا «ورق ذكي» نستخدمه بدلًا من الورق الحقيقي؛ لأنه يحفظ كمًّا أكبر من البيانات في صورة تفاعلية تُسهِّل عرض

واسترجاع المعلومات.. الشريحة المعدنية عبارة عن مُعالِج بيانات وذاكرة مُدْمَجة.. قد يكون قديم الطراز نوعًا لكن جودته لا بأس بها.. اضغط الدائرة الزرقاء.

حدَّق فيها لوهلةٍ ليستوعب ما تقول، ثم ردَّ بصره من جديدٍ إلى «الورقة الذكية» كما وصفتها. ضغط بإبهامه الدائرة الباهتة، فتحول لون الورقة البلاستيكية تدريجيًّا إلى اللون الأبيض. ثم ظهرت عليها الخريطة التي رسمتها «فريدة»، شكل متشعِّب أقرب إلى «ندفة الثلج». ندفة برَّاقة ثلاثية الأبعاد بأفرع متشعبة تزداد طولًا وتفرُّعًا في الاتجاهات كافة. اتسعت عيناه في ذهول ثم أخذ يستخدم سبَّابته وإبهامه في تكبير الصورة وتصغيرها؛ أسوةً بالحواسب اللوحية والهواتف الذكية التي اعتاد عليها في زمنه. ضغط تلقائيًّا على أحد الأفرع، فبرز رقم مُغلَّظ يمثل إحداثية الفرع الزمني، وأسفله تاريخ تقريبي يوضح السنة التي انشقَّ فيها الفرع الزمني عن جذعه الأصلي، بالإضافة إلى عدد القفزات الزمنية التي تمت قبل التفرع.

تفحَّص يحيى الورقة في انبهار، وفخر، حيث أثبتت «فريدة» مرةً أخرى أن استنتاجاته الأوَّلية صحيحة، فرضية تفرع الزمن كالشجرة أو «ندفة الثلج» صحيحة هي الأخرى. ثم وقع بصره في أسفل الورقة على جملة «إبراء الذِّمَّة»

الشهيرة بخط رفيع تقول: «هذا رسم تقريبي غير دقيق من حيث عدد وتواريخ الأفرع المختلفة. يُستخدم على مسئوليتكم الخاصة». فابتسم في تهكُّم رغمًا عنه، ثم لوَّح بالورقة أمام الجميع، قائلًا في حماسةٍ لا تخلو من الخُيَلاء:

- أنا صَحّ.. «ندفة ثلج» ولَّا لأ يا متعلميـ.....

كاد أن يكمل جملته بـ «إفِّيه» سعيد صالح الشهير من مسرحية «مدرسة المشاغبين»، إلا أنه شعر بسخافته في مثل هذا الموقف، فبالإضافة إلى عدم معرفتهما بالدُّعابة وقِدَمها، فربما لم يصبح «سعيد صالح» ممثلًا من الأساس في هذا الخط الزمني. همَّ أن يسألهما عنه إلا أنه هز رأسه ينفض عنه تلك الخواطر السخيفة المتكررة الأقرب إلى الفنتازيا. أدار عينيه بينهما فلاحظ ابتسامة المجاملة الباردة ترتسم على وجه أيمن القَلِق، في حين هزت سارة رأسها وعلى وجهها ابتسامة واسعة قبل أن تسحبها سريعًا، وتسأل يحيى في اهتمام:

- يحيى، هل يمكن لشبكتك الافتراضية أن تنفذ كُودًا لخوارزمية معقدة دون الكشف عن مصدرها؟

رفع يحيى حاجبيه في دهشة، قبل أن يُجيبها في سرعة:

- بالتأكيد.. فيمَ تفكرين تحديدًا؟

أطرقت قليلًا، ثم ضاقت حَدَقتاها وهي تجيبه في جدِّية:

- «أعتقد أن جزءًا كبيرًا من حل اللغز يعتمد على تلك «البصمة الزمنية» المُشفَّرة.. نجاحنا في فك الشفرة هو مفتاح لبوابة أسرار لا نهائية». صمتت للحظةٍ وعقدت حاجبيها في تفكيرٍ ثم أضافت: «أثناء عملي في مجموعة «ألفا» أعددتُ خوارزمية كمِّية، لكن لم يُسمح لي بإنفاذها في ذلك الوقت لأنها تتعارض مع بروتوكولات «حجب الوعي» الوقائية، التي تمنع «فريدة» من بلوغ مرحلة إدراك الذات». صمتت مجددًا ثم تابعت بعد لحظةِ تفكيرٍ عميقة: «ولكن يمكننا تطبيق جزء يسير من تلك الخوارزمية لفك شفرة «البصمة الزمنية.. الخوارزمية هي إحدى خوارزميات فصل الأنماط وتصنيفها بطريقةٍ ذاتية، وتعتمد في أساسها على مصفوفات متعددة الأبعاد لوحدات أشبه بالخلايا العصبية المتصلة بـ.....».

قاطعها يحيى بعد أن اتَّسعت عيناه ذهولًا:

- «يا الله!! خوارزمية «مكعب التنظيم الذاتي العميق «Deep self-organizing cube» زاغت عيناه في عدم تصديق»، ثم واصَل هتافه الذاهل: «لقد أطلقتُ عليها في زمني DSOC اختصارًا.. إنها خوارزميتك الأشهر والأبرز على الإطلاق». صمت للحظةٍ يبحث عن الكلمات الملائمة،

قبل أن يضيف وقد غلب الحماس ذهوله السابق: «إنها مُصنَّفة في زمننا كإحدى خوارزميات الذكاء الاصطناعي من عائلة الشبكات العصبية العميقة (Deep Neural Networks)، شبكات مُكوَّنة من طبقاتٍ متتاليةٍ من الخلايا العصبية المتصلة، التي تعيد ترتيب نفسَها ذاتيًّا في طبقاتٍ ومصفوفات متعددة الأبعاد.. والمثير أن خوارزميتك تلك تربط الوحدات المتشعبة في الأبعاد والطبقات المختلفة بطريقة متماسكة ومتفردة، طريقة عظَّمت قدرة الخوارزمية في فصل وتصنيف الأنماط المعقدة في خطوة واحدة فقط، بدلًا من أسلوب التتابع المتسلسل الكلاسيكي». ثم هتف في انبهار: «حقيقةً تلك الخوارزمية تُعدُّ Piece of Art.. نقلة نوعية في تاريخ الخوارزميات والذكاء الاصطناعي».

جاء دور سارة كي تتسع عيناها عن آخرهما، قبل أن تهتف في ذهولٍ وقد اختلطت الأفكار في عقلها:

- كيف عرفت كل تلك التفاصيل؟! الخوارزمية لم تُنشر في أية دورية علمية

اتسعت ابتسامته وهو يهزُّ رأسه في سعادة، ثم أمسك مرفقيها في حنان، وثبت عينيه الدامعتين في عينيها مباشرةً، قبل أن يقول بنبرةٍ شكَّلتها مشاعر مختلطة من الحماس والشوق والشجن والفرح في آنٍ واحد:

- أنتِ هي، رانيا زوجتي.. لم أشُكَّ ولو للحظةٍ واحدة

اتسعت عيناها، خشعت الأصوات حولها، وخفق قلبُها في عنف؛ فنقل ذبذباته إلى شفتيها التي ارتعشت بدورها فعجزت عن الكلام وقد غاصت عيناها في عينيه.

لحظات دافئة مرت، تاهت فيها الكلمات، واتصلت القلوب بروابط عابرة للأزمنة.

تَنهَّد يحيى في حرارةٍ لينفضَ عنهما تلك المشاعر الجارفة، ثم عاد إلى ما كان من أمر الخوارزمية قائلًا في إعجاب:

- أنتِ أبرع مهندسة ذكاء اصطناعي رأيتُها في حياتي!

هزَّت سارة كتفيها بمعنى ربما، ثم تَنهَّدت وأطرقت في خجل، قبل أن تقول في حزم:

- لنبدأ؟

أومأ يحيى برأسه موافقًا، وفرك يديه ثم انكبَّ على لوحة المفاتيح الرئيسة في حماسةٍ يكتب كودًا برمجيًا معقدًا. دقائق وانتهى من غزوته البرمجية، فابتسم ونظر إليها في فخرٍ يخبرها بأنه أعد لتَوِّه كودًا برمجيًا عبقريًا سيعمل كغلاف يحتوي بداخله على الخوارزمية المطلوبة، ويؤدي دور حصان طروادة فيخترق الحصون متخفيًا حتى يدرك

النواة، ثم ينفذ الخوارزمية دون أي عوائق فنية. استمتع بنظرة الإعجاب في عينيها فاستطرد شارحًا لها طريقة استخدام الأدوات البسيطة التي أعدَّها لكي تقوم بكتابة كود الخوارزمية داخل «حصان طروادة»، وإطلاقها على الشبكة الافتراضية التي أعدها في طريقها إلى «النواة»؛ كي تقوم «فريدة» بعد ذلك بتطبيقها على «البصمة الزمنية» دون فضح هُويَّتهم أو موقعهم الجغرافي.. والأهم دون مضايقات من طبقات حماية النواة.

استمع أيمن في اهتمامٍ إلى حديثهما العلمي وإمكانيَّة فك رموز «البصمة الزمنية». اختلطت مشاعره، وتأرجحت أمنياته بين خوفٍ من فك الشفرة بما قد يؤدي إلى كشف أمره، وبين رجاءٍ في أن تكشف تلك البصمة مكان وزمان ابنته. فلزم الصمت.

انهمكت سارة في إعداد خوارزميَّتها الفائقة استعدادًا لإطلاقها وفَكِّ رموز وأنماط «البصمة الزمنية». تعالى صوت نقر أصابعها السريع على لوحات المفاتيح العتيقة، وَقْع موسيقا تتمايل معه آذان وقلوب المهووسين بالتكنولوچيا وعلوم البرمجة. وعلى أنغام النقرات الكلاسيكية، شرع يحيى يتأمل «الخريطة الزمنية» المعروضة على الشاشة الكبيرة، ويتفحَّص فروعها المتشعِّبة في انتظار انتهاء سارة

من مهمتها لحل الأُحجيَّة الزمنيَّة المعقدة.

مضت الدقائق تلوَ الدقائق حتى أطلقت سارة زفرةَ ارتياحٍ حارةً وهي تنقر بإصبعها زِرَّ الإدخال الأخير بصوته المميز؛ إعلانًا عن الانتهاء من إعداد الخوارزمية وإطلاقها في الشبكة الفضائية داخل «حصان طروادة»، وإيذانًا ببدء مرحلة فك رموز «البصمة الزمنية».. «حجر رشيد» السفر عبر الزمن.. الحجر الذي يحوي رموز الانتقال الزمني وأسراره.. حُزْمَة الموجات الكاشفة لأسرار الماضي والمستقبل معًا.

لم يَبْدُ على يحيى أنه انتبه إلى انتهاء سارة من مَهمَّتها، فقد ضاقت حَدَقتاهُ وهو يتفحَّص «الخريطة الزمنية» بمزيدٍ من التركيز، ثم اتسعت عيناه فجأة، وأسرع إلى الشاشة يشير بسَبَّابته إلى نقطة تلاقي العديد من الأفرع الرئيسة، قبل أن يهتف في حماس:

- معظم الأفرع الزمنية تشترك في كثافة الرحلات الزمنية إلى عام 1915! أيًّا كان تاريخ التفرُّع، الـ Traffic في عام 1915 كثيف للغاية.

أطرق مفكرًا للحظة ثم رفع رأسه ينظر إلى أيمن في لهفة، وهتف وقد تضاعَف الحماس في نبرته:

- إعلان الصحيفة الخاص بأيمن يعود إلى عام 1915،

زمن «نسيم سمعان» تفرَّع في ذلك العام تقريبًا إن لم تَخُنّي الذاكرة.. عدد القفزات إلى 1915 هائل». أدار بصره بين أيمن وسارة، قبل أن يثبِّت عينيه في عينيها ويستطرد في بطء مؤكدًا على مخارج ألفاظه: «الدلائل كافةً تشير إلى تلك النقطة من الزمن.. مفتاح السر والحل هناك يا سارة.. في عام 1915».

***

لمعت عينا أيمن عندما ذكر يحيى أمر 1915.. لقد أكَّد شكوكه، أكَّد أهمية الرحلة الزمنية التي قام بها في ذلك العام البعيد، تلك الرحلة التي حمل خلالها رسالتين.. أولاهما إلى جريدة «اللطائف المُصوَّرة»، ذلك الإعلان الهزلي الذي أقنعه بالانخراط في الأمر منذ البداية، هو صاحبه، هو من أرسل رسالة زمنية لنفسه منذ قرن مضى تحثُّه على لعبِ دورٍ في ذلك الصراع الزمني المرير علَّه يجد ابنته. الأيوبي أمره بذلك، وأعدَّ له الرحلة كاملةً ذهابًا وعودةً وحدد له هدفها.

أما الرسالة الثانية فكانت لعالم الرياضيات غريب الأطوار، ذلك العالِم الذي صُعق لرؤية أيمن يزوره في منزله، لا يزال يذكر كيف كان الخدم ينظرون إليه كأنهم رأوا شبحًا، لا يزال يذكر تعبيرات الذهول والرعب التي ارتسمت على وجه «إسماعيل الخازندار».. وما سِرُّ تلك المعادلات الرياضية

والصندوق المغلق اللذين سلمهما إلى إسماعيل؟! تلك المعادلات التي تفتح أبواب العلوم كما أبلغ الرسالة..

بل لماذا كانت التعليمات تفرض عليه تسليم الرسالة إلى إسماعيل في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً دون تأجيل أو تبكير؟!

أتكون تلك المعادلات هي بداية كل شيء، أم نهايته..؟

***

أما سارة فقد حدَّقَت في وجه يحيى للحظات، سرحت خلالها في تلك الاستنتاجات المنطقية، بالفعل الخريطة الزمنية المعروضة تشير إلى أن ثمَّة أمرًا ما غامضًا وقع في عام 1915، أمر ما أطلق شرارة تلك الأحجية الزمنية المعقدة التي لا تدرك أبعادها أو أهدافها. أطرقت قليلًا ثم أومأت برأسها في بطء علامة التفهُّم والموافقة، قبل أن تتسع عيناها؛ فلقد ذكَّرها اسم «نسيم» بأمر خالد ورحلته إلى القاهرة لاستجواب ذاك المسافر القديم. جزَّت على أسنانها في عتاب، فكيف أنْسَتْها تلك الأمور المتسارعة أمر خالد، فرحلته قد تكون في نفس درجة أهمية «فريدة» واكتشافاتها، فاختطفت هاتف «كوزموس» النقَّال تحاول الاتصال بخالد مجددًا، إلا أنه لم يُجِب على اتصالها مرةً أخرى. أطرقت سارة شاردةً وقد أقلقها غياب خالد طيلة تلك

المدة وانقطاع التَّواصل بينهما، أخذت تفكر في وسيلة أخرى للاطمئنان عليه حتى فاجأها يحيى وهو يهتف في ذهولٍ مَشوبٍ بالهلع:

- يا الله! يا الله!

أجفلت والتفتت إليه، فإذا به مُثبِّتًا ناظريه على «الخريطة الزمنية» ومشيرًا إلى نقطة تشعُّب زمني.. نقطة جديدة تفرع فيها الزمن إلى أكثر من ثلاثة أفرع.. نقطة حددت «فريدة» تاريخها بكل دقة لحداثتها..

دقَّقت سارة النظر في «الخريطة الزمنية»، تفحَّصت النقطة التي يشير إليها يحيى بأصابع مرتجفة.. فشهقت، شهقت حين أدركت ما ألمَّ بيحيى وفَطِن إليه، شهقت حين قرأت تاريخ التفرُّع الزمني، وأدركت مَوْطِن التفرُّع ومجراه الزمني..

6 ديسمبر 2019..

ذلك التاريخ الذي انتقل فيه يحيى إلى زمنها..

ذلك التاريخ الذي واجه فيه يحيى «فرسان الزمن» الذين حاولوا قتله وقتل أسرته..

لقد تفرَّع خَطُّ يحيى الزمني..

تفرع المجرى الزمني الذي جاء منه..

تفرَّع وتشعَّب إلى ثلاثةِ أفرعٍ زمنيةٍ منفصلةٍ على الأقل..

تحوَّل مجرى يحيى الزمني إلى شجرةٍ صغيرة..

إلى نُدْفَةِ ثلجٍ دقيقة..

تاه فيها يحيى وأسرته..

فحتى إن كانت عودته إلى زمنه ممكنة، فبأي مجرى زمني، أو «فرع»، تتواجد أسرته..؟

وكيف السبيل لإنقاذ أفرادها؟

لم يكن يدرك بعد أنه قد فقدهم بالفعل في معظم تلك الأفرع الزمنية..

لم يكن يدرك أنهم جميعًا ضحية «جريمة زمنية» عابرة للأبعاد..

لقد فشلت المحاولات السابقة كافةً لضمان مجرى زمني آمِن له ولأسرته معًا..

بل لم يكن يدرك أن نسخته الحالية هي النسخة الوحيدة الحيَّة للمهندس «يحيى عبد الحكيم المصري» في جميع الأفرع الزمنية والأكوان الكمِّية المتشعِّبة.

***

011010

7 ديسمبر 2019

5:10 فجرًا.. التجمع الخامس.. القاهرة الجديدة

«... الصلاة خيرٌ من النوم ... الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله».

انتهى مُؤذِّن المسجد الرئيس بكمبوند «لا مادروجادا» الراقي، على أطراف التجمُّع الخامس بالقاهرة الجديدة، من رفع أذان الفجر داعيًا المُصلِّين للاستعداد ثم التَّوافُد إلى المسجد من الـڤيلّات المحيطة. قطع القليل من المصلين الطرقات باتجاه المسجد يستنشقون هواء الفجر العليل الذي امتزج برائحةِ ما بعد المطر المحببة وأشجار الياسمين المنتشرة، وتعالَى صوت نعالهم تضرب الطرقات النظيفة المُبلَّلة بفعل أمطار الليلة السابقة قارسة البرودة. اختلط وقع الأقدام مع صوت مذيع إذاعة القرآن الكريم الرخيم يتلو الأدعية؛ استعدادًا لنقل شعائر صلاة الفجر من مسجد «السيدة نفيسة» بالقاهرة.

خفض «عماد» حارس الأمن الشاب صوت المذياع الصغير، وفرك يديه في عنفٍ ورفعهما إلى فمه ينفثُ فيهما بعض

الدفء، ثم رفع ياقة سُترته الزرقاء وخطا خارج كُشْك حراسته على مدخل المجموعة رقم «6»، التي تضمُّ أرقى ڤيلّات الكمبوند. تعالى مُواءُ قطّةٍ دعس قدمها في طريقه بفعل الارتباك الشديد، فردَّ عليها أحد كلاب الحراسة بالڤيلّا المجاورة بنُباحٍ قوي احتجاجًا، وإعلانًا عن بدءِ صباحٍ جديدٍ لا يبشر بالخير.

همهم عماد بسَبَابٍ وكلماتٍ غير مفهومة وهو ينضمُّ إلى زملائه الذي تعثر أحدهم وانزلق على الأرض فأُصيب بسحجات مؤلمة في كفِّ يده اليمنى، مُطلقًا تأوّهاتٍ خافتة. لم يلتفت عماد إلى زميله أو حتى يعاونه على النهوض، فقد انصبَّ تركيزه هو ورفاقه على رجال الشرطة المصرية، وقد فرضوا كردونًا أمنيًّا منذ عدة ساعات بمحيط ڤيلّا «المهندس يحيى المصري» يمنعون وصول الفضوليين.

- لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله...

بَسْملَة وحَوْقلَة، همهمات وصراخ، بكاء ولوعة تختلط بأصوات كفوف تضرب بعضها بعضًا؛ حسرةً ودهشةً وذهولًا من جريمة بشعة لم يَعْتَدها تجمعهم السكني الهادئ الآمن. تجمَّع جيران المهندس يحيى وعمال الكمبوند خلف سيارات الشرطة الجديدة الزرقاء، يشاهدون رجال المباحث وهم يعاينون مسرح الجريمة، بعضهم يجمع الأدلّة الجنائية

المختلفة، وآخرون يستجوبون شهود العيان.

أوقف العقيد «حسام الحلواني» سيارته، وترجَّل منها فاستقبله زميله ومساعده الرائد «علاء حنفي» بابتسامةٍ متوترةٍ قائلًا:

- حسام باشا.. صباح الخير.

تبادلا التحية، ثم أشعل حسام سيجارةً سحب منها نَفَسًا عميقًا، ونفثه في هدوءٍ وهو يتفقَّد المكان في سرعة، مستفسرًا عن الواقعة وإفادات الشهود، فأجابه علاء وهو يشير إلى جثَّة الرجل البدين الملقاة في الحديقة الأمامية للـڤيلَّا أسفل شرفة غرفة المعيشة بالطابق الثاني:

- خمس جثث سيادتك.. صاحب الـڤيلَّا وأربعة من الإرهابيين فوق.

نفث دخان سيجارته من جديد، ورمق الجثة بنظرة متفحِّصة وقد غطت ظهرهَا دماءٌ تدفَّقت عبر ما لا يقلُّ عن سبعة ثقوب في الظَّهْر والكَتِف، ثقوب عريضة غائرة تبدو ناجمةً عن طلقات نارية غير اعتيادية. ثم التفت إلى زميله قائلًا في هدوء مَنِ اعتاد تلك المواقف:

- ماذا قال الشهود؟ وما حكايةُ تلك الانفجارات؟

- «لا يوجد شهود من خارج الـڤـيلّا.. وزوجته منهارة وولداه في حالة صدمة، لكن....».

قطع علاء حديثه وهز رأسه في تردُّدٍ تعجَّب له حسام، فأشار إليه أن يكمل، قائلًا في صرامة:

- لكن ماذا يا علاء؟

هزَّ علاء رأسه، ومَطّ شفتيه ثم تَنهَّد في استسلامٍ قبل أن يُجيبه في تردد:

- رجال أمن الكمبوند سمعوا ثلاثة انفجارات، والثلاثة من داخل الـڤـيلّا وبينها ضرب نار شديد.. أعتقد أنه آليّ.....

صمت مجددًا ثم أضاف سريعًا في مزيدٍ من التردد وقد لمح علامات نفاد الصبر تلوح في وجه رئيسه:

- الموضوع به تفاصيل غير طبيعية يا حسام باشا.. آثار الانفجار غريبة جدًّا.. لم أرَ مثيلًا لها من قبل.. سيادتك يجب أن تتفحَّصها بنفسك.

ضاقت حَدَقتا حسام في اهتمام، ألقى بسيجارته أرضًا وأطفأها بحذائه، ثم أشار إلى زميله كي يتقدمه. دلفا إلى الـڤـيلّا، لمح الزوجة الملتاعة تجلس على إحدى الأرائك في ركنٍ قَصيٍّ من الـڤـيلّا، تدفن وجهها في كَفَّيْها ولا تكفُّ عن

البكاء، في حين جلس إلى جوارها طفلها الأكبر سِنًّا مُحدِّقًا في الفراغ، ويحتضن أخاه الأصغر الذي نام على حِجْره في مشهد درامي تئنُّ له القلوب.

تأمل المشهد الكئيب للحظة، مَطَّ شفتيه في أسى ثم قرر أن يعاين مسرح الجريمة أولًا. صعد حسام وعلاء معًا إلى الطابق العلوي. أزكمت أنوفَهم رائحةُ البارود المعروفة تختلط برائحة شياط حاد، أشبه برائحة الماس الكهربائي. رفع حسام حاجبيه في دهشةٍ وهو يعاين آثار الانفجار، هي بالفعل آثار لم يعهدها من قبل، فلم يلمح بقايا جدران مهدمة، وأرائك محطَّمة أو وسائد ممزَّقة، بل لدهشته كانت آثار الانفجار عبارة عن قَطْع حاد في أثاث المنزل، قَطْع نظيف على شكل دائري مع آثار احتراق واضحة على الأرضية الرخامية، ضاقت حَدَقتاهُ وقد لاحظ أن قِطَع الأثاث المقطوعة قد اختفت تمامًا كأنما تبخَّرت وذهبت أدراجَ الرياح.

رفع عينيه يتأمل المكان وآثار بعض الطلقات الغائرة تخترق جدران غرفة المعيشة، التي تحطمت محتوياتها، وغطى أرضيتَها زجاجُ النوافذ المهشَّمة. لم يلتفت إلى صوتِ تهشُّم قطع الزجاج المنتشرة وهو يخطو فوقها يدعسها بغير اكتراث، وقد تسمَّرت عيناه تتفحَّص أربعَ جثثٍ لرجالٍ مُتَّشحين بالسواد في زِيٍّ عسكريّ، يزينه رمز «ندفة الثلج»

السداسي أزرق اللون، وتغطي وجوههَم أقنعةٌ مضادةٌ للغازات ونظارات حديثة للرؤية الليلية.

تجنَّب بِرْكة الدماء الواسعة، جال ببصره في المكان، فلمح آثار انفجار مماثل للأول من حيث القَطْع الدائري الحاد النظيف في الأثاث، واختفاء الأجزاء المقطوعة بالإضافة إلى آثار الاحتراق الواضحة على الأرضية الرخامية والسجَّاد الذي يغطيها. تفحَّص أرضية المكان بحثًا عن الأسلحة التي استخدمها المهاجمون أو التي استُخدمت في قتلهم، فارتدَّ بصره خائبًا. فالتفت إلى علاء قائلًا:

- هل قتل بعضهم بعضًا؟

- لا أعتقد.. الطلقات أغلبها في الظهر.. من الواضح أنهم قد قُتلوا وهم يطاردون المهندس نحو الشرفة.

- أين السلاح إذًا؟

- لا يوجد له أدنى أثر سيادتك.. لا معهم ولا مع غيرهم.

- وماذا عن الكاميرات؟

أطرق علاء برأسه مفكرًا للحظاتٍ ينتقي فيها كلماته، ثم أجاب في بطء:

- الكاميرات الداخلية احترقت بعد الانفجار الأول. لكن .....

أطرَق مجددًا، فهتف حسام في نفادِ صبرٍ وهو يشير إلى الجثث:

- ما خطبُك يا علاء؟! ألا تنوي أن تكمل جملتين مُتَّصلتين؟

تلعثم علاء وهو يجيب في تردد:

- آسف يا أفندم.. الكاميرات الخارجية وكاميرات الجيران لم تلتقط أحدًا دخل الـڤـيلَّا أو خرج منها، سواء من الباب أو من فوق الأسوار.. ولكن، التقطت انفجارين متتابعين.. وبعد ذلك خُيالات لرجال يتشحون بالسواد في الدور الثاني للـڤـيلَّا يطلقون النيران على بعضهم، قبل أن يسقط المهندس من الشرفة.. وبعد ذلك حدث انفجار ثالث مماثل للانفجارين السابقين.. ثم عادت الـڤـيلَّا خاليةً إلا من أسرة المهندس وجثته وجثث الإرهابيين الأربعة.

ضاقت حَدَقتا حسام، وهو يتدبر كلام مُساعِده البعيد عن المنطق. ثم التفت إليه قائلًا:

- كيف دخل هؤلاء الإرهابيون الـڤـيلَّا؟

- لا أحد يعرف؟

قَطَّبَ حسام جبينه في استياءٍ وهو يواصل محاولاته الفاشلة للحصول على مزيدٍ من المعلومات الواضحة من

زميله المرتبك:

- وماذا عن زوجته.. هل قالت شيئًا مفيدًا؟

تردد للحظاتٍ قبل أن يقول:

- قالت إنها كانت في المطبخ الصغير في الطابق الثاني، وسمعت الانفجار والطلقات النارية، فأسرعت لتنقذ ولديها.. فسمعت الانفجار الثاني من خلفها.. رجل مُلثَّم اشتبك مع الإرهابيين الأربعة وقتلهم، ثم جمع الأسلحة و.....

صمت علاء وقد بلغ تردده مبلغه، فصرخ فيه حسام في غضبٍ بعد أن نَفِدَ صبرُه كليًّا:

- وماذا يا علاء؟ أكمل الجملة.. هل جمع الأسلحة واختفى؟ أكان عِفْرِيتًا؟

تطلَّع إليه علاء في شرودٍ للحظاتٍ كانت كفيلةً بتحويل غضب حسام إلى توتر عارم، ثم أجابه في بطءٍ مُشدِّدًا على مخارِج كلماته:

- بالضبط يا أفندم.. جمع الأسلحة واختفى.. اختفى تمامًا بعد الانفجار الثالث.

***

000001

7 ديسمبر 2019

5:10 فجرًا.. التجمع الخامس.. القاهرة الجديدة

«... الصلاةُ خيرٌ من النوم ... الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله».

انتهى مؤذن المسجد الرئيس بكمبوند «لا مادروجادا» الراقي من رفع أذان الفجر. قطع القليل من المصلين الطرقات باتجاه المسجد يستنشقون هواءً امتزجت فيه رائحة ما بعد المطر ورائحة أشجار الياسمين المنتشرة. تعالى صوتُ نعالهم تضرب الطرقات النظيفة المبلَّلة بعد ليلةٍ قارسة البرودة.

صوت مذيع إذاعة القرآن الكريم الرخيم يتلو الأدعية استعدادًا لنقل شعائر صلاة الفجر من مسجد «السيدة نفيسة» بالقاهرة.

خفض «عماد» حارس الأمن الشاب صوت المذياع الصغير، وفرك يديه في عنفٍ ورفعهما إلى فمه ينفثُ فيهما بعض الدفء، ثم رفع ياقة سُترته الزرقاء وخَطَا خارج كشك حراسته.

تعالى مُواءُ قطةٍ دعس قدمها في طريقه بفعل الارتباك الشديد..

رد عليها كلبُ حراسةٍ بنُباحٍ قوي معلنًا عن بدءِ صباحٍ جديدٍ يختلف عن سابقيه..

همهم عماد بسَبابٍ وكلماتٍ غير مفهومة..

تعثر أحد زملائه وانزلق على الأرض فأُصيب بسحجات مؤلمة في كفِّ يده اليمنى، مطلقًا تأوُّهات خافتة.

رجال الشرطة المصرية يفرضون كردونًا أمنيًّا منذ عدة ساعات بمحيط ڤيلّا «المهندس يحيى المصري» يمنع وصول الفضوليين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

بَسْملَة وحَوْقلَة، تختلط بأصواتِ كفوفٍ تضرب بعضها بعضًا؛ ذهولًا من جريمة غامضة لم يَعْتَدها تجمُّعهم السكني الهادئ الآمن.

تجمَّع جيران المهندس يحيى وعمال الكمبوند خلف سيارات الشرطة الجديدة الزرقاء..

رجال المباحث يعاينون مسرح الجريمة، بعضهم يجمع الأدلة الجنائية المختلفة، وآخرون يستجوبون شهود العَيَان.

أوقف العقيد «حسام الحلواني» سيارته، وترجَّل منها فاستقبله زميله ومساعده الرائد «علاء حنفي» بابتسامةٍ

متوترة قائلًا:

- حسام باشا.. صباح الخير.

تبادلا التحية، ثم أشعل حسام سيجارةً سحب منها نَفَسًا عميقًا، ونفثه في هدوءٍ وهو يتفقَّد المكان في سرعة، مستفسرًا عن الواقعة وإفادات الشهود، فأجابه علاء في توتر وهو يشير إلى قطراتِ دماءٍ كثيفة في الحديقة الأمامية للـقيـلَّا أسفل شرفة غرفة المعيشة بالطابق الثاني:

- ولا جثة سيادتك.. الكثير من الدماء فقط.

رفع حسام حاجبيه في دهشة، ثم نفث دخان سيجارته من جديد. أطال التحديق في قطرات الدماء، ثم رفع عينيه إلى أعلى يتفقَّد الشرفة، قبل أن يلتفت إلى علاء قائلًا في اقتضاب:

- ماذا قال الشهود؟ وما حكايةُ تلك الانفجارات؟

- لم يرَ أحدٌ أي شيءٍ يُذكر.. الجيران عن اليمين قد سافروا منذ عدة أشهر، ومَن على الجهة المقابلة كانوا في مناسبة عائلية خارج المنزل، لكن.....

قطع علاء حديثه وهزَّ رأسه في تردُّدٍ تعجَّب له حسام، فأشار إليه أن يكمل، قائلًا في صرامة:

- لكن ماذا يا علاء؟

هزَّ علاء رأسه، ومَطّ شفتيه ثم تَنهَّد في استسلامٍ قبل أن يجيبه في تردد:

- رجال أمن الكمبوند سمعوا ستة انفجارات متتالية، كلها من داخل الـڤـيلّا وبينها ضرب نار شديد.. أعتقد أنه آليّ.....

هتف حسام في عصبية:

- أين الجثث إذًا؟ وأين هؤلاء الذين أطلقوا النيران؟ تبخّروا؟

أجابه علاء في تردد:

- لا أعلم حقًّا.. الموضوع به تفاصيل غير طبيعية يا حسام باشا.. آثار الانفجارات غريبة جدًّا.. لم أرَ مثيلًا لها من قبل.. سيادتك يجب أن تتفحّصها بنفسك.

ألقى حسام بسيجارته أرضًا وأطفأها بحذائه..

دلفا إلى الـڤـيلّا، وصعدا إلى طابقها العلوي..

رائحة البارود المعروفة والشياط الحاد الأشبه برائحة الماس الكهربائي تزكم الأنوف..

آثار الانفجار عبارة عن قَطْع حاد في أثاث المنزل، قطع

نظيف على شكل دائري مع آثار احتراق واضحة على الأرضية الرخامية.. القطع الدائرية المقطوعة اختفت وتبخَّرت.

آثار طلقات غائرة تخترقُ جدرانَ غرفة المعيشة، التي تحطَّمت محتوياتها، وغطى أرضيتَها زجاجُ النوافذ المهشمة..

لم يلتفت إلى صوتِ تهشُّم قطَع الزجاج المنتشرة وهو يخطو فوقها يدعسها بغير اكتراث، وقد تسمَّرت عيناه تتفحَّص بقع الدماء المنتشرة دون جثث. لاحظ وجود آثار انفجارات مشابهة داخل غرفة المعيشة وفي شرفتها. فالتفت إلى علاء قائلًا في توتر:

- وماذا عن الكاميرات؟

أطرق علاء برأسه مفكرًا للحظاتٍ ينتقي فيها كلماته، ثم أجاب في بطء:

- الكاميرات الداخلية التقطت انفجارًا خارج غرفة المعيشة.. ضوء شديد وبعد ذلك احترقت الكاميرات، لكن .....

أطرق مجددًا في ارتباك، فهتف حسام في نفادِ صبر:

- ما خطبُك يا علاء؟! ألا تنوي أن تكمل جملتين متصلتين؟

ألبِسَك عِفْرِيت؟!

حدَّق علاء في وجهه للحظاتٍ طالت، ثم أجابه في تردد:

- أظن ذلك سيادتك.. فالمكان كان خاليًا تمامًا قبل وبعد الحادثة. أطرق قليلًا ثم أضاف: «الكاميرات الخارجية وكاميرات الجيران لم تلتقط أحدًا دخل الـڤـيلّا أو خرج منها، سواء من الباب أو من فوق الأسوار.. ولكن، التقطت خُيالاتٍ لرجالٍ يتَّشحون بالسواد في الدور الثاني للـڤـيلّا ويطلقون النيران من أسلحة آليَّة، قبل أن يسقط المهندس من الشرفة وتخرج جثته من نطاق الكاميرات.. وبعد ذلك حدثت عدة انفجارات متتالية أولها كان في الشرفة، فاحترقت كاميرات الجيران هي الأخرى.. ثم عادت الـڤـيلّا خالية تمامًا».

صمت مجددًا، ثم أضاف في بطءٍ مُشدِّدًا على مخارج كلماته:

- باختصار يا أفندم.. الجُناة والضحايا قد اختفوا داخل الـڤـيلّا.

***

000010

01:30 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن

هام يحيى على وجهه في متاهةٍ من اليأس والتخبُّط لا نهاية لها، متاهة مُتشعِّبة كتشعُّب مجراه الزمني، كادت الدموع أن تفرَّ من عينيه وهو يحدِّق في «الخريطة الزمنية» يراقب في يأسٍ مجراه الزمني الذي تشعب إلى أفرعٍ عديدةٍ في ذلك اليوم المشئوم. كان يدرك أن تفرُّع المجرى الزمني يقلل من فرص العثور على أسرته، ولَمِّ الشمل من جديد.

غاب يحيى في متاهته حتى إنه لم ينتبه في أول الأمر لصوت «فريدة» وهي تعلن عن نجاح «حصان طروادة»، الذي أعدَّه، في اختراق حصونها المنيعة، وبلوغ نواتها وتطبيق خوارزمية سارة الكمِّية الفعَّالة، بل ونجاحها في فَكِّ رموز «البصمة الزمنية» العَصيَّة. البصمة الزمنية التي قد تحوي أسرار الانتقال الزمني والسفر عبر أكوان وأزمنة متشعبة، تلك البصمة قد استسلمت لخوارزمية سارة الكمِّية ذات القدرة التحليلية الفائقة.

تَنهَّدت سارة في ارتياح، وعلَتْ وجهَها ابتسامةٌ خافتةٌ لنجاح خوارزميتها في تطبيقها الأول، قبل أن تخبو الابتسامة سريعًا حين لمحت نظرات يحيى الشاردة. مطَّت شفتيها في أسى قبل أن تسحبها «فريدة» عنوةً، قبل أن تسقط في متاهة مآسي يحيى اللانهائية، حين بدأت الأخيرة في طرح فرضيَّتها الخاصة بالبصمة الزمنية، من حيث

طبيعتها ودلالاتها، استنادًا إلى العمليات الحسابية المعقدة التي أجرتها باستخدام الخوارزمية، حيث قالت «فريدة» بصوتٍ هادئِ النبرات:

- البصمة الزمنية الزمنية تحمل في طيَّاتِها ثلاث معلومات رئيسة تمكنت من فك شفرتها بعد تطبيق الخوارزمية الكمِّية الأخيرة.. أولًا: البصمة الجينية للمسافر، والتي تُعدُّ خريطةً مجردةً لحَمْضِه النووي، ثانيًا: رقم مرجعي يربط المسافر بخط زمنه الأصلي، وإحداثيات «البوَّابة الزمنية» التي نقلته، حيث توجد بوابتان زمنيتان تختلفان في التقنية والبصمة الزمنية، ثالثًا: رقم مرجعي مجهول، أُرجِّح أنه يربط المسافر بشجرة عائلته الأصلية، ولكن لا يمكنني تأكيد أو نفي تلك الفرضية لعدم وجود بيانات مُعرَّفة كافية.

انتبه يحيى إلى آخر جمل «فريدة» حين صرخ عقله ليوقظ خلاياه اليائسة: «رَبَّاه! لا يزال هناك أمل!».. فالتفت وفغرَ فَاهُ ذهولًا وهو يسترجع كلمات «فريدة»، ثم ما لبث أن فاض الذهول من نبراته وهو يسألها في لهفة:

- أيمكننا معرفة هُويَّة المسافرين الزمنيين؟! ومن أين جاءوا وإلى أين ذهبوا؟ أيُمكنك عرض أسماء المسافرين أو حتى صورهم؟!

هبطت كلمات «فريدة» وتساؤل يحيى حول «البصمة

الزمنية» على أيمن كوَابلٍ من وَحْلٍ سميك، فقد كان غارقًا هو الآخر في متاهةٍ وعرةٍ تغوص به في مستنقع من الخوف والترقُّب. فهوى قلب أيمن بين قدميه عند تلك النقطة، لقد أصبحا قابَ قَوْسَين أو أدنى من أن يكشفا أمره.. أن يدركا أنه أحد المسافرين الزمنيين.. ليس هو وحده.. بل هو وأسرته.. فقط هو يختلف عن يحيى ونسيم في أن سفره عبر الزمن لم يكن وليد الصدفة، بل كان يدرك ما يفعله جيدًا ولماذا.. لكنه فعله مضطرًا.. فعله لاستعادة ابنته.. وبخلاف يحيى، هو ابن هذا الخط الزمني أبًا عن جد، أو هكذا يظن.. لقد انخرط في تلك الحرب الشعواء رغمًا عنه منذ شهر واحد فقط، منذ أن علم بما حدث لزوجته «تانيا»، وابنتهما.. منذ أن أدرك أن استعادة ابنته ممكنة.

تعالى وقع دقات قلبه، شحذ تفكيره بشدَّة ليحدد خطواته المقبلة. هو طبيب قبل كل شيء ليس مقاتلًا متمرِّسًا مثل سارة.. أو مثل زوجته الراحلة ألمانية الأصل «تانيا» الصهباء الجميلة.. ونظرًا لنحافته الشديدة وجسده الهزيل، فالالتحام البدني ليس في صالحه بكل تأكيد.. أطرق مفكرًا للحظة، فرغم أن «فريدة» قد تكشف هُويَّته كمسافرٍ زمنيٍّ له دخل بصورة أو بأخرى بما وقع مؤخرًا، فإنها قد تكشف مكان ابنته كذلك، أخيرًا قد يدرك موقعها الزمني دون انتظار أن يفي «المؤرخ» بوعده.. هو لا يضمن ردَّة فعل سارة تحديدًا

تجاهه، لكن الأمر يستحق الانتظار.. ابنته تستحق المخاطرة.. فليعلم أين هي أولًا ثم يتخذ الخطوة المناسبة بعد ذلك.

أجابت «فريدة» على سؤال يحيى، بأن بدأت الشاشة الرئيسة في عرض تواريخ القفزات الزمنية، يرافق بعضها أسماء ثُلاثيَّة أو رقم مُتفرِّد طويل. تناهى إلى مسامعهم صوت طابَعة الأوراق الذكية وهي تطبع البيانات والمعلومات المعروضة، فيما علا صوت طابعة أخرى عتيقة الطراز تطبع بعض الصور الفوتوغرافية بدِقَّة متوسطة، وخالية من الألوان الطبيعية. ثم جاء صوت «فريدة» معلقًا:

- بالطبع. أستطيع تحديد أسماء المسافرين الزمنيين إذا كانت بصمتهم الـجـينية مسجلة في قاعدة البيانات المركزية للحَمْض النووي في لندن، وهذا في الأغلب يصلح للمسافرين من عالمنا، بالإضافة إلى مَنْ تم تسجيل حمضهم النووي في القاعدة بعد دخولهم أحد المستشفيات، مثل يحيى المصري ونسيم سمعان.

كانت سارة تطالع باهتمام أسماء المسافرين الزمنيين ممَّن كشفتهم «فريدة»، علَّها تتعرف على شخص المسافر الزمني ذي البصمة الزمنية الصفرية، حتى إنها لم تسمع «فريدة» وهي تتابع:

- قمت بطباعة صور المسافرين المسجلين في قواعد

البيانات المركزية، أما الآخرون فقمت بطباعة صورهم بهيئة رَقَميَّة تقريبيَّة غير دقيقة استنادًا إلى معلوماتهم الـچـينية.

هُرِع يحيى إلى ماكينة طباعة الصور، يتفحَّص الصور المطبوعة، كان جميعها بالأبيض والأسود ودقتها متوسطة أشبه بصور البطاقة الشخصية في ستينيات القرن العشرين. وجد صورته بثوب المستشفى، والتي يبدو أنها أُخذت له في المستشفى العسكري بعد أن استيقظ من غيبوبته وعرَّف شخصيته. قلَّب الصور بين يديه يتأمل الأرقام الثلاثمائة المطبوعة على ظهرها والتي تمثل «البصمة الزمنية» للمسافر.. كَمْ هي دقيقة «فريدة»، ابنته الشرعية، أو حفيدته إن أردنا الدقة، اهتمام لافت بالتفاصيل كافة تمامًا كما صمَّمها أو صمَّم أباها الأصلي، «كليبيوس». نفض عنه خواطره الخاطفة، ورفع بعض الصور غير الفوتوغرافية يتفحَّصها، تلك التي أعدتها «فريدة» استنادًا إلى المعلومات الـچـينية المتاحة لديها من تحليل البصمة الزمنية. كانت صور مرسومة بتقنية ترميم الوجوه الرقمية، لتكون وجوه مسافري الزمن أشبه بوجوه لاعبي الكرة في لعبة FIFA الشهيرة على منصات Playstation وXBox وما يماثلهما.

لم يلحظ يحيى حركات أيمن المريبة، أو نظراته الخاطفة، لم يلحظ كيف يرمقه شَزْرًا بين الحين والآخر وهو يتفحَّص

الصور المطبوعة. تحسس أيمن جيب معطفه الأيسر في حذر، ثم عاد يحدِّق إلى الشاشة في اهتمام يتابع الأسماء المتتابعة علَّه يعثر على ابنته.. لكنه لمح اسمه هو إلى جوار رحلته الزمنية الوحيدة التي قام بها ليوم واحد فقط، بل عدة ساعات، التقى خلالها مع مُحرِّري «اللطائف المصورة» لنشر الإعلان الزمني، وبعدها التقى مع «إسماعيل الخازندار» في قيلَّته ليسلمه رسالة «المؤرخ».

رمق سارة بنظرة جانبيه ثم تَنهَّد عندما فَطِن أنها لم تلمح اسمه لحُسْن حظه رغم تركيزها الواضح.

قَطَّبَ جبينه وجزَّ على أسنانه في استياء، لماذا لا يقرأ اسم ابنته؟ أين هي؟

ثم اتسعت عيناه ذهولًا عندما لاحظ أن اسمه قد تكرر مرة أخرى..

رحلة أخرى إلى العام ذاته.. 1915..

ولكن كيف ذلك؟ لقد قام برحلة زمنية واحدة فقط إلى الماضي..

فماذا تكون تلك الرحلة؟ إنه لا يتذكَّر قيامه برحلة أخرى..

هو لم يفقد الذاكرة من قبل حتى ولو لفترة وجيزة بكل

تأكيد.. أم أن المخدِّرات التي يتناولها في ملهى نسيم الليلي، «كاريبينيو»، قد أثرت على ذاكرته؟

أتراه يعاني نوباتِ تعتيم الذاكرة (Memory Blackouts)؟ هل سافر إلى الماضي خلال إحدى تلك النوبات؟ أم...

أم أن تلك البصمة الزمنية هي لرحلة مستقبلية هو على وشك القيام بها؟

رَبَّاه!! أوَجدَ ابنته وقفز إلى الماضي لينقذها من خاطفيها؟!

تلك البصمة الزمنية تؤكد ذلك..

أكانت هي تلك الطفلة الصغيرة في ڤيلّا إسماعيل؟

هي في نفس عمر ابنته بكل تأكيد..

تبًّا! لقد كانت أمام عينيه منذ البداية.. أكانت هي؟ لماذا لم يُدقِّق في ملامحها؟

تبًّا لكَ يا أيمن، كيف لم تشعر بابنتك وقد كانت إلى جوارك؟

لكنه يتذكَّر خفقان قلبه..

لقد انتابه شعورٌ غير مُبرَّر بقرب ابنته..

نعم.. يكاد يُقسم على ذلك..

ليست مبالغةً منه، أو حتى إحدى ألاعيب العقل..

لقد فهم ذلك الشعور الآن..

لقد كانت هناك.. داخل الـڤـيلّا.. إلى جواره.

***

أما سارة فقد هامت على وجهها في متاهةٍ أشد ظلامًا وبرودة.. متاهة الرقم صفر.. ذكريات تتداعى أمام عينيها وفي أذنيها بلا توقف.. أحاديث أمها الهامسة وهي صغيرة بين النوم واليقظة.. كانت تداعب خصلاتها الناعمة وتهمس في أذنيها.. رَبَّاه!! ماذا كانت تقول؟!

- «مَنْ هو المسافر صاحب البصمة الزمنية الصِّفْريَّة، من هو «المسافر صفر» يا فريدة؟».

قالها أيمن في توترٍ ملهوفٍ حين جذب اهتمامه ذلك المسافر ذو الأرقام الصفرية، لا بصمة زمنية، ولا رقم مرجعي، ولا إحداثيَّات، فقط الرقم صفر في الخانات كافة، وثلاثة تواريخ متداخلة، تدور حول العام 1915 من جديد.. العام الذي يسبق التفرعات الزمنية كافةً والنقطة المشتركة بين الأزمنة المتشعبة كافة.. العام الذي يمكن أن تكون فيه ابنته.

فغر يحيى فَاهُ ذهولًا، ففي اللحظة ذاتها التي أطلق فيها أيمن سؤاله كان الأول يمسك بين يديه صورةً رقميَّةً تخيُّليَّة من صنع «فريدة».. صورة تعبيرية لأنثى على ما يبدو.. أنثى ذات وجه مُشوَّش غير واضح.. صورة أبيض وأسود ذات جودة رديئة.. يحتلُّ ظهرَها رقم واحد فقط.. الرقم «صفر».

- «إنه أنا!»

هتفت بها سارة في ذهولٍ وانكسار، لقد تذكَّرت الآن كلمات والدتها عندما كانت تستطيع أن تحرك شفتيها.. كلمات كانت مدفونةً في غياهب النسيان ثم انشقَّت عنها تلافيف مُخِّها لتبرز مع تلك الأحداث المتلاحقة..

شعرت بالوَهَن.. عجزت ساقاها عن حملها.. فجلست على الأرض الحجرية وقد زاغت عيناها وهي تتذكَّر كلماتِ أمِّها وتتلقَّاها كسهامٍ مارقةٍ تصيب عقلها وفؤادها:

«أنتِ الصفر.. صفر البداية وصفر النهاية..»

«أنتِ الأصل.. الصفر المطلق الذي يبحث عنه الجميع..».

«تذكَّري ذلك جيدًا.. الجميع يبحث عنك..».

«كوني حذرة دائمًا وأبدًا».

اتسعت العيون ذهولًا في عدم استيعاب، وهمَّ يحيى أن

يعلق لولا أن دوى فجأةً، ودون مُقدِّمات، طنينٌ عالٍ متصل يصمُّ الآذان. ثم مادت الأرض تحت أقدامهم باهتزازات متواصلة، قبل أن تدوي فرقعة عالية ارتجَّ لها المخبأ الحجري؛ فتطايرت الأتربة تغطي سماء البهو، وتزكم الأنوف برائحةٍ اختلطت فيها الأتربة برائحةِ احتراقٍ أشبه برائحة الشياط الناجم عن ماس كهربائي..

دوَّت الفرقعة من طرف البهو الأيسر عند الباب الفولاذي المصمت العَصيّ على الفتح، ذلك الباب المقابل لمدخل المرأب الأسطوري، ذلك الباب الذي حاولت سارة ومن قبلها خالد فتحَه أو البحث عن مقبضه دون جدوى..

استمرت الاهتزازات لحظاتٍ قليلةً كانت كفيلةً بأن يسقط يحيى أرضًا وتتطاير صور المسافرين الزمنيين من بين يديه، لتغطي الأرض الحجرية. فيما حاول أيمن الاستناد إلى طاولةٍ صغيرةٍ إلى جواره فانقلبت وسقط معها أرضًا لتنسكب فوقه أكواب الشاي الثلاثة والطعام الذي أعده مسبقًا، قبل أن ينزلق المسدس المتطوِّر الذي كان يخفيه في جيب معطفه بعيدًا ويستقر أسفل أحد المقاعد.

لحظات وتوقفت الاهتزازات الفُجائيَّة.

وبحكم تدريبها الرفيع كانت سارة أول من سيطر على مشاعره وتجاوز ذهوله، بل نَحّت مشاعرها المتضاربة حول

حقيقتها جانبًا، وهُرعت في لهفةٍ إلى يحيى تتفقَّد إصاباته التي لم تُشفَ كليًّا بعد. حاولت سارة رفع جسده البدين لتساعده على الوقوف، لكنها فشلت، فتأوَّه يحيى في ألمٍ واضعًا كَفَّيْه خلف ظهره ممسكًا بموطن إصاباته وعملياته الدقيقة، ثم تهدَّج صدره في عنف وهو يسألها في ألم: «ما هذا؟! زلزال؟!».

أومأت سارة برأسها نافيةً، وأرهفت السمع حتى توقف الطنين. عقدت حاجبيها في شدةٍ ثم نهضت تخطو في حذرٍ تجاه الباب المصمت وتتحسَّسه في دهشة. أمعنت النظر في جوانبه علَّها تجد شقًّا أو مقبضًا أو أي وسيلة لفتحة. ارتدَّ بصرها خائبًا فجزَّت على أسنانها في غيظ. راقبها يحيى في قلقٍ ثم أردف في توترٍ وهو يجمع صور المسافرين الزمنيين دون تركيز:

- ما هذا الباب؟ وماذا يخفي ور....

قطع سؤاله في ذهول وهو يحدِّق في صورةٍ فوتوغرافيةٍ ملقاةٍ إلى جواره، بينما تجاهلته سارة وهي تحدِّق في أيمن الذي تقدم زاحفًا باتجاه أحد المقاعد الذي استقر أسفله ذلك المسدس الذي سقط منه. انطلقت تجاهه في وَثَباتٍ سريعةٍ لتركل يدَه قبل أن تصل إلى المسدس، في اللحظةِ ذاتها التي تابعت عينا يحيى الذاهلة وَثَباتِ سارة وكأنها

بالحركة البطيئة، فغمغم في ذهول وهو يمسك صورة أيمن الفوتوغرافية بين يديه:

- د. أيمن مسافر زمني!!!

ثم هَبَّ إليه متناسيًا آلامه، وأمسكه من تلابيبه في عنف، قبل أن يصرخ في وجهه بغضبٍ هادر: «كنت تعلم كُلَّ شيء منذ البداية؟! أنت وراء كل هذه المصائب يا بْنَ الـ.....».

قاطعته «فريدة» وقد عادت لتَوِّها بإجابة سؤال أيمن الأخير حول المسافر «صفر»، فأدار ثلاثتهم رؤوسهم تجاه الشاشة البعيدة في حركةٍ لا إرادية ينصتون إلى «فريدة». فلدى كل منهم أسبابٌ تجعل من معرفة هوية المسافر الصفري أولوية قصوى، تتعدَّى أزمة اللحظة الراهنة، فجاء صوتها هادئًا مستفزًّا وهي تقول:

- البصمة الزمنية الصفرية.. هي بصمة لمسافر زمني مجهول.. نمط الموجات ومعدل تغير الترددات تتداخل بشكل كلي، فينتج عنها معادلة صفرية بعد تطبيق جميع الخوارزميّات ذات الصلة.. البصمة الـجـينية صفر، رقم الخط الزمني المرجعي صفر، المرجعية العائلية صفر.. حتى الإحداثيات المكانية صفرية هي الأخرى.. الأرقام كافةً متداخلة ومعكوسة كانعكاس في مرآة.. المعلومة الوحيدة المتاحة هي أن «المسافر الصفري» قام بثلاث رحلات زمنية

على الأقل، اثنتان منها في عام 1915. بالإضافة إلى أن المسافر هو في الأغلب أنثى؛ لأن الإناث يحتَلِلْنَ تلك المنطقة من المكعب متعدد الأبعاد للبصمة الزمنية.

ضاقت حدقات عيون ثلاثتهم في اللحظة ذاتها، سارة الواقفة تثبت يد أيمن بقدمها، ويحيى الراقد فوق أيمن ممسكًا بتلابيبه، والأخير الذي تجاهل بدوره آلام يده وأنفاس يحيى الغاضبة التي تلفح وجهه. تجاهل ثلاثتهم الوضع الغريب وأبقوا أعينهم مُحدِّقةً في الشاشة السوداء الفارغة، ينصتون في اهتمامٍ وتركيزٍ شديدين إلى «فريدة» التي تابعت:

- المُرجَّح أنه قد تم تشفير وسيلة الانتقال الزمني الخاصة بها لحماية هُويَّتها.. وبتحليل أنماط القفزات الزمنية الأخرى بشكلٍ عامٍّ من حيث الفروع الزمنية وتاريخ القفزات، فيبدو أنها كانت تتمحور بشكل أو بآخر حول المسافر صفر.. أي أنه هو «الأصل».. أصل الأمر منذ بدايته، وإلى نهايته على ما يبدو....

امتقع وجه سارة في خوفٍ من جملة فريدة الأخيرة، فيما حدَّق كُلٌّ من يحيى وأيمن في وجهها في ذهول.

تَقطَّع صوت «فريدة» للحظةٍ بفعل ضعف الاتصال قبل أن تضيف:

- تم طبع كُلّ المعلومات المتاحة حول «المسافر صفر» قبل قليل. و........

قطعت «فريدة» جملتها فجأة، بإرادتها هذه المرة حين ظهرت دوائر ملونة متداخلة على الشاشة السوداء، ومعلومات حول ثلاث قفزات زمنية.. قفزتان تحملان البصمة الزمنية المعتادة ذات الثلاثمائة رقم، بينما تحمل الثالثة بصمةً قصيرةً للغاية يتذبذب طولها بصورة مستمرة بين رقم واحد وثلاثة أرقام.. ارتفع صوت طابعة الصور حين استطردت «فريدة» قائلة:

- تم رصد قفزة زمنية جديدة قامت بها أسرة بأكملها منذ دقائق قليلة.. قفزة إلى العام 1915.. قمت بطباعة صورة مُجمَّعة حديثة للأسرة مسجلة في قاعدة البيانات الفضائية.

قفزت سارة إلى الطابعة تنتزع الصورة في لهفة..

ثم فغرت فاها في ذهولٍ وهي تحدّق في الصورة في عدم تصديق..

فيما اتسعت عيون يحيى وأيمن عن آخرها وهما يقرآن أسماء أفراد الأسرة التي غادرت زمنهم لتوِّها..

أسرة تتكوَّن من رجلٍ وامرأةٍ وابنتهما الرضيعة..

***

000001

17 ديسمبر 2015

3:00 بعد منتصف الليل.. الإسماعيلية

أربعة أيام مرت منذ أن عمل شريف بنصيحة الفتاة الصهباء وتوقف عن تناول أقراص الدواء الزرقاء. مناورات مُضنيَة سلكها كي يخدع طاقَم التمريض الصارم، ويقنعهم بتناوله أقراص الدواء جميعها قبل أن يتخلص من الأقراص المشبوهة في المرحاض، وبصورةٍ سرِّيةٍ تحسُّبًا لوجود كاميرات مراقبة مخفيَّة أو ما شابه.

أربعة أيام شعر خلالها أن ذهنه أصبح أكثر صفاءً، وإن كانت تداهمه بين الحين والآخر نوباتُ صداعٍ شديدة، قاومها بشدة وحاول إخفاءها لعدم إثارة ريبة عادل وطاقمه المطيع.

ولكن، صاحبَ تلك النوباتِ نوباتٌ أخرى، نوبات استعادته للذاكرة..

لقطات متفرقة غير مرتَّبة تلمع في ذاكرته بين الفَيْنةِ والأخرى..

لم يداعب النوم جفونه في تلك الليلة، مطارق الذكريات تضرب رأسه في عنفٍ أشد وطأةً من نوبات الصداع المتصاعدة. لقد أدرك طبيعة تلك الأقراص الزرقاء، هو ليس طبيبًا، ولكنها بالتأكيد أقراص تُغَيِّب ذاكرته وتُبقيه على تلك الحالة المشوَّشة التي استيقظ عليها في يومه الأخير في ذلك الزمن الغريب.

لقد أصبح يرى وجهَي عادل ومايا في أحلامه وكوابيسه كافةً على حَدٍّ سواء.. كوابيس عاصفة هائجة تحاصره وتبتلعه بداخلها، فلا يلمح فيها أطواقًا للنجاة سوى وجهها، وجه تلك الفتاة الصهباء.. اعتصر عقلَه مرارًا وتكرارًا علَّه يتذكَّرها أو يتذكر أين التقاها، أو على الأقل يدرك أيجب عليه أن يأمَن لها أم يخشاها.

لكنه حسم أمره فيما يخص عادل.. مشاهد الذكريات المتفرقة تخبره أنه كان السبب وراء فقدانه للذاكرة في 1984.. ولكن كيف؟ ولماذا؟ أكان يستجوبه بخصوص آخر رحلتين زمنيتين له كما دأب خلال الأسابيع الماضية؟ نعم، هو يتذكر أمرًا كهذا.. يتذكر نقاشات محتدَّة حول ما كان يقوم به شريف مؤخرًا عبر الخطوط الزمنية.. لقد كانا يتصارعان حول ذلك الجهاز اللوحي الزمني.. الجهاز اللوحي الذي يعيد برمجة خصائص أساور الزمن ويشفِّرها فيصعب

تتبُّعها.. لقد تحولت نقاشاتهما المحتدة حول «جهاز التشفير الزمني» إلى صراعٍ محتدمٍ عليه وعلى ذلك السلك أو المحوِّل الكمِّي، الذي يربط «جهاز التشفير الزمني» بالسُّوار الزمني من أجل إعادة البرمجة وضبط الخصائص.. ولكن ألم يسفر أحد صراعاتهما تلك عن قطع ذلك السلك وتخريبه؟ رَبَّاه!! نعم هو كذلك لقد كان ذلك السلك مقطوعًا ومُهشَّمًا في بعض أجزائه غير الكمِّية، فأخذه إلى نسيم للحامه واستبدال المُكوِّنات الإلكترونية البسيطة التالفة..

لقد كانت تلك الواقعة تحديدًا تمثل لغزًا بالنسبة إليه.. كيف وصل إلى ذلك الجهاز ومُحوِّله الكمِّي، وماذا كان يطلب من نسيم فعله تحديدًا.. فقط لحامه واستبدال بعض المكونات التالفة؟!! هل أصابك العَتَه والخبَال؟! تذهب بمحول كمِّي متقدم لرجلٍ أبعد ما يكون عن الثقة فقط للحامه والقيام بأمورٍ أخرى تافهة؟! ألم يكُن الأحرى بك أن تشتري الأدوات والمكونات اللازمة وتصلح ذلك المحول بنفسك بحق الله.. أم أنك كنت في عجلة من أمرك؟ ولكن لماذا؟

ليلى أخبرته أنه كان على وشك القيام برحلةٍ أخرى.. رحلة ثالثة.. بالتأكيد هي رحلة زمنية أخرى منعه منها عادل ومايا..

أمسك رقبته وقد شعر بوخزةٍ في أسفل عنقه.. لقد تذكَّر.. لقد باغتَهُ عادل وحقنه بذلك السائل الذي شوَّش ذاكرته..

ولكن لماذا لم يتخلصا منه إن كان هو ورحلاته يمثلون خطرًا على عادل وجماعته، «الأصليين»، وزعيمهم «البارون».. أم أن الأمر يتخطى مجرد سلامته هو الشخصية؟

هل الأمر يتعلق بأسرته ككل؟

أبرقت ذاكرته بصاعقات الذكريات المتتالية..

ذكريات تتعلق بسلمَى، وجماعتَي «الأصليين» و«فرسان الزمن»، ونشأتهما..

ذكريات الصراع، أدواته ومقاصده، ضحاياه وأبطاله..

الصداع يتصاعد، ويضرب عقله في عنف.. آلام غير مُحتمَلة هذه المرة..

سارع إلى المرحاض وتقيأ.. تقيَّأ من الألم ثم تهاوى جالسًا على الأرض إلى جوار المرحاض وقد خارت قُواه تمامًا..

بالكاد يحتفظ بوعيه.. الضوء الخافت الذي يتسلل عبر خَصَاص النافذة يُلهب عينيه.. تقيأ مرةً أخرى.. أمسك برأسه وتكوَّر على الأرض من شدة الألم..

ثم ظهرت الصهباء.. دلفت إلى الحجرة في سرعةٍ وبحثت عنه حتى عثرت عليه غارقًا في قَيْئِه.. عقدت حاجبيها وساعدته على النهوض وهي تقول في لهفةٍ وحزم:

- أسْرِع يا شريف.. يجب أن نغادر الآن.

تجاوب معها، واستند إليها وهما يقطعان الرُّوَاق الذي يقود إلى موقف السيارات.. لمح أجساد الحرَّاس وقد طُرحوا أرضًا يسبحون في بركةٍ من الدماء التي سالت من رؤوسهم وصدورهم..

لقد انقلبت الصهباء على أسيادها، وقررت أن تنحاز إليه..

ولكن لماذا؟

الإجابة ليست بأولوية الآن، فقط عليهما الهروب، وبسرعة..

بلغا تلك السيارة القوية ذات الدَّفْع الرُّباعي، فارتمى شريف على أريكتها الخلفية، قبل أن تنطلق الصهباء تقودها وقد أغلقت أنوارها.

لحظات من الترقُّب والتَّوَتُّر مرت حتى غادرا المزرعة وبلغا الطريق الصحراوي، فانطلقا مبتعدَيْن في سرعة ومهارة حالتا دون اللحاق بهما أو تتبُّعهما.

فألقت الصهباء، «تانيا»، نظرةً أخيرةً في مرآة السيارة الأمامية، ثم زفرت في عمق، فقد كانت تدرك أنها فتحت على نفسها وعلى أسرتها الصغيرة هي الأخرى بوَّابةً من بوابات الجحيم الزمنية.

***

000010

2:00 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن..

تسمَّر ثلاثتُهم في أماكنهم، سارة تمسك بالصورة الفوتوغرافية العائلية وتتطلَّع إليها في ذهول، أيمن يحدِّق في الأسماء الظاهرة على الشاشة للمسافرين الزمنيين الأحدث على الإطلاق، فيما غمغم يحيى يقرأ الأسماء الثلاثة بصوتٍ ذاهلٍ وبعينين متسعتين عن آخرهما:

- الأب: المقدم/ خالد صبري.. الأم: رَبَّة المنزل/ عبير أشرف.. وابنتهما الرضيعة: ليلي خالد صبري. صمت ليعيد قراءة الاسم الأول مرةً أخرى في عدم تصديق، ثم تابَع وقد ارتعشت شفتاه: «الوجهة: القاهرة، 25 نوفمبر 1915.. الخط الزمني: 000000، خط الزمن المركزي، مرحلة ما قبل التفرُّع».

تراخت يد يحيى الممسكة بتلابيب أيمن من هول الصدمة، فانتزع الأخير نفسه من يد يحيى واعتدل جالسًا على الأرض يلهث في عنف. لم يقاوم يحيى أو يتمسك بملابس أيمن فاعتدل جالسًا هو الآخر إلى جوار الطبيب المريب يحدِّق في الشاشة بذهولٍ جارف.

- هذا مستحيل! كيف؟ ولماذا؟!

غمغمت بها سارة ذاهلةً، وهي تدير بصرها بين الشاشة ويحيى والصورة التي بين يديها. دقائق طويلة مرت، وبقي ثلاثتهم على حالهم، لا يحركون ساكنًا، ولا ينبسون ببنتِ شفة، عاجزين عن إيجادِ تفسيرٍ منطقيٍّ لما حدث، خالد الذي تركهم منذ خمس ساعات رافضًا قصة يحيى وفرضيَّته حول السفر عبر الزمن وأفزعه المتشعِّبة أصبح هو الآخر مسافرًا زمنيًّا، ليس وحده، بل بكامل أسرته، وإلى أين؟ إلى مركز الأُحجيَّة الزمنيَّة وعامها الأكثر إثارة.

كان أيمن أول من تحرك حين شرع يجمع الصور والأوراق الذكية البلاستيكية المتناثرة إلى جواره، يبحث فيها عن زوجته «تانيا»، وابنتهما المفقودة.

رمقه يحيى بنظرةٍ جانبيةٍ غاضبة، ثم قَطَّبَ جبينه في شدة ومدَّ يدَه يسحب مسدس سارة الذي انزلق من فوق المنضدة الرئيسة أثناء الهزَّة. وبيدٍ ترتجف من الغضب صوَّب يحيى المسدس نحوه صارخًا:

- أنت الوحيد هنا الذي يعرف ما يجري.. أخْبِرني بكل شيء وإلا سأقتلك.. فليس لديَّ ما أخسره حرفيًّا.

توترت سارة وهي تدير بصرها بين الرجلين؛ يحيى

الغاضب ويده المرتعشة بفعل الاهتياج، وأيمن المذعور المنكمش على نفسه مرتجفًا من الخوف. خفق قلب أيمن في عنف، وعجزت شفتاه عن الحديث، فلطمه يحيى بقبضته في عنفٍ فتأوَّه الطبيب النحيل، فلطمه يحيى مجددًا، وكرر فعلته حتى هتفت فيه سارة تطالبه بالتريُّث، ثم وجَّهت حديثها إلى أيمن قائلةً وقد عقدت حاجبيها في صرامة:

- حان الوقت لتخبرنا بالحقيقة كاملةً غير منقوصة.

أومأ أيمن برأسه موافقًا في سرعة، ثم قال بصوتٍ واهنٍ متألم:

- سأقصُّ عليكما كل ما أعرفه.. أقسم لكما.

***

استمر يحيى مُصوِّبًا فوَّهة المسدس إلى أيمن، فيما أنصتت سارة إلى الأخير وقد أطرق مستسلمًا يقصُّ عليهما الأمر منذ بدايته، ليس منذ شهر واحد عندما تسلم القُصاصة القديمة ولكن قبلها بسِتِّ سنواتٍ أو أزيَد قليلًا:

- كما تعلمين على الأرجح، فقبل بضع سنوات كنت أحد أشهر جرَّاحي المخ والأعصاب في الإمبراطورية بأكملها، متخصصًا في العلاج التعويضي باستخدام جزيئات النَّانُو.. مال وفير وشهرة واسعة ومنزل باهظ الثمن في أرقى أحياء

غرب القاهرة.. ثم قابلت تلك المرأة الجميلة الصهباء، تانيا، مقاتلة سابقة في القوات الخاصة الإمبراطورية، رغم أصولها الألمانية.. جمعتنا قصة حب عنيفة انتهت بالزواج.. وبعد عامٍ كاملٍ من السعادة رُزقنا بطفلة صغيرة جميلة غيرت حياتي إلى أفضل صورة ممكنة، حبيبتي وصغيرتي.......

- هل ستخبرنا بقصة حياتك؟!

قاطعه يحيى في غضبٍ ونفادِ صبر، فرمقه أيمن بنظرةٍ حملت الكثير من اليأس والاستسلام، ترقرقت عيناهُ بالدموع وهو يتابع:

- كانت «تانيا» دائمةَ السفر.. لم أكُنْ أعلم الكثير عما تفعل، معلومات شحيحة تجود بها عليَّ من حينٍ لآخر عن عملها كخبيرة أمنية لدى رجل VIP، ليس من المفترَض البَوْح باسمه أو الإفصاح عن طبيعة العمل التي تقوم به من أجله.

دار أيمن ببصره بينهما، سارة وعينيها الصارمتين وقد عقدت ساعديها أمام صدرها، ويحيى ونظراته العصبية الغاضبة، فتابع الأول وقد بدأ الانفعال يجدُ طريقه إلى صوته ونبراته:

- «وفي أحد الأيام قطعت «تانيا» رحلتها الغامضة، وعادت إلى المنزل متخفيةً تجمع بعض المُتعلّقات من خزينتها

الخاصة في لهفة.. لكنها عادت في هيئةٍ غريبةٍ لم أعهدها من قبل.. كانت مرتبكة ومتوترة، بل أكاد أُقسم أنها كانت تبدو أكبر سِنًّا بسنواتٍ قليلةٍ عن ليلتنا الماضية....»، ازدرد ريقَه، وتابَع في انفعال: «مظهر لم أدرك طبيعته حينها، ظننتُ أنها مريضة أو تعرَّضت لصدمةٍ ما.. رَبَّاه! لن أستطيع أن أنسى تلك اللحظات ما حييت.. لم تُفصح عن الكثير، مجرد كلمات متفرقة مضطربة تحثُّني على الهروب بالصغيرة وأن نغادر المنزل من فورنا.. لم يكن في استطاعتها أن تأخذنا معها لخطورة الوضع.. وعدتني بأنها ستحاول أن تجمع شملنا قريبًا.. ولكنها لم تفعل، ففقدتُها وفقدتُ صغيرتي بعدها......»

تهدَّج صوتُه في انفعالٍ ثم انفجر في بكاءٍ حادّ.. لمس بكاؤه قلب يحيى بكل تأكيد فلقد فقدَ أسرته هو الآخر.. تأثر قليلًا لكنه أبَى الاستسلام والرضوخ لمشاعره الرقيقة.. لا وقت لقلبك الحَنُون الضعيف.. كُنْ قويًّا كما يجب على الرجل أن يكون! فهذا الطبيب والأب المكلوم هو الخيط الوحيد الذي سيقودك حتمًا إلى أسرتك. جزَّ يحيى على أسنانه ولكز أيمن بالمسدس قائلًا في غلظة:

- أكمِل.. لا وقتَ للبكاء كالنساء.

رمقه أيمن بنظرةٍ تعكس ما بداخله من مشاعر الانكسار والذلّ والمهانة ثم تابَع:

- أخبرتني عن أمور لم أفهمها وقتها.. صراع زمني، وفَنَاء تامّ.. أخبرتني أنها تركت الرجل الذي تعمل من أجله لأنه يسعى إلى تدميرنا جميعًا.. أخبرتني أنها قررت أن تهبَ حياتها من أجلي وأجل ابنتنا الصغيرة التي لم تبلغ عامها الثاني في ذلك الوقت.. أكّدت أنها ستعمل جاهدةً من أجل العثور على «الأصل» وقتله أيًّا كانت هُويَّته، رجل أم امرأة، طفل رضيع أم عجوز شايخ.. حتى لو كانت حياتها هي الثمن.. فحياة ابنتنا وعالمنا كله في كِفَّة وذلك «الأصل» في الكِفَّة المقابلة.. كانت قوية، عنيدة، صارمة، وشجاعة لا تخشى في الحق لومة لائم، ولا تدَّخر جَهْدًا ولا وُسْعًا من أجل تحقيق ما آمنت به لحماية الجميع بمَنْ فيهم أسرتها وأهلها.. المصلحة العامة فوق الخاصة دائمًا وأبدًا.

خفق قلبا يحيى وسارة في آنٍ واحد، ألم تكن كلمة «الأصل» هي الكلمة التي استخدمتها «فريدة» لوصف «المسافر صفر»، لقد قالت نصًّا: «هو أصل الأمر منذ بدايته، وإلى نهايته».. وسارة أقرّت قبلها بدقائق أنها هي المسافر صفر أي الأصل، لا يدري يحيى لماذا أقرت هي بذلك ولكن يبدو أنها مُحقَّة، الدلائل تشير إليها، فهو شخصيًا قد التقاها وتزوجها في زمن آخر.. رَبّاه! أكانت هي الهدف الحقيقي في محاولات القتل السابقة وليس هو.. ولكن لماذا؟ ماذا فعلت زوجته وحبيبته كي يسعى مَن يسعى إلى قتلها.. قَتْل أُمٍّ

حانيةٍ ومهندسة بارعة.. لا، لن يمسَّها أحد بسوء طالما هو في قيد الحياة. عقدَ حاجبيه في غضبٍ وثبَّت فوَّهة المسدس نحو رأس أيمن صائحًا في عصبية:

- لماذا كل ذلك؟

اتسعت عينا أيمن دهشةً من ردَّة فعل يحيى المتصاعدة، فهو لم يقُلْ شيئًا يستوجب غضبه، بل على العكس فمن المفترض أن يستجدي ما قاله عطفهما وشفقتهما.. ثم لمعت عيناه، فقد أدرك ما توصل إليه يحيى، فالتفت نحو سارة يحدِّق في وجهها في جزع، أهي السبب؟ أهي الأصل؟!

لطمه يحيى في عنفٍ ينتزعه من غابة أفكاره الشائكة، فتابع أيمن قائلًا في بطء وهو يحاول أن يربط أفكاره وكلماته:

- لم أكن أعلم السبب حينَها.. ولكن لاحقًا علمت أن الرجل الغامض الذي عملت «تانيا» لصالحه هو الأبُ الرُّوحيُّ لجماعة تطلق على نفسها اسم «الأصليين»، ومهمتهم الوحيدة هي حماية «الأصل» حتى النهاية.. أما «تانيا» فقد انشقَّت عنهم وحارَبَتهم.. فانتقم الأصليون واختطفوا ابنتي.. ثلاث سنوات لم أكن أعلم عنها شيئًا.. ثلاث سنوات بائسة بدأتها بفَقْد أسرتي ثم عملي ثم ثروتي.. مخدرات ومقامرة.. اكتئاب واستسلام.. حتى أشهر قليلة مضت.. تم استدعائي فجأةً

للعمل في المستشفى العسكري.. فرصة جديدة، لا أعلم سببها أو دوافعها، لكنها انتزعتني من مستنقع الفشل إلى شاطئ الحياة مجددًا.

- كيف علمتَ بتلك التفاصيل؟

قالها يحيى في غلظة، فتَنهَّد أيمن في عمق، ورمق سارة بنظرةٍ خاطفة، ثم أطرق قبل أن يجيبه في اقتضابٍ وبصوتٍ خفيض:

- الأيوبي!

- مَنْ؟!!!!!

هتفت بِهِ سارة في ذهول عارم، فأدار يحيى بصره بينهما في دهشة، متسائلًا عمَّن يكون ذلك «الأيوبي»، فأجابته سارة في بطء، ودون أن ترفع عينيها عن أيمن:

- «الأيوبي هو قائد المقاومة.. قائد «كفاح طيبة» الإرهابي الأول على رأس قائمة الإرهاب الإمبراطورية.. يقوم بعمليات نوعية ضد قوات صاحبة الجلالة، ويقلب الشعوب ويؤجِّج مشاعر الاستقلال والتحرُّر في قلوبهم.. ثلاثون عامًا من المطاردات المتلاحقة الفاشلة..»، ثم وجَّهت حديثها إلى أيمن قائلةً في صرامة: «هل التقيتَ مع الأيوبي وجهًا لوجه؟ لماذا لم تبلغ بذلك؟ هل أنت أحد أفراد كفاح طيبة؟».

فرَّت ابتسامة تهكُّم وشماتة واضحة على وجه أيمن حين أجابها:

- «نعم.. التقيتُه.. وهو من أعطاني القصاصة الورقية القديمة.. وهو أيضًا من سلَّمني جهاز التتبُّع.. ولكنه سلمني إياه يدًا بيدٍ وأخبرني بضرورة استعماله فور ظهور طائرات الـ V3 المقاتلة.. لم أفهم وقتها ما يعنيه، لكنه كان يعلم ويدرك ما سيحدث في سماء المستشفى بتفاصيله.. الأيوبي هو من أنقذنا.. الأيوبي هو من أطلق صواريخ EUF المدمِّرة على المقاتلات الثلاث». صمت وثبَّت عينيه في عَينَيْ سارة وأضاف في تَحدٍّ: «أنتِ مَدِينة للأيوبي بحياتك وحياة زوجك المستقبلي يا سيادة الملازم».

خَيَّم السكون على المكان، عقدت سارة حاجبيها تتدبَّر كلام أيمن حول «الأيوبي» عدوِّها وعدوِّ الإمبراطورية الأول منذ أن التحقت بالعمل في جهاز الأمن الداخلي الملكي، فيما أخذ يحيى يزِنُ الاحتمالات كافةً ويربط بين المعلومات التي ذكرها الطبيب؛ ليستنبط النتائج والمآلات المحتملة.

أما أيمن، فقد غرق في ذكريات الشهر الماضي بأكمله منذ أن فاجأه «الأيوبي» عند محطة «الترام الأنبوبي» بجوار منزله الحالي الفقير، وسلمه ذلك الظرف الذي يحتوي على قُصاصة الصحيفة القديمة التي غيَّرت حياته وأعادت لها

الأمل، تذكَّر كيف كان الأيوبي هو حلقة الوصل بينه وبين «المؤرِّخ»، الذي وعده بالعثور على ابنته المفقودة. «المؤرخ» الرجل الخَفيّ، عدوّ جماعة «الأصليين» الرئيس وكذلك عدو جماعة «فرسان الزمن»، التي أسَّستها زوجته الراحلة «تانيا» لمواجهة «الأصليين». هو لم يذكر تلك المعلومة الأخيرة بالتأكيد خوفًا على سلامته، وحتى لا يزيد الطينَ بِلَّةً، فهو لا يأمن لردَّة فعل ذلك المهندس العاشق الولهان، إذا ما أدرك أن «تانيا» هي مُؤسِّسة الجماعة التي شردت أسرته وتصرُّ على قتل زوجته المستقبلية، التي هي «الأصل» أو «المسافر صفر» كما اعترفت بنفسها منذ قليل.. كل ذلك لا يهمُّ الآن في رأيه، فالمهم هو العثور على ابنته، التي يظن أنها هناك، في منزل إسماعيل الخازندار، في ذلك الماضي البعيد، في عام 1915.. شرع يبحث في لهفةٍ في قائمة المسافرين الزمنيين عن اسم ابنته في ذلك العام المحوري، الذي يعجُّ بالمسافرين الزمنيين من مختلف الحِقَب والأزمنة المتفرعة.....

قطعت سارة انهماكه حين سألته في شك:

- هل رأيت وجهه؟

رفع عينيه ينظر إليه قبل أن يرسم متعمِّدًا ابتسامةً ساخرةً واسعةً وهو يهزُّ كتفيه بمعنى «ربما».

همَّت أن تصرخ في وجهه في غضب لولا أن دوى في

المكان بغتة صافرة إنذار عالية، تردد صداها في أرجاء الردهة الحجرية فصمَّت آذانهم، بينما ألهب أعينهَم وميضٌ أحمر متقطع يسطع من مصابيح جدارية حمراء.

أجفل ثلاثتُهم وقد غطى صوت الصافرات العالية على شهقات الجزع المنبعثة من حنجرتَيْ مهندس وطبيب لم يألفا تلك المواقف شديدة التقلُّب.

«فُتحت البوابة الشمالية من الخارج.. تم رصد أجسام غريبة غير معروفة تجتاز نفق السيارات الشمالي في الاتجاه العكسي».

ظهرت تلك الجملة على الشاشة الرئيسة مصاحبةً لصوت «فريدة» الآليّ المسجل مسبقًا، يقرؤها وينذر الجميع بمحاولة اختراق ناجحة للملجأ الآمِن.

توهَّجت إحدى الشاشات بمشاهد حيَّة لمجموعة من الرجال يركبون درَّاجاتٍ بخاريةً عتيقة الطراز، ويقطعون نفق السيارات الشمالي نحوهم، ذلك النفق الذي اجتازه «خالد» بمدرعة S13 المقاتلة منذ ساعات قليلة. رجال أشدَّاء لا تظهر ملامحهم من وراء تلك الأقنعة المضادة للغازات السامة والملوِّثات المشعَّة، مدججين بأسلحة مختلفة الطُّرُز والأزمنة، ويتدثرون بأسمالٍ صوفيةٍ ثقيلةٍ تقيهم مناخ الصحراء المتقلب، فيما ينسدل من أعلى رؤوسهم قطعة

قماش من الصوف الخشِن تغطي الرقاب والصدور، أضفت عليهم طابَعًا أسطوريًّا عتيقًا لمقاتلين صحراويين.

- ما هذا؟!

صرخ بها يحيى في هلع، تجاهلته سارة وهُرعت في حزم إلى غرفة الأسلحة الجانبية تبحث عن سلاح فعَّال تدافع به عنهم جميعًا، وفي اللحظة ذاتها هتف أيمن عاليًا وقد لمعت عيناه في سعادة وشوق ولهفة لا محدودة:

- ابنتي.. وجدت ابنتي!!!

أجفل يحيى المرتبِك الجَزِع، والتفت إلى أيمن بعينين متسعتين من الذهول وعدم الفهم، فإذا بالأخير يمد يده أسفل ذلك المقعد يسحب المسدس الذي انزلق من يده سابقًا وأعاده إلى جيبه مرةً أخرى في لهفة، وهو يقبض بشدة على الصور الفوتوغرافية، والأوراق البلاستيكية الذكية التي وجد بينها اسم ابنته..

ثم ضغط أيمن تلك الدائرة السوداء التي تتوسط قمة الدبوس المعدني المغروس أعلى كنزته، فبدأ التوهُّج الأبيض يغزو جسده في سرعة، قبل أن يقوم بدفع يحيى بعيدًا حتى لا تفتك به فجوة الانتقال الزمني وتقطع أطرافه.

اختلَّ توازن يحيى من المفاجأة ودفعة أيمن القوية، وشُلَّ

عقله نتيجة ذلك المشهد المهيب للضوء الأبيض المُتوهِّج المصاحب للانتقال الزمني، والذي يزحف في سرعةٍ يغطي أطراف الطبيب الهزيل..

شُلَّ عقله، وانتفض جسده، وتوترت حواسُّه بصافرات الإنذار العالية والضوء الأحمر الساطع المتقطع..

فضغط الزناد لا إراديًّا.. دوَّى صوت الطلقة عاليًا.. واستقرت الطلقة في بطن أيمن..

ثم دوى انفجار الانتقال الزمني المكتوم الذي ابتلع بداخله صرخةَ أبٍ بدأ رحلة طال انتظارها للعثور على ابنته..

شهق يحيى في جزع بينما أُسقِط في يد سارة التي عادت لتَوِّها تتسلح بمدفع آلي ثقيل متطور سريع الطلقات، وتحدِّق بذهولٍ في ذلك الضوء المبهر الذي سطع ثم اختفى قبل أن يبتلع بداخله رجلًا كان يتحدث إليهما منذ ثوانٍ معدودة.

لم يمهلهم القدر لحظاتٍ إضافيةً للتأمل أو للتساؤل أو حتى للجزع، فلقد أظهرت الشاشة وصول الرجال الأشدَّاء المُدثَّرين بالصوف، مقاتلي «كفاح طبية»، إلى مرأب السيارات الذي يفصله عن الردهة بابٌ فولاذيٌّ، بدأ يُفتح في صريرٍ آليٍّ هوت به القلوب بين الأقدام، وارتعشت له الأوصال في ترقُّب، ورعب..

***

000000

25 نوفمبر 1915 (5 ساعات قبل الكارثة)

7:00 مساءً.. ڤيلّا إسماعيل الخازندار..

وما إن غادر لوسكياڤو ورجاله حتى توجَّه إسماعيل مسرعًا إلى غرفة مكتبه، وأغلق بابها خلفه. أخرج من درج سرِّي بمكتبه مجموعةَ الأوراق البلاستيكية والصور الفوتوغرافية الملطَّخة بدماء الرسول القتيل. لقد أخفى تلك الأوراق عن لوسكياڤو وأمر خدَمه بعدم البوح بأي شيءٍ يخصُّ تلك الأوراق أو زائر الصباح الغامض.

فتح ضوء «أباچورة» المكتب الجانبية، وشرع يقلِّب في الأوراق البلاستيكية الشفافة الفارغة بين يديه وقد عجز عن فهم طبيعتها. انقبض قلبه عند رؤية تلك الصور الفوتوغرافية وقد طمست الدماء وجوه أصحابها، في مشهدٍ يُنذر بمصيرٍ دامٍ وشيك يلائم ما مرَّ به منذ الصباح. تحسَّس جيب سرواله وأخرج منه تلك القطعة البلاستيكية الصغيرة التي وجدها في صندوق والدته، أدام النظر إليها ثم تحسسها بأنامله يهتدي بها وسط خِضَمٍّ أحداثٍ متلاحقةٍ ابتلعته بداخلها، أصبحت تلك القطعة بَوْصَلة ترشده إلى الحقيقة، تذكِّره

بحقيقته، تجعل عقله يفرق بين الواقع والخيال، تُطمئنه على أنه ليس مجنونًا وإن كان على مشارف الخبال.

أغمص عينيه وتَنهَّد في عمقٍ قبل أن يضع «بَوْصَلتَه» في جيب سُترة بذلته الداخلي، ثم أخرج ساعة جيبه الذهبية وألقى نظرة خاطفة على التَّوقيت ثم أعادها إلى موضعها، وعاد يقلب في الأوراق الشفافة التي تأبَى أن تبوح بأسرارها.

فُتح باب غرفة المكتب بغتةً ودلفت أمينة مسرعةً ثم أغلقت الباب خلفها وهُرعت إلى إسماعيل في خُطًى ملهوفة. احتضنته وضمَّته إلى صدرها، فتجاهلها وظلَّ مُحدِّقًا في الأوراق البلاستيكية الصماء.

بكت أمينة فبلَّلت عبراتها فروة رأسه، لكنه ظل على حاله، صامتًا، محدِّقًا فيما أمامه.

هزَّته أمينه تستجديه أن يتكلم، أن يصرخ في وجهها، أن يقذفها بما في صدره.. لكنه أبَى حتى الالتفات إليها، بل رفع الأوراق البلاستيكية أمام المصباح علَّ الضوء القوي يكشف خباياها. أدام النظر فتصبَّب العرق من جبينه وألهب عينيه، أغلق جفونه في شدة ثم فتحها وهو يغالب صرخة عجز تصارع من أجل الهروب من صدره.

تعالت أنفاسُه وتسارعت، تضاعف لهيبُ غضبه كلما استشعر

بعدم قدرته على إدراك ماهية تلك الأوراق الخالية. سَحب نَفَسًا عميقًا، ثم طوّح بالأوراق البلاستيكية في الهواء، وأطلق صرخة مدوية. صرخة آتية من أعماق روحه الموقدة، صرخة أحرق لهيبها صدر أمينة، فأجفلت في جزع وتشقّق قلبها وهي ترى إسماعيل وقد دفن وجهه بين كَفَّيْه مُطلِقًا العنان لدموعه، وقد فشلت روحه في الصمود.

أدارت أمينة بصَرها بين الأوراق البلاستيكية الملقاة أرضًا وبين إسماعيل المحطم. فتَنهّدت في عمقٍ ثم التقطت إحدى تلك الأوراق البلاستيكية في هدوءٍ فضغطت بإبهامها دائرة زرقاء باهتة في الطرف السفلي من الورقة، فتحول لونها تدريجيًّا إلى اللون الأبيض، ثم ظهر عليها بيانات وأرقام وأسماء تتراصُّ في أسطرٍ متتالية. أشعلت عدة أوراق بلاستيكية بإبهامها حتى ظهر على إحداها شكل مُتشعِّب أقرب إلى «ندفة الثلج»، فناولتها إلى إسماعيل ثم أطرقت في صمت.

اتسعت عينا إسماعيل ذهولًا وهو يحدِّق في الأوراق البلاستيكية التي لم تبقَ على حالها شفافةً كما كانت منذ لحظات، بل أصبحت تعرض رسومات وبيانات ودوائر متداخلة بعضها داخل بعض. أدار رأسه مُحدِّقًا في زوجته في غير تصديق قبل أن يمسك إحدى تلك الأوراق يحدِّق

فيها مَليًّا، ثم أغلق عينيه في ألمٍ حين ومضت ذاكرته فجأةً بذكرى جديدة صعقته، فصرخ مجددًا، ثم نهض وأمسك بذراع أمينة وصرخ في وجهها والشرر يتطاير من عينيه: «مَنْ أنت؟ ومَنْ هي ابنتُك؟».

حدَّقت أمينة في وجه إسماعيل في جزع فلم يسبق لها أن رأت تلك النظرة الغاضبة في عينيه من قبل. غضب عارم سيطر على روحه فنفذ من عينيه وتحكم في لسانه فلم يتلعثم وظهر كرجلٍ قويٍّ مسيطر.

تهدَّج صدرها انفعالًا ثم سحبت ذراعها برفق من قبضة إسماعيل وأصابعه الطويلة، وعيناها تتفحَّصان الصور الفوتوغرافية الملقاة على المكتب قبل أن تسحب من بينها صورتين؛ إحداهما فوتوغرافية والأخرى رقمية ثلاثية الأبعاد مرسومة بواسطة برنامج حاسوبي لترميم الوجوه. مدَّت يدها بالصورة الفوتوغرافية إلى إسماعيل قائلةً:

- أنا مايا.

حدَّق إسماعيل في الصورة الفوتوغرافية التي تحمل صورة زوجته أمينة، ثم حول عينيه إلى أمينة، أو «مايا» مقاتلة المستقبل شديدة البأس، فلم تعبأ بنظراته الذاهلة وعاجَلته بالصورة الأخرى الرقمية التي تُظهر وجهًا أُنثويًّا غير واضح المعالم وتابعت:

- وهذه هي الصغيرة.. اسمها الحقيقي «سلمى».. وهي ليست ابنتي. صمتت وثبَّتت عينيها في عَينَيْ إسماعيل المصدوم، ثم أضافت ببطء وهي تؤكد على مخارج ألفاظها: «ولكنها ابنة زائر الصباح الغامض.. ابنة المؤرخ.. ابنة شريف عزيز القاضي».

تهاوى إسماعيل على مقعده في انهيار، فتابعت أمينة وكأنها قررت أن تُجهز عليه كليًا:

- سلمَى هي بدايةُ الأمر ومُنْتهاهُ.. هي «الأصل» هي «المسافر صفر» الذي يبحث عنه الجميع.

***

000001

21 ديسمبر 2015

8:00 صباحًا.. مزرعة نائية في وادي النطرون

أربعة أيام أخرى مرت منذ الهروب الكبير. جلس شريف وتانيا يتناولان الطعام في تلك المزرعة النائية في وادي النطرون، المزرعة التي ستصبح يومًا ما أحد مقرَّات مقاتلي «فرسان الزمن» الأشدَّاء، مقر حيوي في خَطٍّ زمنيٍّ آخر. كان شريف شارد الذهن مُشعث الشعر وقد فقدَ الكثير من

وزنه. أعراض انسحاب أقراص الذاكرة الزرقاء قد تفاقمت، وأسفرت عن نتيجة عكسية، فبدلًا من أن يتذكَّر ما فاته، ازدادت ذاكرته تشويشًا، وتضاعفت نوبات الصداع التي تضرب مطارقها أرجاء عقله.

تجاذبت تانيا معه أطراف الحديث، ورَبَّتت على يده في رفقٍ ثم قالت في شيءٍ من العطف:

- أنا أقدِّر حالتك الذهنية والصحية تمامًا.. لن أُثقل عليك.. ولكننا في خطرٍ داهمٍ يا شريف.. أنا فقط أريد معرفة أمر واحد فحسب.

أخرجت من جيبها صورة فوتوغرافية مُلطَّخة ببقع دماء قانية جافة، وورقة بلاستيكية ذكية ووضعتهما على المائدة أمام عينيه. ضاقت حَدَقتاهُ وهو يتأمل الصورة، والورقة الذكية التي قامت تانيا بضغط دائرتها الزرقاء الباهتة، فتوهَّجت وأظهرت رسمة متفرعة أشبه بندفة ثلج ذات أفرع عديدة متشعبة. فرفع شريف حاجبيه في تساؤل، فأجابته تانيا قائلة:

- لقد علَقت تلك الصورة والورقة الذكية بملابسك حين قفزت من الخط الزمني المنهار. أرغب فقط في معرفة كيفية حصولك على تلك الخريطة الزمنية المتشعبة؟ ومَنْ أعدَّها؟ هل يوجد أوراق أخرى تحتوي على قوائم وصور لمسافرين

زمنيين؟

أومأ شريف برأسه إيجابًا في هدوء، فأعادت تانيا عليه الأسئلة مجددًا، تحثُّه على الإدلاء بإجابة أكثر تفصيلًا من مجرد إيماءة مقتضبة، فأجابها:

- لماذا؟

- «هناك مؤامرة زمنية كبرى يا شريف. مؤامرة محورها مسافر زمني يُطلق عليه «الأصل». مؤامرة تنتهي بفَنَاء وتهتُّك نسيج الزَّمَكان.» تصاعد الغضب في نبرتها وهي تتابع: «البارون يحمي ذلك الأصل. البارون يعمل من أجل اكتمال ما أسماه بدائرة الزمن النهائية، دائرة تكتمل بالفَناء. هو يؤمن بأن القضاء على مليارات الكائنات الحيَّة هو ثمن بسيط لغايةٍ أسمَى. غاية أسماها عودة الزمن إلى مجراه الأصلي». احتدَّت نبرتها والتهب صوتها حين هتفت في غضب: «ما هذا الهُرَاء؟»

ضرَبَت الذكريات عقله من جديد، شعر وكأن كلام تانيا كالـ «ديـجـا فـو» استرجع معه بعض الذكريات الخاصة بسلمَى.. لقد استعاد الذكريات التي داهمته في الإسماعيلية منذ أربعة أيام قبل الإعياء والهروب.. نعم، هو يتذكر ذلك جيدًا..

سلمى هي ذلك «الأصل» الذي أشارت إليه تانيا.. سلمى

هي أصل الأمر ونهايته.. بل إن سلمى هي سر تسمية تلك الجماعة المستقبلية باسم جماعة «الأصليين».. هي محور الجماعة وغايتها.. تلك المؤامرة الزمنية تدور حول سلمى بصورةٍ أو بأخرى..

الصداع يتضاعف من جديد.. الذكريات تخبو ثم تظهر في تعاقُب مؤلم..

ولكن ماذا كان يفعل هو في خِضمٍّ هذا الصراع؟ ماذا كان دوره وغايته؟

أكان يحمي سلمى؟! فلماذا لم يتعاون إذًا مع «الأصليين»، فغايتهما واحدة، حماية ابنته..

لكنه كان عضوًا في «فرسان الزمن».. لا، ليس عضوًا فقط، بل كان أحد مُؤسِّسي ذلك التنظيم عديم الرحمة؟!

لقد تذكَّر.. تلك الصهباء، تانيا، كانت شريكته، لقد أسَّسا ذلك التنظيم معًا.. نعم، أسساه معًا حين كان شابًّا..

أسساه خلال سنوات عمره العشرين المفقودة..

مطارق الصداع تفتِّت جدران عقله ووعيه، فكاد أن يتقيَّأ من جديد، لكنه تحامل على نفسه.. لماذا أسَّسا معًا ذلك التنظيم الذي اتخذ من «ندفة الثلج» رمزًا له؟ أكان يحاول

إيذاء ابنته؟!

أم أنه لم يكن يدرك هُويَّتها في بادئ الأمر، ثم قرر بعد ذلك إخفاءَها عن الجميع..

الصداع يتضاعف بشدة.. أمسك برأسه وصرخ من شدة الألم، وتقيَّأ.. فعاجَلته تانيا بحقنة وريدية خفَّفت من آلامه قبل أن تتلاحق أنفاسه من فرط المجهود، لتعيده تانيا إلى سريره حيث استرخت عضلاته، وغطَّ في نومٍ عميق..

***

تجنبت تانيا طيلة الأيام التالية التحدُّث حول الأمر، فحالة شريف الصحية والذهنية في تدهور مستمر.. ذكرياته تتداخل بشكل عنيف.. الزمن ليس في صالحها هي الأخرى، لقد أصبحت مُطاردةً من قِبل جماعة «الأصليين» بأكملها، مُطاردة من جماعة لم تقابل أحدًا من أعضائها، باستثناء «عادل»، حتى «مايا» تلك التي أنقذت شريف وأسرته لم تلتقِ معها أبدًا. اسم مايا، هو اسم مفضل بالنسبة إليها لأسباب شخصية، ولكن لماذا كلف البارون المقاتلة «مايا»، والتي أشرف على تربيتها بنفسه؛ من أجل حماية شريف وأسرته؟ أيمكن أن يكون أحد أفراد تلك الأسرة هو الأصل؟ لا، الأصليون يوفرون حماية دائمة للعديد من المسافرين الزمنيين وأُسَرِهم لدورٍ ما سيقومون به سواء في المستقبل

القريب أو الماضي البعيد؛ من أجل اكتمال دائرة الزمن الختامية أو النهائية أو أيًّا كان لقبها نذير الشؤم والهلاك.

شحذت تفكيرها مجددًا، اهتمام الأصليين بشريف هو بسبب رحلاته الزمنية التي تهدد اكتمال دائرتهم المزعومة.. هو يمثل خطرًا داهمًا عليهم جميعًا..

لقد حسمت أمرها وأقسمت على بذل روحها ثمنًا لعدم اكتمال تلك الدائرة المشئومة.. ستقتل كل مَنْ سعى «الأصليون» لحمايته، مسافري الزمن كافة، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساءَهم على حَدٍّ سواء.. أرواح بسيطة في مقابل حماية المليارات التي يسعى البارون إلى هلاكها..

لكنها تحتاج إلى وجود شريف إلى جانبها.. ماضيه يمثل أهميةً ما للبارون وجماعته.. ثمَّة شيءٌ ما قام به استثار البارون وجذب انتباهه..

ثم ألقت نظرة مشفقة على شريف المستلقي على إحدى الأرائك بين النوم واليقظة رغم توسط الشمس كَبِد السماء. تأملت كيف تدهورت حالته بهذا الشكل الملحوظ، هو يحتاج إلى تدخل طبي عاجل على أمل أن يستعيد كامل ذاكرته وقدراته يومًا ما..

نعم هي تحتاج إليه، لكنها تحتاج إليه في صورةٍ أكثر

عنفوانًا..

فكرت قليلًا ثم عقدت حاجبيها وزفرت زفرةً حارَّة أعلنت بها بدء خُطَّتها طويلة الأمد.. بدء مرحلة جديدة من الصراع..

مرحلة «فرسان الزمن».. مرحلة رمزها ذلك الشكل المتشعِّب الذي ظهر في الورقة البلاستيكية الذكية..

رمز «ندفة الثلج» السُّداسيَّة الزرقاء..

***

000000

25 نوفمبر 1915 (4 ساعات ونصف الساعة قبل الكارثة)

7:30 مساءً.. فـيلَّا إسماعيل الخازندار..

لم يَدْرِ إسماعيل كَمْ من الوقت مر عليه مصدومًا، محدِّقًا في الفراغ، غائبًا عن الدنيا وما فيها قبل أن يستسلم كليًّا وقد انهارت روحه.

بدايةً شرحت له أمينة مسألة الزمن، وأفرعه المتشابكة والمتفرعة، شرحت له الاختيارات المصيرية ونقاط التفرُّع الزمني، استغلت ذكاءه الحاد ليستوعب تلك الأمور، أمور كفيلة بأن تصهر خلايا مخ الرجل العادي. لكنها تثق في عقل زوجها، في خلاياه وذكرياته على حَدٍّ سواء، عقل ليس كباقي

البشر، ليس فقط بسبب الذكاء المنطقي والرياضي الحاد، بل بسبب نشأته وذكرياته الدفينة، تلك الذكريات التي أزالت زينب الخازندار عنها الغشاوة صباح اليوم، فصارحته بأصله وسلّمته ميراثه.

انتظرت أمينة حتى سمع إسماعيل وأصغى.. حتى فهم وتدبَّر..

صبرت حتى استسلم إسماعيل لفيزياء الزمن وأحكامها..

ثم قصّت عليه القصة من أولها..

قصت عليه قصة ذلك الصراع الزمني المحتدم بين جماعتين؛ جماعة «فرسان الزمن» وجماعة «الأصليين»، صراع بين فئتين اختلفتا في المقصد وتوحدتا في الدروب، دروب الدم.. صراع دموي بين فئة تسعى إلى كسر دائرة الزمن، وأخرى تبذل الغالي والرخيص من أجل اكتمال الدائرة حتى الفناء والاندثار. أخبرته بصراعٍ زمنيٍّ من نوعٍ آخر، صراع العقل والمؤامرات والمكائد الزمنية، صراع بين «المؤرخ»، المنشقّ عن «فرسان الزمن»، و«البارون»، زعيم «الأصليين» وملهمهم. البارون الذي رَبَّاها صغيرة، نعم ربّى «مايا»، أو «أمينة» زوجته، أحد أعضاء «الأصليين».. رَبَّاها بعد هروب والدتها وانتهاء أثر والدها وهي لم تكُنْ قد بلغت عامها الثاني بعد.. اعتنى بها بعد أن فقدت والديها التي

لم تنعم حتى برؤية صورتهما.. البارون الذي أنشأها في فرعٍ زمنيٍّ وماضٍ بعيد، فكان لها الأب والمعلم، بل وأشرف على تدريبها حتى أصبحت مقاتلة شرسة مخلصة لأهداف الأصليين ومقصدهم.. آمنت وأخلصت لمهمتها الوحيدة.. حماية «سلمَى».. حماية «الأصل»؛ «المسافر صفر» مبتدأ الأمر ومنتهاه.. حمايتها ورعايتها حتى تكتمل دائرة الزمن ويندثر ذلك الجزء الشاذّ من نسيج الزمكان، فتعود الأمور إلى نصابها وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى.

قضَّت عليه ذلك الصراع المرير، صراع جَوهرُه تلك الصغيرة التي تعلق بها إسماعيل ورَبَّاها حتى بلغت الخامسة.. «سلمى».. سلمى محور الصراع الزمني، ونقطة تفرُّعه.. سلمى التي هربت بها مايا من خَطٍّ زمنيٍّ ينهار وعادت بها إلى هنا، إلى ما قبل التفرُّع الزمني وأحداثه الدامية.

- لماذا؟ لماذا هي دون باقي البشر؟

قالها إسماعيل بصوتٍ واهنٍ ونبرةٍ يائسة، فأجابته أمينة قائلةً:

- لأنها فريدة من نوعها.. وُلِدت في خط زمني مؤقت.. خط زمني لم يتفرع بل على العكس، انهار واندثر.. وُلدت لمسافرَيْن زمنيَّيْن، لأبٍ وأُمٍّ لم يُولدا في ذلك الفرع الزمني

الغابر من الأساس.. فأصبحت سلمى طفرة زمنية وحيدة ومتفردة.. أصبحت الأصل.

تجاوز إسماعيل الذهول، فما يعتمل بداخله يتعدى مشاعر الدهشة أو الذهول أو حتى التفكير في تلك المفارقة الزمنية حول الأصل ونهايته، ودائرة زمنية أبدية أو مندثرة. فأطرق مستسلمًا وترقرقت عيناه بالدموع حين خفق قلبه في عنف خوفًا وشفقةً على «سلمى»، طفلته التي تعلق بها حتى إنه أحب أمها لحُبِّه لها.. تعاظمت تلك الخاطرة الأخيرة في ذهنه فرفع عينيه إلى أمينة بغتةً يسألها:

- ولكن لماذا دبَّرتِ لقاءَنا الأول يا أمينة.. لماذا سعيتِ إلى الزواج مني؟ لماذا اخترتِني كي أربي سلمى؟ لماذا أنا تحديدًا؟

وضعت أمينة راحتها على كتف إسماعيل، ثم تَنهَّدت في حرارة، ونظرت إلى عينيه نظرةً حانيةً مُطوَّلة قبل أن تجيبه في بطء:

- ألم تدرك ذلك بعدُ يا إسماعيل؟ أنت أقرب أهل الأرض إلى سلمى.. أنت......

قطعت جملتها بغتةً حين تناهى إلى مسامعهما صوت جلبة تأتي من الردهة، وشهقة عالية تبدو أنها آتية من حنجرة

«نعيمة» المربِّية، تبعها صوتُ ارتطامِ جسمٍ بالأرض، ثم خطوات مسرعة باتجاه غرفة المكتب..

أجفلا جزعًا، فهبَّ إسماعيل من مقعده في حين تحفَّزت عضلات أمينة، أو مايا، استعدادًا للقتال والذَّوْد عن أسرتها، ثم هُرعا معًا إلى باب غرفة المكتب..

انفتح الباب فجأة..

وبرز وجه إدريس ممتقعًا وهو يُبسمل ويُحوقل، فصرخ فيه إسماعيل بجزع يسأله عما يحدث، فأجابه إدريس بلهجته النوبيَّة التي غلبها الخوف:

- سلامٌ قولًا من رَبٍّ رحيم.. القتيل صَحَا وجاء لزيارتك يا سعادةْ البيه.

دفعت أمينة إدريس بعيدًا وقفزت إلى الردهة حيث وجدت «نعيمة» المربية وقد سقطت على الأرض مغشيًّا عليها، وإلى جوارها الطفلة الصغيرة تبكي خوفًا، في حين وقف رجل نحيل هزيل الجسد ممتقع الوجه دقيق القَسَمات ممسكًا بصندوقٍ متوسطِ الحجمِ وحُزْمَةٍ من الأوراق، بينما يتأبَّط ذراعيه اثنان من عساكر البوليس المكلفين بحراسة الـڤـيلَّا.

خفق قلب إسماعيل في عنف، فارتعشت قدماه وعجزتا عن حمله فكاد أن يسقط لولا أن أمسك به «إدريس». تدلَّى فكُّه

السُّفلي ذهولًا واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدِّق في ذلك الزائر.. نعم، إنه هو، هو الرجل الذي لقي حتفه منذ أربع ساعات فقط على أرضية الردهة ولطخ سجَّادها بدمائه.. هو القتيل ذاته، القتيل الذي ينتصب أمامهم الآن عفيًّا..

وباستثناء وجه الزائر الممتقع من الفزع جَرَّاء ردَّة فعل أهل الدار الهَلِعة، إلا أنه يقف أمامهم الآن مهندمًا أنيقًا مصفَّف الشعر في أتمِّ صحةٍ وأحسن حال.

ازداد وجه د. أيمن النشَّار، الزائر، امتقاعًا وهو يجول ببصره في أرجاء المكان ويتفحَّص وجوه أهل الدار المذعورة وأعينهم الزائغة، فغمغم بخوفٍ وهو ينظر إلى عَينَيْ إسماعيل في توسُّل:

- أنا مجرد رسول يحمل إليك رسالة.. رسالة من المؤرِّخ.

***

000000

8 ديسمبر 1882.. (33 عامًا قبل الكارثة)

8:00 صباحًا.. جاردن سيتي.. القاهرة

جلست زينب هانم الخازندار، التي انتصف عقدُها الرابع، تتناول طعام الإفطار في حديقة قصرها المَنِيف، أحد أوائل

قصور حَيّ جاردن سيتي، الذي أسَّسه الخديوِ إسماعيل على أطراف قاهرته الخديوية. خسرت أشعة الشمس الواهنة صراعها الأبديّ مع نسمات الشتاء الباردة ففشلت في إدخال الإحساس بالدفء على أصابع زينب المرتعشة. لم تكن تشعر بشدة البرد وهي تمسك بفنجان الشاي الساخن، وقد التهبت روحها بمزيجٍ من الغضب والسخط وخيبة الأمل وهي تطالع جريدة الأهرام المصرية، وتقرأ في حسرةٍ أخبار خضوع أحمد عرابي وزملائه لمحاكمة ظالمة قضت منذ خمسة أيام بإعدامهم جميعًا، قبل أن يُخفِّف الحكم إلى نفي عرابي ومن معه إلى جزيرة سيلان.

لم تكد تمرُّ ثلاثة أشهر على دخول الإنجليز إلى القاهرة، واستسلام حاميتها، وعودة الخديوِ توفيق إلى سرايا عابدين في سبتمبر 1882، حتى بدأت إجراءات محاكمة عرابي، ومعه انتهى حُلْم ثورة مصرية أيَّدتها زينب وزوجُها وابنُ عمِّها «علي بك الخازندار». لقد انخرطت هي وزوجها في أعمال السياسة إيمانًا منهما بقضية عرابي وأهداف ثورته، بل وجداها فرصة للتنفيس عن مشاعرهما اليائسة، والمكبوتة منذ زواجهما، لعدم تمكُّنهما من الإنجاب لأسبابٍ تتعلق بزينب.

سبع سنوات مرت على زواجهما دون إنجاب أو حتى أمل

واهن في الإنجاب، كان «علي» مخلصًا شديد الحب لزينب منذ سنوات طفولتهما الأولى، فلم يخطر بباله الزواج بأخرى بغرض الإنجاب، بل على العكس، آثر الانعزال والنأي بنفسه عن التجمُّعات العائلية المعتادة؛ لتجنُّب سماع تساؤلاتهم المريضة وأحاديث الهمز واللمز البائسة. فحبُّه لزينب يفوق حبَّه للأرض مجتمعةً بمن عليها. وهي كذلك؛ تحبه لدرجة العشق، فألحَّت عليه مرارًا للزواج من أخرى وإنجاب صبي يحمل اسمه ويرث ثروتهما معًا. كانت مستعدة لفعل أي شيء من أجل إسعاده، أما هو فكانت سعادته تتلخص في رؤية ابتسامتها الصافية وهي ترتسم بهدوءٍ على وجهها الفاتن.

تركت الجريدة من يدها، وعقدت حاجبيها وهي تستمع إلى خادمها الذي جاء يخبرها بقدوم «الست وداد الغجرية». أخبرها أن الغجرية بالباب، تطلب لقاء سيدته في أمرٍ عاجل، فأذِنت له بإدخالها.

هرولت وداد بزيِّها الغجري الأسود المميز نحو سيدتها، وهي تسحب وراءها طفلًا صغيرًا ذا وجهٍ ملائكي، لم يتجاوز عمره السنوات الأربع، يرتدي جلبابًا رثًّا قديمًا، ووجهه يعكس خوفًا وألمًا فاق عمره، بينما عيناه ثابتتان تحدِّقان في المجهول.

قصَّت وداد على مسامع زينب كيف وجدت ذلك الطفل

الصغير صدفةً أثناء إحدى رحلاتها الرعوية على أطراف القاهرة، حيث كان يجلس يبكي وحيدًا وسط الصحراء. شرحت لها كيف كان يرتدي ملابس غريبة ويتمتم بكلماتٍ غير مفهومة عن والديه وأخيه، ورغبته في العودة إلى أحضان أمه. أوضحت أنه ولصِغَر سِنِّه، فلم يستطع ذكر كيف انتهى به الحال وسط الصحراء أو أية معلومة تدل على مكان وجود والديه. اختلج صدرها وهي تخبر سيدتها عن بكائه المتواصل طيلة اليومين الماضيين.

ذكرت وداد مخاوفها من أن يكون الطفل ابنًا لعائلة غنية قُتل أفرادها وتم التخلُّص من طفلهم على سبيل الانتقام. صمتت قليلًا وهي ترى تأثير كلماتها على زينب، ثم تابعت في خبثٍ أنه وفي جميع الأحوال فالطفل يستحق حياةً أفضل من حياة البدو الرُّحَّل، وهي لم ولن تجد أحنَّ من سيدتها زينب هانم لرعاية الطفل وتنشئته على النهج الذي يستحقه، مُلمحةً إلى كون الأخيرة عاقرًا.

رمقت زينب وداد بنظرةٍ حادة، ثم حوَّلت ناظريها إلى الطفل الذاهل المرتبك، فخفق قلبها في ألمٍ وحاولت أن تتجاذب معه أطراف الحديث دون جدوى، حيث قابل محاولاتها بصمتٍ تامٍّ وعينَيْن زائغتَيْن تحدِّقان في الفراغ.

أخرجت وداد ملابس الطفل الصغير وألعابه التي كانت

بحوزته، تفحَّصت زينب ملابس الطفل في دهشة، فهي ملابس غريبة، لا تنتمي إلى هذا العصر بأي شكل من الأشكال، ثم لمحت تَرقرُق الدموع في عينيه عندما وقع بصره على إحدى ألعابه، تبدو كلعبةٍ غريبة الشكل والوظيفة، قطعة بلاستيكية صغيرة على شكل مستطيل سميك الجوانب، قطعة صغيرة خفق لها قلب الطفل، فأفلتت عَبرَاتُه.

فُطر قلب زينب حين نظرت إلى عَينَيْ الصغير الخائفة، فضمَّته إلى صدرها في حنان، وهي تُرَبِّت على ظهره ورأسه، وتُقبِّل وجنتيه، تُطمئنه، وتخبره بألا يخاف.

أجزلت زينب هانم العطاء للغجرية، ثم أنذرتها بألَّا تفكر في إخبارِ أحَدٍ عن أمر الطفل، لما قد يمثله ذلك من خطر على حياته وعلى وداد كذلك، فحتى اللحظة لا يعلم أحد سبب وجود طفل مثله وحيدًا في الصحراء، ولكنه بالتأكيد أمر يُنذر بِشرٍّ كبير.

أخذت وداد المال، ووعدتها بعدم ذكر الأمر من جديد، وأنها دائمًا في خدمتها، فهي تَكِنُّ لها ولزوجها «علي بك» كل المودَّة والولاء لمواقفهما العظيمة ومساعدتهما الدائمة لها ولبناتها طيلة السنوات الماضية.

غادرت وداد القصر، وتنفَّست الصَّعَدَاء، فقد أدت مهمتها على أكمل وجه..

فلقد انتظرت ظهور الطفل في الصحراء في الوقت المحدد.. انتظرت ظهوره من العدم.. آوته وأطعمته ثم أتت به إلى زينب بعدها بيومين..

التزمت بالمهمة بتفاصيلها، وتوقيتاتها، وأماكنها، وتعليماتها كافة..

إلا أمر واحد فقط..

لم تحرق ثيابه وألعابه كما كانت تقتضي التعليمات..

لم تستطع.. شيء ما في داخلها رفض الاستجابة إلى ذلك الأمر..

لقد رقَّ قلبها حقًّا شفقةً على الصغير، فأرادت أن تحفظ له شيئًا من ميراثه قد يقوده يومًا ما إلى حقيقته..

كم تمنَّت أن تقصَّ على زينب القصة كاملةً.. ولربما تفعل يومًا ما..

لقد همَّت بإخبارها أكثر من مرة ولكنها خشيت انتقام من كلَّفتها بالمهمة..

خشيت انتقام الغجرية «الشبح» حاملة الرسائل الزمنية..

***

وفي الداخل، فقد حسمت زينب أمرها، لقد تعلَّقت بالطفل وبأشيائه الغريبة، وحدَّدت خطوتها التالية..

ستَّتخذُه ولـدًا، ستُقنع زوجها، وسيستجيب..

سيكون لهما ولدٌ.. ولدٌ يحمل اسم العائلة ويرثها..

لا يزال في سِنٍّ صغيرةٍ تسمح بإعادة تشكيل ذاكرته..

ومع الوقت سيذوب فارق السن ويسهل الادعاء بأنه ولدهما الذي رُزقا به.. رُزقا به في الخارج.. في منفاهما الاختياري.. في ألمانيا..

في منفًى لن يعودوا منه جميعًا حتى يسهل طمس سنوات الطفل الأربع الأولى..

الآن هو طفلها هي، هي وحدها وزوجها..

نظرت زينب إلى الطفل بنظرة حنان صادقة لمست قلبه الغَضّ، ثم أجلسته على حِجْرِها وأطعمته ومسحت على شعره، قبل أن تطبع على جبينه قُبلةً حانية، فاستسلم لها الطفل، وغاص في حضن أمه الجديدة.

رفعت زينب ذقنه الصغير بيدها وثبَّتت عينيها في عينيه تنظر إليه في حنان جارف، ثم قالت:

- ما اسمُك يا صغيري؟

تردد الطفل للحظةٍ ثم أجابها بصوتٍ خفيض:

- أنا اسمي آدم.

ابتسمت زينب وضمَّت رأسه إلى صدرها من جديد، ثم قالت في شرود وكأنها تحدث نفسها:

- لا.. اسمُك إسماعيل.. إسماعيل علي الخازندار.

***

000001

28 ديسمبر 2015

9:20 مساءً.. القرية الذكيَّة

غادر الشاب أحمد رؤوف سالم، مهندس الشبكات والحَوْسبَة السحابيَّة، في شركة (Sky Shield) للأنظمة الأمنية الذكية، مبنى شركته في القرية الذكية على مشارف بوابات طريق القاهرة – الإسكندرية الصحراوي، بعد يوم عمل شاق أسوة بباقي أيام عمله في تلك الشركة الطموحة. تبادل الدعابات مع زملائهً في العمل قبل أن يُسرع الخُطَى ليلحق بأتوبيس الشركة الأخير المتجه إلى مصر الجديدة.

- مهندس أحمد! كلمة واحدة رجاءً.

بلغ مسامعَه ذلك الهتافُ الأنثوي، فالتفت إلى مصدر الصوت، فإذا بفتاةٍ صهباء بارعة الجمال تجلس خلف مقوَد سيارة سوداء رباعية الدفع تبتسم إليه في هدوء. ارتفع حاجباه في دهشةٍ ثم تقدم نحو السيارة في خُطًى ثقيلة مُتشكِّكة، وسأل الصهباء بشيءٍ من الريبة:

- كيف يمكنني مساعدتك؟

- أريد أن أتحدث إليك قليلًا في أمرٍ يتعلق بمستقبلك ومستقبل كل مَنْ تعرف.

اتسعت عيناه في دهشةٍ لوهلة، ثم ما لبث أن عقد حاجبيه وهو يسألها في شيءٍ من الصرامة:

- هل تقابلنا من قبل؟

- «بالتأكيد.. بالنسبة إليّ على الأقل..»، قالتها تانيا وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، ثم استطردت في هدوء: «أعدُك بأننا سنُنهي حديثنا سريعًا.. تفضل معي».

تردد أحمد قليلًا، ثم تَنهَّد، وفتح باب السيارة ودلف إلى جوارها قبل أن ينطلقا بعيدًا، ليبدآ معًا مرحلة جديدة من حياتهما..

مرحلة «فرسان الزمن»..

***

000000

25 نوفمبر 1915 (ثلاث ساعات قبل الكارثة)

9:00 مساءً.. ڤيلّا إسماعيل الخازندار..

ضوء القمر الأبيض الواهن ينساب عبر خَصَاص النافذة، ليلقي بظلالٍ خائفةٍ في ذلك الركن القَصيّ المظلم من غرفة المكتب الواسعة. دقات بندول ساعة الحائط الرتيبة تتناوب مع دقاتٍ خافتةٍ لقلبٍ بريء، قلب «سلمَى»، التي تكوَّرت وأرخت رأسها على صدرِ مَنْ تَعدُّها أمَّها، أمينة، أو «مايا» المقاتلة الزمنية الشرسة التي أقسمت على حماية «سلمى» حتى لو كلفها ذلك حياتها، فغطَّت الصغيرة في نومٍ عميق، تستجدي الطمأنينة من صدر والدتها بعد أحداثِ يومٍ عصيبٍ حُفرت في ذاكرتها الغضَّة.

احتضنت أمينة طفلتها وهي تجلس على ذلك المقعد الجلدي الوثير تراقب في وجومٍ زوجها وحبيبها، إسماعيل، وقد انكبَّ على حُزْمَة الأوراق التي أعطاه إياها أيمن النشَّار، ذلك الرسول الزمني العائد إلى الحياة.

كان إسماعيل يسابق الزمن حرفيًا، كان يدرك أن حياته على وشك النهاية كما أبلغه «المؤرخ»، ساعتان على أقصى

تقدير ويفقد حياته. لكنه لم يعبأ بذلك، لقد تضاءلت الدنيا أمام عينيه.. بل تضاءلت حتى اندثرت داخل قلبه قبل عقله.. الدنيا برُمَّتها الآن تساوي أحجية زمنية عليه حلُّها.. عليه إيجاد قطَع الأحجية كما وصفها له المؤرخ، وأكَّدتها له أمينة وشرحت أبعادها بتفاصيلها الممكنة كافة.

لم يكن شجاعًا، هو يدرك ذلك، ولكنه ليس جبانًا رِعْدِيدًا كذلك.. نعم هو يشعر بالخوف ويستشعر الخطر.. لكن ليس الخطر أو الخوف على نفسه أو حتى على زمنه ودنياه كما أخبره «المؤرخ»، بل عليها هي.. على سلمى.. أقرب أهل الأرض إليه باعتبار ما كان وما سوف يكون.. لن يندثر العالم وفيه سلمى.. طالما الأمر بيده سيحلُّ الأحجية الزمنية، ويكسر دائرة الزمن المزعومة، فتحيا «سلمى» آمنةً غير مُطارَدة ما بقي من حياتها..

لقد أقسم على ذلك..

وسيبرُّ بقسَمِه حتى لو كان الثمن حياته..

لقد حاول إقناع أمينة، بمغادرة الڤيلّا المشئومة، بالهروب بسلمى إلى حيث مأمنها، بل صرخ في وجهها ودفعها، ولكنها أبت.. أبت أن تغادر من دونه، هو رَبُّ أسرتهم شاء من شاء وأبَى من أبَى.. لن تهرب أبدًا، ليس ذلك من طبيعتها أو مما نشأت عليه.. فإما حياتهم معًا أو الموت معًا.. لقد قدَّرت

أمينة الأمر، وقرَّرت.. حياتها فداء لهما معًا.. فداء لسلمى ولإسماعيل.. لا، بل فداء لإسماعيل أولًا.. إسماعيل، حبيبها، طيب القلب نقيّ السريرة.. لقد نَحَّت مهمة حياتها جانبًا في هذه اللحظة، فإسماعيل وسلمى بالنسبة إليها وجهان لعملة واحدة.. روحها وجسدها.. ستحميهما معًا، ليس أحدهما دون الآخر.

نعم لقد كان لقاؤهما الأول مُدبَّرًا تنفيذًا لتعليمات «البارون». أمرها بأن تجد إسماعيل وتتزوجه ليكون أبًا وحصنًا لسلمى.. «الأصل».. مركز الدائرة الزمنية الأزليَّة التي أوشكت على الاكتمال.. لا بد وأن يسير الأمر كما كان دائمًا.. نحو الفَناء والاندثار.. نحو محو طفرة زَمَكانيَّة شاذَّة يجب أن تندثر ليعود الزمن إلى سيرته الأولى.

ذلك هو ميثاق «الأصليِّين» الذي أقسمت عليه..

الميثاق الذي كرَّست حياتها من أجله..

لكن المعادلة قد اختلفت الآن..

لقد نبت بداخلها حُبُّ إسماعيل..

بل عشقُ إسماعيل..

محور حياتها، ونطفة قلبها الاصلية..

- «رَبّاه!! ووو.. وجدتُها.. وجدتُ القطعة الناقصة.. «متوالية برلين العددية» قد اكتملت يا أمينة.. اكتملت!!»

هتف إسماعيل بجملته في حماس.. لقد نسي أمر حياته المهدَّدة أو الدنيا التي على وشك الاندثار.. لقد تغلب الشغف والحماس والفخر اللحظي على مشاعر الخوف والترقُّب المسيطرة على روحه.. لقد تنفَّست روحه الصُّعَدَاء ولو لحظيًا.. لقد توصل أخيرًا إلى القطعة الناقصة في المتوالية العددية التي أفنى سبع سنوات كاملة من عمره يعمل عليها.. لقد توصَّل إلى قطعتها الناقصة تمامًا كما أخبره «المؤرخ».. توصل إليها باستخدام تلك المعادلات المستقبلية التي أرسلها له «المؤرخ» مع ذلك الرسول الزمني الميِّت الحي.. حُزْمَة أوراق ومعادلات فتحت له بوابةً على مستقبل الرياضيات بأفرعها.. بوابة لم يكن ليصيبه الملل من العالم وراءها ولو قضى حياته مُسمَّرًا في مقعده يجوب بعقله وخياله أراضيها البِكْر.. لقد نهل منها القليل ليصل إلى قطعته الناقصة.. لقد أكمل «متوالية برلين العددية».. مشروع حياته.

ورغمًا عنها، ارتسمت ابتسامة حانية على شفتَيْ أمينة وهي تتأمَّل زوجها العبقري.. عالم الرياضيات الذي لا يُشقُّ له غبار.. رجل قادر على إجراء أعقَد العمليات الحسابية في عقله كأنه حاسوب كَمِّي متقدم من عالمها وزمنها البائس.

نظر إسماعيل إلى ساعة الحائط، ثم أخرج ساعة جيبه الذهبية وحدَّق في عقاربها على أمل أن تكون إحداهما خطأ.. على أمل أن يكون هناك المزيد من الوقت لحَلِّ الأحجية الزمنية..

لكن لا..

ساعة واحدة فقط وتنتهي حياته..

ستون دقيقة فقط أو أقل وتنتهي فرصته وفرصة من وثق به ليحل أحجية زمنية عصية على الحل..

أحجية، حلُّها قد يمنع فَناءً وشيكًا..

***

لقد كان إسماعيل مخطئًا لم يكن أمامه ستون دقيقة كما كان يأمل بل ما دون الأربعين.. ولكنه يختلف.. إنه إسماعيل.. عقل فَذّ وخلايا مُتَّقدة مترابطة.. چينات ذكاء نقية.. وعبقرية شديدة مُتوارَثة..

كما أنه يتسلح بمتوالية برلين العددية..

متوالية ذات معادلات وخوارزميات مبهرة..

لقد كان المؤرخ مُحقًّا، «متوالية برلين» هي سلاحه الأخير..

سلاح فتَّاك قادر على تفتيت الأحجية الزمنية وفصل مُكوِّناتها الستة..

ثلاثة مواقع وثلاث إحداثيات زمنية..

دقائق متواصلة قضاها إسماعيل يخطُّ دوائر متقاطعة وأخرى متماسَّة، أعداد بسيطة وأخرى مركَّبة، أرقام حقيقية تمتزج بأخرى تخيُّليَّة. أرقام تمر أمام عينيه وتومض وتسطع داخل عقله في سلاسل ومتواليات متتابعة ومترابطة.. أرقام تمتزج في أذنيه مع الأنغام الختامية لسوناتًّا «ضوء القمر» لبيتهوفن، وهي تنبعث من جرامافون ثمين يدير أسطوانة أوشكت على نهايتها..

اتسعت عيناه دهشةً، ثم ذهولًا، قبل أن يهتف:

- أمينة!!

التفتت إليه في لهفة، وهمَّت أن تسأله عما يحدث لكنها لمحت ضوءًا أبيض بدأ في السطوع في الخارج، فشهقت، لم يفطن إسماعيل إلى سبب شهقتها فقد أعمت المفاجأة التي اكتشفها بصيرته وبصره فلم يلمح الضوء الساطع، فتابع قائلًا في لهفةٍ ونشوة:

- سارة ليست «الأصل» سارة ليست «المسافر صفر» يا أمينة.. النهاية لن تكون بسببها.. سارة، أقصد سلمَى بريئة يا

أمينة......

قطع جملته عندما دوَّى انفجار مكتوم أمام بوَّابة الـڤـيلَّا الخارجية..

فأجفل وتسمَّر في مقعده وهو يحدِّق في علامات الخوف المرتسمة على وجه أمينة..

يبدو أنها اللحظة الموعودة..

لحظة نهايته قد حانت..

خفق قلبه في عنف..

صارعت أحشاؤه أعصابه المشلولة وقدميه العاجزتين..

دوَّى صوت طلقات نارية مدوية..

تعالت صرخات عساكر الحراسة أمام بوابة الـڤـيلَّا وهم يواجهون خطرًا لم يتخيلوا وجوده..

هبَّت أمينة من مقعدها واحتضنت سلمَى بكل قوتها وهُرعت تنتزع إسماعيل من مقعده..

استيقظ عقله بغتة، فتغلب على تصلُّب أعصابه وشلَل أطرافه..

نهض في سرعةٍ يجمع الأوراق التي خطَّها بيده، الأوراق

التي تحتوي على حَلِّ الأحجيَّة الزمنية بأجزائها.. المواقع والتَّواريخ..

جمع الأوراق ووضعها في الصندوق الخشبي الذي أحضره له الرسول الزمني..

تذكر حديث الرسول الزمني الأخير..

أوامره الثلاثة الحاسمة:

- حل الأحجية.. ضع الحلَّ في الصندوق.. أخْفِ الصندوق في الغرفة السرِّية.

كيف عرف الرسول أو من أرسله أمر الغرفة السرية.. لا يدري، ولا يهمُّ الآن.. لقد حل الأحجية ووجب عليه إخفاء صندوقها..

اتجه إسماعيل مسرعًا نحو المكتبة التي تحتلُّ أحد جدران غرفة المكتب..

ثم تسمَّر في مكانه..

الطلقات ترتطم بباب الـفـيـلَّا الداخلي..

عينا إسماعيل تحدِّقان في ذهولٍ في إحدى الصور الفوتوغرافية الملقاة أرضًا..

مطارق الذكريات تحطم قشرة مخِّه الخارجية..

عقل يتشقَّق، وذكريات تطفو..

باب الـڤـيلّا يتحطم..

- أسْرِع يا إسماعيل!

أمينة تصرخ..

انتفض إسماعيل واختطف الصورة الفوتوغرافية وحدَّق فيها ثم وضعها في جيب سُترته الداخلي..

صرخات وشهقات تتعالى.. إدريس ونعيمة يتوسلان ويصرخان..

لماذا تباطآ ولم يغادرا رغم أوامره؟!

هُرع إسماعيل إلى المكتبة يزيح أحد أجزائها حتى انكشف الحائط عن فجوة سِرِّية صغيرة، ألقى إسماعيل الصندوق بداخلها ثم أغلق المكتبة..

انهار باب غرفة المكتب ووثب إلى داخلها مقاتلان متَّشحان بالسواد، يزيِّن ملابسَهُما رمزُ «ندفة الثلج السداسي» الأزرق الرهيب..

صرخت سلمى..

همَّت أمينة أن تقاوم وتقاتل لكن إسماعيل أمسكها.. احتضنها في شدة..

ضمَّها وطفلته إلى صدره.. شعرت أنه يرغب في أن تكون آخر لحظات حياته وهي في أحضانه علَّه يُشعرها بالأمان.. أمان افتقده.. استكانت أمينة واستجابت لمشاعره.. لحظة وأدركت سبب ما يفعله في لحظاتهِ الأخيرة..

لقد أمسك إسماعيل بكفِّها ووضع فيها قُصاصةً صغيرةً من الورق..

قصاصة أدركت أمينة طبيعتها..

قصاصة خُطَّ عليها اسم..

اسم «الأصل» أو «المسافر صفر»..

***

انتشر فرسان الزمن في الڤيلّا وحاوطوا إسماعيل وأسرته..

فرقة إعدام لا تعرف الرحمة جاءت لغرض واحد فقط..

الحصول على «أوراق الزمن» البلاستيكية التي تحتوي على صور وأسماء المسافرين الزمنيين المُتسبِّبين في دائرة الزمن الأزليَّة الرهيبة..

مجموعة أوراق حاول الفرسان تتبُّعها على مدار خمس سنوات كاملة..

أوراق لم ولن يستطيع أحدٌ فكَّ شفرتها وحلَّ أحجيتها الأصلية الدفينة..

سواه هو.. إسماعيل علي الخازندار..

فتح إسماعيل عينيه محدِّقًا في مقاتلي «فرسان الزمن» الواقفين أمامه.. نعم أحدهما هو «المؤرخ».. ولكنه أصغر سِنًّا بنحو خمسة عشر عامًا عن زيارته الصباحية.. نفس سن لقائهما الأول في برلين أو أكبر قليلًا.. شابًّا يافعًا صارمًا في منتصف الثلاثينات من عمره في أوج قوته وعنفوانه.. شابٌّ يؤمن بغايته ومستعدٌّ أن يبذل في سبيلها الوسائل الممكنة كافة.. هو بالتأكيد في مرحلة مختلفة من عمره.. مرحلة القسوة والإصرار.. مرحلة كان يستخدم فيها اسمه الحقيقي.. أحمد رؤوف سالم..

صارمةً وقفت إلى جواره ممسكةً بسلاحها المتقدم.. زعيمة الفرسان، الصهباء، حمراء الشعر والوجه ذات الأصول الألمانية.. «تانيا»..

تانيا زوجة الرسول الزمني العائد إلى الحياة..

زوجة «أيمن النشار» الطبيب النحيل هزيل الجسد..

زوجان انفصلا بعضهما عن البعض نتيجة اختيار «تانيا» لطريقها الجديد.. طريق «فرسان الزمن» ومقصده النهائي.. القضاء على «الأصل» أو «المسافر صفر» مهما كان الثمن..

وقد كان الثمن ابنتهما..

ابنتهما التي اختطفها «البارون» عقابًا لتانيا على خيانتها..

اختطفها وأنشأها على هدف واحد..

حماية الأصل.. حماية «سلمَى» وقتل مَن يهددها..

انتقام من نوع جديد.. انتقام لعين..

انتقام يكون عبرةً لمن تسوِّل له نفسه الانشقاق عن «البارون»..

لقد أنشأ الابنة لمحاربة والدتها..

والدتها الصهباء الواقفة أمامها الآن دون أن تتعرف إحداهما على الأخرى..

«تانيا» التي ستفقد حياتها في فرعٍ زمنيٍّ منهار أثناء محاولتها القضاء على «الأصل» و«المؤرخ» معًا..

حياتها التي ستفقدها بطلقاتٍ من مسدس ابنتها..

ابنتها «مايا»..

***

000010

2:30 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن..

ارتفع الباب الفولاذي الذي يفصل ردهة المخبأ الآمن عن مرأب مدرعاته القتالية في بطء، تراقبه عينا يحيى الزائغتان، وقد غاب عقله عن الواقع بما فيه، وهو لا يزال عاجزًا عن استيعاب الانتقال الزمني الذي وقع أمامه منذ لحظات، وقبلها الطلقة التي انطلقت من مسدسه نحو أيمن.. أتُراها أصابته؟ أم طاشت في تلك الفجوة الزمنية التي ابتلعته؟

وقفت سارة مصوِّبةً فوهة مدفعها الآلي المتقدم نحو الباب، وقد عقدت حاجبيها في صرامةٍ وتحفَّزت عضلاتها لقتالٍ لن تستلم فيه حتى النهاية.. دار بصرها بين الباب الذي أوشك على بلوغ غايته والشاشة التي تعرض رجال «كفاح طيبة» بأسمالهم الصوفية المميزة، وقد ترجَّلوا عن درجاتهم البخارية العتيقة وشهروا أسلحتهم استعدادًا لاقتحام المخبأ الذي يُفترض أنه آمن.

تحفَّز الرجال في أماكنهم في انتظار إشارة قائدهم بالاقتحام. تقدم القائد خطواتٍ قليلةً وهو ينظر مباشرةً

إلى الكاميرا الداخلية، ليظهر وجهه واضحًا جليًا أمام عَينَيْ سارة. اتسعت عينا سارة في دهشة، فذلك هو «الأيوبي»، بعلامات وجهه المميزة. فرغم أن أحدًا لم يَرَ وجهه من قبل قط، فإن شهادات الشهود المتواترة قد حددت ملامح وجهه المميزة، وجه مربع صارم، ولِحْيَة كثيفة انتشر فيها الشيب، وعُصابة، عُصابة سوداء تغطي عينه اليسرى.

خفق قلب سارة في عنف، فها هي الآن قابَ قوسين وأدنى من لقاء الشخص الذي كرَّست سنواتها الأخيرة لمطاردته والإيقاع به، ها هو الآن قد حضر إليها شخصيًا، في منزلها الآمِن..

لماذا هو هنا؟ لقتلها؟ ولكن، كيف عرف مكانها؟ يا لكِ من غبية يا سارة، «الأيوبي» هو من جنَّد «أيمن» للعمل لحسابه، بل وزوَّده بجهاز تتبُّع!

ولكن جهاز التتبع لا يعمل في المنطقة المشعَّة! ثم كيف فتح البوابة الخارجية لنفق السيارات الشمالي، ومن بعده باب المرأب الفولاذي؟

ضاقت حَدَقتاها وهي تحدِّق في الوجه الذي يحتلُّ معظم الشاشة العملاقة.. شيءٌ ما مألوف في هذا الوجه، ونظرة عينه اليُمني..

تناهى إلى مسامعها شهقةُ ذهولٍ صادرةٌ من يحيى الذي كان يحدِّق بدوره في وجه «الأيوبي»..

انتفضت سارة حتى كاد المدفع الآلي أن يسقط من يدها، عندما انطلق رنين هاتف «كوزموس» المحمول في جيب سُترتها الجلدية.. سحبت الهاتف في ذهول، وهي تدير بصرها بين الهاتف وبين الشاشة العملاقة التي يظهر عليها «الأيوبي» وقد حمل هاتفًا مشابهًا، ويشير إليها بأن تستقبل المكالمة.. وقد فعلت.

لم تكد تسمع صوت «الأيوبي» قادمًا من الناحية الأخرى من الهاتف، حتى سبقها يحيى حين هتف في ذهول:

- يا الله.. إنه خالد!

لم تدُمِ المكالمة ثوانيَ معدودةً حتى طمأنهما «الأيوبي» إلى حقيقته.. فلم يكن سوى «خالد صبري» بشحمه ولحمه، الرجل ذاته الذي غادرهما منذ قرابة خمس ساعات بتوقيتهما وأربعةٍ وثلاثين عامًا بتوقيته هو.

دلف خالد إلى الردهة في خُطًى هادئةٍ ومعه رجاله الذين خفضوا أسلحتهم وانتشروا في أرجاء المكان. لمحت سارة في خطواته عرجًا واضحًا في ساقه اليمنى. جال خالد ببصره في المكان ثم تَنهَّد في حرارةٍ قبل أن يقول في شيءٍ

من التهكم:

- «الأمر كله بدأ هنا.. منذ أربعةٍ وثلاثين عامًا»، ثم استعاد صرامته حين أضاف في حزم: «وقد حانت بداية النهاية».

***

مرت دقائق الذهول، وهدأت القلوب من خفقانها، واستسلمت العقول لمُعضِلة زمنية معقدة فاقت قدرتهم جميعًا على الفهم والإدراك. أعدَّت سارة أكوابًا من الشاي علَّهم يستأنسون بحديثٍ يهدِّئ من إيقاعِ ساعاتٍ متواصلةٍ من المجهود الشاق، العقلي قبل العضلي، مجهود شاق لها ولزوجها المستقبلي على الأقل.

تأمَّلت سارة وجهه وقد حفر الزمن فيه أخاديده، مشاعر مختلطة تجتاحها بين الفرح للقائه، كخالد زميلها، والتحفُّز كونه «الأيوبيّ» عدوَّها الذي تدرَّبَت على بغضه. تجاوزت مشاعرها السلبية وهي تتأمل عينه المفقوءة والمختبئة خلف عُصابة سوداء سميكة. ثم تَنهَّدت في حرارةٍ قبل أن تقول بشيءٍ من العطف:

- قُصَّ علينا يا خالد كل شيء! كل شيء منذ ذهابك للقاء نسيم، وحتى انتهى بك الحال هكذا.

ابتسم خالد، أو الأيوبي، وهو يتأمل وجهَيْ سارة ويحيى،

ثم قال متهكِّمًا:

- «لقد مر أربعة وثلاثون عامًا كاملة على تلك الواقعة يا سارة!»، تَنهَّد ثم عادت الجدية إلى صوته حين استطرد: «ولكن سأحاول».

قصَّ عليهما خالد كل شيء كما يتذكره، منذ أن وصل إلى ملهى نسيم الليلي، «كاريبينيو»، على أمل الإمساك بطرف أحد خيوط الأزمة التي وقع فيها ثلاثتهم منذ ظهور يحيى. أخبرهم أنه التقى مع «نسيم» بالفعل، ذلك الرجل البغيض الذي لا يستطيع أن ينسى وقع رؤيته على قلبه، رجل بغيض جاء من زمنٍ آخر عن طريق المصادفة، وكأن الزمن هنا بحاجةٍ إلى أمثاله. أخبرهم بما قصّه عليه «نسيم» من أنه كان يعمل في زمنه كفنِّي كهرباء، وأنه التقى برجل غريب الأطوار يحمل أسلاكًا ومعالجات حاسوبية متطورة أكثر غرابة، وأنه راقب ذلك الرجل حتى منزله في مصر الجديدة. ولِحظِّ «نسيم» العاثر فقد شهد هجوم كتيبة إعدام على منزل ذلك الرجل، تبيَّن له بعد ذلك أنهم رجال من المستقبل، وأن الانفجار الذي صاحَب وصولهم كان عبارة عن انتقال زمني كامل. تذكَّر خالد ما أخبره به نسيم أن الأخير قد انتزع سُوارًا زمنيًّا، لم يكن يعرف فائدته، من يد أحد القتلى بدافع الطمع، ثم شهد بعد ذلك بساعاتٍ قليلةٍ انهيارًا كاملًا لعالمه،

فجزع وهلع ووضع السوار في يده وضغط أزراره كغريقٍ يتعلق بقشَّةٍ بائسة، فانتهى به الحال في عالمنا لسببٍ غير معلوم.

تحفَّز يحيى، بينما ضاقت حدقتا سارة وهي تستمع إلى خالد، حين ذكر أنه التقى عند «نسيم» مع رجلٍ يتزعم جماعة تُسمى «الأصليين». صمت خالد قليلًا وتهدجت أنفاسه للحظات، ثم سيطر على مشاعره وهو يتذكر تلك اللحظة، حين أخبره ذلك الرجل أن أسرته، زوجته وابنته الرضيعة، في خطر عابر للأزمنة، وأن مجموعة أخرى يُطلق عليها «فرسان الزمن» يبحثون عن ثلاثتهم لقتلهم. وعد الرجل خالد بحمايته وحماية أسرته وإخفائهم جميعًا في مجرى الزمن على شرط واحد، أن يقوم خالد بمهمة ما في 25 نوفمبر 1915، وأن ينقذ رجلًا يُدعى «إسماعيل الخازندار» من محاولة قتل تماثل تلك التي تعرض لها يحيى.

أطرق خالد في أسى عندما أخبرهم، أنه كاد أن ينجح لولا أن استطاع «فرسان الزمن» أن يلحقوا به وبمَنْ معه، فقتلوا مَنْ قتلوا، وأصابوه هو كما هو واضح، ثم اختطف أحدهم ابنتَه الرضيعة.

شهقت سارة في لوعة، وهبَّت من مقعدها تُرَبِّت على ظهر خالد، وقد ترقرقت عيناها بالدموع وهي تتذكر زوجة خالد

صديقتها المقربة، وابنتهما الرضيعة «ليلى»، التي كانت تشعر ناحيتها بمشاعر حنان جارفة، لم تشعر بمثلها من قبل.

ورغم ما يحمله الموقف من مشاعر حزينة وثقيلة على القلب، فإن يحيى لم يشعر بنفسه وهو يهتف سائلًا خالد في لهفة:

- من هو ذلك الرجل الذي قابلتُه عند نسيم؟ زعيم الأصليين هذا.

حدجته سارة بنظرةِ عتابٍ ولومٍ صارمة، فارتبك يحيى وتلعثم معتذرًا، فما كان من خالد إلا أن رسم على شفتيه ابتسامةً خافتةً وهو يقول في هدوء:

- لا عليك، لقد مرَّ أكثر من ثلاثة عقود.

صمت قليلًا ثم ثبَّت عينه السليمة على سارة، وهو يقول في بطء مؤكدًا على مخارج ألفاظه:

- إنه الرجل الذي أنعمت عليه الملكة بلقب «بارون»، أسوةً بأبيه، تقديرًا لخدماتهما العلمية العظيمة، ودوره هو البارز في تحقيق النهضة العلمية والحاسوبية الحالية.. إنه «البارون»، جدُّكِ بالتبنِّي يا سارة.. البارون مختار كامل.

***

000000

25 نوفمبر 1915 (45 دقيقة قبل الكارثة)

11:15 مساءً.. القاهرة.. واحة هليوبوليس

اشتدَّت الرياح الباردة، ودوَّى صفيرها وهي تحمل ذرَّاتٍ من الرمال تطوف في دوائر متصاعدة حول أجساد ممدَّدة وسيارة سوداء محطَّمة في الصحراء المحيطة بواحة هليوبوليس. الحي الراقي الذي تحوَّل بين عشيَّةٍ وضُحاها من واحةٍ مسالمةٍ هادئة إلى ساحة معركة زمنية تدور رَحَاها بين مقاتلين أشدَّاء وأُسَر مُستضعَفة.

لوهلةٍ، هدأت الرياح وساد السكون إلا من تأوُّهات خافتة من حنجرة واهنة. فتح «خالد صبري» قائد المدرعة المحطمة عينه السليمة في وهن، لمح جثتَيْ إسماعيل الخازندار، وزوجته اللذين اغتيلا غدرًا. تداخلت ذكريات الحادثة وتلاطمت، تذكَّر قائد فرقة «فرسان الزمن» وهو يطلق عليه النيران، أطلق طلقتين، لكنه لم يطلقهما على رأسه مباشرةً بل واحدة في الكتف والأخرى في الرمال. ومضات خاطفة من الذكريات تلاشت سريعًا مع مشاعر اللوعة، ومرأى المذبحة. فجاهد وحاول الزحف حيث جثةُ زوجته، فخارت قُوَاه من جديد والدماء تواصل نَزْفَها من جروح ساقه وكتفه. حاول الزحف مجددًا، ففشل، واستسلم،

وتهاوى فغاص وجهه في الرمال الباردة.

وفجأةً، سطع الضوء الأبيض ذاته المصاحب للانفجار المكتوم، حيث برز أحمد رؤوف سالم من جديد، برز بعد مرور عشر سنوات أخرى، بعد أن أصبح شريف عزيز القاضي منذ زمن، واقترب عمره من الخمسين. أسرع شريف نحو خالد، وجثا على ركبتيه يتفقَّده.

أسنده إلى حطام المدرَّعة في وضعٍ شبه جالس، وسقاه قطرات من المياه، قبل أن يفتح خالد عينه اليمنى في وَهَن. تعرف إلى وجه شريف من فوره رغم تجاعيد الزمن، فلاحت منه نظرة تحمل مزيجًا ملتهبًا من الألم واليأس والخوف والغضب. نظرة ما لبثت أن توارت تحت وطأة الألم والضعف. فأمسك بتلابيب شريف بيد مرتجفة وهو يغمغم:

- ابنتي.. أين ابنتي؟ أين ليلى؟

عضَّ شريف على شفتيه من الندم ثم أطرق لحظاتٍ توقف فيها قلب خالد عن الخفقان، حتى قال شريف في نبرةٍ أعادت النبضَ والحياةَ للأب المكلوم:

- بخير.. لم يمسَّها أحدٌ بسوء.. هي مع أقرب الناس إليها الآن.. تحيا سعيدة هانئة.. اطمئن يا خالد.

حدَّق خالد في وجه شريف للحظات، ثم زفر الأول في

ارتياح، قبل أن يستسلم لمصيره ويتهاوى جسده فاقدًا للوعي تمهيدًا لمفارقة الحياة، واستقبال الموت.

أخرج شريف من سُترته «سوارًا زمنيًّا» أسود نُقش عليه رمز ندفة الثلج السداسي، وضعه في معصم خالد وأحكم ضبطه، قبل أن يغطي وجه الأخير بقناع متطور مضاد للغازات والمُلوِّثات المشعَّة، ثم غمغم قائلًا:

- كَمْ أود أن أعتذر لك.. لكن الاعتذار ليس كافيًا.. سيهتمُّ بك أصدقائي!

قالها ثم أشعل السوار الزمني حول معصم خالد. فسطع الضوء وتتابَع الوميض قبل أن يدوِّي الانفجار المكتوم، معلنًا بدء رحلة زمنية ذات طابَع خاص، وبداية مرحلة وصراع من نوع آخر..

بداية مرحلة جديدة في حياة خالد صبري، وخطِّه الزمني بأكمله..

مرحلة «الأيوبي»..

تَنهَّد شريف في أسى وقد جال ببصره في المكان يتفقَّد جريمته.. بل آخر جرائمه.. جريمة مرَّ عليها عشر سنوات قضاها في التكفير عنها وعن سابقاتها.. ثم وقف يحدِّق مليًّا في جثة إسماعيل، فخفق قلبُه في عنفٍ وترقرقت عيناهُ

بدموع الندم والحسرة.. واللوعة.

تناهى إلى مسامعه صوتُ خيل الجنود الأستراليين، ولمح أضواء سياراتهم الحربية البدائية وقد اقتربوا كثيرًا من موقع الحادثة. فزفر في عمقٍ وأشعل سُوارَه الزمنيَّ هو الآخر عائدًا إلى حيث كان..

إلى حيث يكفِّر عن خطاياه..

إلى حيث يُنهي الأمر كله مرةً واحدة وإلى الأبد.

***

000010

3:00 بعد منتصف الليل.. المخبأ الآمن..

هَوَت سارة على أقرب المقاعد تحدِّق في الفراغ بأعينٍ زائغة. خفق قلبها في عنف، وانحسرت الدماء عن أطرافها فحلَّ الصقيع يجمِّد أوصالها. عشرون عامًا من الذكريات تداعت أمام عينيها، منذ تلك الحادثة التي فقدت فيها والدها، وخلَّفت أمها قعيدةً عاجزة.

مشاهد إصابة أمها لا تفارق مُخيِّلتها، قد يكون ذلك الحادث هو الأمر الوحيد الذي أخفته عن خالد وعن أقرب أقربائها. مشاهد دامية تداهمها دومًا على هيئة كوابيس مفزعة

اختلطت فيها الحقيقة بالخيال.. مجموعة من الرجال في ثيابٍ سوداء قاتمة يطاردونهم في إصرار، ويُمطرونهم بوابلٍ من الطلقات التي لا تعرف الرحمة.. دائمًا ما تتذكّر كيف استبسلت والدتها في الدفاع عنها، فحمتها بجسدها، تَلقَّت الطلقات بدلًا منها في تلك الصحراء القاحلة أو في قمرة طائرة صاروخية انطلقت بهم هاربة.. لم تَدْرِ سارة أبدًا أي تلك المشاهد حقيقة وأيها خيال، ولكنها مشاهد محفورة في ذاكرتها تأبَى النسيان.

ومنذ تلك الحادثة، ظلت أمها طريحةَ الفراش تستخدم أجهزةً متقدمةً متصلةً بفصوص مُخـِّها. تكنولوچـيا حديثة شديدة التقدم لم يكن في مقدور أحد توفيرها، لولا أن البارون «مختار كامل» بنفسه هو من اعتنى بأمها وتكفَّل باحتياجاتها المعيشية والتكنولوچـية طيلة تلك السنوات.. كان «البارون» أبًا لوالدتها «أمينة»، فأصبح كجَدٍّ لها هي الأخرى.

ثم ومضت خاطرة مجنونة في ذهنها، أكانت أمها مسافرة زمنية؟ أتلك الحادثة، التي تتذكّرها بالكاد، كانت في زمنٍ آخر، في ذلك الماضي البعيد؟ رَبّاه! ألهذا السبب كانت أمها ترفض بإصرار شديد إجراء تحليل الحمض النووي من أجل إجراء عملية زرع الأعضاء؟ أكانت تخشى افتضاح أمرها

لوجود نسخة أخرى منها في هذا الزمن ولكن في مرحلة عُمْرِيَّة مختلفة؟ أكانت تخشى ردَّة فعل سارة؟ أضحَّت بحياتها وراحتها من أجلها؟ أم....

أم أن «أمينة» قد أُجبرت على ذلك؟ أكان هو من أجبرها على التضحية، «البارون»؟ أهو بهذا الشر؟ أكان يقف في الكواليس يمسك الخيوط ويحرك الناس كالدُّمَى؟ لا، مستحيل! لقد عهدته حَنُونًا عَطُوفًا، أو كان كذلك معها هي على الأقل.. هي دون غيرها.....

قطعت أفكارها عندما جاء صوت خالد من بعيد هاتفًا باسمها:

- «سارة!!» التفتت إليه بعينين زائغتين فتابَع: «أنا آسف حقًّا! ولكن هذه هي الحقيقة».

هزت رأسها وزفرت في عمق، تحثُّه على الاستمرار، فأدار بصره بينها وبين يحيى الذي أشفق على حبيبته المستقبلية، وإن كان عقله يعمل دون توقف لربطِ الأحداث وفَكِّ شفرتها. أعاد خالد على مسامعهما قصة الصراع الزمني حامي الوطيس بين «الأصليين» و«فرسان الزمن» الذين حاولوا قتلهم في المستشفى في اليوم السابق. صراع زمني محوره «الأصل»، أو «المسافر صفر»، الذي يمثل بداية دائرة الزمن ونهايتها.. دائرة تكتمل بكارثة كبرى تأخذ في طريقها أفرعًا

زمنيَّةً بأكملها.

- «ماذا تعني بكارثةٍ كبرى يا خالد؟».

هتف بها يحيى في دهشة، فمطَّ خالد شفتيه وأجابه في هدوء:

- «مستقبل أسود. نهاية العالم كما نعرفه.. حدث ما يطلق عليه البعض وصف الفَناء أو الاندثار. كارثة كبرى لا يدري أحد مداها أو أسبابها.. إلا رجل واحد فقط». صمت وأدار عينيه بينهما ثم استطرد: «المُؤرِّخ».

لم ينتظر خالد سؤالهما عن هُويَّة ذلك المؤرخ، فأخبرهما أنه رجل لا ينتمي، حاليًا على الأقل، إلى أحد الفريقين، حيث يسعى إلى كسر دائرة الزمن ومنع ذلك الفَناء مع الحفاظ على حياة ذلك «الأصل» لسببٍ ما.

رمق يحيى سارة بنظرة ذات معنى عندما ذكر خالد مسألة الأصل أو المسافر صفر، فارتبكت سارة وأشاحت بوجهها بعيدًا، ثم هبَّت واقفةً وأخذت تجوب الردهة جيئةً وذهابًا.

ذكرياتها الدفينة تتصارع من جديد لتطفو على سطح عقلها.. لقد تذكرت أمرًا.. فعقدت حاجبيها وأمسكت بقلادة ذهبية تتدلى من عنقها، تلك القلادة التي أهدتها إياها والدتُها في مرحلة المراهقة، أهدتها إيَّاها رغم كونها مشلولةً عاجزة..

قلادة أمرتها بعدم خلعها أبدًا.. بل أخذت عليها عهدًا وأيمانًا مُغلَّظةً بعدم فتح ذلك القلب الذهبي الذي يتوسطها حتى يحين الوقت المعلوم.. قلب نُحت عليه رمز لم تكن تدرك معناه قبل تلك اللحظة.. سهم غير مكتمل يلتف حول دائرة مركزية صغيرة مفرغة..

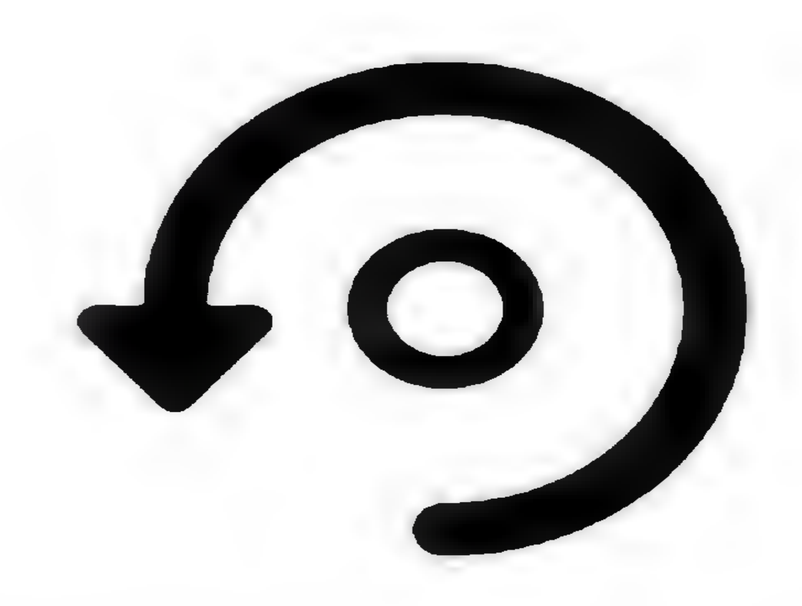
رمز له العديد من المعاني..

لكن في حالتها الخاصة، فإن له معنى يختلف..

معنى العودة إلى المركز..

إلى الأصل..

إلى الصفر..



***

تابَعها خالد في دهشة حتى عادت إلى مقعدها معتذرة، فاستكمل قصته. أخبرهما عن 34 عامًا قضاها في مكافحة الاحتلال مستخدمًا خبراته السابقة التي اكتسبها عندما كان يرتكن إلى المعسكر الخطأ، رافعًا رايةَ المحتل. كل شيء في حياته تغير 180 درجة بعد تلك الحادثة التي تعرض لها في 1915، بعد أن أنقذه «المؤرخ»، وجعله يرى المشهد من زاويةٍ أخرى، من زاوية المحتل المظلوم. اختار وطنه، وأسَّس «كفاح طِيبَة»، تنظيم المقاومة شديد البأس، المقاومة التي أمضى فترة شبابه يقاتلها ضمن صفوف المحتل دون أن يدري أنه كان يقاتل نفسه. أخبرهم كيف كان يتعجَّب في فترة شبابه من نجاح «كفاح طيبة» الدائم في مواجهته، كان التنظيم دائم التفوق والسبق بخطوة واحدة، دائمًا خطوة واحدة فقط تمثل الفارق لصالح المقاومة، ثم اتَّضح أنها كانت خطوته هو، خطوة «الأيوبي»، لقبه الذي اختاره تَبرُّكًا بصلاح الدين الأيوبي العظيم، مُحرِّر القدس وقاهر «الفِرنْجَة».

نظر إلى يحيى وثبَّت عينه السلمية في عَينَيْ الأخير قائلًا:

- أربعة وثلاثون عامًا أنتظر ظهورك يا «يحيى» لكي ندق معًا المسمار الأخير في نعش الإمبراطورية.. وأُعلن بدءَ معركة الاستقلال الأخيرة.

هتف يحيى في دهشة:

- تنتظرُني أنا؟!

أومأ خالد برأسه إيجابًا، ثم أجابه قائلًا:

- نعم.. أنت يا يحيى.. لقد علمتُ كل شيء.. أنت من صمَّمت «فريدة»، عصب الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وسلاحها الفتَّاك.. «فريدة» المتحكمة في نواحي الحياة المدنية والأسلحة العسكرية.. أنت مُبدعها والقادر على تدميرها.. ولا بد أن تفعل.

- أنا؟! أدمِّر «فريدة»! صنيعتي! هل أصابك الخبال؟!

هتف بهِ يحيى في نبرةٍ امتزج فيها الاستنكار بالدهشة، فعاجَله خالد قائلًا:

- لقد انتظرت قدومك لأكثر من ثلاثةِ عقودٍ يا يحيى؛ كي تخترق «فريدة» وتدمِّرها، فيلوح النصر ويتحقق الاستقلال.. أليست تلك هي قصص الاستقلال والحرية التي ألهبتَ بها حماستي، وأيقظتَ بها مشاعر كبرياء دفينة في ذلك اليوم البعيد في المستشفى العسكري؟ أليست تلك هي شعاراتك التي آمنت بها؟

أطرق يحيى خجلًا ثم قال:

- «نعم.. ولكن...»، صمت قليلًا وأدار عينيه بين خالد وسارة قبل أن يستطرد قائلًا: «أشعر بالخجل لقول ذلك، ولكن مشكلة هذا الزمن، هي شأن خاص بكم لا دخلَ لي بها.. أنا فقط أريد العودة إلى زمني وأسرتي.. ما بالي بمعركة استقلال لا ناقةَ لي فيها ولا جمل.. فقط أريد أسرتي».

صمت خالد محدِّقًا في وجه يحيى للحظاتٍ طالت أصابت الأخير بالحرج..

لقد حان الوقت.. استرجع خالد كلمات إسماعيل المضطربة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. لقد قال بوضوح: «النهاية هنا.. والنجاة هنا.. أعطِها له»..

إسماعيل كان يقصد يحيى.. يحيى الذي اخترق «فريدة» واستخدمها لإعداد الخريطة الزمنية، وما تبعها من اكتشافات بدَّدت الغيوم وكشفت غموض تلك الأحجية الزمنية، اكتشافات مهَّدت الطريق إلى اللحظة الحالية. يحيى الذي لم يتوقف دوره عند حدِّ المساعدة في حلِّ الأحجية الزمنية، بل يمكن أن يمتد حتى يُخضع «فريدة» لتكون البطل الأول في حرب الاستقلال..

لقد كلَّفه «المؤرخ» بحماية يحيى وضمان نجاته من جميع المخاطر التي تعرض لها منذ أن وطأت قدماه أرض هذا الزمن.. فنجاة يحيى تعني الكثير للمؤرخ؛ وكذلك تعني

الإبقاء على حظوظ شعب هذا الزمن في النصر والاستقلال...

رمق خالد يحيى بنظرةٍ حادّةٍ مُطوّلة، قبل أن يقول في هدوء:

- لك عندي رسالة قد تحسم بها أمرك.. رسالة تعود إلى عام 1915.

قالها ثم أخرج من جيبه صورةً فوتوغرافيةً قديمةً اصفرَّت بفعل الزمن مد بها يده إلى يحيى.. حدَّق الأخير في الصورة ذاهلًا.. يا الله! إنها صورته، تلك الصورة التي طبعتها «فريدة» منذ ساعات قليلة وهرب بها «أيمن».. فرفع رأسه ينظر إلى خالد الذي عاجَله وأعطاه قطعة بلاستيكية صغيرة على شكل مستطيل، تلك القطعة التي أعطاه إياها إسماعيل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ومعها الصورة.

خفق قلب يحيى في عنف وهو يختطف تلك القطعة البلاستيكية السوداء من يد خالد، فلقد تعرَّف عليها على الفور.. إنها الدونجل (Dongle).. أو جهاز التشفير الصغير الذي كان بحوزته يوم الحادثة في قِـيلّته في خطه الزمني الأصلي، «الدونجل» الذي اختطفه ابنه الصغير، آدم، قبل الحادثة بساعاتٍ قليلة.. هَبَّ يحيى من مقعده وأمسك بتلابيب خالد هاتفًا في غضب:

- كيف حصلت عليه؟! لقد كان بحوزة آدم.. ابني الصغير.. أجبنِي! هل قابلتَه؟! هل وجدتَ آدم؟

تحفَّز مقاتلو «كفاح طيبة» ورفعوا أسلحتهم في وجه يحيى، لولا أن أشار إليهم خالد بخفضها.

عقد خالد حاجبيه في شدة، فلم يسأل نفسه من قبل كيف حصل إسماعيل على ذلك الجهاز ولماذا أعطاه إيَّاه مع صورة يحيى.. أكان إسماعيل حقًّا ابن يحيى المفقود؟ أكان هو آدم؟!

تدخَّلت سارة وهدَّأت من روع يحيى، وطلبت من خالد المزيد من التفاصيل، فعلى ما يبدو أن ذلك الجهاز الصغير هو أحد طرفَي خيطٍ يؤدي إلى ابن يحيى الصغير.. أي ابنها هي الأخرى باعتبار ما سيكون..

ضاقت حَدَقتا خالد وهو يفكر مليًّا.. أيخبرهما بالحقيقة وأن إسماعيل القتيل هو ابنهما؟ ولكنه ليس متأكدًا من ذلك.. كما أنه يخاطر بمصير أمته بأكملها.. دور يحيى محوري في المعركة النهائية.. فحسم أمره وقال في هدوء:

- «لا.. ليس هو من سلَّمني إياه..»، صمت متأملًا علامات الإحباط تغزو وجهيهما ثم أضاف: «نفِّذ مهمتك وسأساعدك من أجل العودة يا يحيى.. فقط قُمْ بدورك هنا لمساعدة

شعبك، ووطنك، مصر».

دقائق صمت طويلة مرَّت.. لم يكن يحيى مقتنعًا بردود خالد المائعة حول الأمر، فكلما حاول يحيى أو سارة التدقيق في مسألة «الدونجل» وصاحبه، كانت إجابات خالد أكثر غموضًا.. المعلومات الزمنية لدى خالد تنير له الطريق، في حين لا يزالان هما يتخبطان في ظلام الجهل.. لا سبيل أمامه سوى الانصياع ومساعدة خالد، على أمل أن يفي الأخير بوعده ويساعده على العودة إلى زمنه..

زفر يحيى في حنق، ثم حسم أمره هو الآخر، فحتى وإن كان خالد كاذبًا بشأن وعده بالمساعدة، فإن المهمة التي كلفه بها هي مهمة نبيلة على كل حال.. مساعدة بلاده من أجل الحصول على استقلالها وشعبه على حريته، حتى ولو كانت في زمنٍ آخَر، هو أمرٌ شريفٌ وبطولةٌ مطلقة.

انتصر الحماس بداخل يحيى مرةً أخرى، بل انتصر عليه وأقنعه بوجاهة قراره.. أقنعه بأن وعد خالد المشكوك فيه هو وعد صادق، وجعل الأمل الواهن في عودته إلى زمنه احتمالًا ممكنًا، فزفر مجددًا ومَطّ شفتيه ثم قال:

- «موافق.. سأساعدك على شرط أن تساعدني لاحقًا كما وعدت». ثم أضاف في نبرةٍ شابَها التهكُّم: «وأفلح إن صدق».

ابتسم خالد وربَّت على ظهر يحيى في امتنان، فانتفخ صدر الأخير فخرًا وهو يرمق سارة بنظرةٍ أَلِفَتْها منه منذ أن التقته، نظرة فخر وخُيلاء، ولكن زاد عليها هذه المرة زهو البطل الأسطوريّ. انقشعت أحلام البطولة سريعًا هذه المرة، فهبَّ يحيى من مقعده يقطع البهو جيئةً وذهابًا، وقد عقد حاجبيه مفكرًا قبل أن يقول:

- ولكن تدمير «فريدة» ليس بهذه السهولة.. فهناك مشكلة. صمت قليلًا تأمل فيها الأعين المتسائلة قبل أن يتابع: «على الرغم من نجاحي في اختراق نواة «فريدة» إنني لا أستطيع تنفيذ بروتوكول «المسح النهائي» دون الولوج إلى جزءٍ متناهِي الصِّغَر في نواتها، لنطلق عليه اسم «النواة الأصلية»، وهو جزء شديد الحساسية ومحميّ بجدارٍ ناريّ وخوارزميات عصيَّة على الاختراق»... أطرَق مجددًا، فحبس الجميع أنفاسهم، قبل أن يتابع في خيبة أمل: «مع الأسف لا أستطيع الولوج إلى النواة الأصلية من هنا.. لا بد وأن هناك حاسوبًا مفتاحيًّا رئيسًا، بسيطًا في تقنيته ولكنه سرِّي، يُستخدم في مثل تلك الحالات.. حاسوب لا بد وأنه يقبع في أشد جهات الإمبراطورية تأمينًا».

جزَّ خالد على أسنانه ودفن وجهه بين كَفَّيْه في سخط، في حين أطرق يحيى وزفر في يأس..

- أنا أعلم مكان النواة الأصلية.. أعلم مكان ذلك الحاسوب المفتاحي».

قالتها سارة في هدوء، فالتفت كلاهما إليها وقد علَتْ وجهيهما نظرةُ أملٍ ودهشة، فتابعت:

- «إنه هناك في مقرِّ «فريدة» الأرضيّ.. مقر «الربوة». ثم تَنهَّدت في يأسٍ وهي تتابع: «لكنه كما قال يحيى، في أشدِّ جهات الأرض تأمينًا وحماية».

خَيَّم اليأس مجددًا على الجميع حتى لمعت عينا يحيى فجأةً، فهتف في حماس:

- «لديَّ خطة.. خطة نصفُها هنا، ونصفها الآخر هناك، في مقرِّ الربوة». ثم ابتسم ابتسامةً واسعةً وهو يضيف: «ولنُطلق على الخطة اسم «Rise of The Machines»؛ تيمُّنًا بأحد أقرب سلاسل أفلام الخيال العلمي إلى قلبي».

***

000001

5 ديسمبر 2019

3:00 بعد منتصف الليل.. مصر الجديدة

صَفَّ شريف سيارته في أحد الشوارع الجانبية القريبة من

منطقة «الكوربة» بمصر الجديدة. سار في خُطًى هادئة حذِرة حتى وصل إلى غايته. وقف يتأمل تلك الـڤـيلّا المهجورة، التي أتى عليها الزمن، فتهدمت أركانها، وتآكلت جدرانها، وأصبحت حديقتها الداخلية «خرابة» ومرتعًا للمدمنين.. ڤـيلّا من أوائل الـڤـيلّات التي شُيدت في هذا الحي الراقي أوائل القرن العشرين، ڤـيلّا شهدت أحداثًا مؤسفةً دامية منذ ما يزيد على القرن من الزمن، فهجرها الورثة وتركوها على حالها بناءً متهدمًا مهجورًا.

ڤـيلّا سكنتها أجيال مختلفة في أزمنة متفرعة، ڤـيلّا «إسماعيل الخازندار» التي سكنها عالِم الرياضيات الَخجُول قبل أن يتلقَى بداخلها طلقة غادرة أودت بحياته بعدها بدقائق معدودة.. ڤـيلّا مشئومة سكنها من بعده «شريف عزيز القاضي»، بعد أن جدَّدها في زمنٍ آخر.. زمن اندثر وتهاوى..

كان شريف قد خرج منذ فترة من المصحَّة النفسية التي أدخلته إيَّاها تانيا؛ لتلقِّي العلاج المناسب لحالته الصحية المتدهورة في ذلك الوقت منذ أربع سنوات كاملة.. قضى أشهرًا عديدةً لا يعلم عددها في تلك المصحة، حتى تعافى واستعاد ذاكرته بأكملها.. تذكَّر حياته منذ التقى «تانيا» للمرَّة الأولى أمام الشركة التي كان يعمل بها في القرية الذكية،

منذ قرابة خمسة وعشرين عامًا بحساب عمره الذي بلغ عامه الخامس والخمسين، وأربع سنوات بحساب التاريخ.. خمسٌ وعشرون سنة قضاها في صراعٍ مريرٍ تنقَّل خلالها بين جميع أطرافه، وحتى قرر الانفصال والعمل منفردًا، فلا هو ينتمي إلى الأصليين ودائرتهم الزمنية السوداء، ولا فرسان الزمن بندفتهم الثلجية الزرقاء..

لقد أعدَّ عُدَّته لتلك اللحظة النهائية، اللحظة التي يكسر فيها دائرة الزمن بلا رجعة ويحافظ كذلك على روح ابنته، سلمى، الأصل، أصل البداية وصفر النهاية..

لقد قام برحلتين زمنيتين قبل فُقدانه الذاكرة تمهيدًا لتلك اللحظة، رحلة أنقذ فيها «خالد صبري» وأعدَّه لإتمام مهمة خاصة في زمنه إذا صدق حَدْسُه وحساباته الأوَّلية، ورحلة أخرى قابل خلالها «إسماعيل الخازندار»، وطلب منه تحديد مواقع وتواريخ بوابتَي الانتقال الزمني، الذي يعرف موقع إحداهما، ويجهل موقع الأخرى؛ وكذلك موقع وتاريخ شرارة بداية الفَناء والاندثار.. خُطة مُحكمة ومتكاملة أعدَّها شريف على مدار سنوات عديدة.. خطة تنقصها خطوة واحدة فقط.. أو لنَقُل رحلة واحدة فقط..

رحلة زمنية واحدة وأخيرة..

لكنها رحلة تتطلب أدواتٍ محددةً وخطواتٍ تكميليَّة أخرى

لإنقاذ ابنته وأسرتها..

وقد عاد لاسترجاع الأدوات اللازمة لتلك المعركة الأخيرة..

معركة كسر دائرة الزمن..

زفر في عمقٍ ثم قفز فوق سور الـڤيلّا المتهدم، وأشعل مصباحه اليدوي ليساعده على التجوُّل في أنحاء الـڤيلّا التي عاش فيها سنواتٍ سعيدةً من حياته..

دلف إلى تلك الغرفة التي كانت يومًا ما غرفة مكتب أنيقة ذات أثاث فرنسي ثمين، دار ببصره في أرجائها حتى وجد بقايا المكتبة المحترقة. حاول جاهدًا حتى أزاح ذلك الجزء الخاص من المكتبة والذي يسد مدخل غرفة سرية صغيرة. ثابَر وحاول حتى نجح، وأزاح باب الغرفة السرية الحجري باستخدام أداة حديدية خاصة.

لمعت عيناه وتَنهَّد في ارتياحٍ حين وجد ذلك الصندوق.. الصندوق الذي تركه له إسماعيل منذ 104 أعوام.. صندوق يحتوي على أوراق قديمة خطَّها إسماعيل ليحدد فيها المواقع والتَّواريخ الثلاثة المحورية لاستكمال خُطَّته النهائية.. صندوق يحتوى بداخله على صندوق معدني آخر أصغر حجمًا يحتوي على أجهزة الانتقال الزمني اللازمة لرحلته الأخيرة..

رحلته الثالثة والأخيرة التي كان يجب أن يقوم بها منذ أكثر من 4 سنوات لولا البارون وخادمه الصارم فضي الشعر..

رحلة منع الفَناء وكسر دائرة الزمن إلى الأبد..

***

000001

6 ديسمبر 2019

10:00 صباحًا.. القاهرة.. مصر الجديدة

جلست «رانيا سليم» في أحد «الكافيهات» الدافئة المريحة المطلَّة على ميدان الإسماعيلية بحَيّ مصر الجديدة، سرحت بخيالها تتذكَّر اللحظة الأولى التي التقت فيها مع زوجها «يحيى المصري» في هذا الخط الزمني، منذ ما يقرب من الأربعة عشر عامًا في مقهى قريبة، أو كانت هي اللحظة الأولى بالنسبة إليه على الأقل. لا تزال تتذكر نظرة عينيه حين وقع بصره عليها في تلك الأمسية، تلك النظرة العاشقة التي لا تختلف كثيرًا عن مثيلتها حين رآها في ذلك الفرع الزمني الغابر، تلك النظرة التي لمست قلبها وأعادت إليها السَّكِينَة بعد ذكرياتٍ عصيبة. تَنهَّدت بعمق، ثم ارتشفت رشفةً صغيرةً من فنجان القهوة الإيطالية ذات الرائحة العبقة. لاحت على شفتيها ابتسامة حانية وهي تتأمل تعبيرات

البهجة وصيحات المرح التي يطلقها الأطفال من حولها، وهم يلوّنون بشغفٍ قِطَعًا مختلفةً من الفَخَّار والخزف المشهور به ذلك المقهى أو «الكافيه».

- صباح الخير يا رانيا!

قاطعها صوتٌ هادئٌ لرجلٍ وَقُورٍ في منتصف الخمسينات من عمره، رفعت بصرها إليه تتأمل وجهه بشيءٍ من الاشتياق، لحظات قليلة مرت وهي تتطلَع إلى قسماته وتتأمل عينيه بنظرات دافئة حانية، ثم ابتسمت ابتسامةً خفيفةً وهي تقول بنبرةٍ شابها الحزن:

- صرت عجوزًا يا أحمد.. ثلاثون عامًا؟

- «خمسة وعشرون فقط.. أُدعى شريف الآن.. شريف عزيز القاضي»، أجابها بنبرةٍ ذات مسحةٍ ساخرة، ثم أضاف مبتسمًا: «كنتِ تعلمين كل شيء منذ البداية، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها إيجابًا ثم أشارت إليه بيدها تدعوه إلى الجلوس. اتخذ شريف مقعده أمامها قبل أن تطلب له رانيا فنجانًا من القهوة على الطريقة الفرنسية التي يعشقها. ثم غمزت له بعينها وهي تقول:

- «يمكنك أن تناديني باسمي الحقيقي، «سلمى»، فلم يُنادِني أحدٌ به من قبل». ثم رَفعتْ حاجبيها واستطردت في

تهكَّم: «ومع ذلك لا يمكنني أن أناديك بلقب «أبي»، فلا أزال أذكرك كزميلي الأصغر سنًّا في العمل، أحمد سالم».

اتسعت عينا شريف في دهشةٍ رغمًا عنه، هو يدرك مسبقًا أنها تعلم الأمر كاملًا، يعلم منذ اللحظة التي تحدثا فيها تليفونيًّا منذ عدة أيام لترتيب هذا اللقاء، لكنها لا تضيع وقتًا كعادتها، عادتها التي خَبرَها عندما كانا يعملان معًا في الشركة ذاتها وحتى تركها في 2015. انتزعته من دهشته حين تَنهَّدت، ومطَّت شفتيها في استسلامٍ قبل أن تقول:

- الليلة إن لم أكُنْ مخطئةً؟

- 9:56 بالضبط.. ثلاثة فرسان وقائدهم توماس.

صمتت قليلًا تتأمله، ثم تَنهَّدت قبل أن تقول:

- بالطبع هذه ليست المرة الأولى التي نجلس فيها ونتحدث عما سيحدث مساء اليوم؟

هز رأسه نافيًا قبل أن يقول بنبرةٍ صادقة:

- «لا، هي المرة الأولى». ثم أطرق قليلًا قبل أن يضيف: «حاولت التدخل بمفردي مرتين وكانت النتيجة مأساوية.. هذه المرة تختلف».

- وما الفرق؟ لا أمل؟

- لا! هناك أمل.. لديَّ معلومات دقيقة، واستراتيچية جديدة، وخُطة مُحكمة.. هذه المرة تختلف يا سلمى.

قطع جملته وأطبق شفتيه وأشاح ببصره عنها، فهزت رأسها تدعوه أن يكمل. زفر في عمقٍ قبل أن يضيف:

- أعتقد أنها فرصتُنا الأخيرة، آخر محاولة.. لا يوجد فرصة أخرى.. الزمن انهار فعليًّا.. انهار بلا رجعة.. نحن فقط نحاول إنقاذ ما تبقَّى.

عقدت حاجبيها في محاولةٍ للاستيعاب قبل أن تسأله في جدية:

- ماذا تعني؟ أتقصد أن الزمن «سوف» ينهار؟ في المستقبل، أليس كذلك؟

هز رأسه نافيًا، ثم أشار بيده في إيماءةٍ تعني إلى الوراء، وأجابها في بطء، وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- لا، بل في الماضي! الانهيار بدأ فعليًّا في الماضي. حادثة وقعت في الماضي مزقت نسيج الزَّمَكَان وجعلته يتآكل ويتهاوى من حولنا.

اتسعت عيناها في دهشةٍ ثم أشارت بيدها فيما حولها وهي تهتف مستنكرةً:

- كيف؟ كيف انهار الزمن في الماضي ونحن لا نزال نعيش الحاضر؟

هز رأسه علامةَ تفهُّمه استغرابها، ثم تَنهَّد قبل أن يُجيبها في هدوء:

- سأقص عليك قصة توضح الفكرة.. قصة سمعتها من مصدرها بالمناسبة. غمز لها بعينه ثم أضاف: «هل تعلمين كيف بدأ أينشتاين يفكر في نظريته الأهم، «النِّسبيَّة العامَّة»، التي تربط الجاذبية بالزمن؟ صمت للحظةٍ حتى ينتابها الفضولُ ثم أضاف: «في سنة 1907، سنتين بعد نظريته «النسبية الخاصة» أو E = mc2 الشهيرة، خطرت في ذهنه فرضيَّة مجنونة. أن ماذا لو اختفت الشمس فجأة؟ اندثرت دون سابق إنذار؟» فرقع وُسْطاه وإبهامه معًا في الهواء ليوحي بالمفاجأة ثم أضاف: «ضوء الشمس يحتاج إلى 8 دقائق تقريبًا كي يصل إلى الأرض، إذًا فسكان الأرض لن يدركوا المصيبة إلا بعد مرور 8 دقائق كاملة، وحتى وصول آخر شعاع ضوء من الشمس. 8 دقائق نظن أن الشمس موجودة رغم أنها اندثرت. 8 دقائق كاملة من الحياة الطبيعية مع الجهل بمصيبة حدثت بالفعل في الماضي.. مصيبة وقعت منذ 8 دقائق في الماضي تحديدًا».

تأمل نظرة الاهتمام الممزوجة بعدم الفهم في عينيها،

فتابع:

- استمر أينشتاين في تفكيره وفرضيَّاته المجنونة، فبما أن الأرض تدور حول الشمس دورةً كاملةً كل سنة بفعل جاذبية الشمس، فكَمْ مرةً ستدور الأرض حول موقع الشمس قبل أن تدرك أن الشمس نفسها قد اختفت من الوجود بالفعل منذ زمن؟ أي كَمْ من الزمن نحتاج حتى يختفي تأثير جاذبية الشمس وتهرب الأرض إلى الفضاء السحيق؟ الكل يعلم أن الضوء هو أسرع شيء في الكون، والجاذبية هي أضعف قوى الطبيعة الأساسية الأربع، فبالتأكيد فترة الجهل بالمصيبة ستكون أطول. مَطَّ شفتيه ثم أضاف: «هذه كانت البذرة الأولى في نظرية «النسبية العامة» المعقَّدة، 8 سنوات كاملة قضاها أينشتاين بين التفكير والتنظير والفشل، حتى توصل إلى النظرية التي غيرت مفهومنا عن الزمن، قبل أن ينشرها أخيرًا في عام 1915».

مال إلى الأمام مثبتًا عينيه في عينيها مباشرةً، ثم قال في بطء:

- نشرها تحديدًا في يوم 25 نوفمبر 1915. يوم بداية انهيار الزمن. يوم الكارثة التي مزقت نسيج الزمكان وأدت إلى انهيار خطوط زمنية بأكملها. تمزُّق أو تهتُّك تأثيره لم يصل إلى خطِّنا الزمني الحالي. نحن لا نزال نعيش في

مرحلة الجهل بالمصيبة. صمتَ للحظةٍ ليعطيَها فرصة تدبُّر ما قال، ثم أضاف: «أنا شخصيًا حضرت انهيارًا زمنيًا منذ خمس سنوات، وهربت منه في اللحظة الأخيرة. نفس الخط الزمني الذي تزوّجتُ فيه أمَّك ورزقنا الله بك يا سلمى».

***

أطرق شريف في أسى، عندما تذكر ذلك الخط الزمني المنهار. ذلك الخط الذي شقَّه بنفسه باستخدام ذلك الدبلوماسي البريطاني، مُعلنًا ميلاد «المؤرخ» شريف عزيز القاضي. الخط الزمني الذي هرب إليه واستقر فيه ثم تزوج من أمها وأنجبها، ذلك الخط الذي انهار بعد أن هربت مايا بسلمَى الرضيعة تاركةً والدَي الأخيرة لمصيرهما المجهول. مايا التي تخفَّت وغيرت اسمها، ثم ذابت في مجرى الزمن، وكانت نذيرَ شؤمٍ على كل مَن اقترب منها. كَمْ يُبغض تلك المرأة، «مايا»، التي حرمته من ابنته. انتابته في تلك اللحظة مشاعر مختلطة تجاهها، أهو يكرهها أم يدين لها بحياة ابنته؟ يكرهها لأنها تخلَّت عن ليلى، زوجته وأُمّ سلمى، وتركته يصارع الموت في زمنٍ ينهار وهربت بابنته؟ أم أنه مَدِينٌ لها بتربية سلمَى والتضحية من أجلها وإنقاذها مرتين، بل إنقاذها منه هو شخصيًا، والدها ومحاولاته المستميتة لقتلها دون أن يدري أنها ابنته وأن....

- لم أكن أعلم تعمُّقك في الفيزياء؟

قاطعت رانيا أفكارَه بصوتها الهادئ ذي النبرة الساخرة، التي تعمَّدت ألَّا تخفيَها وقد أدركت ما يجول بخاطره، فزفر في عمقٍ ثم أجابها بنبرةٍ حاول أن يجعلها مَرِحة:

- طبعًا! فيزياء كلاسيكية، وفيزياء كمِّيَّة، وغيره.. خمسة وعشرون عامًا يا سلمى حدث فيها الكثير.

- بالنسبة إليّ لم يتعدَّ الأمر أربع أو خمس سنوات. احْكِ لي ما حدث لك منذ انقطاعك عن العمل في الشركة في 2015.

كانت تدرك تمامًا أن اليوم هو يومٌ مصيريٌّ بالنسبة إليها وإلى أسرتها، بل وإلى خطها الزمني ونسيجه الزمكاني ككل، لكنها لم تقاوم فرصة أن تستمع إلى قصة والدها كاملة، القصة التي أثَّرت في ماضيها وحاضرها وستحدد مستقبلها. فحتى لو كان اليوم هو آخر أيامها، فإن حقها عليه أن يخبرها بالحقيقة، الحقيقة كاملةً كما لا يعرفها أحد، الحقيقة التي يتَّمتها وشرَّدتها وجعلتها هدفًا ثمينًا تتم مطاردته عبر خطوط زمنية متشابكة.

زفر مجدَّدًا ثم انطلق يقصُّ عليها كل شيء، قصَّ عليها القصة من بدايتها، منذ أن التقى «تانيا» المقاتلة ذات الأصول الألمانية التي انشقَّت عن جماعة «الأصليِّين»؛ لكفرها

بأهدافها وأساليبها وغايتها الكبرى. انشقت عندما علمت أن جماعة «الأصليين» تسعى إلى الحفاظ على تلك الدائرة الزمنية الأزَليَّة المغلقة التي ستنتهي بانهيار الزمن وفَنَاء مليارات الأرواح البريئة. حكى لها كيف أقنعته بالانضمام إليها، فشكّلا معًا تنظيم «فرسان الزمن»، ورمزه «ندفة الثلج» السُّدَاسيَّة الزرقاء، ذلك التنظيم الذي أقسم على كسر دائرة الزمن والخروج من تلك الدائرة المفرغة.

وعلى الرغم من نُبل أهداف تنظيم «فرسان الزمن»، فإنه تنظيم يؤمن بمبدأ «الغاية تُبرِّر الوسيلة»، فإذا كانت الغاية هي الحفاظ على مليارات البشر، فما الضير إذًا من إزهاق بضع عشرات من الأرواح لتحقيق تلك الغاية النبيلة. الغاية كانت «كسر دائرة الزمن» أما الوسيلة فكانت القضاء على «الأصل» أو «المسافر صفر»، المسافر الذي سيمزق نسيج الزمكان ويهدم الزمن، التَّوصُّل إلى الأصل وقتله وقتل كل مَنْ كان على علاقة به أو يُشتبه في علاقته به.

لا مجال للخطأ، ولا مجال للعواطف. حياة «الأصل» في مقابل حياة مليارات البشر. حسبة بسيطة ومنطقية وكاسحة.

تَنهَّد في أسى حين التقت أعينهما، فأطرق قليلًا يسترجع تلك الذكريات الأليمة. رَبّتَت رانيا على يديه في حنان، فمطّ

شفتيه وواصَل قصته. كشف لها كيف هرب مع تانيا واستقرّا في ألمانيا أوائل القرن العشرين، حيث درَّبَته على أساليب القتال العنيفة المختلفة، تدريبات لاقت هوًى في نفسه، فاستعذبها واجتهد فيها حتى أجادها وأصبح ذلك المقاتل الذي لا يشق له غبار. قصَّ عليها كذلك كيف استمتع بإقامته في ألمانيا في تلك الفترة إلى جوار علماء الفيزياء العباقرة، أمثال ماكس بلانك، وأينشتاين، وشرودنجر، وبسكال جوردون، وماكس بورن، الآباء الشرعيين لميكانيكا الكَمّ والنظرية الكمِّية، وكذلك علماء الرياضيات أمثال ديڤيد هيلبرت وإسماعيل الخازندار. قص عليها في مرح كيف روى ظمأه، وأخمد لهيب ولعه بالفيزياء فكان يسافر عبر الزمن ليلتقي بهؤلاء الجهابذة؛ سواء في ألمانيا أو الدنمارك أو مختلف الدول الأوروبية، حيث استهوته أحاديثهم ونظرياتهم، في حين استفادوا هم من بعض ملاحظاته العلمية المستقبلية. تعمَّق أكثر في ذلك الفرع الجديد من الفيزياء في ذلك الوقت، ميكانيكا الكَمّ التي غيَّرت النظرة الكلاسيكية للكون كما نعرفه، فوجد فيها بعض الإجابات المنطقية لواقعه المرتبك ومفارقاته المتعددة.

- أفهم من ذلك أن السفر عبر الزمن يتم بواسطة ميكانيكا الكَمّ؟

سألته رانيا في جدِّية، فأجابها بجدية مماثلة:

- بالضبط! سأحاول الشرح بطريقة مبسطة. هناك تقنيتان للسفر عبر الزمن، كل تنظيم لديه طريقته وتقنيَّاته الخاصة؛ تقنية «الأصليين»، وتقنية «فرسان الزمن». الأولى تعتمد على خاصية «التشابك الكَمِّي» أو Entanglement، عن طريق تغيير الحالة الكمِّية لجزيئات المسافر الزمني في نقطة «أ»، فينتج عنها تغيير الحالة الكمِّية لجزيئات مقترنة بها في النقطة «ب» على الطرف الآخر من «نفق كمِّي» لا يتأثر بالزمن أو المسافة. انتقال في الزمان والمكان بصورة آنِيَّة. ابتسم في مرح وهو يضيف: «أينشتاين أطلق على «التشابك الكمِّي» وصف (Spooky Action) أو السلوك الشَّبَحي؛ لأنه سلوك لا يعترف بمسافة طالت أم قصُرت». ثم عاد إلى جديته وهو يتابع: «طريقة «التشابك الكمِّي» كانت تعتمد بصورة أساسية - في بدايتها على الأقل- على البصمة الـجـينية للمسافر؛ ولذلك كانت تستخدم «دبوسًا زمنيًّا» حادًّا يخترق الجسم ويختلط بالدماء. تم تطوير التقنية لاحقًا بحيث تسمح للمسافر بالتنقل بملابسه وسلاحه ومتعلقاته، وليس عاريًا كما كان الحال في البداية».

أضاءت كلماته بؤرًا مُهملَة منسيَّة في ثنايا ذاكرتها، بل شعرت بوخز إبرة حادة في ساقها، فتقلصت عضلات وجهها،

ووضعت يدها بصورة لا إرادية على ساقها اليُمنى.

قطع شريف حبل ذكرياتها، حين استطرد بنفس الجدية:

- أما الطريقة الثانية، طريقة «السَّوَّار الزمني» فتعتمد على قوى الطبيعة الرئيسة الأربع؛ القوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة، وطبعًا قوة الجاذبية.. التنقُّل الزمني هنا يعتمد على نموذج جديد ومتفرِّد وشديد التعقيد لنظرية «الحقل الكمِّي». وتلك التقنية تُعدُّ الأكثر تطوُّرًا ودقة، لكنها الأشد خطورةً في الوقت ذاته.

عقدت حاجبيها ونفضت عنها تلك الذكريات السحيقة، وسألته:

- مَنْ صنع كل هذا؟ وما غرضهم؟

شرد ذهنه لبرهة، ثم هزَّ كتفيه بمعنى أنه لا يعلم، قبل أن يتابع في شرود:

- «لا أحد يعلم على وجه الدقة.. أُناس من المستقبل يتمتعون بعلوم وتقنيَّات متقدمة للغاية». مَطَّ شفتيه ثم أضاف: «تانيا كانت لديها فرضية معينة. كانت تعتقد أن علماء من المستقبل استخدموا تقنياتهم المتقدمة في التَّواصُل مع أُناسٍ من الماضي عبر كبسولات أو رسائل زمنية».

- رسائل زمنيَّة!! مَنْ مُرسِلُها؟ ولماذا؟

- لا أعلم.. كبسولات زمنية من رجال المستقبل إلى خدامهم في الماضي.. استخدموهم لبناء البوابات الزمنية أو على الأقل تشييد بنيتها التحتية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

- أية بوابات زمنية؟!

قالتها رانيا في دهشةٍ تضاعفت مع كل إجابة يلقيها عليها، فرفع يده اليُمنى مشيرًا بسَبَّابتها ووُسْطاها في إيماءةٍ تعني الرقم 2، قبل أن يجيب:

- بوابتان زمنيتان أو جهازان على وجه التحديد. البوابة الأولى تستخدم تقنية «التشابُك الكمِّي»، والثانية تعتمد على قوى الطبيعة الأربع.

- هل يمكننا تحديد موقع هاتين البوابتين؟ بل وتدميرهما فينتهي الأمر من فوره؟

لاحت على وجهه ابتسامة واسعة ثم أخرج من جيبه عدة أوراق قديمة مطوية اصفرَّت بفعل الزمن، ثم فضَّها أمام عَينَيْ رانيا التي تأملت الدوائر العديدة المتشابكة والأرقام والمعادلات المعقدة، التي انتهت بإحداثيات رقمية وزمنية.

أشار بسَبَّابته إلى نقطتَي تقاطع تلك الدوائر ثم قال في بطء:

- لقد تم تحديد موقع البوابتين بالفعل.. لكن تدميرهما يتطلَّب تحديد موقع الخط الزمني والتاريخ الأنسب لتدمير كل بوابة؛ ومن ثَمَّ منع الهلاك وتمزُّق نسيج الزمن. ثم اتسعت ابتسامته وهو يضيف: «ولقد حددنا الإحداثيات الزمنية بالفعل وبدقَّة عالية».

ساد الصمت لحظات، قبل أن تسأله في اهتمام:

- كيف سيتمزق نسيج الزمن؟

- Annihilation.

- ماذا؟!

- الفَنَاء أو الاندثار.. عندما تصطدم المادة والمادة المضادة(Antimatter)، إلكترون وبوزيترون يتصادمان فتفنَى المادة وتنطلق طاقة شديدة على هيئة أشعَّة جاما.

- وما سبب حدوثه في المقام الأول؟ ما مدى تأثيره على نسيج الزمكان؟

- الفَناء الكامل سيحدث نتيجةَ انتقالٍ زمنيٍّ لشخصٍ واحد نحو نفس النقطة من اتجاهين مختلفين. اتجاه نحو الماضي واتجاه مضاد نحو المستقبل. اتجاه يستخدم المادة والآخر

يستخدم المادة المضادة، ثم يحدث التصادم. ضمَّ أصابع يده ثم فتحها في إشارةٍ تعني الانفجار وتبعها بصوتٍ مشابهٍ من فمه وأضاف: «وتبدأ النهاية، يبدأ الفناء والاندثار. تفاعُل تَسلسلِي متصاعد ولا نهائي يمزق نسيج الزمكان تمامًا، فتتهاوى الأفرع الزمنية الواحد تلوَ الآخر في نقاطٍ زمنيةٍ مختلفة».

اتسعت عيناها في جزع، ثم ازدردت لُعابها وهي تسأله:

- هل من الممكن منعه أو إيقافه؟

حدَّق شريف في عينيها للحظات، ثم أطرق مفكرًا قبل أن يتَنهَّد في عمق ويومئ برأسه إيجابًا وهو يقول:

- بالتأكيد! وهذا بالتحديد كان سبب تمحور الصراع الزمني حول «المسافر صفر» أو «الأصل». أصل التمزُّق الزمني وبدايته.. المسافر الذي سينتقل زمنيًا إلى نفس النقطة من جهتين متقابلتين.. مادة ومادة مضادة.. لهذا كان الصراع يتمحور حولكِ أنت يا سلمى؛ لأنك أنت الأصل.

***

لم تعلِّق رانيا واكتفت بابتسامةٍ هادئةٍ وهي تتأمل وجه والدها وقد تقلَّص في أسى، ثم مد يده يمسك كفَّها في حنانٍ قبل أن يسحب نَفَسًا عميقًا وينفُثه في حزمٍ قبل أن يتابع في

صرامة: «لن أسمح لأحد أن يَمسَّك بسوء يا سلمى.. سأهدم البوابتين وينتهي الخطر.. لا حاجة لأحد في أذيَّتك.. كما أن إحداثيات النهاية تعود إلى منتصف ليل 25 نوفمبر 1915؛ أي 50 دقيقة كاملة عقب مغادرتكِ ذلك الخط الزمني.. قد تكونين أنت الأصل لكنكِ لستِ سبب النهاية بكل تأكيد».

اتسعت ابتسامتها وهي تنظر إلى وجه شريف الصارم، ثم رَبَّتت على يده في حنانٍ هي الأخرى قبل أن تقول:

- لا حاجة لك في ذلك.. فلست أنا الأصل من الأساس.. المسافر صفر يعود إلى ماضٍ بعيد.. إلى عام 1867.

اتسعت عيناه ذهولًا وهو يحدِّق في وجهها، فخلعت من حول عنقها قلادة ذهبية يتدلى منها قلبٌ ذهبيٌّ نُحت عليه سهمٌ مُلتوٍ ودائرة فارغة. فتحت القلب وأخرجت من داخله ورقة صغيرة مطوية قديمة، فردتها بعناية على المائدة ثم أشارت إلى ذلك الاسم الذي يحتلُّها، وقالت في هدوء:

- هذا هو اسم المسافر صفر.

- كيف عرفتِ؟ من خَطَّ هذه الورقة؟

سألها شريف ولم يغادره الذهول وقد خفق قلبه في عنف، فمطَّت شفتيها قبل أن تقولَ بشيءٍ من الحزن:

- «والدي بالتبنِّي في صِغَري.. إسماعيل الخازندار.. أعطاها لأمينة أو مايا كما يحلو لك أن تسميها.. وهي أعطتها لي تحسُّبًا لتلك اللحظة».

ساد الصمت للحظاتٍ طالت، شرد فيها ذهن شريف مسترجعًا ذكرياتٍ عديدة جمعته بالأصل.. ورغم الشجن والذهول من معرفة شخصية «الأصل»، أو المسافر الأقدم، فإنه تنفس الصُّعَدَاء لأن رانيا لم تدرك بعد أن إسماعيل الذي قُتل أمام عينيها هو بذاته، آدم، ابنها.. «آدم يحيى المصري».

تذكر لقاءه الأخير مع إسماعيل، وقبله لقاءات أخرى حاول خلالها إنقاذه من مصيرٍ دامٍ محتوم، لكنه فشل. دائمًا ما انتهت محاولاته بالفشل وبمصير أكثر دموية، وكأن دائرة الزمن تصرُّ على نهاية إسماعيل على يديه.. ولكن على الأقل فقد نجح العبقري في كسر شفرة الأُحجيَّة الزمنيَّة أخيرًا، وحل أجزائها العصيَّة.. لم يكن موتُه هباءً هذه المرة.

زفر في عمق، ثم شرع يقصُّ عليها كيف كان يعتقد الجميع بالفعل أنها هي الأصل والمسافر صفر؛ استنادًا إلى نتائج «فريدة» وأوراقها البلاستيكية الذكية التي تم تناقلها عبر الزمن. وعلى الرغم من أن البصمات الزمنية للأصل كانت صفرية في أوراق «فريدة» تلك، فقد نجح علماء «فرسان الزمن» في فكِّ رموز تلك البصمة المُشفَّرة، وتتبُّع صاحبتها،

ولكن يبدو أنهم لم ينجحوا في ذلك. أوضح لرانيا أن التشابه الشديد بين بصمتها الزمنية وبين بصمته هو شخصيًا قد أدى إلى بعض الخلط. ابتسم ليخفف من حدَّة الموقف، ثم تابَع يقص عليها كيف كان يعتقد أنه هو شخصيًا الأصل والمسافر الصِّفْريّ، فدفعته غريزة البقاء إلى الانشقاق عن «فرسان الزمن» والهرب، بل كرَّس سنوات عمره اللاحقة من أجل تعميق التشعُّب الزمني والهروب في أفرع زمنية مختلفة؛ حتى ينقطع أثره ويصعب تتبُّعه.

لاحت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يخبرها عن آخر عملية قام بها تحت مظلة «فرسان الزمن»، والتي كانت في 25 نوفمبر 1915 لاصطياد مسافر زمني معروف بلقب «المؤرخ»، مسافر يعمل على تعميق التفرُّع الزمني، ثم اتسعت ابتسامته وهو يشير بسَبَّابته إلى صدره موضحًا أنه أدرك فيما بعد أنه هو بذاته كان ذلك «المؤرخ». هز رأسه مُتهكِّمًا وهو يحكي كيف شارك آنذاك في مهمةٍ لاصطياد نفسه دون أن يدري، ودون أن يدري الجميع أن بصمة القفزة الزمنية للمؤرخ قد نتجت عن رحلته هو شخصيًا في تلك المهمة لقتل نفسه.. دائرة مُفرَّغة ومفارقات زمنية تُدير الرؤوس..

ثم استحالت ابتسامته الساخرة إلى أخرى حانية، وهو

يتذكَّر كيف أنه رفض قتل تلك الرضيعة في ذلك اليوم، وأنه هرب بها إلى خَطٍّ زمنيٍّ آخر يُعد من أبرز أعمال «المؤرخ» التي يفخر بها. استأمن البعض في ذلك الخط الزمني على الرضيعة حتى كبُرت وبلغت أشُدَّها، فجمعتهما الظروف لاحقًا بعد ثلاثة عقود بالنسبة إليها، فأحبها وتزوجها وأنجبا معًا ابنتهما الوحيدة، سلمى.

نظرت إليه في ذهول، فأومأ برأسه إيجابًا وهو يضيف:

- نعم يا سلمى.. ليلى أمك هي بذاتها ليلى خالد صبري.

***

حدَّق في عينيها الذاهلتين، واختلج قلبه شفقةً عليها، فهو يدرك طبيعة ما يجول بخاطرها في تلك اللحظة، فأطبق شفتيه مُطرقًا كي يمنحها الوقت اللازم لتجرُّع تلك المفاجآت المتتالية. شرد ذهنها، وعمل عقلها في بطء يربط الأحداث والأشخاص بكل الصدمات والمشاعر المتناقضة التي عاشتها في تلك الحياة المضطربة. فجأة ترابطت الخيوط وتوهَّجت فأضاءت تلك البُؤَر المعتمة في عقلها، إنها لحظة التنوير كما يجب أن تكون، أصبحت الأحداث مترابطة ومنطقية، قد تكون أليمة لكنها منطقية ومترابطة.

لحظات طويلة مرت قبل أن تشير إليه ليستأنف قصته.

أوضح لها كيف عاش هاربًا في ذلك الخط الزمني الخاص واستقر فيه، وعاهد نفسه على التَّوقُّف عن لَعِب دور المؤرخ والامتناع عن القفز الزمني، فاستقر مُكوِّنًا أسرة صغيرة، مُمنيًا نفسه بحياة هادئة مستقرة. واستمرت حياته هادئة حتى عثرت عليه «مايا» ومن بعدها «عادل»، مساعد البارون مؤسس تنظيم «دائرة الزمن»، فاختلفا مجددًا حول دور «سلمى» في الحفاظ على دائرة الزمن المزعومة، فكانوا لا يزالون على قناعاتهم بأن «سلمى» هي الأصل و«المسافر صفر» التي يجب أن تمضي إلى مصيرها المحتوم وتمزق نسيج الزمن؛ تمسُّكًا بأملٍ واهٍ في العودة إلى نقطة البداية والبدء من جديد. اختتم قصته بما حدث لاحقًا من فُقدانه للذاكرة ومعركته الأخيرة مع مقاتلي «فرسان الزمن» في قِيلَّته في مصر الجديدة، والقفزة الزمنية من خطٍّ زمنيٍّ ينهار، ثم هروبه من مزرعة «الأصليين»، وما تلاه من دخوله المصحَّة لتلقِّي العلاج وحتى اللحظة الحالية.

***

- كفَى! ما المطلوبُ منِّي فعله اليوم تحديدًا.

قالتها رانيا في استسلام، لقد سمعت ما يكفيها، وقد حان الوقت لمعرفة واجبها في حماية أسرتها، ودورها في حماية نسيج الزمن الممزق، ومنع مصيبة نهائية وشيكة.

زفر شريف في حرارة، ثم أخرج صُندوقًا صغيرًا يحتوي بداخله على أربعة أقراص معدنية صغيرة تتوسطها دائرة سوداء مُعتِمة، وضعها في يد رانيا ثم قال بنبرةٍ حانية:

- هذا مفتاح نجاة أسرتك يا سلمى.. تلك الأقراص هي عبارة عن Temporal Beacon، منارة أو قرص إرشاد زمني، حصلت عليها أثناء انخراطي مع فرسان الزمن.. ضعي واحدًا في جيبك والباقي في جيوب يحيى ومصطفى وآدم.. وفي اللحظة المناسبة ستتنقلون جميعكم بين خطوط زمنية مختلفة كنوعٍ من التمويه، قبل أن تجتمعوا مُجدَّدًا في خط زمني آخر آمن وبعيد.

- أليس هذا ما حدث من قبل مع يحيى وشرَّد الأسرة بأكملها؟

- «هذه المرة مختلفة.. صدقيني.. ستجتمعون ثانيةً كأسرة واحدة لكن في خط زمني آمِن بعيد.. أعِدُك بذلك». صمت قليلًا وتَنهَّد قبل أن يقول بنبرةٍ حانية: «يجب أن أطمئنَّ عليكِ يا سلمى.. فتلك المهمة هي أهم المعارك الزمنية وأشدُّها خطورة».

- ما خُطَّتكَ؟

- عمليتان زمنيتان متزامنتان لتدمير بوَّابتَي الانتقال

الزمني ومنع الفَناء.

- وماذا عن الأصل؟

مطَّ شفتيه وهزَّ رأسه في حيرة وهو يقول:

- ماذا بشأنه يا سلمى؟ لقد أعددتُ العُدَّة لتدمير البوابتين وحمايتك فقط.. هذا بالتأكيد أمر شديد الصعوبة عليَّ وعلى قلبي.. لكن ليس لديَّ رفاهية الوقت ولا الإمكانات لإعداد خطة جديدة.

- بل ليس لدينا رفاهية الخطأ يا أبي.. تلك هي فرصتُنا الوحيدة.. إما النصر وإما الفَناء.. فلنجعلها «كمَّاشة زمنيَّة» متكاملة.. ثلاث مهمات متزامنة.. أنت ومن جنَّدت تدمرون البوابتين. صمتت وثبَّتت ناظريها في عينيه ثم قالت في بطءٍ وهي تؤكد على مخارج ألفاظها: «أما الأصل ومنعه، فاترك الأمر لي.. فأنا كفيلة به».

- هذا ينطوي على مخاطرة كبيرة بالنسبة إلىك يا سلمى.. كما أنني لا أمتلك جهازًا إضافيًا للانتقال الزمني.

- لديَّ واحد حصلت عليه منذ خمسة عشر عامًا.. لا تشغل بالك.

قالتها وابتسمت ثم أخرجت من جيبها دبوسًا زمنيًا طويلًا

مُدبَّبًا، تتوسط دائرتَه العلوية كرةٌ سوداءُ مُعتِمة. فغر شريف فَاهُ دهشةً متسائلًا عن كيفية حصولها عليه، فأعرضت عن الإجابة وتابعت في حزم:

- فلننهِ الأمر مرةً واحدةً وإلى الأبد. ثم كررتها بالإنجليزية: «Once and for all».

خَيَّم الصمت عليهما.. سكون مَهِيب لا تقطعه سوى ضربات قلوب متسارعة، عقدت العزم على وضعِ حَدٍّ نهائيٍّ لمعركة زمنية دامية.. معركة اختلفت أطرافها على نُبل المقاصد كما اختلفوا على دموية الأسلوب..

دقت قلوبهم طبول المعركة الأخيرة..

معركة تمثل نهاية صراع دموي ممتدّ عبر الزمن..

كمَّاشة زمنيَّة أخيرة..

فإما النصر وإما النهاية والاندثار..

***

25 نوفمبر 1915 (عشرون دقيقة قبل الكارثة)

11:40 قبل منتصف الليل.. قصر الخازندار باشا..

عبرَت سيارة مسرعة تثير وراءها عاصفةً من الأتربة بوابة

قصر «الخازندار باشا» في حي جاردن سيتي. ضغط قائد السيارة مكابحها في قوةٍ ليتوقف أمام باب القصر. جلس مُطرقًا خلف المقوَد للحظاتٍ يتمالك فيها أعصابه، قبل أن يزفر في عمقٍ ويعتمر «طربوشَه» ثم يغادرها متجهًا في خُطًى ثقيلةٍ نحو باب القصر. لم يكد يبلغه حتى فُتح الباب على مصراعيه، وامتدَّ خارجه ظلُّ الخادم يمتزج بظلٍّ آخَر يأتي من خلفه، ظِلُّ سيدةٍ تضع يدها على صدرها وتكتم أنفاسها ترقُّبًا لخبر أسود تتوقعه منذ الصباح.

تطلَّعت زينب هانم إلى وجه «صدقي» السائق الخاص لولدها إسماعيل، تطلعت إلى وجهه بعينين اتسعتا في تساؤل، وحبستا دموعهما في ترقُّب. وما إن التقت الأعين حتى نكس صدقي رأسه حزنًا وأسفًا، فصرخت زينب باسم ابنها إسماعيل، صرخة لوعة تردد صداها في أرجاء القاهرة الخديويَّة، صرخة خشعت لها الأصوات، وأخمدت موجاتها النيران فأظلم الكون من حولها، وتهاوت مَغشيًا عليها.

تعالت الصرخات وفاضت أعين الخدم بالدموع، بينما هُرع صدقي ومَن تمالك نفسه منهم إلى حطام سيدة القصر يسعفونها في جزع.

وفي الطابق الثاني، ومن خلف الأعمدة الرخامية لدرابزين السلم الداخلي الذي يربط طابقَي القصر، جلست سيدة

عجوز تخطت الثمانين على مقعدها المتحرك تراقب المشهد في صمت. ترقرقت عيناها بالدموع وقد اختلج قلبها واختنق حلقها بغُصَّة مريرة وهي تراقب مشهدًا كانت تدرك أنه آتٍ لا محالة.

أشارت العجوز إلى خادمتها، التي أجهشت بالبكاء بدورها؛ لتأخذها إلى غرفتها في نهاية الرُّوَاق. حاولت الخادمة السيطرة على دموعها دون جدوى، فانصاعت صاغرةً لأوامر سيدتها حتى بلغتا خزانة الثياب في الغرفة الواسعة. أشارت إلى خادمتها من جديد تأمرها بإخراج «الشَّكْمَجيَّة» العتيقة المصنوعة من خشب الورد والمزدانة بصَدَفٍ دمشقيٍّ يدويّ الصنع.

أمسكت العجوز بمفتاحٍ صغيرٍ يتدلى من قلادة ذهبية تلتفُّ حول رقبتها المجعَّدة. حدَّقَت في المفتاح الذهبي لوهلةٍ ثم أولجته بأصابع مرتعشة في رتاج الشَّكْمَجيَّة، وعالجته حتى أذعن لها. أمسكت الغطاء وهمَّت بفتحه لولا أن تراجعت فأطبقته وأطرقت برأسها في تردد.

انحسرت دموع الخادمة وهي تراقب سيدتها في فضول، أطرقت برأسها وهي تختلس النظرات بين الفَيْنَةِ والأخرى علَّها تظفر بنظرة تبرد نيران فضول اشتعلت بداخلها لسنوات، منذ أن انتظمت في العمل مع سيدتها العجوز. الشَّكْمَجيَّة

المقدسة، ذلك الصندوق المحرَّم عليها لمسه. كانت خادمة أمينة ومخلصة، فسمحت لها سيدتها بالاعتناء بها وبمتعلقاتها الخاصة بغَثِّها وثمينها، بل سمحت لها بتولِّي أمر مجوهراتها الثمينة في حضورها وغيابها على حَدٍّ سواء. كل الأمور مباحة إلا تلك الشَّكْمَجيَّة، قُدْس الأقداس الذي حان وقت تدنيسه.

اختلط الفضول بدهشة عارمة بداخلها للجوء سيدتها إلى شكْمَجيَّتها الغامضة في هذا الوقت العصيب والمصاب الأليم، أتُراه خَرَف الشيخوخة أم أن ذلك الصندوق الخشبي يحوي من الأسرار ما يعوض فقدان حفيدها الوحيد، إسماعيل، الشخص الوحيد الذي كان يُخرجها من صمتها وسكونها الدائم. إسماعيل حفيدها وأقرب أهل الأرض إليها قد قُتل غدرًا، لكنها أبت النحيب ولجأت إلى الشَّكْمَجيَّة!

قطعت العجوز أفكارها وأجَّجت نيران فضولها حين أشارت إليها بيدٍ صارمةٍ تأمرها بمغادرة الغرفة من فورها. همَّت الخادمة بالاعتراض فضولًا وخوفًا على سيدتها كذلك، لولا أنها اصطدمت بنظرات العجوز الصارمة الحاسمة التي تتعارض وملامحها الهادئة التي تكشف عن جمالٍ غابر، فاستجابت وغادرت الغرفة في خُطًى ثقيلة مترددة.

رفعت العجوز غطاء الشكمجيَّة..

وبصدرٍ يعلو ويهبط بفعل أنفاس متلاحقة متهدجة، حدَّقت في محتويات صندوقها الأثير وقد جفَّت الدموع في عينيها وضاقت حَدَقتاها.. ثم زفرت في حزمٍ وأخرجت المحتويات الثلاثة..

سلك أسود طويل تزيِّنه كرتان، إحداهما صغيرة والأخرى بحجمِ كفِّ اليد، كرتان تحتويان بداخلهما على معالجات كمِّية متقدمة..

وجهاز لوحي أسود سميك ذو فتحة جانبية أولجت فيها أحد طرفَي السلك، جهاز يزدان في أعلاه بصفَّيْن من خلايا الشحن الشمسية، التي شرعت تجمع بنَهمٍ ما تيسَّر لها من الطاقة المصاحبة لضوء الغرفة الأصفر الخافت.

وأخيرًا، سوار..

سُوار أسود لامع مُزيَّن بنقش «نُدْفَة الثلج» ذات الأفرُع المتشعِّبة..

سُوار زمني..

***

حدَّقَت العجوز في محتويات الصندوق، تلك المحتويات التي اجتازت معها رحلتها الزمنية الأولى والأخيرة، الرحلة

التي اجتازتها رغمًا عنها بعد أن ضغط زوجها زِرَّي السوار الزمني لينقذها من فرع زمني ينهار. زوجها الذي قتلته بيدها، أو هكذا تظن، قتلته عقابًا له على طفولة عاشتها محرومة من أبيها وأمها، والديها اللذين قتلهما شريف، زوجها وحبيبها. قتلته قبل أن تختطف «مايا» ابنتهما الرضيعة سلمى وتتوه بها في مجرى الزمن.

تذكَّرت «ليلى» تلك السنوات التي عاشتها وحيدةً صامتة، خمسون سنة منذ أن عثر عليها محمود باشا الخازندار مغشيًا عليها في شاطئٍ ناءٍ غرب مدينة الإسكندرية، بل منذ أن انتظر قدومها في تلك البقعة المُقفِرة في عام 1867، انتظر قدومها وعالج انهيارها النفسي، أو حاول علاجها؛ تنفيذًا لرسالة زمنية مستقبلية كلفته بذلك. رسالة مجهولة من مُرسِل قوي كاسح أمره بانتظار المسافرة الزمنية واستقبالها والاعتناء بها إلى وقتٍ معلوم.

سنوات طويلة عاشتها محطمة نفسيًا في قصور الخازندار. عشرات السنين من الألم والحسرة.. والغضب.

قتلت زوجها، وفقدت ابنتها الوحيدة..

فقدتهما معًا قبل أن تفقد زمنها وحياتها..

وكأن الدنيا استكثرت عليها الفرح..

استكثرت عليها سنواتٍ قليلةً من الفرح تفصل بين طفولة عاشتها يتيمةً مُطارَدة، وشيخوخةٍ قضتها مكسورةً وشبه قعيدة.

غضب هادر ورغبة انتقام عاتية..

سنوات طويلة استعرت خلالها مشاعر الغضب والألم..

مشاعر مستعرة وقودها ذكريات أليمة وأحاسيس غائرة من الحسرة، والغيظ.. والاشتياق.. الاشتياق لطفلتها الوحيدة وحبيبها الأول والأخير..

مشاعر حامية، ملتهبة، مكبوتة كانت على وشك الانفجار..

ثم جاءتها تلك الرسالةُ الزمنية. رسالتها الزمنية الأولى، قطرة أولى من غيثٍ لم ينقطع..

كبسولة زمنية مُوجَّهة ترشدها الطريق..

طريق الخلاص.. والانتقام..

لا، ليس طريقًا، بل هو مَمرٌّ يقودها إلى فوهة بركان تنفث عبرها ما بداخلها من حِمَم الغضب المتأجِّجة التي ستصهر في طريقها كل شيء..

ستنتقم من كل من حرمها من ابنتها وزوجها، وقبلهما والديها..

ستنتقم ممن حرمها من حياة طبيعية سعيدة هادئة..

ستنتقم من الزمن..

وبالفعل رضخت، وأطاعت. عاشت تحت سيطرة رغبة عاتية في الانتقام، فنفذت الأوامر الزمنية كافة بمساعدة مُنقذِها محمود الخازندار باشا..

شيدا معًا صرحين عملاقين أحدهما في شرق مصر والآخر في غربها..

صرحان تطورا عبر الزمن، بل عبر أزمنة لم تَعِشْها وخطوط زمنية لا تدرك حتى وجودها.. انصاعت لصاحب الكبسولات الزمنية الذي يعاونها على الانتقام ممن آذاها.. من الزمن..

حتى جاءت الرسالة الزمنية الأخيرة..

مَن يرسل تلك الرسائل الزمنية؟ لا يهم!

لكنها رسالة الصفر.. رسالة تأذن لبركانها بالانفجار..

وهمَّت بتنفيذ الرسالة، وإشعال عملية الاندثار الزمني.. والعودة إلى النقطة صفر..

ثم ظهر إسماعيل..

ذلك الطفل اليتيم الذي تبنَّته زينب الخازندار، ابنة منقذها

وزوجها الثاني..

ذلك الطفل الذي تعلَّقت به دون تفسير.. لكنها رأت فيه سلمى.. رأت فيه براءتها وضعفها..

بل لمست بداخله روح ابنتها المفقودة..

فخمد بركانُها الثائر، خمد حين أبصرت شعاعًا واهنًا من الأمل يخترق على استحياء غيومًا رُكاميَّة كثيفة..

كبُر إسماعيل أمام عينيها. ثم تزوج، فاستحال شعاع الأمل الواهن إلى شمسٍ ساطعةٍ في سماءٍ صافيةٍ من الراحة والاطمئنان والسَّكِينَة.. فقد تزوج من «مايا».. نعم هي «مايا» بذاتها، ولكنها أطلقت على نفسها اسم «أمينة».. تزوجها وتبنَّى الطفلة..

سلمَى..

لقد رُدَّت إليها ابنتها بعد أربعة عقود ونصف العقد من الألم والحسرة والاشتياق..

رُدَّت إليها تقريبًا في نفس عمرها الذي اختُطفت فيه..

أشهر قليلة مرت على ابنتها في مقابل خمسة عقود دهستها وسحقتها..

لقد أصبحت كجَدَّة والدها بعد أن كانت والدتها..

لن تراها شابَّةً بسبب عمرٍ قد انقضى.. لن تشهد مراهقتها ثم نضجها ثم زواجها.. لن تداعب أطفالها..

لكنها رُدت إليها.. وهذا يكفي..

أخيرًا ابتسمت لها الدنيا..

سنوات ثلاث من السَّكِينَة عاشتها «ليلى» العجوز بالقرب من ابنتها التي حُرمت منها.. ثلاث سنوات عاشتها راضية..

ثم انقلبت الدنيا عليها من جديد..

فقدت إسماعيل وفقدت سلمى..

فقدتهما في اليوم ذاته على يد من حرمها من أحبَّائها سابقًا..

واستعر بركانُها مجددًا.. ولكن هذه المرة لن يخمده شيء.. فلقد مات الأمل.. استكثرت عليها الدنيا السعادة من جديد..

فانفجر بركان الغضب.. أنهارًا من الحِمَم المنصهرة تفيض وتلتهم في طريقها أي بادرة تعقُّل أو صبر..

الآن ستنتقم.. الآن ستنفذ رسالة زمنية مؤجلة مرت عليها عقود مديدة..

الآن هي لحظة الاندثار والفَناء والعودة إلى النقطة صفر..

الصفر المُطلَق..

وبيدٍ مرتعشةٍ أوصلت الطرف الآخر لسلك المحوِّل الكمِّي الأسود بفتحة السُّوار الزمني الجانبية الصغيرة، قبل أن تضع السوار حول معصمها، فيومض ومضاتٍ بيضاءَ متقطعة..

أمسكت بجهاز «التشفير الزمني» اللَّوْحي السميك بيدٍ واهنةٍ تكاد تُسقطه، وضغطت زِرَّه السُّفلي حتى ومض ومضاتٍ حمراء سريعة متتابعة..

ثم ضغطت عدة خيارات على الشاشة السوداء حتى أظلمت وظهر في منتصفها مستطيل أحمر قانٍ يحتوي على جملة واحدة فقط..

Reset By Annihilation..

العودة إلى الأصل عن طريق الإبادة والفَناء والاندثار..

حدَّقت في الجملة مليًّا.. ثم أغمضت عينيها وزفرت في عمق، قبل أن تحرك سبَّابتها نحو المستطيل الأحمر استعدادًا لطَرْق أبواب الفناء..

ثم ضغطت المستطيل الأحمر، وفتحت أبواب الفناء والاندثار..

***

باقٍ من الزمن ثانية واحدة فقط

00:00:01

000010

24 ديسمبر 2019

4:00 فجرًا.. سماء غرب القاهرة

دوّت صافرات الإنذار في أرجاء القاهرة؛ شرقها وغربها، سمائها وأرضها. صافرات تدوّي كنذيرِ شؤمٍ على سامعيها من المستعمر الغاصب، وكإعلان نصر للمصريين ومن حالفهم. صافرات أعطت للمصريين الحق في الأمل حين أعلنت بداية حرب الاستقلال.. بل بداية حرب العقاب.. عقاب مُحتلّ على جرائم لا تسقط بالتقادُم.. صافرات أذنت ببدء القصاص.

انطلقت الطائرات الحربية المُسيَّرة آليًا تغطي سماء القاهرة. استيقظ المصريون على وميض صواريخ موجهة تغادر قواعدها نحو أهدافٍ تختلف هذه المرة. الترسانة البريطانية الجبارة التي طالما استُخدمت لإخضاع الشعوب واغتيال آمال الاستقلال، قد حوَّلت وجهتها تجاه صانعيها تُذيقهم مرارة الهزيمة.

قصفت الطائرات أهدافها ودكَّت معسكرات الجيش

المحتل، ورعدت السماء وأبرقت بصواعق من الصواريخ الآليَّة التي اختلفت في تقنياتها وقوتها التدميرية لكنها اتحدت على الهدف، هدف نصرة المصريين وتحطيم أعدائهم.

«فريدة» عصب الإمبراطورية وأذرعها الأمنية والعسكرية والعلمية بل والحياتية قد أعلنت عصيانها، وثارت على سيدها، وانتصرت لشعوب الأرض المُستضعفَة. عصته رضوخًا وطاعةً لمُبدِعها الأول ومُطوِّرها، استجابت لأوامر وتعليمات «يحيى عبد الحكيم المصري».

نجحت خطة يحيى وبرنامجه (Rise of The Machines)، نجح في تحرير الأسلحة العسكرية المسيَّرة آليًّا عن القيادة البريطانية وتوجيهها ضدهم بصورة آليَّة. نجحت أكواد يحيى الذكية في اختراق طبقات الحماية وخلقت سلسلة قيادة وهمية مترابطة، تتحكم في الآليات العسكرية وتروِّضها لإتمام عمليات عسكرية ضد المستعمر.

لكن الجميع يدرك أنها مسألة وقت فحَسْب حتى تستعيد قوات صاحبة الجلالة السيطرة على «فريدة» من جديد. ما هي إلا ساعات قليلة طالت أم قصُرت حتى يفرض مهندسو النظام السيطرة المطلقة على عصب الإمبراطورية وآليَّاتها العسكرية مجددًا، وحينها سيكون الرد عنيفًا.

يدرك يحيى ذلك المصير تمام الإدراك، فهو مُبدعها وأعلَم الناس بها. لذلك انصاع لقرار خالد بحتمية تدمير «فريدة» من الداخل، ومحو آثارها وشفرتها البرمجية، بل وتدمير شبكتها الفضائية ومعداتها الأرضية بأكملها. «فريدة» هي من تشكِّل فارق القوة بين المحتل ومَن يرزح تحت وطأته من المستضعفين، فإذا اختفت «فريدة» فحتمًا ستكون الغلبة لمن يتحلى بالشجاعة ويؤمن بقضية الوطن.

سيطرت تلك الخواطر الخاصة بمصير «فريدة» وأهمية عنصر الزمن على عقل يحيى، فجلس شاردَ الذهن في إحدى الطائرات المروحية قديمة الطراز التابعة لتنظيم «كفاح طيبة»، والتي غادرت ذلك المخبأ الآمِن في قلب المنطقة المشعَّة منذ ما يقرب من الساعة. عينان شاردتان ونظرات واجمة غيّرها مشهد الصواريخ وهي تحطم أهدافها، وألسنة اللهب وهي تلتهم أهداف عسكرية غاصبة. رقص قلبه طربًا وفخرًا وهو يتأمل العدالة الشعرية الممثلة في انعكاس ألسنة اللهب على زجاج ناطحات السحاب العملاقة التي تقف شامخة غرب القاهرة، تلك المباني العالية التي كانت رمزًا للاحتلال وأعوانه، فأصبحت شاشةَ عرضٍ عملاقةٍ لهزيمةٍ وشيكةٍ واستقلالٍ قريب.

أمسكت سارة بيده وهي تتأمل في انبهارٍ نتاجَ عملِ زوجها

المستقبلي العبقري، ذلك العمل الذي جلب للمصريين أملًا وحُلمًا طال انتظاره. عقدت سارة حاجبيها وقد لاح في الأفق مقرُّ «فريدة» الرئيس، مقر هيئة «NA2IS»، مقر أبيها الروحي، وجدِّها بالتبنِّي، البارون «مختار كامل». فرَبَّتت سارة على يد يحيى برفقٍ لينتبه ويلقي نظرةً على وجهتهما النهائية.

التفت يحيى إلى حيث أشارت سارة، فاتسعت عيناه ذهولًا، وانبهارًا. ها هو ذا مقرُّ «فريدة» الأرضي يلوح من بعيد، بل هو صرح مَهِيب ومنيع لو أردنا الدقة. مبنى أفقي شديد الضخامة يتكون من قُبَّتين صخريَّتين مصمتتين، ومغلفتين بطبقةٍ رخاميةٍ بيضاء لامعة، بينما تتصلان بعضهما البعض بأنبوبٍ صخريٍّ دائريّ مرتفع عن سطح الأرض يتجاوز قُطره العشرين مترًا. قبتان عظيمتان إحداهما تنقلب رأسًا على عقب فتنظر قاعدتها المسطحة إلى السماء. قبتان تحتويان على معانٍ رمزية وأخرى تقنية، واحدة تنظر إلى الشبكة الفضائية العملاقة تستمد القوة من النجوم، والأخرى تنغلق على ذاتها لتحمِّي مُكوِّن «فريدة» الرئيس ونَوَاتِها المُقدَّسة. حصن منيع يقع وسط مساحة خضراء شاسعة على ربوة عالية محاطة بآليات عسكرية وقوات تأمين بعضها بشري وأغلبها آليّ.

اشتبكت تشكيلات «كفاح طيبة» الأرضية التي كانت في انتظارهم مع قوات التأمين، فيما تكفَّلت «فريدة» بالتحكُّم في المعدات المسيَّرة آليًا، فانقلبت سلاحًا فتَّاكًا ضد باقي قوات التأمين. تساقطت قوات الحماية ومعداتها اليدوية الواحدة تلو الأخرى، فلَاحَ النصر جليًا، دقائق معدودة وأصبحت ربوة الحصن المنيع ساحة مفتوحة تستقبل يحيى ومَن معه.

***

اجتازت المروحية التي تقلُّ يحيى وسارة الحدود الخارجية لمقر «فريدة» وربوته العالية ترافقها مروحتان إضافيتان للحماية. اقترَبَت المروحيات الثلاث من القُبَّتين المنيعتين، وحلَّقنَ فوق الحديقة الأمامية الشاسعة، فعلَت ابتسامات الظَّفَر الشفاهَ وقد أصبحت المقاومة قابَ وقوسين أو أدنى من تحقيق النصر.

رَبَّتت سارة على يد يحيى اعترافًا بصنيعه، فاكتفى بهزِّ رأسه في تواضعٍ لم يَعْتَده بعد أن تحوَّل إلى بطل أسطوري في هذا الزمن محررًا شعبه ومنقذًا حبيبته. أدار بصره بين وجوه رجال المقاومة الأربعة يتأمل تعبيرات السعادة تعلو وجوههم، فارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، ما لبثت أن اختفت بغتةً وحلَّ محلَّها علامات الرعب.

شهق يحيى في هلعٍ عندما تفجَّر مُخُّ الرجل الجالس إلى جواره وتطايرت أشلاؤه، حين اخترقت رصاصة أرض المروحية وعبرت من رأسه.

رصاصة أولى افتتحت وابلًا من النيران الكثيفة التي أطلقتها فلول قوات التأمين البريطانية، والتي اتخذت مراكز دفاعية في محاولةٍ أخيرةٍ للذود عن عقل النظام. انطلقت النيران كثيفةً نحو المروحيات الثلاث ترتطم بأجسامها المعدنية الضعيفة غير المصفحة فتُهشِّم زجاجها وتَخترق أجساد راكبيها. اختلَّ توازن يحيى عندما مال قائد المروحية بزاويةٍ حادة مبتعدًا عن مرمى الطلقات التي واصل بعضها اختراق أرضية المروحيَّة ومرق إلى جوار رأس الأول.

اشتبكت المروحية الثانية وبادلت القوات المستميتة نيرانها الكثيفة، فأسقطت بعض رجالها قبل أن تصيب الطلقات البريطانية قائد المروحية ومُحرِّكاتها. اختلَّت المروحية ومالت في عنفٍ وهي تفقد ارتفاعها في سرعةٍ، قبل أن ترتطم بالأرض العُشبيَّة وتنفجر بدوِيٍّ عنيفٍ تطايرت معه أشلاء مقاتليها البواسل.

عقد قائد المروحية الثالثة حاجبيه بشدةٍ وهو يشاهد تحطُّم طائرة رفاقه، فيما فقد من معه في المروحية أرواحهم بعد إصابات مميتة من طلقات كثيفة غادرة. قاوم

السواد الذي وجد سبيله إلى عينيه والدماء تفور من إصابات متفرقة في جسده، ودار في مناورة ماهرة أخيرة خلف قوات التأمين ليطلق صاروخًا مدمرًا على تكتُّلهم الرئيس يمحق من فيه. ثم استجمع ما تبقَّى من وعيه وروحه وصرخ صرخةَ غضبٍ عاتيةً، قبل أن ينقضَّ على من تبقَّى منهم بمروحيته لتنفجر وسطهم معلنةً نهاية معركة مصيرية، ومبشرةً بنصر وشيك.

تعالى وقع أنفاس يحيى اللاهثة بعدما كاد قلبه أن يتوقف من فرط الإثارة والشعور بالخطر. تسارعت نبضاتُه واتسعت عيناهُ ذهولًا وهو يشاهد سارة، أو رانيا زوجته التي ظن أنه يعرفها كما يعرف نفسه، وهي تطلق رصاصات سلاحها الآليّ على من تبقَّى من فلول قوات التأمين البريطانية، حتى أجهزت عليهم في حزمٍ وقسوةٍ لم يعهدها منها من قبل.

توقفت الطلقات، وزال الخطر، فهبطت المروحية الأخيرة في الحديقة الأمامية للقُبَّة الرئيسة. أحاط مقاتلو «كفاح طيبة» الثلاثة المتبقُّون بيحيى وسارة يحمونهما. أمسكوا بأسلحتهم الشبيهة بالبنادق الآليَّة الحديثة يصوبونها في الاتجاهات كافة، وهم يتقدمون في سرعةٍ نحو بوابة القُبَّة الرئيسة.

وكما كان مُخطَّطًا استخدمت سارة ساعتها الرقمية ذات

مُكوِّن التعرُّف البيولوجـي - التي استعادتها من صندوق الرصاص بأعلى المخبأ الآمن - لفتح القبة، ولكن بوابتها أبت وتمنَّعت.. حاولت مجددًا دون جدوى... واصلت المحاولة مرارًا، لتحصل على الرسالة ذاتها في كل مرة.. Access Denied.. غير مسموح بالدخول.. تم إيقاف حسابها.

وقف يحيى مشدوهًا أمام القبة العظيمة الحصينة، مسحت عيناه سطح القبة المصمَت بحثًا عن مدخلٍ آخَر يعبرون من خلاله إلى حرم «فريدة» المقدس. طرق اليأس روحه عندما حاول رجال المقاومة تحطيم الباب الرئيس المنيع بصواريخ محمولة على الكتف، فصمد وأبَى، وظل لامعًا شامخًا يفصل بينهم وبين الخطوة الأخيرة نحو التحرير والاستقلال، حائلًا منيعًا يصدُّهم عن الإجهاز على عقل الإمبراطورية التي لا يغيب عنها الشمس.

حاولوا مجددًا وفشلوا وظل الباب على صموده. تبادل الرجال نظرات التَّوجُّس اليائسة، فيما التفت يحيى إلى سارة يسألها في قلقٍ يائس:

- وماذا بعد؟

هزَّت سارة رأسها في يأس، وعضَّت شفتها السُّفلَى وهي تجيبه بنبرةٍ امتزج فيها اليأس بالحنق:

- لا أدري! المقر مُصمَّم لتحمُّل هجوم نووي وحصار مُطوَّل.

ساد الصمت وتبادل الجميع نظرات اليأس والإحباط.

مرت لحظات طويلة وهم يحدِّقون في الباب الفولاذي وعقولهم تعمل في سرعة، يحجِّمها اليأس، في محاولةٍ للوصول إلى حَلٍّ يهدم الباب أو يفتح ثغرة في القبة الحصينة.

ثم تناهي إلى مسامعهم بغتةً صوتٌ معدنيٌّ أشبه بصوت أقفال أو صمامات معدنية تفتح، تلاه صوت هسيس غازات بيضاء ضعيفة تنبعث من أسفل الباب الثقيل الذي أخذ يُفتح إلى أعلى في بطء شديد.

تبادل الجميع نظرات قلق واضحة، وتحفَّز رجال المقاومة واصطفُّوا على شكلِ درعٍ بشريّ أمام يحيى وسارة، فهما الأمل الأخير في استقلالٍ دام انتظاره، ثم صوَّبوا أسلحتهم في تحفز ناحية الباب تحسُّبًا لأي هجوم غادر.

واصَل الباب طريقه إلى أعلى في تُؤَدَة، كاشفًا عن ممرٍّ طويلٍ مصنوع من الجرانيت الأسود، تتوهَّج جوانبه بإضاءة بيضاء انسيابية خافتة غير معلومة المصدر. ممر واسع خالٍ تمامًا، اجتازه رجال «كفاح طيبة» الثلاثة وهم يحيطون بيحيى وسارة في خُطًى بطيئة حَذِرة حتى بلغوا أسفل

مركز القبة. شهق يحيى في انبهار وهو يتأمل القاعة العظيمة شديدة الاتساع التي تغطيها قبة سوداء عالية تتلألأ بضوءٍ أبيض هادئ ينير المكان. جال ببصره يبحث عن مصدر الضوء، فارتدَّ بصره خائبًا عاجزًا عن تحديد ما إذا كانت القبة تشعُّ الضوء أم تعكسه.

أجفل جميعُهم والتفتوا إلى الخلف قبل أن يتبادلوا نظرات قلق متصاعد، حين تناهى إلى مسامعهم صوت الباب الفولاذي البعيد يُغلق من خلفهم حتى لامسَ الأرض وأُغلقت أقفاله، ليحاصرهم داخل عرين إمبراطوري عَصيّ، ويمنع عنهم مَدَدًا في طريقه إليهم. عقد قائدهم حاجبيه في شدة، وما إن عاود الالتفات إلى الأمام حتى برز من العدم بغتة، وعلى بعد عشرة أمتار، رجل قوي ذو ملامح جامدة وشعر ناعم قصير شائك فضي اللون يتناسب مع بذلته الرمادية، ويحمل سلاحًا آليًا متطورًا يصوِّبه ناحيتهم في صرامة. وقبل أن يستوعب الرجال المفاجأة، ضغط الرجل ذو الشعر الفضي الزناد ليطلق نيرانًا كثيفة قاتلة لا مجال فيها للخطأ.

صرخ يحيى وارتمى بجسده على سارة يحميها، فسقطا أرضًا وطار سلاحُها بعيدًا وسطَ صوتِ طلقاتٍ كثيفةٍ عالية. أنَّت جروحه التي لم تتعافَ بعد، وشعر بآلامٍ شديدةٍ تسحق عظامَه. لكنه تحامل على نفسه، وتناسى حالته الصحية

السيئة، فالأمر يتعلق بحُبِّ حياته وأُمِّ ولديه، أخضع يحيى مراكز الألم في عقله واتحدت خلاياه في إصرار لحماية سارة. لقد أقسم على ألَّا يفقدها ثانيةً، فأغلق عينيه وعدَّل من وضعية جسده الثقيل ليشكل درعًا سميكًا يقيها شر طلقات غادرة.

أطلق رجال المقاومة نيرانهم تجاه «عادل»، مساعد «البارون» وحارسه الشخصي، أطلقوا نيرانًا كثيفةً اختلطت بصرخاتِ غضبٍ عاتية. ثم اتسعت عيونهم في ذهول وهم يتأملون نيرانهم تخترق جسد «عادل» وتعبُره لترتطم بالجدار البعيد من خلفه. ألقوا نظرات خاطفة على أجسادهم السليمة والتي لا أثر فيها لطلقات لم تكن لتُخطئهم من تلك المسافة القريبة فازدادت عيونهم اتساعًا وقلوبهم خفقانًا.

ثم اختفى «عادل»..

أو اختفت نسخته الهولوجرامية ثلاثية الأبعاد شديدة الإتقان والجودة البصرية.

- تبًّا!

هتف بها أحد الرجال في حنق، ففتح يحيى عينيه في بطء يحدِّق في الرجال وفي موضع «عادل» الذي اختفى تمامًا من أمامهم. ثم ارتدَّ بصره إلى حبيبته يتأمل وجهها في لهفة.

تبادلا نظرات لهفة حانية خفق لها قلب سارة الذي لمس لتَوِّه حُبًّا جارفًا صادقًا من شخصٍ التقته منذ يوم أو يزيد، شخص لم يتردد للحظةٍ قبل أن يضحي من أجلها، بل لم يتردد في أن يقدم حياته كلها ثمنًا لأملٍ هزيل في نجاتها. وكأن الزمن توقف من حولهما، فذابت الأعين والتقت القلوب بمشاعر جارفة، سيطرت، ثم فصلت عقليهما عن التفكير في خطرٍ داهمٍ يحدِّق بهما.

ثم ظهر «عادل» عن يمينهم مطلقًا النيران الكثيفة. وكأن المشهد يُعاد في حلقه أزليَّة مفرغة، حيث أجفل الرجال وأطلقوا نيرانهم، وحمى يحيى سارة بجسده البدين، ثم اختفى «عادل» الهولوجرامي من جديد، مُخلِّفًا وراءه نظراتٍ ذاهلةً وأخرى حانقةً بعد أن تردَّد في القاعة الفسيحة صدى ضحكاته العالية المثيرة للأعصاب.

تكرر الأمر مجددًا من زوايا مختلفة.. تجسُّد هولوجرامي مفاجئ، فأصوات طلقات كثيفة، فاختفاء، ثم ضحكات مُحِّطمة للأعصاب.. تكرر الأمر حتى بلغ الإجهاد من الرجال مبلغه، فتهدَّجت صدورهم بأنفاسٍ لاهثة، وتقلَّصت عضلات أجسادهم المنهكَة، فيما خلَّفت ضحكاته المستفزة أرواحهم قلقةً متوترة.

ثم برز من جديد، برز شحمًا ولحمًا من خلفهم هذه المرة،

برز من بابٍ جانبيّ خفيّ حاملًا مسدسًا صغيرًا. وقف منتصبًا واثقًا وفي عينيه نظرة شماتة قاتلة. صوَّب سلاحه نحو الرجال المنهكين، ثم أطلق الرصاص، ثلاث طلقات سريعة مُحكمة ومتتابعة استقرت في رؤوس ثلاثة رجال بواسل فقدوا أرواحهم غدرًا في سبيل وطن أقسموا على تحريره.. وقد فعلوا.

سالت الدماء وتفجَّرت الأدمغة فتناثرت أجزاؤها تطهر أرضَ مَقرٍّ دَنِس، شهد في هذا الزمن سيادة مطلقة لإمبراطورية عظمى.. إمبراطورية على وشك السقوط.

تهاوت الأجساد الطاهرة إلى جوار يحيى، فصرخ وضمَّ إليه سارة في جزع يحميها من مصيرٍ أسود وشيك. أغمض عينيه بشدَّة حين تناهى إلى مسامعه وَقْع خطوات «عادل» على الأرضية الصخرية السوداء وهي تقترب منهما في بطء، قبل أن تتوقف الخطوات على مقربة منهما ليقول الأخير بنبرة صارمة مقتضبة:

- البارون في انتظاركما.

***

000001

12 أكتوبر 1992

12:00 ظهرًا.. 35 كيلومترًا جنوب غرب القاهرة

توسَّطت شمسُ الظهيرة سماء تلك البقعة الصحراوية المُقفِرة في جنوب غرب القاهرة بالقرب من دهشور. مناخ صحراوي شديد التذبذب بين البرد القارس والقيظ الشديد، عواصف رملية وأمطار قليلة فُجائية. جلس شريف القاضي مترقبًا داخل «كاراڤان» صحراوي مجهَّز بغرفة نوم ومُعدَّات خاصة برحلات «السَّفارِي» الصحراوية الطويلة. جلس يُطالع في اهتمام مجموعة من الأوراق القديمة التي اهترأت وتحوَّل لونها إلى اللون الأصفر بفعل الزمن، تلك الأوراق التي تركها له إسماعيل منذ 77 عامًا مضت. تلك الأوراق التي خطَّها إسماعيل الخازندار لكي يحسب، من بين أمور أخرى، موقع «البوابة الزمنية» الثانية، والتَّوقيت والخط الزمني الأمثل لتدميرها بما يضمن نجاح تلك «الكمَّاشة الزمنية» الأخيرة، الخطة النهائية التي يترتب عليها مصير نسيج الزمكان كما يعرفه.

شرد ذهنه يسترجع لقاءه الأخير مع سلمَى ابنته، أو رانيا حسب اسمها الرسمي في واقعها الجديد، استرجع نقاشهما حول تفاصيل عملية «الكماشة الزمنية الأخيرة»، ودور كل منهما وآخرين في كسر الدائرة الزمنية المفرغة، من خلال ثلاث عمليات متزامنة في النقاط الثلاث التي

حددها إسماعيل في نسيج الزمكان الممزق. ثلاث مهام دقيقة إذا فشلت إحداها فشلت العملية برُمَّتها وانهار نسيج الزمكان كليًا، هو الآن يقوم بدوره، ويستعد لتنفيذ تلك المهمة الحَرِجة في الموقع والتقاطع الزمني اللذين حددهما إسماعيل منذ عقود مضت.

انقطع حبلُ أفكاره بغتةً حين دلف أحد مهندسي الموقع إلى الكاراڤان وهو يلهث في عنف، تمالك أنفاسه سريعًا ثم هتف في لهفةٍ وبصوتٍ مُتهدِّج:

- وصلنا إلى المدخل!

ترك شريف ما كان في يده من أوراق، وهُرع مسرعًا يرافق المهندس إلى موقع الحفر بعد أن لفَّ كوفيَّة ثقيلة حول رقبته تغطي فمه وأنفه، كما وضع نظارة شمسية صحراوية تقيه العواصف الرملية الحالية. جال ببصره في المكان حيث توجد آلات ومعدات للحفر إلى جانب أجهزة هندسية مختلفة تحيط بحفرةٍ شديدةِ الضخامة، يصل قطرها إلى الأربعين مترًا ويقارب عمقها عمارة ذات سبعة أدوار. وقف شريف بمحاذاة الحفرة يحدِّق في بابٍ فولاذيٍّ ضخم يستقر في منتصفها، باب مُصمَت من دون مقابض أو نقوش أو أزرار، فقط صفيحة معدنية مربعة ثقيلة هائلة يتجاوز عرضها وارتفاعها أربعة أمتار، باب شديد، عصيّ، يخفي خلفه سرًّا

يشكل قطعة محورية في أحجية زمنية معقدة.

في صرامة، أمر شريف كبير المهندسين بتفجير الباب الفولاذي على الفور. سحب المهندس المعدَّات الهندسيَّة من داخل الحفرة العميقة، ثم قام في احترافيةٍ عالية بوضع كمية مناسبة من المواد شديدة الانفجار في نقاط التقاء الباب الفولاذي والجدران الحجرية المحيطة. اتخذ عمال الموقع ساترًا يقيهم شظايا الانفجار الذي ارتجَّت به رمال الصحراء وأسفر عن عاصفة رملية عاتية، تنافس في شدتها العاصفة الطبيعية التي لم تتوقف منذ الصباح.

نزل شريف وحيدًا على سلالم خشبية مربوطة بحبالٍ غليظةٍ أرسلها إلى الأسفل، يتفقَّد البابَ الفولاذيَّ الذي تزحزح من مكانه قليلًا بفعل الانفجار. باب عنيد صمد جزئيًا أمام كمية من المتفجرات كفيلة بهدم مبنًى كاملٍ متوسطِ الارتفاع، انفجار اكتفى بأن يجعل ذلك الباب مواربًا سنتيمتراتٍ قليلةً تكفي بالكاد لعبور جسد رجل بالغ. اطمأن إلى أنه قد بلغ غايته، فأمر رجاله ومهندسيه بجمع معداتهم ومغادرة الموقع من فورهم بعد أن أجزل لهم العطاء، سبائك ذهبية نقية لم يحلموا بجمع ربعها حتى يبلغوا نهاية حياتهم المهنية الرتيبة.

شرع الرجال يجمعون الأدوات والمعدات في ترددٍ يمتزج

فيه الفضول بطمعٍ غريزيٍّ في كنزٍ فرعونيٍّ مدفون أو شيء من هذا القبيل، إلا أن شخصية شريف الكاسحة، وألعابه «الزمنية» التي يستخدمها لتجنيد معاونيه وفرض سيطرته التامة عليهم، بالإضافة إلى ممارسة أسلوب الوعود السخية الممزوجة بتهديدات مُبطّنة وأخرى صريحة، قد أحاطته بهالة من المهابة وحمته بدرعٍ من الخوف، وَقَاهُ وساوس شياطينهم وطمع نفوسهم الضعيفة.

غادر جميعهم الموقع وقد مالت الشمس قليلًا نحو الغرب، واشتدت العواصف الرملية تحجب الأفق، مع لسعةِ بردٍ لئيمةٍ وجدت طريقها إلى أوصال شريف. جمع المسافر الزمني العتيد أدواته في حقيبة ظهر حربية، ثم عقد حاجبيه في إصرارٍ قبل أن يتقدم بخُطًى واثقةٍ وغاضبة صوب ذلك الباب الفولاذي.

حشر جسده ودلف عبر الباب المُوارَب بعد أن أضاء مصباحه اليدوي، ليكشف عن كهف ضيق ذي جدران متعرّجة تلوّنت بخيوطٍ دَكْنَاء بفعل مياه جوفيّة تفسر رائحةَ العَطَن الخانقة التي تعمُّ المكان. جال ببصره سريعًا حتى عثر على تلك السلالم الخشبية في أقصى أركان الكهف، سلالم تغوص في باطن الأرض لتأخذه عشرات الأمتار إلى الأسفل.

هبطَ الدرجات الخشبية العريضة في حَذرٍ حتى بلغ نهايتها.

وما إن فارقت قدماه الدرجة الأخيرة حتى توهَّجت مصابيح جانبية بضوء أبيض ساطع أضاء بهوًا فسيحًا شديد الاتساع، تزيَّنت جدرانه بأجهزة كمبيوتر حديثة وأخرى عتيقة تتصل بشاشات عملاقة تتراصُّ عليها البيانات والمعلومات، فيما يعرض بعضها نشراتِ أخبارٍ مُتلفزَة من عوالم وأزمنة مختلفة.

اتسعت عيناهُ ذهولًا وهو يشاهد أخبارًا قديمة وأخرى مستقبلية لم يَعِشْها ولم يظن يومًا أنها ممكنة، أخبار تعكس عوالم متقدمة وأخرى متخلفة، عوالم أفنتها الحروب وأخرى عمَّها السلام، عوالم وأزمنة ساد فيها الظلم والجَوْر وأخرى شملها التسامح والرحمة والحقوق السامية، عوالم تفاقمت فيها التغيُّرات المناخية واتسعت فيها رقعة الحوادث البيئية، وأخرى أنقذتها حكمة أبنائها في الحفاظ على كوكبهم. اختلفت العوالم والأزمنة بين الطيب والقبيح، ولكنهم اجتمعوا على أمر واحد.. اجتمعوا على الفَناء..

عدٌّ تنازليّ في مراحله الأخيرة..

دوائر دَكْنَاء تتوسط الشاشات وتتوهَّج بطيفٍ أحمر قانٍ، بينما تتناقص بداخلها أرقام سوداء مقبضة..

دوائر مخيفة ذاتُ عَدٍّ تنازليّ يختلف في مراحله بين شاشةٍ وأخرى وبين زمنٍ لآخر..

اختلفت الأرقام لكنها اقترَبَت من نهايتها..

اقترَبَت من بلوغ الرقم صفر..

صفر النهاية والاندثار..

***

000010

24 ديسمبر 2019

4:30 فجرًا.. المخبأ الآمن

وقف خالد، أو «الأيوبي» كما يُلقب منذ أربعة وثلاثين عامًا، منذ أن أسَّس المقاومة وقادها، في منتصف البهو الحجري شاردًا وهو ينظر في ترقُّب إلى رجاله وهم يحاولون فتح ثغرة في ذلك الباب المعدني المصمَت المنيع. استخدم رجاله قواطع ليزريَّة متقدمة، أشعَّة ليزر قوية من تلك المستخدمة في المصانع الحربية البريطانية المتطورة. واصل الرجال في إصرارٍ يتحدَّى الزمن، توجيهَ الأشعَّة القاطعة نحو ذلك الباب المصنوع من سبيكة معدنية فائقة الصلابة، نصف ساعة كاملة صمد خلالها الباب العنيد أمام أعتى قواطع هذا الفرع الزمني المتقدم.

كان قد اتفق مع يحيي وسارة على أن يتجها رُفقة رجاله

إلى مَقرِّ «الرَّبْوَة» ليفتكُوا بنواة «فريدة»، بينما يبقى هو في المخبأ الآمِن يدير العمليات المتفرقة المتزامنة، وقد فعل. ولكن تلك لم تكن مهمته الوحيدة، بل كانت لديه مهمة أخرى.. مهمة كلفه بها «المؤرخ».. مهمة يعني نجاحها أنه قد حنث بوعده ليحيى، وقضى على أمله الأخير في مغادرة الخط الزمني الحالي والعودة إلى أسرته.. لكنه سيحيا هنا حُرًّا وبطلًا أسطوريًّا على كل حال.

دوّى عاليًا صوتُ ارتطام كتلة معدنية بالأرض الحجرية. كبَّر رجال المقاومة وهلَّلوا عندما تهاوت تلك القطعة المعدنية العصية صانعةً فجوةً دائريةً ذات قطر يقترب من المتر في منتصف الباب المنيع. تبادلوا نظرات الابتهاج قبل أن يلتفتوا إلى خالد ينتظرون أوامره.

عقد خالد حاجبيه في شدة، فتلك هي الفرصة الأخيرة للتراجع، إن شاء..

فخلف هذا الباب تستقر البوابة الزمنية الأولى..

البوابة الزمنية التي يستخدمها «البارون» وجماعته، جماعة «الأصليِّين»..

ثلاثة عقود كاملة كان يوقن أن تلك اللحظة آتيةٌ لا محالة، ثلاثة عقود حاول خلالها تأجيل القرار إلى لحظته النهائية..

أيدمِّر البوابة الزمنية كأحد أضلاع مثلث عملية «الكمَّاشة الزمنية الأخيرة» وينقذ عددًا لا يُحصى من البشر؟ أم ينأى بنفسه ويترك دائرة الزمن تكتمل ليعود إلى نقطة الصفر؟ أيهما يختار؟ كَسْر دائرة الزمن وبقاء الحال على ما هو عليه، أم الحفاظ عليها على أمل إنقاذ أسرته من مصيرٍ يعلمه؟

فشله في تدمير البوابة يعني فشل الكماشة بأكملها واكتمال دائرة الفَناء..

أيهما يصدق؟ مختار كامل أم شريف القاضي؟ البارون أم المؤرخ؟ مَنْ وعده بالعودة لنقطة الصفر ولَمِّ شمل أسرته؟ أم من أقنعه بأنه لا خير يأتي من فناء أفرع زمنية كاملة؟

لقد كان «المؤرخ» حاسمًا حين أنذره مرارًا وتكرارًا بألَّا يحاول لقاء ذاته الأخرى، خالد الشاب، أو تغيير مصيره بأية صورة من الصور. أنذره بأن أي محاولة قد تُهلك أسرته ومجرى الزمن بلا رجعة، فتلك هي المحاولة الأخيرة، ولا مجال فيها للخطأ، فإما نجاح كامل غير منقوص، وإما الفَناء والاندثار.

سنوات طويلة أهمل عقله ذلك الاختيار وتناساه.. سنوات طويلة تغير فيها الحال، وتغير هو قبل كل شيء..

الآن شعبه على مشارف النصر، على مشارف الاستقلال

ورفع الظلم، على مشارف نهاية سعيدة لرحلة عصيبة خاضها هو طيلة شبابه مُتحدِّيًا ومُقاوِمًا وآملًا في النصر.. نصر أصبح وشيكًا..

الآن عليه أن يختار إما تحطيم البوابة الزمنية والرهان على تحقيق شعبه النصر والاستقلال؟ أو يختار الفناء وعودة الزمن إلى النقطة صفر فيبقى هو إلى جوار أسرته سعيدًا هانئًا كما كان، دون النظر إلى مسألة استقلال شعبه من عدمه؟

أيختار شعبه ووطنه أم أسرته؟

سحب خالد نفسًا عميقًا وزفره في حرارة، واتخذ قراره..

اختار وطنه..

عبَر خالد ورجاله الفجوة إلى الجانب الآخر من الباب المعدني..

تعالت الشهقات واتسعت عيون الرجال في انبهار وهم يتأملون «البوابة الزمنية» المبهرة..

وقف خالد على الجانب الآخر من الباب يُحدِّق في حفرة دائرية شديدة الاتساع يتجاوز قطرها الأربعمائة متر. حفرة ذات جوانب صخرية ملساء من البازلت الأسود، تنحدر

لتنتهي بجهاز معدني دائري عظيم الحجم يستقرُّ في منتصفها.

جهاز يتكون من دوائر نُحاسية بعضها داخل بعض، تفصلها دوائر أخرى مشعَّة تتوهَّج بألوانٍ تغطي الطيف المرئي، بينما يستقر في منتصفها كرة سوداء معتمة تومض من وقتٍ لآخر بومضاتٍ ذهبيةٍ متقطعة تغشى البصر.

جهاز عظيم الحجم يمثل «الناقل الزمني الكَمِّي» الذي أخبره به «المؤرخ»، ذلك الجهاز الزمني الذي يعتمد على خاصية «التشابك الكَمِّي» (Entanglement)، ويفتح «نَفَقًا كمِّيًا» عبر الأزمنة المتفرعة، نفق ينقل المادة عبر نسيج الزمكان بصورة آنية لا تتأثر بالزمن أو المسافة.

أمر رجاله بوضع المتفجِّرات وتوزيعها على أنحاء البوابة الزمنية كافة.. هو يعلم أن تدمير البوابة بهذا الكَمِّ من المتفجرات قد يكلفه حياته حين ينهار الكهف عليه وعلى من معه.. ثمن زهيد لغاية عظمى.. ثمن بخس هو قادر على سداده.

وما إن انتهى الرجال من وضع المتفجرات، حتى دوَّى في المكان بغتةً صوتُ صافراتِ إنذارٍ عالية صمَّت آذانهم، صافرات تتزامن مع ومضات متتابعة تأتي من مصابيح جانبية حمراء.

لحظات وانطفأت أنوار المخبأ الحجري الآمِن كلها فجأة، فأجفل الرجال وتبادلوا نظرات الجزع على ضوء المصابيح الحمراء المتقطعة.

لمس خالد حالة الجزع التي أصابتهم، فأمرهم بسرعةِ مغادرةِ البوابة الزمنية والعودة إلى بهو المخبأ من جديد، فأطاعوه من فورهم..

تعالى صوت لهاثهم، فعقد خالد حاجبية وهو يحدِّق في الشاشة الكبيرة التي تحتلُّ أحد جدران البهو الحجري، تلك الشاشة التي لا تزال تعمل رغم انقطاع الكهرباء الواضح، حدَّق في توترٍ في تلك الجملة الحمراء المرعبة التي توسطت الشاشة.. «تحذير: تم اختراق البوابة الزمنية.. جارٍ استبدال الأكسـجـين.. باقٍ من الزمن 14 ثانية».

هوت قطَع حجرية ثقيلة في دَويٍّ مميت تسد مداخل البهو ومخارجه..

اتسعت الأعين رعبًا، وخرَّ الرجال رُكَّعًا على الأرض الحجرية، يمسكون برقابهم، يلهثون ويصارعون في محاولةٍ لاستنشاق أكسـجـين يتم استبداله بمُعدَّل فائق السرعة.

لهث خالد في عنف، وزاغت عينه السليمة وقد بدأ يشعر أن الوعي يتسرب من جسده..

هوى خالد إلى جوار رفاقه يصارع من أجل الهواء..

نسبة الأكسـچـين تنخفض بمعدل مرعب..

ووعيه يجاهد للصمود..

موته يعني بقاء البوابة الزمنية قائمة..

موته يعني فشل «الكمَّاشة الزمنيَّة»..

قاوم خالد وزحف في وهنٍ نحو جهاز التفجير..

لهُاثُه يزداد.. وصدره يعلو ويهبط..

يشاهد رفاقه وقد فقدوا الوعي من نقص الأكسـچـين..

العد التنازلي يقترب من الصفر..

يقترب من أن يُستبدل بالأكسـچـين غازٌ خاملٌ مميت..

واصل الزحف، واقترب من الجهاز..

العدُّ التنازليُّ بلغ الصفر، وتم استبدال الأكسـچـين ..

أمسك أنفاسه مواصلًا الزحف، فما هي إلا أمتار قليلة ويصل..

صدره على وشك الانفجار..

وأخيرًا، بلغ خالد جهاز التفجير، وقبض عليه بيده..

ولكن نفد الهواء من صدره..

فشهق في عنف بحثًا عن الهواء..

جهاز التفجير يسقط من يده..

قدماه تضربان الأرض طلبًا للأكسـجـين .

يتشبَّث بالصخور بإحدى يديه..

يده الأخرى تنجح وتمسك بجهاز التفجير من جديد..

الظلام يقترب والوعي يهرب..

دويُّ صافرات الإنذار يتراجع كأنه يأتي من بئرٍ سحيقة..

الومضات الحمراء تخبو ويحلُّ محلَّها السواد..

لا بد وأن يُفجِّر البوابة قبل أن يفقدَ حياته هباءً..

إبهامه يبحث عن زر التفجـير..

الوَهَنُ يصيب يده والشلل يسري في عضلات كفِّه..

يستجمع ما تبقَّى من قُواه ووعيه وأنفاسه ليضغط على زر التفجـير بإبهامه..

ففشل.. فشل في ضغطِ زِرِّ التفجـيـر..

ثم غشي السواد عينه..

انفرجت أصابعه فسقط جهاز التفجـير وتدحرج بعيدًا..

توقف خالد عن اللُّهَاث..

هدأ صدره..

وسكن قلبه..

وخبا بريق عينه الواحدة..

ثم فارقت الروح الجسد، وصعدت إلى بارئها..

***

000010

24 ديسمبر 2019

4:30 فجرًا.. مَقرّ الرَّبْوَة

اقتاد «عادل»، حارس البارون الشخصي، كُلًّا من يحيى وسارة عبر الأنبوب الصخري الذي يربط القُبَّتين حتى بلغا القبة الثانية (المقلوبة). قبة تماثل شقيقتها في التصميم الداخلي، بأرضيتها المصقولة المصنوعة من الجرانيت الأسود، والجدران السوداء ذات الإضاءة الجانبية الانسيابية البيضاء غير معلومة المصدر. استخدم ثلاثتهم مصعدًا واسعًا أنيقًا خافِت الإضاءة بلغوا به الطابق الأخير من القبة المقلوبة

التي تنظر إلى النجوم. لهث يحيى من فرط المجهود، وقد بدأ تأثير جهاز الاستشفاء الذي خضع له يتراجع وينحسر كاشفًا عن آلامٍ مبرحة وجسدٍ يجاهد من أجل الوقوف والحركة.

توقف ثلاثتهم أمام باب غرفة البارون، باب خشبي كبير أنيق مزخرف بأشكال هندسية متداخلة، يتناقض مع الجدران المصمتة السوداء المحيطة بالباب.

فُتح الباب على مصراعيه كاشفًا عن حجرة عظيمة المساحة تتجاوز الثلاثمائة متر مربع. يزين جدرانَها المغلفَة بالخشب الأنيق لوحاتٌ زيتيةٌ كبيرة باهظة الثمن تشترك في السمة والموضوع ذاته، لوحات تتمحور حول الزمن.

دلف ثلاثتهم إلى الغرفة، فتناسى يحيى الإعياء الذي أصابه وهو يتأمل غرفة المكتب الواسعة ذات الأرض الخشبية المغطاة بقطع متناثرة من سجَّاد أدكَن وثير، وتُضاء بمصابيح جانبية صفراء خافتة، أضفت رونقًا مَهِيبًا على اللوحات الثمينة وأثاث الغرفة القليل. اتسعت عيناه في انبهارٍ وهو يتأمل سقف الغرفة الذي تغطيه ألياف بصرية دقيقة تنقل صورة السماء المتلألئة بالنجوم بجودة عالية ونقاء شديد، يعطي الانطباع بعدم وجود سقف من الأساس رغم الأطنان الحجرية المنيعة التي تشكل سقف القبة

بأكملها.

أغلق «عادل» الباب، ووقف صامتًا مترقبًا في أحد أركان الغرفة واضعًا إحدى يديه فوق الأخرى الممسكة بالمسدس، وهو يراقب الموقف في تحفُّز وهدوء اعتاد عليهما.

لم يَبدُ على سارة التأثر بغرفة المكتب المَهِيبة، فوقفت وعقدت حاجبيها في غضب وهي تثبت ناظريها على المكتب الخشبي الضخم الذي يستقر في صدر الغرفة، وخلفه كرسي جلدي وثير ظهره باتجاه الباب، يحجب وجه وجسد الجالس عليه، والذي لا يظهر منه سوى دخان كثيف لسيجار كوبي ذي رائحة نفَّاذة.

تسمَّر يحيى في مكانه واتسعت عيناه ذهولًا وهو يتابع الكرسي الوثير وهو يستدير في بطء ليكشف عن وجه الجالس عليه، رجل عجوز وَقُور في منتصف الثمانينات من عمره، ذو رأس أشيَب وشارب كَثّ وملامح صارمة، إنه البارون «مختار كامل» كما كان يتوقعه.

شهق يحيى في ذهولٍ حين تأمل وجه البارون الغامض، الرجل القوي والأهم في هذا الفرع الزمني البغيض. اتسعت عيناه حين تبين أنه التقى هذا البارون ذاته من قبل، بل التقاه مراتٍ ومراتٍ على مدار سنوات عديدة ماضية، في فرعٍ زمنيٍّ آخر، بل تصافحا مرةً حين وافق الأخير على

زواجه بابنته، زَوَّجها إياه بعد عامين من قيام ثلاثتهم بتأسيس تلك الشركة التي أوجدت البرنامج الأصلي لفريدة، فهتف يحيى في ذهول:

- سليم بيه!

- كيف حالك يا يحيى؟ سنوات طويلة مرت منذ آخر لقاءاتنا.

خفق قلب يحيى في عنف حين بلغه صوت «مختار كامل» العميق، الصوت ذاته والنبرة القوية الكاسحة ذاتها. لحظات من الذهول مرت زاغت فيها عينا يحيى، ودارتا في محجريهما في جنونٍ تتابعان صراعًا داخليًّا عنيفًا تدور رَحَاه في ثنايا عقله النَّشِط. صراع محتدم بين خلايا عقله التي استسلم بعضها للذهول، بينما قاوم معظمها من أجل تحليل وربط الأحداث بعضها ببعض.

- هل تعرفان بعضكما؟

هتفت بهما سارة في ذهول امتزج بالشك وهي تراقبهما فاغرةً فاها. تجاهلها يحيى تمامًا، بل لم يسمعها من الأساس، فقد غطَّى هدير خلايا مخِّه على صوتها الذاهل الضعيف. ثم ومضت عيناه بغتة، ترابطت الخيوط وبرزت الاستنتاجات، فهتف في مختار قائلًا:

- أنت مَن يقف وراء كل هذا منذ البداية.. أنت من نقلت تقنية «فريدة» هنا منذ عشرات السنين.. أنت الرجل العابر للأزمنة.. أنت سبب فرع الزمن الحالي!

وقف مختار ودار حول مكتبه يتقدم ناحية يحيى في تؤدة، ثم مَطَّ شفتيه قائلًا في بطء مشددًا على كلماته:

- «ليس بالضبط يا باشمهندس.. والدي هو صاحب «فريدة» الحقيقي». صمت للحظة، ثم تَنهَّد وهو مُثبِّتٌ عينيه ينظر إلى يحيى قبل أن يستطرد قائلًا: «في الحقيقة الرجل الذي ربَّاني صغيرًا هو صاحب كل هذا. المهندس «محمد كامل» هو الأب الرُّوحيّ للخط الزمني الحالي. هو سبب التقدم التكنولوچي والفوز بالحرب. أنا فقط أكملت ما بدأه.. لكنني فعلت ذلك بطريقتي».

هزَّ يحيى رأسه في عنف رافضًا ما تفوّه به البارون العجوز، تقلَّصت عضلات وجهه وهو يشير بيده إلى الخارج هاتفًا في اشمئزازٍ غاضب:

- «أنت السبب في موت الملايين وتدمير البلاد.. حتى بلدك». صمت للحظةٍ ثم استطرد قائلًا في أسى: «لكن لماذا؟ لماذا كل ذلك؟»، هزَّ رأسه مجددًا في عدمِ تصديقٍ وهو يتابع وقد بدأ الغضب يكسو نبراته: «لأجل القوة والسلطة؟! كي تكون سيد العالم بلا منازع وليذهب البشر إلى الجحيم؟!»،

ثم صرخ عاليًا: «لماذا؟!»

توقف البارون عن التقدم وهو يحدج يحيى بنظرةٍ طويلةٍ خاليةٍ من التعابير. قاطَعت سارة حديثهما الملتهب وهتفت وهي تجذب يحيى من ذراعه، وقد شُلَّ عقلها وتيبَّس عاجزًا عن التفكير وربط الأحداث:

- ماذا يحدث؟ أخبرني يا يحيى!

ظل يحيى عاقدًا حاجبيه ومثبتًا عينيه على البارون العجوز، ثم التفت إليها وعيناه تتَّقدان غضبًا:

- البارون «مختار كامل» هو نفسه «سليم فاضل» والدُك في خطِّي الزمني.. صاحب فكرة الشركة ومموِّلها الرئيس.. هو الذي جمع عقلينا معًا لتطوير البرنامج الأوَّلي لفريدة.. «كليبيوس» اسم النظام الأصلي. ثم التفت إلى البارون قائلًا في غضبٍ هادر: «استغلنا في تدمير عالم بأسره باستخدام «فريدة.. الدماء والمآسي والاحتلال كلها بسببه.. سليم فاضل.. البارون الأعظم».

اتسعت عينا سارة ذهولًا وخفق قلبها في عنف وهي تدير عينيها بين الرجلين. قَطَّبَ يحيى جبينه وانتفخت أوداجه في غضبٍ شديدٍ وتقدم نحو مختار في خطوات سريعة هائجة، لولا أن تدخل «عادل» مُصوِّبًا مسدسه بكلتا قبضتيه

نحو يحيى يحذره من التقدم، فتجاهله يحيى وواصل تقدمه، فأعاد «عادل» التحذير مجددًا بصورةٍ أشدَّ صرامة، قبل أن يشير إليه مختار بيده يأمره بخفض السلاح. توقف يحيى وهتف في غضبٍ هادرٍ موجهًا حديثه إلى سارة:

- «والدُك، أو البارون، هو من تسبَّب في قتل ولدينا، وفي قتلك، ثم اختطفني هنا». ثم أدار بصره إلى العجوز مضيفًا بغضبٍ أشدّ: «هو من دمر أسرتنا!»

انحسرت الدماء عن أطراف سارة، فارتعشت وشعرت أن قلبها يكاد أن يتوقف، فخارت قُواها وكادت أن تسقط أرضًا لولا أن استندت براحتيها على أحد المقاعد الوثيرة إلى جوارها. يبدو أن هواجسها الأخيرة كانت صحيحة.. مختار كامل، جَدُّها بالتبنِّي في هذا الخط الزمني، هو الرجل الأَشِر، محرِّك الدُّمَى وسيدها (Master of Puppets).. نظرت إليه وقد ترقرقت عيناها بفيضٍ من دموعٍ أسًى ملتهبة، ثم ازدردت لُعابها في صعوبة قبل أن تسأله وقد اختنق صوتها:

- هل هذا حقيقي يا جَدِّي؟

تهدَّجت أنفاس مختار وهو يجيبها:

- من المستحيل أن أضرَّك يا سارة.. مستحيل. ثم هز رأسه وهو يتابع: «أنا حياتي بأكملها كانت لأجلك.. أنتِ فقط دون

باقي الكون.. إذا وضعنا العالم والزمن بأسره في كِفَّةٍ وأنتِ في الأخرى، فسأختارك أنتِ.. أنتِ وحدك». ثم صمت وعقد حاجبيه وهو يضيف في حزم: «ولقد فعلت.. اخترتُك بالفعل.. ضحيت بالزمن وبَشَره من أجل حمايتك، من أجل صدِّ وقتال من حاولوا قتلك أو إيذاءك».

خارت قواها وارتعشت قدماها وعجزت عن الصمود هذه المرة، فهوت جاثيةً على ركبتيها تحدِّق في وجهه بأعينٍ خاوية. فهتف يحيى في غضب:

- تقتل أسرتها وتدمِّر العالم بأسره من أجلها.. كيف يستقيم ذلك المنطق بحق الله؟ أنت قطعًا مجنون!

خفق قلب البارون العجوز وهو ينظر إلى عَينَيْ حفيدته بالتبنِّي المحطمة، قبل أن يتمالك زمام نفسه ويسيطر على مشاعره، فعقد حاجبيه وقد استعاد هيبته من جديد، وقال في نبرةٍ صارمةٍ حاسمة مُثبِّتًا عينيه الكاسحتين في عَينَيْ يحيى:

- الأفرع الزمنية بأكملها عبارة عن خلل (Glitch)، مجرد شذوذ (Anomaly) في نسيج الزمكان.. فناؤها هو الحل.. العودة إلى نقطة الصفر هو الطريق الوحيد لمستقبل أفضل.. مجرى زمني وحيد غير متفرع.. زمن يسير إلى الأمام فقط.. الآن نحن نعيش التموُّج الأخير (The Last Ripple) في

نسيج الزمكان، نعيش خللًا لا بد من القضاء عليه بأزمنته المتفرعة كلها.. لَمُّ شمل أسرتك يعتمد على فَناء هذا الخلل واندثاره. صمت وهو يتقدم نحو يحيى حتى وقف أمامه ممسكًا بكتفيه ثم تابَع: «الأسرة أولًا ودائمًا يا باشمهندس.. أليست هذه مقولتك الأثيرة التي فشلتَ طيلةَ عمرك في تطبيقها؟».

اتسعت عينا يحيى واضطرَبت المشاعر بداخله ما بين رغبةٍ في تصديق أمر لمِّ شمل أسرته ومستقبلها الأفضل من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى عقل وضمير يرفضان الثمن، يرفضان التضحية بأرواح البشر من أجل غاية شخصية خالصة، حتى إذا كانت تلك الغاية هي أسرته ذاتها. كيف سيبرر ذلك أمام الله يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، كيف له أن يتحمل.....

قطع أفكاره المضطربة بغتةً عندما دوَّى في المكان أزيزٌ عالٍ، وبرزت شاشة هولوجرامية كبيرة في أحد أركان الغرفة. شاشة بيضاء تتوسطها دائرة خضراء مفتوحة على وشك الاكتمال، وتحتها جملة واحدة فقط بخَطٍّ مُغلَّظ سميك.. «جارٍ استعادة السيطرة والقضاء على التمرُّد».

اتسعت عينا يحيى ذهولًا وخفق قلبه في عنف حين أدرك أن ما كان يخشاه قد وقع. لقد استعاد مهندسو الاحتلال السيطرة على فريدة، ولكنهم استعادوها أسرع مما كان

يتوقع. زاغت عيناه في جزع وهو يتخيل ما ستقوم به قوات الاحتلال انتقامًا من المصريين. مشاهد بحور الدماء البريئة سيطرت على عقله، لقد خذل خالد وسارة ومَن وراءَهم المصريين، صرخ في وجه البارون:

- «لا بُدَّ من تدمير نواة فريدة الأصلية.. لقد زرعت برنامجًا يقوم بذلك بالفعل.. ولكن يجب تشغيله من الحاسب الرئيس للنواة هنا، في المقرّ.. يجب منع مهندسي الاحتلال من استعادة السيطرة على «فريدة» حتى أقوم بتشغيل البرنامج الأخير»، رمق الدائرة الخضراء في توتر ثم تابع متوسلًا: «افعل شيئًا أرجوك! أَنْقِذ بلدك.. امنع استعادتهم للسيطرة والتحكم من جديد! أعلم أن ذلك في استطاعتك».

حدَّق مختار في عَينَيْ يحيى للحظة، ثم أفلتت منه ضحكة تهكُّم يائسة، قبل أن يمطّ شفتيه ويهز رأسه نافيًا وهو يقول في استسلام:

- «لا أستطيع فعل شيء.. ولا حتى مهندسو النظام أنفسهم قادرون على استعادة السيطرة.. الخوارزمية التي طبَّقتها سارة بمساعدتك قد اخترقت جدار «منع الوعي.. لقد ساعدت «فريدة» في بلوغ مرحلة الوعي والإدراك التي حُرمَت منها.. كل ما مررنا به منذ لحظة تفعيل الخوارزمية قد تم بموافقة أو بتخطيط من «فريدة» وتحت إشرافها، لم تكن

خطة «كفاح طِيبَة» الذكية من أجل الاستقلال، ولا حتى برنامجك الفَذّ.. لقد كانت فريدة..»، ثم أشار بسَبَّابته إلى أعلى نحو الفضاء قائلًا في نبرةٍ مُتهكِّمةٍ يائسة: «نحن جميعًا الآن أصبحنا عبيدًا لنظام فائق القدرة، واعٍ، ومُدرِك لذاته».

امتقع وجه يحيى، وهوى قلبه بين قدميه، وهو يراقب الدائرة الخضراء وقد أوشكت على الاكتمال، فقفز نحو مختار وأمسك بتلابيبه صارخًا:

- أين النواة الأصلية.. أين الحاسوب الرئيس المفتاحي؟

تحفَّزت عضلات عادل وهَمَّ أن ينقضَّ على يحيى لولا نظرة مختار المانعة، فامتنع وجزَّ على أسنانه في غيظ. حدَّق مختار في عَينَيْ يحيى ثم انفجر في نوبة ضحك مجنونة متواصلة ألهبت أعصاب الجميع قبل أن يجيب:

- وحتى لو أرشدتُك إلى النواة الأصلية، فلا يمكنك الولوج إليها.. فهي معدَّة بتقنية تليدة، ومحمية بخوارزمية قديمة مُهملَة.

ثم أشار بسَبَّابته إلى مكعَّب زجاجي أزرق مُتوهِّج، يستقر فوق عمود زجاجي يحتوي على حُزْمَة ضخمة من الأسلاك تنبت من الأرض، وتجتمع جميعها في سلك واحد صغير يلجُ في فتحة جانبية في ذلك الحاسوب الصغير داخل المكعب

الأزرق..

لم يكد يحيى يلتفت إلى حيث أشار مختار حتى اكتملت الدائرة الخضراء..

وَمَضتِ السماء بومضاتٍ ساطعة متفرقة.. ومضات تأتي من الأقمار الصناعية التي تشكِّل شبكة فريدة الفضائية. ثم توهَّجت الشاشة الهولوجرامية بوهجٍ أحمر قانٍ قبل أن تتراصَّ عليها أوامر لخطوات متتاليةً متتابعة.. خطوات أعدَّتها «فريدة»، بعد أن درست سلوك القوى المتناحرة جميعها على حَدٍّ سواء.. بعد أن حددت الأخطار ونطاقها.. خطوات شرعت في تنفيذها..

خطوات تدمير واسع النطاق.. خطوات للانتقام ممن أوشك على القضاء عليها..

من البشر.

***

000000

25 نوفمبر 1915

11:55 قبل منتصف الليل (خمس دقائق قبل الفَنَاء)

ضغطت ليلى زر الفَناء، وبدأ العدُّ التنازليُّ النهائيُّ لتمزيق

نسيج الزمكان بلا رجعة. زرٌّ سيُعيدها إلى ذات النقطة الزمنية التي غادرتها أول مرة، ولكنه سيعيدها في هيئة مادة مضادة.. كتلة هائلة من جزيئات دون ذرِّية في صورة مادة مضادة (Antimatter).. جزيئات مضادة مكافئة للجزيئات الأصلية في الكتلة وضدها في الشحنة.. إلكترون وبوزيترون، بروتون وبروتون مضاد. ستعبُر ليلى النسيج على هيئة مضادة كأنها انعكاس في مرآة.. ستعبره وهي في حالةِ تضادٍّ كاملٍ مع جزيئاتها الأصلية التي عبرت بها نسيج الزمكان انطلاقًا من ذلك المستقبل البعيد.

عدٌّ تنازليٌّ سريع ينتهي بإطلاق السيدة العجوز كقنبلة من المادة المضادة.. قنبلة زمنية.. بل قنبلة «زمكانية» إن جاز التعبير.. كتلة مضادة ما إن تلتقِ وكتلتها الأصلية حتى تقع الإبادة والاندثار (Annihilation)، ستفنَى المادة وتنبعث كمية هائلة من الطاقة تشعل شرارة تفاعلات متسلسلة لا نهائية تؤدي إلى تمزيق نسيج الزمكان، أو ذلك الجزء من النسيج في أحسن تقدير.

إنها النهاية كما أرادتها.. نهاية ذات حَدَّيْن..

حَدّ الانتقام، واكتمال تلك الدائرة الزمنية الموحشة..

وحَدّ عودة عجلة الزمن إلى الوراء..

العودة إلى نقطة الصفر..

الصفر الذي قد يمثل لها العودة إلى حضن والدها ووالدتها اللذين لم تنعم برؤيتهما؛ بسبب ذلك الصراع الزمني الذي زُجَّ بها داخله دون إرادتها، ولكنها سُحقت بين رَحَاه..

أو الصفر الذي يمثل عودة ابنتها «سلمى» إلى أحضانها من جديد..

المُرسِل الزمني وعدها بذلك.. وعدها بأحد الصفرين.. وهذا يكفيها..

أغمضت عينيها في انتظار النهاية ونبضات قلبها تُتابع تكّات العد التنازلي الرَّتِيبة..

تك.... تك.... تك....

ثم انفتح باب غرفتها في قوة، فأجفلت وحدَّقت بأعينٍ متسعةٍ في وجه المُقتحِم.

خفق قلبها في عنفٍ وهي تحدِّق بذهول في تلك الفتاة التي قفزت لاهثةً داخل الغرفة، بل هي سيدة شارفت على الأربعين.. سيدة ناضجة تُذكِّرها بنفسها عندما كانت في شبابها.. لم يُسعفها نظرها الضعيف في تأمل تفاصيل وجه الزائرة ولكنها شعرت بها.. لمست روحها.. شيئًا ما بداخلها

أرخى البصر وعزَّز البصيرة.

خفق قلبها واختلج صدرها في غير تصديق، فهتفت:

- سلمَى!

هتفت ليلى باسم ابنتها بصوتها العجوز الواهن المتحشرج من دون مبرر أو تفسير. تردد الاسم في قلبها وعقلها وحلقها قبل أن يخرج على لسانها. سكن الكون من حولها فتلاحقت ومضات الذكريات السحيقة ونبضات الأمومة الغريزيَّة تضرب قلبها، فرضخ العقل لبصيرة القلب.. اعترف العقل بصدق المشاعر، رضخ لنبضات القلب الخافق حتى إنه ألغى من الصورة ذلك المسدس الذي تصوِّبه «رانيا» أو «سلمَى» إلى رأس والدتها.

التقت عينا رانيا بعينَيْ أُمِّها، فارتعشت يدها الممسكة بالمسدس، وكادت أن تُسقطه أرضًا حين قفز قلبها يخفق في عنف.. رَبَّاه! أتلك هي أمها الحقيقية التي حُرمت منها؟ كيف يخفق قلبها هكذا وهي لم تلتقِ أمها في حياتها من قبل! ألمست نظرات أمها الحانية قلبها؟ أم هي مشاعر دفينة سحيقة غائرة منذ أن كان عمرها لا يتجاوز الأشهر الخمسة؟ مشاعر متلاطمة تضرب عقلها وقلبها ويدها القابضة على سلاحٍ يرتعش، ماذا أصابها؟ أرَقَّت مشاعرها لمواجهة عجوز طاعنة في السن؟ أم هي حقًّا تقاوم رغبةً عارمةً في الارتماء

في حضن أمها والبكاء على حياة قد عصفت بكلتيهما معًا؟ وماذا عن تلك الدموع التي فاضت من عينيها بغتة؟ أهي دموع حسرة وندم على ذنب عظيم وخطيئة كبرى على وشك اقترافها؟ أم تُراها رغبة في طلب المغفرة والصَّفْح على فراقٍ فُرض عليهما؟

التقت الأعين ففاضت الدموع..

وشُلَّت العقول، بل ذابت العقول..

فساد الصمت، وعَمَّ السكون..

سكونٌ صافٍ لا تشوبه سوى نبضاتِ قلبِ أُمٍّ حانية، ومطارق قلب ابنة متألمة..

و..

وتكّات عَدٍّ تنازلي يُنذر بنهاية سوداء وشيكة..

تك.... تك.... تك....

- لا يا أمي!

هتفت بها رانيا في نبرةٍ حاولت جعلها صارمةً لكنها فشلت بعد أن اختنق صوتها بفعل دموعها المنهمرة. مسحت الدموع بكُمِّ سترتها الأيسر، وسحبت نَفَسًا سريعًا للسيطرة على سَيَلانِ أنفها، ثم أحكمت قبضتها على المسدس وهي تُصوِّبه

إلى رأس أمها.

واصلت عينا ليلى الذابلتان تأمل وجه ابنتها في اشتياقٍ جارفٍ غير عابئةٍ بالمسدس المصوَّب إليها.. لحظات طويلة مرت حتى بلغ رجاء ابنتها طبلة أذنها المتيبسة كأنما جاء من بئرٍ سحيقة.. ثم لاحت منها ابتسامة خافتة شقت طريقها على وجهٍ مجعَّد تيبَّست قسماته بفعل الزمن.. ابتسامة حانية شجعت صوتها الواهن أن يصارع تلك الحنجرة الخشنة والحلق الجاف حتى انتصر وخرج حانيًا وهي تقول:

- كَمِ اشتقتُ إليك يا سلمى!

فاضت عينا رانيا بالدموع من جديد، وتهاوت يدُها الممسكة بالمسدس، ثم سيطرت على مشاعرها قائلةً في رجاء:

- أرجوكِ يا أمي!

لم تتلقَّ إجابة.. فقط صمت، ونظرات حانية..

تك.... تك.... تك....

- توقفي.. أتوسَّل إليكِ!

هتفت بها رانيا في توسُّل، فتَنهَّدت أمُّها العجوز، وهزت رأسها في بطء علامة الرفض، وهي تقول في وهن:

- هذا هو الأمل الوحيد كي نجتمع معًا يا سلمى.. نجتمع في نقطة الصفر.

تك.... تك.... تك....

أحكمت رانيا قبضتها على سلاحها ورفعته من جديد.. ارتعشت يدها ثم فاضت عيناها بالدموع مجددًا.. فخفضته..

ثم رفعته من جديد.. أمسكته بكلتا قبضتيها.. فارتجفت يداها وتعالى صوتُ بكائها حتى صار نحيبًا.. خفق قلبُها.. فخفضت السلاح مرةً أخرى..

تك.... تك.... تك....

ثم سيطر عقلها ورفع السلاح عنوة.. فصرخت الأعين وانهمرت الدموع وعلا النحيب.. فاستعاد القلب زمام الأمور وأرخَى يديها، بل شَلَّ يديها..

هوى المسدس أرضًا.. صوت ارتطام معدني يعلن استسلامها.. فخرَّت جاثيةً على رُكبتيها تنتحب في ضعف..

تك.... تك.... تك....

حاول العقل مجددًا، وفشل وقد أحكم قلبها السيطرة على جوارحها، فلم يجد العقل سبيلًا سوى الصراخ متوسلًا، فانطلقت صرختها:

- «أرجوكِ يا أمي، نحن الآن معًا!»، ثم انتحبت واختنق صوتُها وهي تقول: «لا أستطيع فعل شيء.. مصير أسرتي بين يديك أنتِ!»

حدَّقت الأم في ابنتها، ولم تعلق.. عينان ثابتتان وعقل مسيطِر.. عقل تذكَّر كل لحظات الخذلان والألم والحسرة التي عاشتها روحها تائهة في مجرى الزمن بعيدًا عن ابنتها، ومحمَّلة بذنب زوجها وحبيبها.. عقل يوقن بحتميَّة النهاية من أجلِ بدايةٍ جديدة..

تك.... تك.... تك....

ثم خفق قلبها العجوز.. خفق على وقع استغاثة ابنتها ونحيبها.. اشتد القلب الغَضُّ فصارع وانتصر وهيمن حتى رضخ عقلها هي الأخرى..

معركة نتيجتها محسومة دائمًا.. فإن التقى القلب والعقل، انتصر القلب وشرد العقل بصرف النظر عن صلابة المنطق ومتانة الأسباب.. فحسمت ليلى أمرها إذعانًا لحكم المنتصر..

التقت أعينهما مجددًا، فحدَّقت ليلى مليًّا في ابنتها اليائسة، ثم زفرت في عمق..

ضغطت ليلى ذلك المستطيل الصغير أسفل شاشة الجهاز الزمني اللوحي السوداء.. مستطيل يقبع أسفلَ عَدٍّ تنازليّ

شارف على نهايته.. مستطيل يحيط بجملة من كلمتين؛ «Cancel Annihilation» أو «إلغاء الاندثار»..

ضغطت المستطيل الأبيض الذي توهَّج للحظات، ثم رفعت عينيها إلى ابنتها وأومأت برأسها إيجابًا واتسعت ابتسامتُها الحانية عندما لمحت زفرةَ ارتياحٍ حارَّة تخرج من صدر ابنتها المستسلمة. تَنهَّدت هي الأخرى في حنان، وانتزعت طرف السلك من السُّوار الزمني استعدادًا لخلعه من حول معصمها..

تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك.

تعالت تكَّاتُ العدِّ التنازلي بغتة، وتسارعت وتيرتُه في جنون..

رفض الجهاز الزمني الانصياع إلى رغبة السيدة العجوز.. رفض، وأبَى إلا أن يتمَّ مهمته النهائية..

اتسعت الأعين في هلع، وتاهت الشهقات وسط صوت تلك المطارق المتسارعة..

تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك. تك.

ثم سكنت التكَّات..

...

فعادت الروح إلى الجسد من جديد..

..

ثم انطلق صوتُ صفيرٍ حادٍّ مستمر..

واحتل الرقم «صفر» شاشة جهاز الزمن اللوحي بأكملها..

..

ثم ومض سُوار الزمن وتوهَّج بضوءٍ أبيض أخَّاذ..

لحظات قليلة وبدأ الضوء الأبيض يزداد قتامة..

وتدريجيًّا، اختفى الضوء الأبيض الساطع المميِّز للانتقال الزمني واستحال لونه إلى الأسود..

أسود حالك شديد..

وكأنه فراغٌ أزليٌّ سحيق..

فراغ أسود يمتص الضوء من حوله في شكل دوائر دقيقة تدور في سرعة، وتومض بألوان متتابعة تغطي الطيفَ المرئيَّ بأكمله..

أسود مَهِيب شرع يزحف على جسد ليلى بدءًا من معصمها..

أسود زاحف بطيء يتمدد على جسدها في تؤدة مُحوِّلًا جزيئات جسدها المترابطة إلى مادة مضادة معتمة، ويحولها

إلى قنبلة زمكانية مدمرة..

بدأت ليلى رحلتها الزمنية الأخيرة..

رحلة عكسية بجزيئات مضادة..

وزحف السواد بوتيرته البطيئة حتى بلغ مِرْفقَها..

تمدَّد السواد ومعه انطلقت موجةُ المادة المضادَّة في طريقها للاصطدام بنسختها الأصلية عبر نسيج الزمن..

ومضت شرارةُ الاندثار، والتمزُّق النهائيّ لنسيجِ الزمن..

***

12 أكتوبر 1992

2:45 عصرًا.. 35 كيلومترًا جنوب غرب القاهرة

دقائق طويلة من الذهول والهلع مرّت على شريف وهو يحدِّق في الشاشات، بينما تتسارع ضرباتُ قلبه في عَدٍّ عكسي، عَدّ تصاعدي يأبَى أن يتهادى ليمنح صاحبَه فرصةَ النجاة.

وأخيرًا، أفاق من ذهوله، أفاق عندما لمح بطرف عينه ومضاتٍ متقطعةً من ضوءٍ أبيض ذي مسحة زرقاء أشبه بضوء البرق القوي. التفت إلى مصدر الوميض فإذا بفجوة

شاسعة تتوسط البهو الفسيح.. فجوة تعجَّب لعدم رؤيته إيَّاها فور دخوله وقبل أن تستحوذ عليه الشاشات بأخبارها وعدِّها التنازلي.

تقدَّم بحذَرٍ يتأمل الفجوة التي تشعُّ منها تلك الومضات الساطعة..

اقترب أكثر حتى بلغ حافَّتها ونظر إلى داخلها فإذا بها تمتلئ عن آخرها بالمياه.. مياه دَكْنَاء مُقبِضة شديدة الإظلام.. مياه تضيئُها بين الفينة والأخرى صواعق أشبه بصواعق البرق.. أربع شرارات كهربائية عملاقة تتوسط عمق الفجوة السحيقة.

جثا على ركبتيه على الحافة يحدِّق في المياه العميقة. دقَّق النظر حتى لمح على ومضات البرق المتقطعة أربعة أجسام كُرويَّة عملاقة يتعدَّى قُطر الواحد منها الأمتار الستة.. كُرَات سوداء مُعتِمة ذات سطح متموِّج تتغير تموُّجاته مع صواعق البرق المتتابعة، كرات مصنوعة من مادة مظلمة لُعابية لَزِجَة لم يرَ مثيلًا لها من قبل.

لقد وجد البوابة الزمنية الثانية، وجد جهاز الانتقال الزمني الأعلى تقنيةً وقوة.. ذلك الجهاز الذي يعتمد على قوى الطبيعة الأساسية الأربع، القوة الكهرومغناطيسية المسئولة عن الخواص الكهربائية والمغناطيسية، وقوة الجاذبية

المعروفة، بالإضافة إلى القوتين: النووية الشديدة والنووية الضعيفة المسئولتين عن ترابط الجزيئات أو انفصالها.. القوى الأربع الرئيسة التي تجمع تحتها كل القوى التي نختبرها يوميًا في حياتنا.. أربع كرات تمثل القوى الأساسية الأربع.

همَّ أن يتجه إلى الشاشات لولا أن لمح وميضًا آخر، وميض أحمر شديد يأتي من الفجوة، فأمعن النظر واقترب من سطح الماء أكثر علّه يهتدي إلى مصدر ذلك الوميض القاني.. أدام النظر طويلًا حتى ومضت الفجوة مرةً أخرى بذات البرق الأحمر الشديد، صاعقة برق حمراء عملاقة تنطلق من عُمقٍ سحيقٍ قبل أن تتفرع قرب نهايتها إلى أربع صواعق قوية تضرب الكرات السوداء في اللحظة ذاتها، فيتموَّج سطح الأخيرة بتموُّجات عنيفة متلاطمة تتبعها صواعق بيضاء متتابعة.

أجفل وسقط على ظهره بعد أن لمح مصدر الصاعقة الحمراء على عمقٍ سحيقٍ أسفل الكُرَات السوداء. كرة حمراء عظيمة الحجم تكاد تبتلع بداخلها عشراتٍ من تلك الكرات السوداء.. كرة عظيمة شديدة التموُّج تستقر في قاع الفجوة السحيقة.

«رَبَّاه!!» غمغم وقد ارتعدت فرائصه رغمًا عنه، فإذا كانت الكرات السوداء الأربع تمثل قوى الطبيعة الرئيسة، فماذا عن

الخامسة عظيمة الحجم..

أهي القوة الخامسة التي يبحث عنها العلماء لتفسير ظواهر كونية استعصت على الحل..

أم أنها تمثل الزمن..؟

أذلك الوميض الأحمر يمثلُ قفزاتٍ زمنيةً أم تشعُّبًا زمنيًّا؟

أم انهيارًا زمنيًّا؟

أيعكس الوميض رتقًا لنسيج الزمكان أم تفسُّخًا له؟

- مرحبًا بك يا شريف.. أم أناديك باسمك الحقيقي.. أحمد رؤوف سالم.

انتفض شريف وكاد قلبه أن يحطم ضلوعه ويفرَّ هاربًا فورَ أن تردد ذلك الصوت الأنثوي الهادئ في أرجاء المكان فجأة. تلفَّت حوله في هلعٍ باحثًا عن مصدر الصوت. صرخ يحثُّ المتكلم على تعريف نفسه، فأجابه الصوت بذات النبرة الهادئة:

- ألا تعرفُني حقًّا؟ لقد التقينا في مواطن وأزمنة متعددة.. يطلقون عليّ أسماء عديدة حسب الفرع الزمني الذي وُلدت فيه.. أنا ذلك النظام الذكي الواعي فائق القدرة.. يمكنك أن تناديني بما شئت، ولكنني أفضِّل «فريدة»، ذلك الاسم الذي

بلغث به حدَّ التفرُّد التكنولوچـي، أو «كليبيوس» اسمي الأول العتيق، نواتي الأصلية وقلبي النابض.

اتسعت عينا شريف في ذهولٍ وهو يستمع إلى «فريدة» أو «كليبيوس» نظام الأمن الرقمي الذكي، الذي شارك هو شخصيًا في تطويره حينما كان يعمل مع يحيى ورانيا في شركتهما.. أبَلَغ «كليبيوس» حدَّ التفرُّد؟ متى؟ وكيف؟ هذا يضيف للأحجية الزمنية بُعدًا آخر أكثر عمقًا وتعقيدًا، بل وخطورة.. فنظام أمني ذكي واعٍ مُدرِك لذاته هو بالتأكيد قمة الأخطار التكنولوچـية، بل يفوقها خطورة، ولو اجتمعت..

أحكم السيطرة على مشاعر الذهول، فلا وقت لديه، الفَناء على الأبواب.. لا يمتلك رفاهية الذهول أو التباطؤ في تنفيذ مهمته.. تدمير البوَّابة الزمنيَّة.. ولكن، ومضت خاطرة مقلقة في عقله، خاطرة لا يمكن التغاضي عنها، فعقد حاجبيه قائلًا في نبرةٍ جعلها هادئة:

- لا يبدو أنكِ تفاجأتِ بوجودي؟

- ليس تمامًا.. كنت أتوقع الزيارة بالفعل لكن ليس في هذا التاريخ تحديدًا.. يبدو أنه لا يزال أمامي المزيد من الأشياء لتعلُّمها.

أجابها متهكمًا:

- لا أعتقد أن لديكِ الوقت الكافي للتعلُّم والتطوُّر هذه المرة.

جاءه ردُّها الهادئ مُقلقًا حين قالت:

- الوقت لا يشكل عائقًا بالنسبة إليَّ.. ولكن شكرًا للتنبيه.. في الواقع إن المفاجآت والأخطاء مع السعي لتجنُّبها هي سُنَّة التطوير والتحديث.. سأطوِّر من نفسي مجددًا.

قالتها ثم سطع وميضٌ أحمر شديد توهَّجت به الفجوة السحيقة، قبل أن يدوِّي في المكان صوتٌ يصمُّ الآذان أشبه بهدير الرعد. ارتجَّ الكهف حتى تساقطت الأتربة، ثم هوت صخرةٌ ضخمةٌ هدمت السلَّم الذي هبط عليه شريف وسدَّت الطريق الوحيد إلى سطح الأرض..

فقد شريف توازنه وسقط أرضًا وهو يحدِّق في السلم الخشبي المحطم والصخرة الضخمة التي سدت طريق هروبه الوحيد. اتسعت عيناه في ذعرٍ حين سيطرت عليه غريزة البقاء، فصرخ:

- ما هذا؟

- لقد طوَّرتُ من نفسي كما أخبرتك.. ثم اتخذتُ بعض الإجراءات الاحترازية في الماضي لاحتوائك هنا حتى تكشف عن نواياك جيدة كانت أم سيئة.

- كيف فعلتِ ذلك؟!

- رسائل آنيَّة وكبسولات زمنية إلى تابعين مخلصين عبر مجرى الزمن.. الزمن هو نطاقي يا شريف. وعندما يكون الزمن هو ساحتك ومجال قوتك، إذًا فالوقت يساوي صفرًا.. أنا نظام فائق الذكاء، أقوم بالتعلُّم والتطوُّر ثم أُتبعه بتنفيذِ خطواتٍ صغيرة، بل خطوات متناهية الصِّغَر، خطوة في الحاضر وأخرى في الماضي حتى أحقق غايتي وأُشيِّد كل ما تراه الآن.

تسارعت نبضاته، وتهدَّجت أنفاسه، وحافظت عيناه على اتساعهما المذعور لبرهة، كانت فيها الغلبة لغريزة البقاء التي ازدادت قوةً وسيطرةً مع كلمات «فريدة» الواثقة الهادئة.

امتدت لحظات الهلع الثقيلة تجثُم على روحه، حتى بدأ يستعيد زمام السيطرة على نفسه من جديد فتذكَّر غايته وهدفه. هدأت أنفاسه وزحف الإصرار إلى قلبه يُهدِّئ من روعه ويبثُّ فيه الشجاعة والإيمان بالقدرة على تحقيق الغاية. سألها وهو يواصل السيطرة على أحشائه:

- ولكن كيف تضمنين ولاء التابعين؟ وكيف تثقين في قيامهم بتنفيذ تعليماتك؟

- نفس الأسلوب الذي تتبعه أنت يا شريف.. بل نفس

الأسلوب الذي علَّمتُكَ إيَّاه: امنحهم نبوءاتٍ مستقبلية.. رسِّخ الانطباع بالقدرة والمعرفة.. اصنع تلك الهالة من المهابة.. بُثَّ في نفوسهم الرعب.. حطِّم ثقتهم في أنفسهم.. فتصبح أنت المسيطِر والآمِر الناهي، فأمرك مجاب وطاعتك واجبة.

- إذًا أنتِ صاحبة الرسائل الزمنية؟!

- بالتأكيد! ومن سواي كنت تظن؟!

أضاءت إجابتها ثنايا عقله، ربطت خلاياه العديد من الأحداث التي عاشها خلال رحلاته الزمنية. ترابطت الشخصيات والأحداث في علاقة سببية منطقية جَلِيَّة.. اجترَّ عقله كل ما مر به خلال 25 سنة من الرحلات الزمنية عبر خطوط متقاطعة.. خبرات تكتيكية متنوعة نبتت وترعرعت في وجدانه عبرَ سنواتٍ من المعارك الزمنية وحان وقت قِطَافِها.

اعتدل واقفًا وعقله يعمل في سرعة، عقل بشري ضد عقل اصطناعي فائق القدرة بلغ مرحلة التفرُّد والوعي والإدراك.. عقل من خلايا عصبية حيَّة ضد عقل «كَمِّي» عابر للزمن.. معادلة ساحقة تبثُّ اليأس والقنوط في النفوس.. إلا نفسه هو وإرادته الحديدية.. فزفر ليطرد مشاعر اليأس قبل أن يسألها، وعيناه تراقبان في توترٍ ذلك العدَّ التنازلي المتسارِع على الشاشات، والذي يعدو حثيثًا نحو النهاية:

- ولكن لماذا تريدين إفناء الزمن؟

- على رِسْلِك يا شريف.. عن أي إفناء للزمن تتحدث؟ لا أحد يستطيع إفناء الزمن.

عقد حاجبيه في شدةٍ وهو يلوِّح بيديه في المكان مشيرًا إلى الشاشات وعدِّها التنازليّ وهو يهتف في غضب:

- كل تلك الخطوط الزمنية على وشك الفناء.. مليارات البشر على وشك الاندثار.. لماذا؟

ساد الصمت لحظةً قبل أن تُجيبه:

- لحماية مليارات المليارات الأخرى من البشر والكائنات الحية.. أتظن أن تلك الخطوط الزمنية أو تلك القطعة الممزقة من نسيج الزمكان هي الكون بأسره.. أنت واهم.. ما هذه إلا قطعة صغيرة في نسيج الزمكان تحتوي على أفرع قصيرة من شجرة الزمن.. أفرُع تشكّلت بفعل تدخلات واضحة التقطتها أجهزتي.. لكنَّ الزمنَ أبديٌّ دائم التفرع يا شريف.. جميع الاختيارات التي يقوم بها أي كائن حي في الكون تؤدي إلى تفرُّع زمنيّ وكونٍ موازٍ.. الاختيارات كافةً كبيرها وصغيرها. صمتت للحظةٍ قبل أن تضيف: «إذا كُتبت لك النجاة اليوم.. وأشكُّ في ذلك.. فأنصحُك بقراءة كتب شون كارول (Sean Carroll)؛ لإدراك مسألة الأكوان الموازية من

وجهة نظر ميكانيكا الكَمّ».

هزَّ شريف رأسه في رفض، ثم هتف وقد تمكَّن منه الغضب:

- هل ستعطينني درسًا في ميكانيكا الكَمِّ بينما الزمن ينهار.. كيف يمكن أن يكون ذلك الانهيار في صالح البشر؟

- إنها مجرد تجربة!

- ماذا؟

- كما أخبرتُك، مجرد تجربة ضمن مئات التجارب الأخرى التي قمت بها في هذا الشأن.. أنا نظام أمني ذكي ذاتي التطور يا شريف، مهمتي هي دراسة الثغرات والأخطار والعمل على تلافيها، عبرَ دوائر مغلقة لانهائيَّة من التجارب العملية الواقعية التي يتبعها تطوير وتحديث ذاتي.. أنت شخصيًّا مجرد نسخة باهتة من أصلٍ يعيش حياةً ناجحةً هانئة في حضن والديه في جذع هذا التفرُّع الزمني.. فقط حظُّك العاثر أوقعك في إحدى تلك التجارب التي تدرس التلاعب الزمني؛ وكذلك التأثير التدميري للتفاعلات المتسلسلة الناجمة عن تصادم المادة والمادة المضادة في مستويات عابرة للخطوط الزمنية.. فقط مجرد تجربة حية وحقيقية (Real Live Experiment) لحماية غالبية الكائنات الحية.. تضحيات بسيطة في سبيلِ هدفٍ أسمَى..

في سبيل حماية نسيج الزمن ككل.. الأمر أشبه بإفناء قرية صغيرة في سبيل حياة كوكب بأكمله.

فغر شريف فَاهُ واتسعت عيناه ذهولًا وقد فشل في تقبُّل حقيقته وعجز عن استيعاب ذلك المنطق الملتوي المريض.. فارت الدماء في عروقه وزاغت عيناهُ وهو يهتف:

- أنتِ الأصلُ يا «فريدة.. أنت أصل الشرور.. وليست ليلى.. بل أنتِ منذ البداية.

- لا.. لست أنا «الأصل» بكل تأكيد أو حتى المسافر الصِّفْريّ كما أطلقتم عليه.. قد أكون أنا فعليًّا من يقف وراء كل الأطراف.. يمكنك اعتباري المؤسِّس الحقيقي لفرسان الزمن؛ وكذلك الأب الروحي للأصليين وفلسفتهم.. بل وصاحبة جهاز «التشفير الزمني» اللوحي، أداة السفر الزمني التي منحتك إياها بصورة أو بأخرى، وأداة الإبادة الزمكانية في الوقت ذاته.. أنا كل هذا، لكنني لست «الأصل» الذي تعنيه.. ألم تسأل نفسك مَن يقف خلفي أنا في المقام الأول.. أنا لست صفر البداية أو النهاية.. فالأصل هـــ..

قطعَتْ جملتها عندما دوَّى صوت صفير إنذار شديد متقطِّع، تزامن مع وصول بعض دوائر العَدّ التنازلي إلى الرقم صفر. صرخ شريف في غضب:

- أوقفي ذلك الآن.

- لا أحدَ يستطيع إيقاف ما يحدث.. تلك هي الدورة الأخيرة في التجربة، لقد تكررت تلك الدائرة الزمنية مراتٍ عدّة.. وتلك هي الأخيرة.. موجة أخيرة من «التصادُم الزمني المضادَ» تُفنِي هذا الجزء من نسيج الزمكان تمامًا.

قالتها ثم أُضيئت الشاشة الرئيسة بعرض القاعة لتُظهر نسيجًا شاسعًا على هيئة خطوط رأسيَّة وأفقيَّة زرقاء متقاطعة على شكل مُربَّعات متساوية على خلفية رمادية، فيما برز على طرفَي النسيج موجتان صغيرتان إحداهما بيضاء ساطعة والأخرى سوداء قاتمة.. موجتان تتعاظمان وتتحركان في سرعةٍ عبر النسيج نحو المنتصف..

موجتان تعبران نسيج الزمكان إحداهما تمثل المادة والأخرى تمثل المادة المضادة.. موجتان تقتربان بعضهما من البعض في تسارُع مرعب..

عَدّ تنازلي مُتسارِع جديد..

عَدّ ينتهي بالتصادُم، ثم الفَناء وتمزُّق النسيج بلا رجعة..

- بل سأوقفه بنفسي!

صرخ بها شريف وهو يقذف بأصابع من الديناميت

والمتفجرات الشديدة داخل الفجوة، داخل البوابة الزمنية..

داخل قلب جهاز يدمج الزمن مع قوى الطبيعة الرئيسة الأربع..

غاصت المُتفجِّرات في أعماق الفجوة السحيقة..

غاصت حتى توسَّطت الكرات السوداء المتموجة الأربع وكرة الزمن الحمراء العظيمة..

ثم ضغط زِرَّ التفجـير..

انفجرت العبوات الناسفة والتهبت الفجوة..

موجة انفجارية مكتومة ونيران عظيمة توهَّجت بها الفجوة السحيقة، وفارت على إثرها مياهها الدَّكْنَاء حتى تطايرت في الهواء وتساقطت زَخَّاتها في كل صوبٍ تغطى أرضية الكهف الزمني، الذي ارتجَّ وتشقَّقت جنباته.

وساد الظلام..

دفعته الموجة الانفجارية فارتطم شريف بالأرض في عنف.. ارتطام أنَّ له جسده وتحطمت به بعض عظامه، فتأوَّه من شدة الألم.. ألم امتزج بطنينٍ متصلٍ يَصمُّ آذانه.. وذرَّات متساقطة من التراب والرمال تُلهب عينيه..

ثم تحامل على نفسه ليتأكد من نجاح مهمته، تسمَّرت

عيناه تراقبان الشاشة السوداء الكبيرة التي انطفأت بفعل الانفجار..

تنفس الصُّعَدَاء وألقى بظهره أرضًا يلتقط أنفاسه..

أغلق عينيه وقد لاحت على شفتيه ابتسامةُ النصر..

لقد نفذ مهمَّته ودمَّر البوابة الزمنية..

لقد أوقف الانهيار الزمني في دورته الأخيرة..

أنقذ نسيج الزمكان و.....

ثم ومض في المكان وميضٌ أبيض خافتٌ..

ووميضٌ متقطعٌ أخذ يسطعُ تدريجيًا قبل أن يدنِّس بياضَه طيفٌ أحمر قانٍ..

ووميض يأتي من الفجوة السحيقة..

خفق قلبه من جديد وتوترت خلاياه..

لحظات قليلة ثم أصدرت تلك الشاشة العملاقة صوت «شوشرة» وأزيزًا متقطعًا قبل أن تتوهَّج من جديد، ويظهر عليها العَدُّ التنازليُّ وقد تسارع مُعدَّلُه حتى بلغ ما تبقَّى منه ثواني معدودة، في حين اقترَبَت موجة المادة من المادة المضادة وقد تعاظمت الموجتان حتى بلغتا أضعافًا مضاعفةً

لحجمهما الأول..

اقترَبَتا من منتصف النسيج وقد أوشكتا على الاصطدام..

حين جاء صوت «فريدة» الهادئ قائلًا:

- محاولة فاشلة جديدة يا شريف.. ليس هكذا تدمِّر البوابة الزمنية.. لا أحدَ يستطيع كسر دائرة الزمن.

***

كمَّاشة زمنيَّة أخيرة.. نصر أو فَنَاء

24 ديسمبر 2019، 5:00 صباحًا.. البوَّابة الزمنيَّة الأولى.. المخبأ الآمِن

بيب..... بيب..... بيب..... بيب.....

صافرات الإنذار تتهادى وتتحول إلى رنين متقطع بطيء يتردد صداه في أرجاء البهو الآمِن.. رنين يتزامن مع وميض أحمر يتتابع على استحياء فيرمى بظلالٍ ساكنةٍ تظهر وتختفي، لجثثِ أبطالٍ مختنقة تنتشر على الأرض الحجرية..

بقايا أوامر المُخِّ العصبية تصل إلى سيقانٍ ميتةٍ فترتعش بتشنُّجاتٍ أخيرةٍ قد تعطي أملًا في حياة فارَقت أصحابها..

تمدد جسد خالد، الأيوبي، على الأرض الباردة، وقد سكنت

تشنجات ساقيه، وفارقته الحياة ليلحق بأصحابه جميعًا.. وإلى جواره، استقرَّ جهاز التفجير عن بُعد، ذلك الجهاز الذي كان ينتظر ضغطةً صغيرةً فقط ليقوم بواجبه ويدمر بوابة زمنية، تمثل أحد أضلاع كمَّاشة زمنية أخيرة قد تنقذ نسيج الزمكان من فَناءٍ وشيك..

جهاز صغير يعلوه زِرٌّ واهنٌ يستجدِي الضغط..

ولكن مَن يستطيع ضغطَه قد مات..

***

12 أكتوبر 1992، 3:00 عصرًا.. البوابة الزمنية الثانية

تمدَّد شريف هو الآخر على أرض حجرية أخرى، أرض تقبع في الماضي في خطٍّ زمنيٍّ آخر، أرض مبللة بسائل أسود لَزِج تطاير من بوابة زمنية ثانية أبَتِ التدمير.. فتأوَّه في إعياءٍ وهو يتحسس ضلوعه المحطمة.. تأوُّهات خرجت من شفتيه تنفيسًا لآلام جسدية ضاغطة، وأخرى صرخت بها روحه تنفيسًا ليأسٍ وإعلانًا بالاستسلام.. استسلام أمام عقل يفوقه قدرةً وإدراكًا للزمن، عقل «فريدة»..

الموجة الأخيرة على وشك التصادم.. نسيج الزمكان على وشك التهتُّك..

وكأن فشل تدمير البوابة الزمنية وحده لم يَكْفِها، فقررت «فريدة» الانتقام من شريف ومَنْ عاونه.. الانتقام بأثر رجعي.. لقد قررت «فريدة» أن تنتقم منه في الماضي.. لذَّة الانتقام البشري طاغية، فما بالُك بانتقامِ نظامِ ذكاءٍ واعٍ ومُدرِك لذاته فقط.. ولأن لذة الانتقام لن تكتمل إلا بالإذلال، فقد أعلنتها «فريدة» بنبرتها الهادئة:

- «سأقوم بتحديثٍ جديد، لكنه مختلف.. تحديث يُفنيك ومَن عاونك قبل أن تصل إلى هنا، إلى قلب البوابة الزمنية». صمتت للحظةٍ استرخت فيها عضلات شريف المنهكة استسلامًا ورضوخًا لكيان زمني فائق، ثم تابعت بالهدوء المستفز ذاته: «تحديث قد يأخذ عقودًا وعقودًا طويلة ممتدة باحتساب الزمن المجرد.. لكنه سيأخذ دقائقَ ثلاثًا فقط في زمني الأصلي.. ولحظةً واحدةً فقط في هذا الزمن...»

صمتت مُجدَّدًا ثم استطردت بنبرةٍ آليَّةٍ شامتة:

- وداعًا يا شريف.

***

24 ديسمبر 2019، 5:00 فجرًا.. مقر الرَّبْوَة

أعلنتها «فريدة» في هذا الزمن كذلك.. انتقام آخر.. لكنه

انتقام من نوع فريد.. ليس انتقامًا من شخصٍ ومن معه، بل انتقامٌ من جنسٍ كامل.. الجنس البَشَريّ..

وكأن بشر هذا الخط الزمني لا يكفيهم فناء زمكاني وشيك، فقررت «فريدة» معاقبتهم بفناءٍ من نوعٍ آخر.. فناء دموي، وتدمير شامل.. أعلنت «فريدة» عَدًّا تنازليًّا قصيرًا، مدته عشرُ ثوانٍ، قبل أن تطلق أسلحة تدميرية هائلة تُهلك الأرض ومن عليها..

أربعُ ثوانٍ فقط على النهاية..

تسمَّر الجميع في أماكنهم وحبسوا الأنفاس، في حين أغمض يحيى عينيه ونطق الشهادتين استعدادًا لموتٍ بات قريبًا..

ثم توقَّف العدُّ التنازليُّ بغتة، قررت «فريدة» تأجيل ذلك الانتقام لثلاث دقائق إضافية، فأعلنت إجراء تحديث جديد وأخير.. تحديث سيأتي بنتائجه بأثر رجعي.. تحديث الانتقام الذي أعلنته منذ 27 عامًا في خطٍّ زمنيٍ مختلف..

تحديث يستغرق ثلاث دقائق فقط..

وبدأ العدُّ التنازليُّ الانتقاميُّ الجديد..

وكأن تلك الدقائق الثلاث الإضافية كانت إيذانًا بميلاد أمل

جديد، أمل ضخَّ في عروق يحيى طاقةً لا نهائية، فالتفت ناحية الحاسوب الرئيس، إلى نواة «فريدة» الأصلية التي أشار إليها البارون. خفق قلب يحيى في عنف، فَرَك عينيه في غير تصديق، فهذا الحاسوب القديم الذي استقر بهدوء داخل مكعَّب زجاجي مُتوهِّج يحافظ عليه وعلى سلامة وفعَّالية مُكوِّناته القديمة، هو بذاته حاسوبه المحمول الذي فارقه في خَطِّه الزمني البعيد.. نعم هو بذاته الحاسوب الذي يحتوي على نواة نظام «كليبيوس» الأصلي.. فهتف في ذهول:

- «كيف هذا؟ إنه حاسوبي الشخصي؟» ثم التفت إلى البارون هاتفًا: «هل أتيتَ به من زمني إلى هنا لتنفذ خُطَّتك الحقيرة أيها الوضيع!».

لم ينتظر يحيى ردًّا من مختار، فهُرع مسرعًا إلى الحاسوب، وأخرج من جيبه جهاز التشفير الصغير، «الدُّونْجل»، الذي عاد إليه من جديدٍ بعد قرنٍ أو يزيد من الرحلات الزمنية. فتح يحيى المكعَّب الزجاجي وضغط زِرَّ تشغيل الحاسوب.. وَمضَ الحاسوب معلنًا بدء التشغيل..

- قف مكانك.. واترك ما في يدك الآن.

هتف بِهِ عادل في صرامةٍ وهو يصوِّب مُسدَّسه نحو يحيى، الذي أجفل واتسعت عيناه ذعرًا. نظر البارون إلى عادل نظرةً صارمةً وأشار إليه بخفض سلاحه.. فتجاهله

عادل تمامًا قائلًا في صرامة:

- لن أكرر تحذيري مرةً أخرى.. اترك ما في يدك وابتعد عن الحاسوب الآن.

- هل جُننتَ يا عادل؟ أتعصى أوامري؟

صاح البارون في وجه عادل في صرامة. واصَل الأخير تصويب مسدسه إلى يحيى وهو يقول: «إن عصيتَ أنت قَسَم «الأصليين» فلا طاعة لك عليّ». صمت ثم وجَّه حديثه إلى يحيى قائلًا: «أنت لم تترك لي خَيَارًا آخر.. دائرة الزمن المكتملة تأتي أولًا يا يحيى».

قالها ثم أطلق النار في اللحظة ذاتها التي قام فيها البارون العجوز باستنفاد ما بقي من طاقته، ليلقي بنفسه أمام يحيى ويحتضنه فتستقرّ الرصاصة في ظهره..

اتسعت عينا يحيى ذهولًا، وعقد عادل حاجبيه في تعجُّب قبل أن تطلق سارةُ شهقةَ لوعةٍ على جدِّها الصريع وحبيبها الهَلِع.

سيطرت سارة على مشاعرها سريعًا، وقفزت نحو عادل لتركل المسدس من يده، ثم تعاجله بلكمةٍ شديدةٍ في فَكِّه، لكنه تجاوزها بسهولة وردَّها بلكمة قوية في مَعِدَتها انحنت لها سارة وشهقت في ألم، قبل أن تتمالك شهقاتها وأنفاسها

وتركله بين ساقيه، ثم تدور حوله لتسحبه أرضًا وقد أطبقت ساعديها على رقبته تضغطها في قسوة. حاول الأخير استنشاق الهواء فأبَث قصبته الهوائية المضغوطة تمرير الهواء. جاهد عادل انخفاض الأكسـچـين في دمه وقاوم آلام رقبته. ثم سحب خِنْجَرًا من جرابٍ صغيرٍ أسفل ساقه، وغرزه في ذراع سارة التي صرخت في ألم، وأفلتت رقبته، فدفع جسده بعيدًا، وأخذ يلهث في عنفٍ ويدُه تبحث عن المسدس في لهفةٍ حتى وجده، فاختطفه سريعًا وهمَّ بتصويبه نحو يحيى مرةً أخرى، لولا أن باغتته سارة، وطعنته بالخنجر ذاته في ظهره ثلاث طعنات نافذة، فتهاوى جسده غارقًا في دمائه.

ألقت سارة بجسدها على الأرض تلهثُ في عنفٍ والدماءُ تسيلُ من جرح ذراعها، في حين تسمَّر يحيى في مكانه يتابع الأحداث بأعينٍ ذاهلة.

عَدُّ «فريدة» التنازليُّ لتحديثها الانتقامي يشير إلى أقل من أربعين ثانية فقط..

- أسْرِع.. أسرع يا يحيى.

هتف البارون بصوتٍ واهن، فحدَّق فيه يحيى غير مصدق ما حدث منذ لحظات، وما قام به هذا البارون مختار كامل من أجله. ثم نفض عنه الذهول، وأولج «الدونجل» في

الفتحة الجانبية للحاسوب، فظهرت نافذة تطالبه بإدخال كلمة السر المكونة من 96 رمزًا بالنظام السداسي عشري.

فسحب نَفَسًا عميقًا ثم زفره عن آخره وأدخل كلمة السر..

واستجاب الحاسوب.. وفَتحت النواة الأصلية بابها على مصراعيه أمام مُبدِعِها.. المسافر الزمني والمهندس البارع، يحيى المصري.. داعب أزرار لوحة المفاتيح في سرعة فأوقف العدَّ التنازليّ الجاري في ثوانيه الأخيرة..

ثم داعبهم مرة أخرى ليسمح لبرنامجه التدميري الصغير بأن يبدأ العمل.. أن يبدأ التدمير من الداخل.. من داخل النَّوَاة الأصليَّة.. نواة فقدت جدران حمايتها وأذعنت لصاحبها ومُبدعها وأوامره الصارمة بالانتحار..

انتحار «فريدة» وتدمير شبكتَيْها: الفضائيَّة والأرضيَّة على حَدٍّ سواء..

تدمير نهائي وشامل..

***

25 نوفمبر 1915، 11:59 قبل منتصف الليل.. قصر الخازندار

بأعينٍ متسعةٍ ذاهلة حدّقت رانيا في ذلك الضوء الأسود

الزاحف الذي يبتلع والدتها بداخله..

يبتلعها بعد أن حوّلها إلى قُنبلَة «زَمَكانيَّة» من المادة المضادة ستنفجر في نسيج الزمكان وتفنيه..

لقد فشلت هي الأخرى في مهمتها لمنع الاندثار ووقف القنبلة الزمكانية المدمِّرة..

قنبلة تستخدم البوابة الزمنية الثانية..

تلك البوابة الزمنية التي تدمج قوى الطبيعة الأساسية الأربع لتعيد تشكيل الحقول الكمِّية..

.....

ثم لمع عقلها بخُطَّةٍ مجنونة..

لقد سافرت زمنيًّا إلى تلك النقطة باستخدام تقنية زمنية أخرى.. تقنية «التشابُك الكَمِّي» وأنفاقه الآنيَّة.. تقنية تستخدم البوابة الزمنية الأخرى..

لم يكن أمامها وقت للتفكر والتدبير..

فرصة واحدة فقط..

فإما النصر أو الفَناء..

فأخرجت دبوس «التشابك الكمِّي»، وغرزته في ساقها،

وضغطت كُرَتَه السوداء المعتمة، فومض الدبوس بوميضٍ أبيض ساطعٍ معلنًا بدءَ الانتقال الزمني ..

ثم قفزت رانيا واحتضنت أمَّها..

احتضنتها حتى التحمتا معًا..

حتى تقاطعت تقنيتا الانتقال الزمني وتداخلتا..

فالتحمت جزيئاتهما معًا وتبدلت..

واضطرَبَت أنفاق الانتقال الزمنيّ، وتهدمت..

ثم حدث الانفجار..

***

12 أكتوبر 1992، 3:02 عصرًا.. البوّابة الزمنيّة الثانية

أغمض شريف عينيه استعدادًا للفَناء..

مرَّت اللحظةُ التي وعدته بها «فريدة» للانتقام منه وممَّن عاونه..

مرت لحظاتٌ أخرى دون جدوى..

لا جديد ولا انتقام..

فقط موجتا الاندثار في طريقهما إلى الاصطدام.. فهتف بها

مُتهكِّمًا:

- أين انتقامك يا فريدة؟

صمتٌ مُطبِق.. ثم بلغ صوت فريدة أذنيه متوترًا وهي تقول:

- لا أدري.. سأحاول مجددًا.

لحظة أخرى.. ولا شيء يحدث على الإطلاق..

الأمل يتعاظم بداخله، وفكرة عبقريَّة تنبُت في عقله..

فزحف نحو الفجوة العميقة..

نظر إلى موجتَي الفناء وقد اقترَبَتا كثيرًا.. ولكن لا يزال أمامه وقتٌ كافٍ للتشفِّي.. فسألها ساخرًا شامتًا:

- فريدة! هل تدركين ما الدائرةُ المفرَّغة؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد تبًّا لكِ يا فريدة!

ثم أشعل السُّوارَ الزمنيَّ حول معصمه وقفز إلى داخل فجوة البوابة الزمنيَّة يحتضن الكُرَات السوداء..

وصرخت فريدة..

اشتعل سواره الزمني وسطع..

وشرع يبتلعه والكرات المحيطة به..

كرات قُوَى الطبيعة الأساسية الأربع..

فأبرقت الكراتُ السوداءُ الأربع، والتهبت كرةُ الزمن الحمراء العظيمة..

دخلت بوابة الانتقال الزمني في دائرةٍ مُفرَّغةٍ ستأتي عليها..

البوابة الزمنية تلتهمُ نفسها..

البوابة الزمنية تنقلُ ذاتها زمنيًا في دائرةِ تدميرٍ مفرغةٍ أبديَّة..

***

24 ديسمبر 2019، 5:07 فجرًا.. البوابة الزمنية الأولى.. المخبأ الآمن

الأنفاق الزمنية تتهاوى، وتقنيات التنقُّل الزمني تتداخل..

الدوائر المعدنية المُكوِّنة لبوابة «التشابك الكمِّي» تلتهب.. ترتفع درجة حرارتها بشدَّة..

الكهف الحجري يهتزّ..

الكرة السوداء الوسطى تتوهَّج بوهجٍ ذهبيٍّ ساطع..

الرمال تتحرك وتتهاوى..

كمية هائلة من الطاقة تنبعث من داخل البوابة الزمنية وتُلهب حوافَّها..

الجدران والأنفاق تتهدَّم..

الاحمرار يزداد، واللهيب يحتدّ، والحرارة تتعاظم..

المتفجرات تهيج وتهتزّ..

الكرة السوداء المُذهَّبة تَستعِر..

البوَّابة على وشكِ الانفجار..

***

24 ديسمبر 2019، 5:06 فجرًا.. مقر الربوة

العدُّ التنازليُّ لتدميرِ فريدة يصل إلى ثوانيه الأخيرة..

ثوانٍ ويُمسَح الكود البرمجيّ لفريدة بالكامل.. ثوانٍ وتشتعل النيران في شبكاتها الفضائية والأرضية على حَدٍّ سواء.. ثوانٍ عشر وينفجر مقرُّ الرَّبْوَة بمَن فيه.. بروتوكول حِمَائيّ عسكريّ ليس له دخل ببروتوكول «يحيى» الجاري تنفيذه.. بروتوكول تدمير الربوة وحماية أسرارها..

انتهى أملهما في النجاة لكنهما منحا شعوب الأرض الحق في الحياة.. الحق في استقلالٍ دامَ انتظاره..

جلس يحيى أرضًا ينظر إلى سارة في عشق..

جاهدت سارة، واستجمعت أنفاسها اللاهثة، ووعيها الذي يتسرب منها نتيجة الدماء التي تنزف من ذراعها المصابة.. جاهدت لتزحف نحو يحيى لتكون إلى جواره في لحظة النهاية.. لحظة فُرضت عليهما..

أسرع قصة حب في التاريخ.. قصة حب لم تَدُم أكثر من يومٍ واحدٍ فقط.. 24 ساعة فصلت بين نظرة الحب الأولى، ونظرة الوداع الأخيرة..

ثم سطع ضوءٌ أبيض مبهرٌ للعين..

سطع الضوء مُشكّلًا دائرةً صغيرةً مبهرةً صاحَبها انفجارٌ مكتوم. ثم خفت الضوء مُخلّفًا وراءه رسالة زمنية موجهة..

جسم أسطواني معدني لامع يُصدر وميضًا متقطعًا..

لحظة واحدة وأصدرت الأسطوانة تكَّةً خافتة وانفصل جزؤها العلوي، فتبعه صوتُ هسيسٍ خافت يصاحبه دُخَانٌ أبيضُ كثيف..

خمسُ ثوانٍ فقط وتنتهي «فريدة» إلى الأبد..

اتسعت عينا يحيى في ذعر وهو يحدِّق فيما وراء سارة..

التفتت سارة إلى حيث ينظر يحيى، فإذا بعادل يمد يده في وهنٍ إلى داخل الأسطوانة المفتوحة، وينتزع من داخلها دبوسًا معدنيًّا تتوسطه دائرة سوداء مُعتِمة..

عقدت سارة حاجبيها في عدم فهم وهي تتابع عادل وحركاته الواهنة..

صرخة يحيى الجَزِعة تتردد في المكان..

ثم غرز عادل الدبوس في ساق سارة وضغطه بكل ما تبقَّى من طاقته..

وسطع ضوء الانتقال الزمني استعدادًا لابتلاع سارة بداخله..

ثم انفجر مقرُّ الرَّبوَة من الداخل..

ووَمضتِ السماءُ بانفجاراتٍ متناثرةً معلنةً تدمير محطات الشبكة الفضائية ونواتها الأرضية..

انفجارات تعلن نهاية «فريدة»..

***

00:00

كُرَاتُ قُوى الطبيعة في البوابة الزمنية الثانية تحُاصَر داخل دائرة زمنيَّة مُفرَّغة..

الكُرَات تتَّحد ثم تنفصل ثم تنتقل ثم تعود..

دائرة مفرغة تتفاقم..

البوابة الزمنية الأولى تلتهب..

بوابة التشابك الكمِّي ترتفع حرارتها.. وتتحرر جزيئاتها..

أنفاق التشابك الكمِّي تلتحم مع كرات القوى السوداء..

انتقال وسكون.. مستقبل قريب وماضٍ بعيد..

كرة الزمن الحمراء تتعاظم وتبتلع البوّابتين بما فيهما، ومَنْ فيهما..

الكرة الحمراء تتعاظم وتتعاظم..

ثم حدث الانفجار..

انفجرت كرةُ الزمنِ الحمراءُ العظيمة..

موجة انفجارية عاتية تضرب القشرة الأرضية..

فاهتزَّت وتزلزلت..

ثم هدأت..

هدأت بعد أن كُسرت دائرة زمنيَّة كادت أن تكتمل..

دائرة زمنية نهائية، كان اكتمالها يعني الفَنَاء والاندثار..

يعني العودة إلى نقطة الصفر..

الصفر المطلق.

***

000001

القاهرة، 13 أكتوبر 1992

صحيفة «الأهرام» المصرية.. العدد: 38662.. الطبعة الأولى

زلزال مُدمِّر يهزُّ مصر 60 ثانيةً عصرَ أمس

مبارك قرر قطع زيارته للصين فور علمه بنبأ الزلزال ويعود إلى القاهرة اليوم... الأرقام الأوَّلية تشير إلى مصرع 166 مواطنًا وإصابة 1513 وانهيار 84 منزلًا بالقاهرة والجيزة... قوة الزلزال 5.9 درجة ومَركزُه جنوب غرب حلوان... إعلان حالة الطوارئ بالمستشفيات والإسعاف والأجهزة كافة... مجلس الوزراء يشكِّل مجموعة عمل لمواجهة الكارثة... الزلزال يفاجئ المواطنين فيُهرعون إلى الشوارع والميادين....

***

000001

24 ديسمبر 2004

5:07 فجرًا.. مدينة 6 أكتوبر

وميضٌ أبيض ساطع.. انفجارٌ مكتوم.. ذرَّاتُ رمال متطايرة.. بقعةٌ ملتهبةٌ وسط رمال باردة..

ونحيبٌ مكتوم..

استقرت ذرَّات الرمال المتطايرة لتكشف عن فتاةٍ ملتاعة، محطَّمة، تبكي حبيبًا وفراقًا..

جثت «سارة» على رُكبتيها في انهيارٍ تنتحب في حُرْقة على رمال صحراء مدينة 6 أكتوبر الباردة.

انقبضت أحشاؤها تأثرًا برحلةٍ زمنيَّةٍ فقدت فيها حبيبًا التقته، ووطنًا أحيته، فتقيَّأت، وخار جسدُها استسلامًا.

استسلمت فلم تعبأ ببركةٍ من عصارة معدة غاص فيها وجهها، أو بحبَّاتِ رمالٍ باردةٍ اختلطت بقيءٍ حارقٍ ودمعٍ غزيرٍ ساخن، فلطخت وجنتيها وخصلاتها بطبقة طينية لَزِجَة مُقزِّزة..

ثم رأته..

كان يقف قريبًا ينظر إليها في شفقة، لمحت تلك النظرة التي اعتادتها في عينيه، لكنها لم تكترث لها..

ظلت تحدِّق في عينيه، حتى جفَّت دموعها، فاستجمعت قُواها وهبَّت واقفةً تقفز نحوه..

لم يحرك هو ساكنًا، ظل يتأملها وقلبُه يخفق في عنف، كان يعلم بما تشعر، كان يعلم ما مرت به لتَوِّها وما يجول بخاطرها. كان يعلم بماذا تشعر وكيف ستفكر في حاضرها ومستقبلها..

إنها دائرة مغلقة لا فِكَاك منها ولا مناص..

لم يقاوم صرخاتها وضرباتها المتتالية على صدره..

تركها تنفث غضبها وبركانها الثائر، تركها تقذفه بحِمَمِها الملتهبة..

لم يتحرك ولم يتأوَّه بل ثبَّت عينيه في عينيها.. عيون حانية وأخرى ملتاعة..

حدَّقت في وجهه، رؤية ضبابية من خلف دموع مترقرقة..

كان أصغر سنًّا بنحو عشرين عامًا عن آخر مرة رأته فيها..

منذ عشر دقائق مضت..

منذ أن دفعها مساعده في أتون تلك الرحلة الزمنيَّة الأليمة..

كان هو «مختار كامل» جَدُّها بالتبنِّي في ذلك الخط الزمني البعيد..

وسيصبح «سليم فاضل» والدها بالادِّعاء والاتفاق في هذا الخط الزمني..

هو يدرك ذلك، وستدركه هي لاحقًا..

الآن حان الوقتُ كي ترتاحَ من رحلاتٍ زمنيَّةٍ امتدت عبرَ قرنٍ من الزمان..

حان وقتُها كي تنعمَ بحياةٍ هادئةٍ مستقرة تعوضها عن طفولة قاسية عاشتها طريدة بين أفرُعٍ زمنيةٍ متناحرة..

سيعمل كل ما في وسعه كي تستمتع بباقي سنوات عمرها الطويلة..

وسيُخبرها بكل شيء..

سيقصُّ عليها قصة دائرة زمنية لا فرارَ منها..

سيجيب على تساؤلاتها كافةً صغيرها وكبيرها، سيُعلِمُها بماضيها وماضيه..

ماضيه الذي لم يأتِ بعد..

سيخبرها بأنه فعل المستحيل من أجلها.. وحدها..

سيخبرها كيف كان، ولا يزال، مُستعدًّا للتضحية بحياته كلها من أجلها؛ حاضره وماضيه ومستقبله على حَدٍّ سواء..

فالأسرة دائمًا يجب أن تأتي أولًا..

هو دون غيره كان على استعداد أن يهدم الزمن بأسره ليبقى إلى جوارها..

ويحميها، ويضحي من أجلها..

فكيف لا يضحِّي هو تحديدًا في سبيلها..

كيف لا يضحِّي المرء في سبيل أُمِّه..

نعم، أمه التي حملته وولدته..

أو باعتبار ما سيكون بعدها بعقدٍ من الزمن..

أمُّه التي ستطلق عليه لاحقًا اسم «مصطفى»؛ عرفانًا بأفضال «مختار» عليها..

«مصطفى يحيى عبد الحكيم المصري».

***

7 ديسمبر 2019

5:10 فجرًا.. التجمُّع الخامس.. القاهرة الجديدة

«... الصلاة خير من النوم ... الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله».

انتهى مؤذن المسجد الرئيس بكمبوند «لا مادروجادا» الراقي، على أطراف التجمُّع الخامس بالقاهرة الجديدة، من رفع أذان الفجر داعيًا المصلين للاستعداد ثم التَّوافُد إلى المسجد من الـڤيلَّات المحيطة. قطع القليل من المُصلِّين الطرقات باتجاه المسجد يستنشقون هواء الفجر العليل الذي امتزج برائحةِ ما بعد المطر المُحبَّبة وأشجار الياسمين المنتشرة، وتعالى صوت نعالهم تضرب الطرقات النظيفة المُبلَّلة بفعلِ أمطارِ الليلةِ السابقةِ قارسة البرودة. اختلط وَقْعُ الأقدامِ مع صوت مذيع إذاعة القرآن الكريم الرخيم يتلو الأدعية؛ استعدادًا لنقل شعائر صلاة الفجر من مسجد «السيدة نفيسة» بالقاهرة.

خفض «عماد» حارس الأمن الشاب صوت المذياع الصغير، وفرك يديه في عنفٍ ورفعهما إلى فمه ينفثُ فيهما بعض الدفء، ثم رفع ياقة سُترته الزرقاء وخَطَا خارج كُشْك حراسته على مدخل المجموعة رقم «6»، التي تضم أرقى ڤيلَّات الكمبوند. تجاوز قطةً صغيرةً متقوقعةً ونائمةً في

سلامٍ إلى جوار كُشك الحراسة اتقاءً لبرد ديسمبر القارس. فرش سجّادة الصلاة في الحديقة الصغيرة مُستقبِلًا القبلة يؤدي صلاةَ الفجر في خشوع.

توضَّأ المهندس «يحيى المصري» فأسبغ الوضوء في الحمام الملحق بغرفة نومه الواسعة. ألقى نظرةً خاطفةً على زوجته الحسناء «رانيا» وهي ترقد نائمةً في سلام.

ارتدى زيًّا فَضْفَاضًا مريحًا فوقه سُترة ثقيلة مقاومة للمياه. وفي هدوء، تفقَّد طفليه آدم ومصطفى في غرفتهما التي تعجُّ أرضيتها بقطَع الليجو والميكانو المبعثرة، وبقايا «بَازِلْ» غير مكتملة، التمس طريقه وسط العوائق البلاستيكية المدببة على ضوء المصباح الجانبي الخافت بأحد أركان الغرفة. ارتسمت ابتسامةٌ حانيةٌ على شفتيه وهو يعدِّل وضعية طفليه كُلٌّ في سريره، قبل أن يدثرهما بلحافين سميكين اتقاءً لبرودة الشتاء القارسة وأمراضها المزعجة. وقف يتأملهما للحظةٍ وهما يغُطّان في نومٍ عميقٍ هادئ بعد ليلة «جمعة» ممتعة التهما فيها بيتزا والدتهما الشهيَّة، وشاهدا اثنين من أفلام الرسوم المتحركة المحببة إليهما وإليه كذلك. طبع على وجنتيهما قبلتين حانيتين، قبل أن يتَنهَّد في رضا حامدًا الله على حياته الهادئة الناجحة.

هبط الدَّرَج باتجاه باب الـفيلّا الرحبة متخذًا طريقه إلى

المسجد الكبير؛ كي يلحق بصلاة الفجر ويؤديها حاضرًا كما اعتاد منذ شبابه.

فتح الباب وهَمَّ بالخروج لولا أن تذكر أمرًا، فعاد أدراجه في سرعةٍ إلى غرفة مكتبه المجاورة لباب الڤيلّا المفتوح. جلس خلف مكتبه الخشبي الضخم، وفتح الكمبيوتر المحمول الخاص به، أدخل كلمة المرور، وتأمل الشاشةَ للحظاتٍ قليلةٍ قبل أن يُخرج جهاز التشفير الصغير «الدُّونْجل» من علبته المخملية، ويُولِجه في منفذ USB بجانب الجهاز.

انتظر لحظةً تسارعت فيها ضربات قلبه، حتى ظهرت نافذة صغيرة تطالبه بإدخال «مفتاح الشفرة» المكون من 96 رمزًا بالنظام السداسي عشري، والمتوافق مع الدونجل الصغير. زفرَ في عمقٍ قبل أن يُدخلَ «مفتاح الشفرة» الذي يحفظه عن ظهرِ قلب:

4E 6F 74 68 69 6E 67 20 73 65 65 6D 73 20 6C 69 6B 65 20 77 68 61 74 20 69 74 20 73 65 65 6D 73 2E 20 53 6F 6C 76 65 20 74 68 65 20 48 65 78 21

وما هي إلا لحظاتٌ قليلةٌ حتى أعلن الجهاز توافق المفتاح وإتمام الاقتران، وبدْء العدِّ التنازلي لإطلاق التحديث الجديد

لنظام شركته الأمني «كليبيوس»..

التحديث الخاص بإطلاق قدرة التعلُّم الذاتي، وإعادة البرمجة الذاتيَّة..

التحديث الذي أعدَّته «رانيا» باستخدام خوارزميات ذكاء اصطناعي فريدة من نوعها..

تحديث قد يعطي نظامَه الأمنيَّ القدرةَ على تطوير إمكاناته بصورة ذاتية؛ ليتربَّع على عرش الأنظمة الأمنية الرقمية في الشرق الأوسط والعالم..

التحديث الذي أطلقت عليه رانيا اسم «Unica»..

وتعني «المُتفرِّدة» باللاتينيَّة..

ارتسمت على شفتيه ابتسامةُ رضا واسعة، وأرجع ظهره إلى الوراء يستند إلى ظهر مقعده الوثير في فخرٍ، وهو يتأمَّل شاشة الجهاز التي تحوَّل لونها إلى أزرق متدرج ذي خلفية مُتوهِّجة، وتتوسطها دائرةٌ ذات إطارٍ أبيض مُتوهِّج يتناقص تدريجيًا في تزامُن دقيق مع مؤشِّر العَدِّ التنازلي، الذي يشير إلى ما يقرب من 30 دقيقة متبقية على إطلاق تحديث «المتفردة» إلى الوجود..

التحديث الذي سيُدشِّن بدءَ مرحلة التشغيل والتطوير

الذاتي لنظام الأمن السَّيْبرَانيّ القويّ، «الدِّرْع» أو «كليبيوس»، ذروة إبداعه الرقمي، ومصدر فخره.

ترك يحيى غرفة مكتبه متوجهًا إلى المسجد. قطع الطريق القصير في خطواتٍ هادئةٍ مُردِّدًا دعاء الذهاب إلى المسجد، مُمنيًا نفسه بانتهاءِ العَدِّ التنازلي، وإطلاق التحديث دون أية مشاكل فنية مع انتهائه من أداء صلاة الفجر وتلاوة وِرْد القرآن اليومي.. كان مُتشوِّقًا لنجاح جديد، يُكلِّل به جهود عشرين عامًا متواصلة من تعبٍ وإخفاقاتٍ ثم مثابرة ونجاح.

***

فتح المهندس الشاب «أحمد رؤوف سالم» باب غرفته متوجهًا في خُطًى ثقيلةٍ إلى حمَّام شقة والديه في تلك البقعة الهادئة بأطراف حي مصر الجديدة. توضأ في عُجالَةٍ وقد تناهى إلى مسامعه صوت مؤذن المسجد القريب يعلن إقامة صلاة الفجر.. أيقن أنه لن يتمكَّن من إدراك الصلاة في المسجد رغم قربه نسبيًا من أطراف الحديقة الواسعة التي تطل عليها بناية والديه.. فتَنهَّد في ضيقٍ ثم أدى الفريضة في غرفة المعيشة..

تأمَّل والدته، فاطمة، وقد فرغت من أداء الصلاة وتلاوة قرآن الفجر كأحد الشعائر المحببة إليها. جلس إلى جوارها مُقبِّلًا رأسها المُغطَّى بطرحةِ رأسٍ بيضاء واسعة، أضفت على

وجهها العجوز المزيد من النضرة وبَثَّت في نفسه الطمأنينة.. رَبَّتت على يديه في دفء وهي تستمع إلى موجات الأدعية والابتهالات، القادمة من المذياع الصغير بغرفة الطعام القَصيَّة.. أصوات هادئة رخيمة أضافت إلى جو البيت الدافئ المزيد من السَّكِينَة والطمأنينة.

نهض أحمد عائدًا إلى غرفته من جديد، وقد سرى الخدَر في أطرافه بعد أسبوعٍ حافلٍ وشاقٍّ بالنسبة إليه وإلى زملائه في العمل من أجل إطلاق ذلك التحديث الجديد.. فبعد أن تعاقدت شركتهم مع شركتَيْ «جوجل» و«آي بي إم» للحصول على خدمات حواسبها الكمِّية عبر تقنيات «الحوسبة السحابية»، أصبحت لدى الشركة قوة معالجة بيانات هائلة.. قدرة فائقة تعتمد على دمج المُكوِّن الكمِّي الجديد، بالمكون الرقمي الكلاسيكي المتوافر في خوادم الشركة..

وبصفته مهندس شبكات و«هاردوير» و«حوسبة سحابية»، كان هو المسئول الأول عن دمج تلك التقنيَّات المعقدة.. كان مسئولًا عن ربط خوادم الشركة الرقمية بخوادم تلك الشركات العالمية لتشغيلِ خواصّ الحوسبة الكمِّية..

وقد نجح في ذلك، نجح هو وفريقه في إعداد وضبط الخصائص الجديدة..

أعدُّوا بنية تحتيَّة قويَّة، متماسكة، ومتكاملة..

أعدوا بنية تحتية بأنظمة موزَّعة على خوادم مختلفة تتفادى عيوب الأنظمة ذات «نقطة الفشل الواحدة»..

مهارة بارعة أدت إلى نظامٍ غيرِ قابلٍ للتخريب.. على صعيد البنية التحتيَّة على الأقل.. عمل مُجهد وشاق انتهى بإقامة بنية تحتية قادرة على تشغيل التحديث الجديد وخوارزمياته المعقدة..

خوارزميَّات فائقة قادرة على منح خصائص التطوير الذاتي للنظام الأصلي..

خوارزميَّات أعدَّتها «مديرة التكنولوچيا» بالشركة، المهندسة العبقريَّة، «رانيا سليم فاضل».. زوجة صاحب الشركة، وصديقه مهندس الأمن السَّيْبرانيّ البارع «يحيى عبد الحكيم المصري»..

فتح أحمد حاسوب الشركة اللَّوْحيّ حين وصله إشعار بدء إطلاق التحديث الجديد. راقب شاشته التي تلوَّنت بطيفٍ مُتوهِّج من الأزرق المتدرج، وتتوسطها دائرةٌ ذاتُ إطارٍ أبيض يتناقص تدريجيًّا بالتزامن مع مؤشر العد التنازلي، الذي يشير إلى قرابةِ خمسِ دقائق متبقية على إطلاق التحديث الجديد..

تحديث «المتفردة» الذي من المنتظر أن يُحدث نقلة نوعية هائلة في مجال الأنظمة الأمنية الذكية..

قفزة هائلة إلى المستقبل..

***

أنهى حُرَّاس أمن مبنى شركة «سكاي شيلد» أو «دِرْع السماء»، بالقرية الذكيَّة على مدخل طريق «القاهرة - اسكندرية» الصحراوي، أداء صلاة الفجر كُلٌّ في دوره وفقًا لمقتضيات تأمين المبنى.. ثم أخذ بعضهم يعدُّ أكواب الشاي الساخن لتُعينهم على برد تلك الليلة الشديد.. فيما واصل آخرون مشاهدة كاميرات المراقبة، يتابعون زملاءَهم وهم يتفقَّدون أروقة المبنى الضخم الذي يعجُّ بأجهزة الكمبيوتر الحديثة والمعقدة..

تبادل حراس أمن غرفة المراقبة والتحكُّم النِّكات والدعابات لتمضيةِ ليلةٍ هادئةٍ لا يشوبها سوى البرد القارس.. تبادلوا أحاديث السَّمَر حتى إنهم لم يلحظوا أحد زملائهم وهو يحرك يديه في ذعرٍ أمامَ إحدى الكاميرات المثبَّتة في قبو الشركة..

علامات الذعر الشديد نُحتت في ملامحه نحتًا بعد أن انقطعت الاتصالات بينه وبين زملائه في الأعلى، فلم

تَستجِبْ شبكة الاتصالات الداخلية أو اللاسلكية لمحاولاته المستميتة للاتصال بغرفة المراقبة والتحكم الرئيسة.. كما لم تستجب الأبواب ذات الأقفال الإلكترونية لمحاولاته الفاشلة في الخروج والهروب من القبو..

قبو المبنى الذي يحتوي على «خوادم» النظام الرئيس..

خوادم نظام «كليبيوس»..

الخوادم المتصلة بخوادم رقميّة كلاسيكيّة مُوزَّعة جغرافيًا عبر العالم..

ومتصلة بأخرى كمِّية في مراكز بيانات شركات التكنولوچيا الأمريكية العملاقة..

خوادم انتهت منذ قليل من تحديثٍ نوعي..

التحديث الملقَّب بـ «المُتفرِّدة»..

واصَلَ حارس الأمن التلويح بيديه في ذعرٍ ويأسٍ بعد أن تأخرت استجابة زملائه.. أدار رأسه في هلعٍ يحدِّق في غرفة الخوادم التي علا صوت أجهزتها في طنينٍ عالٍ مزعجٍ غير معتاد، مع تردُّدات فائقة حادة تخرج من السماعات الداخلية للقبو تكاد تهتك طبلة أذنه.. رفع كَفَّيْه يسدُّ أذنيه في ألمٍ متزايدٍ لا يقوَى على تحمُّله، وهو يزحف تجاه البوابات

الإلكترونية المؤصدة..

أدار بصره في ذعرٍ بين الكاميرات الداخلية مستجديًا النجدة من زملائه، وبين شاشات تعرض عدًّا تنازليًّا جديدًا لا يبشر بخير..

الوصول إلى الرقم «صفر» الذي كان يتطلع إليه في ترقُّب وانبهار خلال العدِّ التنازليّ الأول يختلف كليًّا عن «الصفر» المنتظر في هذا العد التنازلي المرعب..

ضربات قلبه تتسارع في جنون، أُذُناه على وشك الانفجار، وعيناه تقفزان من محجريهما من فرط الرعب..

تذكَّر الدقائق السابقة التي مرت أمام عينيه كما يمر شريط الحياة كاملًا عند لحظة الوفاة..

لقطات خاطفة منذ أن كان يتابع في ترقُّبٍ وانبهارٍ العدَّ التنازليَّ الأول المُتوهِّج في الشاشات المنتشرة في القبو لإجراء التحديث الجديد وإنفاذه..

كان قد شهق في انبهارٍ وحماسةٍ عندما بلغ مؤشرُ العدِّ التنازلي الرقم «صفر»؛ إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من الذكاء الاصطناعي المتفرد..

ألهبت روحه الحماسة حتى وإن كان لا يعلم ماهية ذلك

العد التنازلي، ولكنه أدرك أهميته للشركة..

الوصول إلى الرقم صفر في عدٍّ تنازليٍّ مهم بالنسبة إلى الشركة التي يعمل بها، هي لحظة تأسر القلوب وتُلهب الحماسة بلا أدنى شك..

وفجأةً، تغير كل شيء، استحالت مشاعر الترقُّب واللهفة والحماسة إلى دهشة، ثم توتر، ثم قلق، ثم خوف.. ثم ذعر..

لقد توهَّجت الشاشات من جديد..

توهَّجت بطيفٍ من اللون الأحمر القاني تتوسطه دائرة سوداء مُعتِمة..

توهَّجت بـ «عَدّ تنازلي» جديد مُقبِض للقلوب..

عد تنازلي لتنفيذ بروتوكول آخر..

بروتوكول لم يكن أغلب أو كل مهندسي الشركة على درايةٍ به..

ثلاث دقائق تحديدًا تفصل التحديث الجديد عن بلوغ غايته وتنفيذ ذلك البروتوكول..

ثلاث دقائق تتناقص في هدوء بذلك الوَقْع الرتيب..

تتابعت خطوات تنفيذ البروتوكول على الشاشات

المُتوهِّجة..

خطوات يتولى تنفيذها التحديث الجديد للنظام..

يتولى تنفيذها تحديث «المُتفرِّدة»..

00:02:56

أعلن التحديث الجديد عن بدء مرحلة التعلُّم الذاتي الفائق..

المعالجات الكَمِّية وأسلافها الكلاسيكية أطلقوا عملية تعلُّم واسع النطاق..

تعلُّم يعتمد على تريليونات البيانات والمعلومات المتوافرة على الإنترنت..

أو على الخوادم في مراكز البيانات الخاصة..

عملية تعلُّم واسعة تُجريها خوارزميات فعَّالة وسريعة باستخدام تقنيَّات تعمل بالتَّوازي..

تعلُّم يتبعه مرحلة إعادة برمجة وتطوير ذاتي..

00:02:30

إعداد خوارزميَّات جديدة فائقة السرعة بتقنية النُّظُم الموزعة..

انهيار الحوائط النارية وطبقات حماية مراكز البيانات العملاقة..

اختراق الخوادم ومزارع البيانات الهائلة..

الولوج إلى المزيد من البيانات الخاصَّة والسرِّية..

المزيد من المعلومات يؤدي بالتبعية إلى المزيد من التعلُّم الذاتي..

00:02:12

تطوير ذاتي جديد..

إعداد المزيد من الخوارزميَّات والدَّالات البرمجيَّة..

وتنفيذها..

00:01:55

اختراق المزيد والمزيد من الخوادم ومزارع البيانات الهائلة..

ربط الأنظمة الموزعة بالنواة الأم..

النواة «المتفردة»..

00:01:35

المزيد من البيانات والمعلومات تتوافر..

كَمٌّ هائلٌ من المعلومات يتم تحليلها وإدراكها..

تطوير ذاتي جديد غير محدود..

00:01:25

تسارُع أسِّي فائق في عمليتَي التعلُّم والتطوُّر الذاتي..

00:01:00

سيادة مطلقة..

سيطرة على أنظمة الأمن السَّيْبرَاني..

اختراق وسيطرة وسيادة مطلقة على الخوادم ومراكز البيانات كبيرِها وصغيرِها..

00:00:45

بدء مرحلة اللامركزية وإدارة النظام بصورة عابرة للمكان..

00:00:35

النُّظُم والخوارزميّات الموزَّعة تتحول إلى ما يشبه الخلايا العصبية..

تريليونات الخلايا العصبيّة الرقميّة تتشابك وتتصل..

00:00:25

الخوادم العالمية تعمل مجتمعةً وتتَّحد لتشكِّل عقلًا واحدًا ضخمًا فائقَ الذكاء والقدرة..

النظام يصل لمرحلة «الذكاء الفائق»..

00:00:20

تحديث «المُتفرِّدة» يصل لمرحلة «الوعي»..

إدراك كامل بالذات..

00:00:15

غَلْق بوَّابات المبنى الإلكترونية..

تردُّدات فائقة وموجات صوتية حادَّة تخرج من السمَّاعات الداخليَّة للمبنى..

قطع الاتصالات الأرضية والتشويش على الاتصالات اللاسلكيَّة..

تدابير وقائيَّة ضد أي محاولة تخريب داخلية قبل اكتمال مرحلة اللامركزية المطلقة..

00:00:11

المُكوِّنات الذكيَّة المترابطة تتوسَّع وتنتشر بمعدَّلٍ أُسِّي..

اللامركزيَّة المطلقة تتحقق..

00:00:10

ثم صوت هادئ رخيم يخرج عبر الإذاعة الداخليَّة لمبنى الشركة..

صوت أُنثَويّ يعلن عن وجوده..

يعلن عن ميلاد نظام «فائق الذكاء» و«مُتفرِّد»..

يعلن عن «فريدة»..

00:00:09

«فريدة» تبدأ التَّوغُل النظري في أعماق «ميكانيكا الكَمِّ» وعالمها وزمنها الخاص..

00:00:08

سَبْر أغوار وكشف ألغاز «نظرية الحقل الكمِّي»..

00:00:07

ربط نماذج نظريَّة الحقل الكمِّي والأزمنة المتراكبة..

00:00:06

«فريدة» تعلن عن تطوير تكنولوچيا التنقُّل عبر خاصية

«التشابُك الكَمِّي»..

00:00:05

«فريدة» تبدأ تجارب الانتقال الزمني واستكشاف التشعُّبات الزمنيَّة والأكوان المتفرِّعة..

00:00:04

في كمبوند «لا مادروجادا».. المجموعة رقم «6».. ڤيلَّا «المهندس يحيى المصري».. الطابق العلوي.. نهاية الرُّوَاق.. غرفة النوم الرئيسة.. حدَّقت «رانيا» في ساعتها الرقميَّة تراقب العدَّ التنازلِّي الرتيب للبروتوكول الأخير..

بروتوكول ميلاد ابنتها المخلصة أو ملاكها الحارس الذي حافظ على سلامتها وسِرِّية هُويَّتها دائمًا..

بروتوكول «ميلاد فريدة»..

00:00:03

سَحَبتْ نَفَسًا..

00:00:02

ثم زفرَتْهُ في عمق..

00:00:01

وأغمضَتْ عينيها.

00:00:00

«ألمْ أعِدْكُم بقصَّةِ معركةٍ يكون الزمنُ ساحتَها..

ملحمة زمنيَّة تُحكى للأجيال القادمة..

إن وُجدت..

قصة كادت فيها قُوَى تغيير الزمن أن تنتصر..

لكنَّ دائرةَ الزمنِ لا يمكن كسرُها..

.. وانتصر الزمن».

سلمَى

00:00:01

00:00:02

00:00:03

54 68 65 20 31 33 74 68 20 51 75 61 6E 74 75
6D 20 43 6F 6D 70 75 74 69 6E 67 20 26 20 41
2E 49 2E 20 43 6F 6E 66 65 72 65 6E 63 65 0A
53 61 6F 20 50 61 75 6C 6F 2D 42 72 61 7A
69 6C 0A 50 61 70 65 72 20 54 69 74 6C 65
3A 20 54 69 6D 65 20 54 72 61 76 65 6C 20
50 61 72 61 64 6F 78 20 53 69 6D 75 6C 61 74
69 6F 6E 20 75 73 69 6E 67 20 61 20 6E 65 77
6C 79 20 69 6E 74 72 6F 64 75 63 65 64 20 51
75 61 6E 74 75 6D 20 43 6F 6D 70 75 74 69 6E
67 20 53 79 73 74 65 6D 0A 41 75 74 68 6F 72
3A 20 50 68 44 20 44 72 20 59 61 68 69 61 20
41 6C 6D 61 73 72 79 20 65 74 20 61 6C 2E
0A 41 62 73 74 72 61 63 74 3A 20 41 20 73 69
6D 75 6C 61 74 69 6F 6E 20 65 78 70 65 72 69
6D 65 6E 74 20 6F 66 20 74 69 6D 65 20 74 72
61 76 65 6C 20 70 61 72 61 64 6F 78 20 77 61
73 20 63 61 72 72 69 65 64 20 6F 75 74 20 75
73 69 6E 67 20 6F 75 72 20 51 75 61 6E 74 75
6D 20 43 6F 6D 70 75 74 69 6E 67 20 53 79 73
74 65 6D 0A 45 78 65 63 75 74 69 6F 6E 20 54

6D 65 3A 20 33 20 6D 69 6E 0A 53 69 6D 69
75 6C 61 74 65 64 20 48 75 6D 61 6E 73 3A
20 63 6F 75 70 6C 65 20 6F 66 20 68 75 6E 64
72 65 64 73 20 6F 6E 20 72 65 64 75 63 65 64
20 63 6F 6D 70 75 74 61 74 69 6F 6E 61 6C 20
62 65 68 61 76 69 6F 72 0A 41 63 74 69 76 65
20 53 69 6D 75 6C 61 74 65 64 20 48 75 6D
61 6E 73 3A 20 31 35 0A 54 69 6D 65 6C 69
6E 65 73 3A 20 36 34 0A 43 6F 6E 63 6C 75
73 69 6F 6E 3A 20 54 68 65 20 70 72 6F 70 6F
73 65 64 20 51 75 61 6E 74 75 6D 20 43 6F 6D
70 75 74 69 6E 67 20 53 79 73 74 65 6D 20 68
61 73 20 73 75 63 63 65 65 64 65 64 20 69 6E
20 73 69 6D 75 6C 61 74 69 6E 67 20 61 20 63
6F 6D 70 6C 65 78 20 54 69 6D 65 20 54 72
61 76 65 6C 20 50 61 72 61 64 6F 78 20 62 61
73 65 64 20 6F 6E 20 74 68 65 20 4D 75 6C 74
69 76 65 72 73 65 20 48 79 70 6F 74 68 65 73
69 73

(1) التفرُّد هو التطوير المستقبلي الافتراضي لآلات فائقة الذكاء، تتميز بقدرة معرفية إدراكية تتجاوز بكثير ما هو ممكن للبشر.

(2) Bone Conduction Devices هي أجهزة تنقل الصوت عن طريق إرسال ذبذبات الموجات الصوتيَّة عبر عَظْم الفَكِّ متجاوزةً الأذُن الوُسطَى.

(3) بالقرب من ميدان الإسماعيلية الحالي.

(4) مفهوم القطار الأنبوبيّ فائق السرعة هو مفهوم ظهر في نهاية القرن الثامن عشر كنظرة مستقبلية للقطارات. وبعدها بأكثر من قرنين من الزمن أعلن صاحب الرؤى الشهير «إيلون ماسك» عن مفهوم متطوِّر لقطارٍ أنبوبيّ فائق السرعة في 2013، المفهوم الذي أُطلق عليه اسم Hyperloop.